من أكثر الكتب مبيعاً

الصين شركة عملاقة

CHINA, INC.

كيف يتحدَّى ظهور القُوة العظمى القادمة كلاً من أمريكا والعالم

How The Rise of NEXT SUPERPOWER Challenges American and The World

تِدْ سي. فِشْمَن

Ted C. FISHIMAN

زين العابدين

مجلة الإبتسامة

تعريب

هالة النابلسي

حَرَّر النصّ وراجعه

مُجير ماجد العُمَري

العبيكان

Obeikan

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

MOHAMMED BIN RASHID AL MAKTOUM FOUNDATION

http://www.ibtesama.com/vb

الصين شركة عملاقة

كيفَ يَتَحَدّى ظُهورُ القُوّةِ العُظمى القادمَة كلاً من أمريكا والعالم؟

تِدْ سي. فشْمَن

نقلته إلى العربية

هالة النابلسي

حَرَّر النصَّ

مُجير ماجد العُمَري

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID AL MAKTOUM FOUNDATION

العبيكان Obeikan

http://www.ibtesama.com/vb

http://www.ibtesama.com/vb

Original Title

China, Inc.

How the Rise of the Next Superpower Challenges America and the World

Ted C. Fishman

Copyright © 2005, 2006 by Ted C Fishman

ISBN-13: 978-0-7432-5735-0
ISBN-10: 0-7432-5735-9

All rights reserved. Authorized translation from the English language edition
Published by: SCRIBNER, A Division of Simon & Schuster, Inc. 1230 Avenue of the Americas, New York, NY 10020 (U.S.A.)

حقوق الطبعة العربية محفوظة لدار الحوار الثقافي بالتعاقد مع سكريبنر، نيويورك، الولايات المتحدة.

ISBN 7 - 468 - 54 -9960-978

الطبعة العربية الأولى 1430هـ ـ 2009م

طبعة خاصة بـ شركة العبيكان Obeikan تم الاتفاق عليها مع مالك حقوق الطبعة العربية

المملكة العربية السعودية – شارع العليا العام – جنوب برج المملكة – عمارة الموسى للمكاتب.
هاتف: ٢٩٣٧٥٧٤/ ٢٩٣٧٥٨١، فاكس: ٢٩٣٧٥٨٨ ص.ب: 67622 الرياض 11517

ⓒ مكتبة العبيكان، 1429هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

فشمن، تدمي

الصين شركة عملاقة. / تدمي فشمن؛ هالة النابلسي. – الرياض 1429هـ

348 ص؛ 16,5×24 سم

ردمك: 7 - 468 - 54 - 9960 - 978

1 ـ الصين – الأحوال الاقتصادية　　2– الصين – السياسة الاقتصادية

أ. النابلسي، هالة (مترجم)　　ب. العنوان

ديوي: 330,951　　رقم الإيداع: 1429 / 1591

صدرت هذه الطبعة باتفاقية نشر خاصة بين العبيكان Obeikan ومؤسسة MOHAMMED BIN RASHID AL MAKTOUM FOUNDATION

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن وجهة نظر المؤلف وليس بالضرورة عن رأي المؤسسة؟

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان Obeikan

المملكة العربية السعودية – العليا – تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة
هاتف: 4160018 / 4654424 – فاكس: 4650129 ص.ب: 62807 الرياض 11595

جميع الحقوق محفوظة للناشر. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

http://www.ibtesama.com/vb

بسم الله الرحمن الرحيم

http://www.ibtesama.com/vb

http://www.ibtesama.com/vb

إهداء

إلى أسرتي

http://www.ibtesama.com/vb

http://www.ibtesama.com/vb

فهرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة
إهداء	5
مقدمـة: العالم يتقلص والصين تَنمو	9
الفصل الأول: مَرْكَبٌ بَطيءٌ في صينٍ سريعَة	31
الفصل الثاني: الثَّورة على الثَّوْرة الشيوعيَّة	53
الفصل الثالث: عليك أَن تَخْرِقَ القانون قَبل أَن تَصْنَع 16 بليون جوربا	73
الفصل الرابع: لقاء مع جورج جِتْسُن George Jetson في بكين	101
الفصل الخامس: الزعيمُ ماو يَبِيعُ الحساء	159
الفصل السادس: خلال المرآة	177
الفصل السابع: السعر الصيني	229
الفصل الثامن: كيف يكون السِّباقُ إلى القَاعِ سِباقاً إِلى القِمَّة؟........	262
الفصل التاسع: أُمَّةُ القَراصِنَة	299
الفصل العاشر: الاقتصاد الصيني - الأمريكي	329
الفصل الحادي عشر: القَرْنُ الصِّيْني	351
الفصل الثاني عشر: قِصَّة أَخِيرَة	383

http://www.ibtesama.com/vb

http://www.ibtesama.com/vb

مُقَدِّمَة

العالم يَتَقَلّص والصينُ تَنمو

توجَدُ الصينُ في كل مكان في هذه الأيام. يُغذيها اقتصاد كبير هو الأسرع نمواً في العالم، ويؤثر في حياتنا، مستهلكين، وموظفين، ومواطنين. وغَدَت عبارةُ «صُنِعَ في الصين» متداولة في كل العالم، مثل المال: فالبلاد تخيط ثياباً وتصنع أحذيةً وتجمع ألعاباً لأطفال العالم أكثر من أي بلد آخر. أما إذا ارتقينا السُلَّم التكنولوجي، فإننا نجد الصين قد صارت أكبر مصنع للأجهزة الإلكترونية الاستهلاكية، تضخ في أسواق العالم كمية من أجهزة تلفزيون، وأجهزة دي في دي DVD، وهواتف جوالة أكبر من أي بلد آخر. والصين ما تزال ماضية في صُعودٍ وتنتقل بسرعة وكفاءة نحو الصناعات التكنولوجية الحيوية والكومبيوتر. ولم يسبق لأي بلد أن قطع خطوات التنمية الإقتصادية دفعة واحدة بهذه المهارة. وليس ثمَّة بلد في العالم يتقن اللعبة الاقتصادية أكثر من الصين. ولم يَهزّ بلدٌ هَرَمَ الاقتصاد العالمي كما هَزَّته الصين.

ويُدركُ المُتَتَبِّعُ العادي للأخبار أن ثَمَّة أمراً عظيماً يلوح في أُفُق الصين. فالبلد يَصْنَع قطعاً لطائرات بوينغ 757 ويكتشف الفضاء بصواريخ صنعتها الصين. وفي الصين توجد بين 100 إلى 160 مدينة حاوز عددُ سكانها مليون نسمة (بينما لا يتجاوز العدد في أمريكا تسع مدن، وفي أوروبا الشرقية والغربية مجتمعتين 36 مدينة). وتشتري الصين الآن حقول النِّفط في أنحاء العالم، وتُوَقِّع اتفاقيات شاملة لتوريد النِّفط والغاز مع شركات سعودية وروسية. وتشتري الصين (خردة) حديد العالم، وكميات هائلة من الفولاذ، لتُحَوِّلها إلى منتجات تباع في مختلف أصقاع العالم. ويُعِدُّ البلدُ نَفْسَه بِدأبٍ دون كلَلٍ ولا تَوَقُّف لمستوى أعلى

http://www.ibtesama.com/vb

من التصنيع. ويُصَدِّر أجهزة كومبيوتر تحمل علامات تجارية صينية. وتشهد الصين اليوم تدفقاً هائلاً لرؤوس الأموال الصناعية. فهناك يستثمر العالم ماله. وتمد الصين أسلاك الألياف الضوئية [في شبكة اتصالاتها] سِراعاً. وقد عَمِلَت الصين بِعَزْم وشدة معاناة إلى حد بعيد لكي تتخطى وتقفز من الاقتصاد الزراعي إلى دولة صناعية متقدمة في ظل ماو تْسي تونج Mao Zedong، وهي الآن تقفز فوق كثير من تكنولوجيات الدول الصناعية الناضجة. فنظامها الهاتفي لاسلكي في معظمه وبعضه فقط سلكي، وكثير من مدنها الكبرى ستنعم قريباً بأعظم أنظمة النقل السريع تطوراً في العالم. وإليكم هاتين المقارنتين، وكلاهما واقع حقاً: تشرب الصين الحليب هذه الأيام. وإن أطول لاعب وسط في رابطة كرة السلة، ياو مينج Yao Ming، صيني.

لقد كان صعباً، فيما مضى من الأيام، إطعام ذلك العدد الهائل من سكان الصين وتشغيلهم. أما الآن، فلابد من النظر إلى خمس البشر [سكان الصين] نظرة جديدة مختلفة: فهم أكبر سوق عرفه العالم، وزبائن سيتي بانك Citibank، وديزنيDisney، ونوكيا Nokia، وجي إي GE [جنرال إلكتريك]، ومايكروسوفت Microsoft. وكأنهم الجزء الرئيس الحاسم في النظام القادم.

وإنك وإن لم تكن ممن يقرؤون الصفحات الاقتصادية، سترى أثر الطفرة الاقتصادية الصينية يَضرِبُ بكل السُبُل الظاهرة والخفِيَّة التي يمكن أن نشهدها في واقعنا اليومي:

- إنك إن أبديت اهتماماً بالصين لصديق من أصدقائك القدامى يملك مصنعاً للعدد الصناعية تَجِده يقر بأن مصنعه، الذي أسسه أبوه فأعطى حياة هنيئة لثلاثة أجيال من أسرته وقدم أجوراً جيدة لمئات العمال، «يقتله أولئك الأشخاص [في الصين]».
- وإن تحدثت مع سَبَّاك العائلة، تجده يشكو من قضاء يومه في استبدال قطع صينية مكسورة، ثم يخرج من حقيبته قطعة غيار صينية ويقول إنها أفضل،

http://www.ibtesama.com/vb

ويضيف خجلاً: «لقد صاروا الآن أحســن حالاً، وهذا ما يمكننا أن نحصل عليه اليوم دون أن ننفق كثيراً من المال».

- وإن صادفــت أمَّ أحد زملاء ابنتك في المدرســة الثانوية، وكنت تلقاها في الســنوات الماضيــة في حفلات أيــام العطل حيث تعــزف ابنتاك على آلة الفيــولا. فقد هاجرت الأم إلى الولايات المتحدة من الصين ســنة 1995م لِتَـدرس الفيزياء الســاكنة، وهي الآن باحثة في كلية طــب محلية. تقول: إنهــا عائدة إلى الصين لتتابع هناك تجارة لصديق يعمل على تطوير برامج لآلات تصوير بالرنين المغناطيســي MRI وســواها من أجهزة طبية عالية التكنولوجيــة. وإن ســألتها عن أبحاثها في المستشــفى؟ تقول: إن الفرص اليوم في الصين أعظم من أن تُفَوَّت، ولا تريد أن تندم فيما بعد.
- وإن ذكــرت هذه القصة لصديق آخر، باحث له شــهرة عالمية ويَدْرُس حياة الخلايا، فســوف يقول لــك إن أقســام البرامج الحيوية فــي الجامعات الأمريكيــة تعمل الآن، فــي جوهرها، لتنقل المعرفة من شــيوخ اليهود إلى نساء الصين الشابات.
- وإن عبرت الشــارع إلى مخزن يفتح طوال الليل تملكه أســرة من المهاجرين الفلســطينيين، فتجد وراء النُّضُد، حيث كانت تعرض الســجائر، عشرات القطع المتممة لأجهزة الهاتف الجوال بِسِمات تجاريةٍ مختلفة – من بطاريات، ومآخذ للسيارة، وسماعات، وعلب – ليس فيها ما يتجاوز ثمنه 12 دولاراً. وترى الإقبال على الشراء منها كبيراً، كما يقول موظف الصندوق.
- وإن لقيت أحد أصدقاء المدرسة الثانوية المتميزين الذي كان يستعمل نظارة طبية ســميكة، تجد أنفه لا تعلوه نظارة الآن. ويُدَرِّس الآن اللغة الإنجليزية في مدرســة كبيرة لتعليم اللغات في شنغهاي، وقد عاد إلى الوطن يتباهى بنتيجة العملية الجراحية التــي أجريت لعينيه بالليزر لقاء 600 دولار في عيادة صينية حديثة جداً، وهذا عِشْرُ ما يُكلفه إجراؤها في أمريكا.

http://www.ibtesama.com/vb

• وإن تناولت طعام الإفطار في مطعم صغير في سانت جوزيف بِميتشجان St. Joseph، Michigan. تجد حَوْلَ إحدى الطاولات أربعة رجال، تتراوح أعمارهم بين الثلاثين والستين. وتجدهم يرتدون ثياباً مثل لباس عمال المصانع، غير أنهم يجلسون في العاشرة صباحاً معاً يناقشون أمر صرف عمال من الخدمة في مصنع مَحَلي لصُنع أقراص المكابح لشركة بوش Bosch الألمانية العملاقة لصنع قطع غيار السيارات التي تزيد من طاقات إنتاجها في الصين. تقول الشركة: إنها تستغني عن أُلوف العاملين في مصانعها في جميع أرجاء الولاية كي تبقي قدرتها على المنافسة. ويأسف الرجال لعدم توفر فرص عمل كثيرة فيها. كانت وِرْلبول Whirlpool وكلارك للمعدات Clark Equipment وسواهما من مصانع أخرى راسخةً وناشطةً في المنطقة، غيرأنها أقفلت مصانعها الآن، فصارت هياكل فارغة لما كانت عليه من قبل.

• وإن رأيت مَتاجر أرماني إمبريوم Armani empeorium في فيا مَنتزوني Via Manzoni في ميلانو، عاصمة الأزياء الإيطالية، وراجعت قائمة فروعها في جميع أرجاء العالم تجد فيها شنغهاي.

• وإن قصدت أحد المطاعم الصغيرة المُعتمة في حي صيني [في أمريكا] تجد في الزاوية شاباً صينياً، قصيراً، وسميناً، وقوياً، لَوَّحَتْه الشمس، يبدو حائراً كما لو أنه جاء ليعمل في فترة ازدهار السكك الحديدية الأمريكية قبل قرن مضى. تجده يَسْتَنِد إلى صرة كبيرة، لُفَّت بلفافة بلاستيكية ورُبِطَت بشريط من السلوفان، ربما تحوي كل ما يملكه في هذه الدنيا. إنه مهاجر من ملايين المهاجرين الصينيين القرويين المكتومين الذين وجدوا طريقهم –ربما بمساعدة أحد المهربين – بعيداً عن مرافئ الصين التي كانت مزدهرة في الماضي. وسيُنافِس الآن للعمل في أدنى درجات الاقتصاد المحلي الأمريكي.

http://www.ibtesama.com/vb

● ويُريك أحدُ المقاولين منزلَ زبونة جَدَّدَت الحمَّام الرئيس في منزلها. فاستَبْدَلَ لها سطح نضد قديم من الفورمايكا برخام أزرق داكن ذي حافة مشطوفة مزخرفة كتلك التي تراها في مُنْتَجَع في منطقة البندقية [في إيطاليا]. سوف يرى عينيك تَتَّسعان فَيَنصحك أن تَفعَلَ ما فَعَلَت، قائلاً: إنه رخام إيطالي، وإنه باهظ الثمن، غير أنه يستَحِق الثمنَ المطلوب. وبعد أن تحتج على ثمنه الباهظ، تذهب معه في شاحنته إلى فناء للخشب. وتجد فيه صناديق ضخمة من الجرانيت المقصوص والمُعدّ للمطابخ، والحمامات، ورفوف غرف الجلوس. تجدها جميعها مُلَمَّعَة ومصَمَّغَة. ويقول لك المقاول: إن رأيت إحدى هذه المسطحات مناسبة لك كما هي، فإن ثمنها يبلغ 450 دولاراً بدل 8000. ويقبل عليك صاحب الفناء قائلاً: عليك أن تشتري ما تريد قبل أن تَنْفَد، فالصناديق هذه لا تبقى في المخزن إلا يوماً أو بعض يوم، لا تَلبَث أن تُباع. وقال: إنه يبيع هذه المسطحات منذ سنة، وإن رجلاً من الصين قد زاره وقال: إن لديه ثلاثة مقالع يستخرج منها الحجارة ويصقلها. وقد جربها لتكون مناسبة، لكنه لم يعد يَستطيع الحصول على ما يكفي منها لتلبية المطلوب.

● وتستيقظ في صباح يوم في سانتا بَربَرا في ولاية كاليفورنيا؛ لتجد السماء كما لو أنها دُهِنَت بِدِهانٍ أبيض لامع. وتقول صحف الصباح إن أشعة الشمس تخادع سحابة غبار حملتها الرياح فوق المحيط الهادي من الصين. تحمل السحابة ذرات التراب من أرض مُزَحْرَجَة (أزيحت أحراجها) مختلطة بملوثات زرنيخية وصناعية أخرى من مصانع البلاد.

● وعليك شراء سروال ليفي Levy من مخزن وول مارت Wal-Mart، فهو أقل ثمناً من سروال اشتريته منذ عشرين سنة.

● وتدعوك زميلة في العمل إلى «حفل حافظات نقدية» وتقول إنها صديقة صاحبة الحفل، وهي مضيفة في شركة يونايتد للطيران United Airlines

http://www.ibtesama.com/vb

لقد زُيِّنت شــقتها بمصابيح ورقية ووســائد حريرية، وكُدِّسَت فيها حقائب يدويــة صنع لوي فــيتون Louis Vuitton، وبــراداPrada، ومعاطف بُرْبِري Burberry، وســترات من فِراء صنع نورث فِيْس North Face، ومعاطف جلدية قصيرة صنــع تِمْبِرلاند Timberland، ومنتجات رالف لورِيْن Ralph Lauren، وأوشــحة شانِيْل Chanel. وتجد على طاولتها حقيبة تلمع فيها ســاعات رولكس Rolex وبلجــاري Bulgari، وكارتييه Cartier. وتقــول لــك «خذ زجاجة كولا من الثلاجــة. انظر فيما حولك. وقدم عرضاً للشــراء. فكِّر في الأســعار الرخيصة فهذه كلها نماذج مقلدة [مُقَرصَنَــة]. اخرج وفي يــدك نورث فِيْــس North Face بـ 20 دولاراً وســاعة جديدة بـ 35 دولاراً. لقد ضاعفت مالها. إنك لن تقع عينك على اسم المصمم بالنظرة التي كنت تنظرها من قبل.

- وادخل بســيارتك الهوندا ســيفيك Honda Civic محطة وقود. عندما يكون ثمن الجالون 2.30 دولاراً فإن ملء خزان الوقود سيكلفك 30 دولاراً.
- واذهب بســيارتك عبر هاوْتُن Houghton في ولاية ميتشجان وهي بلدة نائية في أعالي شبه الجزيرة البارد من الولاية. توقف عند مكتبة الطلاب في كلية ميتشجان التكنولوجية. ســوف تجد على طاولة المؤلفين المحليين كتــاب Being a Graduate Student in the U.S. ألَّفــه اثنان من التلاميذ الصينيين في الجامعة. ويقول موظف الصندوق إن الكتاب يحقق مبيعات جيدة في الصين. واســتوقف أي طالب آســيوي في حرم الجامعة واسأله: كيف سمع بكلية ميتشجان التكنولوجية؟. سيقول لك: إن لجامعته في بِيَجِنْج علاقة قوية بالكلية وإن أساتذته حدثوه عنها. وإن سألته إن كان يحب الدراســة هناك؟ فيقول: إن ميتشجان باردة، وإن الطعام رديء، وإنه وجد صعوبة في التكيف مــع الآخرين إلا مع الطلاب الصينيين، وعددهم 140 طالباً. غير أن التعليم التكنولوجي فيها ممتاز.

http://www.ibtesama.com/vb

- وتوقف عند مخزن يبيع حوائج السيارات لشراء سائل تنظيف زجاج السيارة الأمامي. ستجد نصف المخزن قد تحول إلى معرض للدراجات النارية (سكوتر scooter) صينية الصنع، بعضها يشبه نصف هارلي [هارلي ديفيدسُن] half-Harleys، وبعضها الآخر يشبه دوكاتيس Ducatis، ومعظمها يكلف أقل من 300 دولار.
- وإذا حضرت عشاءً في منزل خبير يجمع القطع الفنية، تجد على الحائط صوراً طول الواحدة منها 120 سم لأطلال مدينة صينية. وينصح صاحب البيت بالاستثمار في الفن الصيني المعاصر، فإن الاهتمام به يزداد اليومَ في العالم، وما إن يبدأ الصينيون أنفسهم بالشراء حتى ترتفع الأسعار ارتفاعاً هائلاً.
- وارحل إلى باريس لتشاهد معالمها المشهورة وتجَوَّل في الشانزليزيه Champs-Elysees، الشارع الذي يحافظ الفرنسيون على هويته الوطنية بغيرة شديدة. غير أن «أجمل شارع في العالم» يستسلم أول مرة في تاريخه لحدث ثقافي غير فرنسي،.إنه استعراض صيني يضم سبعة آلاف موسيقي، ومهرج، وراقص تنيني يرتدون لباسهم التقليدي. وقد أُنير في تلك الليلة برج إيْفِل Eiffel Tower بالأنوار الحمراء وملأت الألعاب النارية السماء احتفالاً بالسنة القمرية الصينية الجديدة. وتأتي تلك الاحتفالات في وقت ينتقد الفرنسيون انتقاداً حاداً حلفاءَهم الغربيين، الولايات المتحدة وبريطانية العظمى. ويصادف الاحتفال زيارة قادة سياسيين صينيين لفرنسا لتوقيع اتفاقيات إستراتيجية واقتصادية واسعة.
- وقَرِّر أخيراً أن تتخلى عن كاميرا للتصوير بالفِلم قديمة واغْطُس في مجال التصوير الرقمي digital photography. فمحلات التصوير تبدي اهتماماً كبيراً بآلة صغيرة من صنع نيكونNikon، هي معجزة هندسية تستطيع أن تصور بسرعة وتسجل مشاهد واضحة لأماكن ضعيفة الإنارة،

http://www.ibtesama.com/vb

فهذه الكاميرا تحبط أفضل منافسيها من كاميرات الفيلم، وتكلف نصف ما تكلفه الآلات المشابهة قبل سنة. يثق الزبائن المخلصون لنيكون Nikon بجودة منتجاتها وتصميمها المبتكر. فهي إحدى العلامات التجارية اليابانية التي أسهمت في بناء سمعة ذلك البلد في التفوق الصناعي. إن الإمساك بالكاميرا، والتقاط بضعة صور تجريبية، يؤكد أنها منتج جديد من الطراز الأول لا ينتجه سوى اليابانيين. تَفَحَّص الكاميرا بدقة، فإنك تجد عبارة «صنع في الصين» مكتوبة عليها بحروف صغيرة. ويكشف البحث على شبكة الإنترنت أن الكاميرات الرقمية التي تنتجها كثير من الشركات اليابانية، والأمريكية، والكورية تصنع في المصانع الصينية نفسها.

- وإذا زرت عَمَّك المريض العائد لتَّوِّه من برنامج إعادة تأهيل إثر نوبة أخرى، ولم يزل عاجزاً عن الحركة دون مساعدة، فسوف يُعَرِّفك على ميناردو Menardo المشرف الصحي الذي أرسلته وكالة التمريض. وميناردو هذا يرتدي ثياباً لائقة، ويتأنَّق في تصفيف شعره. سوف يقول لك في المقابلة الأولى إنه من الفلبين وإنه يعمل في التمريض منذ أربعة أشهر. ويشاطر أخته العيش هنا في أمريكا في شقة تبعد ساعة بالسيارة، ويملك بيتاً كبيراً في وطنه وكان لديه خدم. ويُخْرِج من حقيبته منشوراً دعائياً عن عمله السابق، إنه مصنع في جزيرة سِبو Cebu Island يوظف خمسين عاملاً يصنعون حقائب من القش والخيش (الجوت). ويقول إنه فقد عمله لأن المصانع الصينية تصنع الآن حقائب مماثلة بسعر أقل مما يرى ميناردو أنها تُكَلِّفه. إنها أشغال يدوية، وقدكان عُمّاله يتقاضون 30 دولاراً في الأسبوع. ويتذمر من أن العمال الصينيين يتقاضون ثلث ذلك المبلغ ويعملون ساعات أطول. وهو الآن يفرغ مباول المرضى. ويأمل أن يستطيع البدء بعمل جديد بما يجنيه من أجره الأمريكي، غير أنه يرى التغلب على الصينيين في الأسعار صعباً.

http://www.ibtesama.com/vb

إن الاقتصاد الصيني المعجزة يستطيع أن يأتيك من طرق شتى، ومن كل حدب وصوب. وما إن تصبح الصين تحت مرمى البصر، حتى يَصْعُب ألا تراها تملأ المكان.

قوة العمل العملاقة

إن وراء صعود الصين الاقتصادي السريع في السنوات الخمس والعشرين الماضية حقيقة أساسية هي تعداد السكان الهائل. فالأعداد تطغى في حجمها على جميع أوجه الحياة في البلاد تقريباً. حيث تُؤْوي الصين قرابة 1.5 بليون نسمة، وهذا يجعل تعداد السكان الرسمي البالغ 1.3 بليون نسمة أقل من الحقيقي بما يقرب من عدد سكان ألمانيا، وفرنسا، والمملكة المتحدة مجتمعين. وإذا نظرنا إلى الأمر من زاوية أخرى، نجد أن عدد الصينيين غير المحسوبين، لو أنهم كانوا في بلد منفصل، لكانوا البلد الخامس في تعداد السكان في العالم.

وإن الأمر الذي يلفت الانتباه هو أن الصين لا تؤوي أرخص قوة عمل في العالم. وإن كان أجرالعامل الصيني خمساً وعشرين سنتاً في الساعة، فإنه يكلف أكثر مما يكلفه العامل في أفقر بلدان جنوب شرق آسيا أو إفريقية. ففي الزوايا الأكثر بؤساً في العالم، يحمل الأطفال البنادق ويسيرون عبر حقول الألغام لقاء أجر لا يتجاوز دولاراً واحداً في اليوم. إن الصين هي ورشة العالم، فهي تتربع على جزء مُسْتَقِر نسبياً من أجزاء الكرة الأرضية وتقدمٍ لصناعيي العالم قوة عمل صناعي موثوق بها، وطيِّعَة، وقادرة، يسوسها نُظام تفرضه الحكومة.

وإن الأثر الكبير الآخر الآن هو هجرة مئات الملايين من المزارعين من الريف، بعد أن سمحت الحكومة لهم بالمغادرة. والحقيقة هي أن تَبَنِّي البلد لرأسمال السوق خلال العقدين الماضيين وانتهاء دعم الحكومة للمزارعين يشكلان تحالف قوى تطرد الفلاحين من الأرض، في هجرة هي الأكبر في تاريخ البشرية. وهي أيضاً الأقل دقة في إحصاء عدد الأفراد، حيث يتراوح تقدير عدد الذين غادروا

http://www.ibtesama.com/vb

إلــى المدن بحثاً عن عمل بين 90 و 300 مليون، إنها، في أقل التقديرات، تعادل القوى العاملة الكاملة في الولايات المتحدة. وإذا ذهبت إلى أعلى التقديرات، فإنك تجد العدد يتجاوز القوى العاملة الأمريكية والأُوروبية مجتمعة. وسيعيش نصف الصينيين بحلول ســنة 2010م في مناطق مدينيــة، يكون بعضهم في حاضرات مدينية يربو عدد سكانها على المليون لم تكن موجودة قبل سنوات.

إن مــا تعنيه هذه الأرقام هو أن القــوى الإنتاجية لآلة الصناعة ذات الكلفة المنخفضة في الصين، إلى جانب الشهية المنفتحة لمستهلكيها الذين يزيد عددهم على بليون، جعلا من الشعب الصيني الثروة الطبيعية الأكبر على كوكب الأرض. وإن طرائق استغلال الصينيين والعالم لهذه الموارد هي التي ستحدد شكل اقتصادنا وكل اقتصاد آخر في العالم بالقوة التي كانت للتصنيع والتوســع الأمريكي خلال مئة سنة مضت.

ما عَرَفَه العُمّال الأمريكيون في مصنع هارلي Harley للدراجات النارية

إن آثــار الصين على العالــم عظيمة جداً - وربما تكــون انفجارية - حتى يصعب على المعنيين بمشــاهدة الصورة الكاملة تقديــر أبعادها. ذلك، في حَدِّه الأدنى، كان انطباع العمال والمديرين في مصنع هارلي ديفيدسُن Harley-Davidson في مِلووكي Milwaukee عندما قَدِمَ ثلاثة من المسؤولين الاقتصاديين الأعظــم أهمية فــي إدارة بوش في أواخر صيــف 2003م. وصلت وزيرة العمل الأمريكية إلِيْن تشــاو Elaine Chao ووزير الخزينة جون سنJohn Snow، ووزيــر الاقتصاد دونالد إيْفنْس Donald Evans بالحافلة ليعلنوا عن انقلاب في الاقتصاد بناءً على ماضي إحدى شــركات التصميم الأمريكية. وافترضوا أن مصنعي «هوج Hog» للســترات الجلدية، المتفرديــن الذين ينتجون أكبر دراجة نارية أمريكية، سيرقصون على نغمات الإدارة التي تدعي مناصرة العمل.

http://www.ibtesama.com/vb

غير أن الجميع لزم الفتور. فقد كانت هناك جبهة باردة تعصف من الصين. لقد فقدت الولايات المتحدة 2.9 مليون فرصة عمل صناعي خلال خمس سنين خَلَت. فَفَقَدَت وِسْكُنْسِن Wisconsin تسعين ألفاً، أو سُدُس فرص عملها الصناعية منذ سنة 2000م، وكان ثمَّة رأي قوي لدى الجمع في هارلي بسبب ذلك. فقدكانت الشركات التي كَبُروا معها تتلاشى، بينما تتجه الطلبات وفرص العمل إلى ما وراء البحار. ولم تجد إلِيْن تشاو المرتبكة جواباً، عند ذكر التحدي الصيني، إلا أن تقول إن جنود الحرس الوطني الأمريكي الذين يخدمون في العراق سيجدون فرص عمل مضمونة عند عودتهم. وبدا أن جون سنو لا يُمَيِّز بين العملة الصينية يوان Yuan والعملة اليابانية ين Yen. وساد الانفعالُ الجمهورَ الذاهل. فلم تعد الضرائب، ولا عجز الميزانية أو تكاليف الحرب على الإرهاب هي التي تقض مضجع الحياة الاقتصادية، كما يرى الخطباء، وإنما هي الصين. أما المجتمعون، فقدكان التنافس مع الصين هو الذي يُحَدِّد إن كانت وِسْكُنْسِن قادرة على التمسك بالقاعدة الصناعية التي كافحت لإحيائها.

وانطلق الوزراء في جولتهم في المِدْوِسْت (الغرب الأوسط) Midwest إلى عشرات المحطات. وكانت تواجههم طوال الطريق أسئلة غاضبة عن الصين. كانت الجموع تحمل مكبرات صوت يشحنها الغضب. وكان بين الغاضبين عمال ومديرون على حد سواء، من اليمين واليسار. وربما كان أعلاهم صوتاً جمهور الناخبين الجمهوريين، وأصحاب الصناعات الصغيرة الذين يناضلون تحت وطأة قوة الإنتاج النامية لأكبر بلدان العالم سكاناً.

جرت هذه الأحداث قبل ثمانية عشر شهراً من نشر هذا الكتاب. فلم يعد اقتصاد الصين اليوم يأخذ قادة الحكومة على حين غرة. فماذا تراهم فاعلون الآن، بعد أن صاروا يعلمون، هذا ما ننتظر معرفته، وبِخاصَّة أن ردود الفعل الشعبية تجاه الصين تتغير باستمرار - وغالباً على أساس البرامج السياسية والاقتصادية الأمريكية المنافسة. تكون الصين، في لحظة، الخطر الأكبر الذي

http://www.ibtesama.com/vb

يُهَدِّدُنا، وفي لحظة تالية تصبح صديقاً. إنها تَمْتَصُّ فرص العمل الأمريكية؛ وهي ضرورة لقدرتنا على المنافسة. فالصين في نظر العالم المَصْنَع، وهي أكبر فرصة للسوق. وقوة الصين الصناعية تَسْتَنْزِف فرص العالم النامي، غير أن اقتصادها الجائع يَشُدُّ البلدان الأفقر إلى أعلى. تصدر الصين الانكماش؛ وتذكي ارتفاع الأسعار. الصين سوق تزدهر؛ وسوف تتفجر.

إن حقيقة الصين، مثل جميع البلدان الكبيرة، هي أن تناقضاتها حقيقة. فليس ثمة جواب سهل في الأفق، وإنما مجرد قوى تغييرعملاقة.

ماذا تقول الأرقام – وماذا تُخفي؟

ينمو اقتصاد الصين سريعاً بكل المقاييس. فتقارير التقدم الاقتصادي السنوي للدول تقيس النمو بالناتج المحلي الإجمالي، والقيمة الإجمالية لجميع السلع والخدمات المتداولة ضمن اقتصاد بلدٍ ما. فقد كان الناتج المحلي الإجمالي للصين سنة (2003م) (1.4) تريليون دولار. وكانت الصين، حسب ذلك المقياس، تحتل الموقع السابع في حجمها الاقتصادي في العالم. وما زال اقتصاد الولايات المتحدة الأكبر في العالم، إذ كان الناتج المحلي الإجمالي لها سنة (2003م) (10.1) تريليون دولار، أي سبعة أضعاف حجم اقتصاد الصين. (ويمكن قياس الاقتصاد العالمي بناتجه المحلي الإجمالي؛ إذ وصل مجموعه إلى 36.4 تريليون دولار سنة 2003م).

وثمة ظروف ملطفة في أرقام اقتصاد الصين. إذ يُشَكُّ في معظم الأرقام الإحصائية الصينية، لما يتَّصِف الصينيون بصفات المراوغة. كان التذمر فيما مضى دائماً من المسؤولين الذين يرفعون أرقامهم لِيوهِموا بِحُسْن أدائهم. أما الآن، فتقول جوقة المُرْتابين إن الأرقام مُفْرِطة في انخفاضها. فمخططو الصين المركزيون لايفتؤون يوجهون أموال التنمية بازدياد إلى المناطق التي تُحَدَّد بأنها مناطق فقيرة رسمياً. وهكذا، فإن محافظات الشاطئ الشرقي من الصين التي

http://www.ibtesama.com/vb

تجني فوائد جُلّى من مزايا الإصلاح الاقتصادي، تخفي نسب نموها العالية كي لا تذهب عنها موارد الحكومة إلى أماكن أخرى. أما المناطق البائسة فلديها دوافع طبيعية؛ إنهم يجهدون في الحفاظ على تصنيفهم وإن كانت الأعمال تسير في التحسن. وربما كان ذلك سبب عدم تطابق الأرقام التي تجمعها الحكومة المركزية من المقاطعات مع الأرقام التي تقدمها الحكومات المحلية والإقليمية في نشراتها الخاصة. إن اقتصاد الصين أكبر بـ 15 بالمئة، قياساً بالأرقام المحلية. وقد أحرج التفاوتُ الإحصائي الحكومةَ المركزية حتى اضطرَّت إلى محاكمة عشرين ألف مسؤول محلي، بتهمة الاحتيال، كانت لهم يد في تقديم تلك البيانات.

وتتضمن الأرقام الحكومية الاقتصاد الصيني النظامي فقط. أما اقتصادها تحت الأرضي التجارة البعيدة عن الرقابة، الذي يتألف من أعمال تجارية مرفوضة أخلاقياً وأكثر دنيوية تنقصها مباركة الحكومة (والضرائب)، فإنه هائل يصعُبُ إحصاؤه.

وقد يكون تصنيف الصين في الموقع السابع منخفضاً جداً لأن عملة الصين مثبتة بالدولار. وإن عملات العالم الرئيسة الأخرى ترتفع وتنخفض مقابل الدولار حسب أوضاع السوق. وقد جرت العادة في بلد بقوة الصين أن يرى قيمة عملته الوطنية ترتفع، لكن الصين تستخدم القوة الهائلة لاحتياطيها من العملات الصعبة لتبقي السعر العالمي لليوان Yuan متماشياً مع الدولار مهما كان سعر السوق. ولو لم يتراجع الدولار أمام اليورو أو أي عملة عالمية أخرى خلال السنوات الأخيرة، لكان موقع الصين أعلى درجة أو درجتين.

ويرى بعض المحللين أن موقع الصين أعلى من ذلك بكثير. ويأخذون في اعتبارهم مقدار ما يشتري الدولار في البلاد فعلاً، وهو أكثر كثيراً مما يشتريه في الولايات المتحدة، وأوروبا، واليابان ومعظم بقاع الأرض الأخرى. وإن بعض السلع - كالآلات اليابانية، والنِّفْط السعودي، والأزياء الفرنسية، والأدوية السويسرية، وساعة من وقت بروفِسُر أمريكي مختص في التسويق - كلها

http://www.ibtesama.com/vb

لها أسعار قياسية عالمية. غير أن العرض والطلب الذي يحكم معظم الاقتصاد الصيني – القوة العاملة، والغذاء، والإيجار، والآجُر، والأطباء، والثياب، والألعاب المصنوعة في الصين – يخضع جميعه لموازينها المحلية الخاصة. ويشتري الدولار في الصين ما يشتريه حوالي 4.70 دولار في إنديانابولِس Indianapolis. وإن التفاوت الذي يسمى خطأ «تعادل في القوة الشرائية» يسوى في تقدير وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية لمكانة الصين بين الاقتصاديات العالمية. ويبدو اقتصاد الصين الذي يبلغ 1.4 تريليون دولار، في حسابات وكالة الاستخبارات المركزية CIA، أقرب إلى اقتصاد ناتجه المحلي الإجمالي في حدود 6.6 تريليون دولار. ويمكن القول، بتعبير أصح، إن اقتصاد الصين أقرب إلى ثلثي حجم اقتصاد الولايات المتحدة من سبعه.

وهناك نسبة النمو في الصين، وسرعتها في المستقبل الاقتصادي. إذ تريد الدول أن تضيف قدر ما تستطيع إلى ناتجها المحلي الإجمالي في معظم الحالات. وكان نمو الاقتصاد الصيني كبيراً على مدى خمس وعشرين سنة خَلَت، حتى أخَذَ صفات أسطورية لإحدى مزارع ماو Mao النموذجية. وكانت الولايات المتحدة، التي تميل جميع الدول لقياس أنفسها مقارنة بها، تحظى بأقوى نسبة نمو بين الديموقراطيات الصناعية، التي تشكل الدول الصناعية السبع، على مدى سنين طويلة. وإن نمو الولايات المتحدة مرتفع ارتفاعاً مريحاً فوق متوسط عضوية منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية، وعصبة العالم الداخلية التي تتألف من ثلاثين اقتصاد سوق ديموقراطي رائد تغطي مجتمعة ثلثي المردود الاقتصادي العالمي. وقد تراوح نمو الناتج المحلي الإجمالي في الولايات المتحدة حوالي 3.3 بالمئة بين سنتي 1982م و2002م. ويرى سياسيو الولايات المتحدة في السنوات التي حققت نمواً يتجاوز 4 بالمئة سنوات رواج وازدهار عظيم، وفي السنوات التي تتجاوز 2 بالمئة سنوات مريحة، والسنوات التي يكون النمو فيها أقل من ذلك تكون سُمّاً سياسياً. ففي أمريكا اللاتينية التي تُعَد منافس الصين

http://www.ibtesama.com/vb

في صناعات منخفضة التكاليف، وفي التقدم الاقتصادي خلال الربع الأخير من القرن العشرين، كانت، وسطياً، أسوأ مما كانت في المنطقة أثناء الكساد الاقتصادي الكبير. أما في الصين، فإن نسبة نمو كتلك التي في الولايات المتحدة تعد كارثة. ويقول المسؤولون الصينيون ينبغي أن ينمو البلد بنسبة تتجاوز 7 بالمئة في السنة لتوفر فرص عمل كافية للذين يدخلون سوق العمل بانتظام.

إن الصين ملتزمة بالنمو الاقتصادي حتى إنك ترى الصينيين يتحدثون كثيراً وكأنهم يستطيعون تحقيق ذلك بإرادتهم. إنه تفاؤل ضروري ذلك الذي يعم الأفكار الصينية الرسمية المتداولة.1 ويقارن أورفيل شِل Orville Schell مؤلف كتاب Virtual Tibet وعميد كلية الصحافة في جامعة بِركلي Berkeley في كاليفورنيا، بين وحدة التركيز التي بدأها الصينيون ضد الرأسمالية ثم معها الآن. يقول شِل، ثَمَّة استعداد في الحالين لإلغاء المنطق ورؤية مستقبل زاه فحسب. فكلا الحالين يقودان إلى المغالاة. فقد كانت الصين مستعدة، في حاضرها الرأسمالي، للتغاضي عن الجانب القاتم من الحداثة، ورؤية التقدم الاقتصادي حلاً لجميع التحديات التي يواجهها البلد.

ولا يجمع الخبراء الاقتصاديون الصينيون على الثقة بأن مجرد الرغبة في النمو كفيلة بتحقيقه. بل على خلاف ذلك. فقد عمل المخططون الاقتصاديون الصينيون على إلقاء الثلج على آمال مواطنيهم الاقتصادية الكبرى. فهم يعرفون أن الإفراط في الحماسة يؤدي إلى أوهام اقتصادية. غير أن السيطرة على قوة الاقتصاد الصيني الدافِقَة أمر صعب. وإذا كان للتاريخ أن يتنبأ بحاضر الصين إذاً لانْفَجَرَ اقتصادها منذ زمن بعيد. فإذا انفجرت الفقاعات عند تدافع المستثمرين وراء مشاريع كثيرة ليس لها قيمة اقتصادية حقيقية – إذ إن عدداً كبيراً جداً من المصانع تتسابق نحو أسواق حامية ذاتها، وثمَّة عدد كبير جداً من مشاريع البناء المحلية تجب تلبيتها، وعدد كبير جداً من القروض المصرفية الرديئة لمشاريع غير سليمة، وعدد هائل من الأسهم المُحَلِّقَة لشركات لا تاريخ لها

http://www.ibtesama.com/vb

– عندها تستحق الصين أن تُصبح خراباً. وكلما طُرِحَت أسوأ التوقعات لاقتصاد الصين نَراهُ ينمو سراعاً، ويخلق صناعات أقوى، ويستورد ويصدر المزيد، ويجلب مزيداً من الاستثمارات الأجنبية.

وعندما قررت الصين إصلاح اقتصادها قبل جيل مضى، كانت نسبة النمو الرسمية 9.5 بالمئة. وربما تصعد البلدان سراعاً في مراحل مبكرة من الإصلاح الاقتصادي، وإنما ليس مثل الصين. فالصين مقبلة على مسيرة ثلاثين عاماً يتضاعف اقتصادها خلالها ثلاث مرات. إنه صعود ليس له مثيل في التاريخ الحديث. ولم يقاربه ازدهار اليابان أو كورية الجنوبية بعد الحرب. وإذا نظرنا إلى نسب النمو الاقتصادي الأخيرة في الولايات المتحدة، نجد أن لا بد للولايات المتحدة من خمس وعشرين سنة لكي تضاعف اقتصادها. ولو أن الولايات المتحدة، التي ازدهرت في الثمانينيات والتسعينيات، نمت بمعدل نمو الصين منذ سنة 1978م، لكان الاقتصاد الأمريكي في حجمه الحالي تقريباً مضافاً إليه اقتصادين اليابانيين. ويشير نيكولاس لاردي Nicholas Lardy من معهد الاقتصاد العالمي، إلى أن الصين نمت نُمُوّاً قوياً حتى في حال الركود الذي شهده الاقتصاد العالمي في سنتي 2001م و2002م.

وهكذا تجد نموَّ الصين يعطيها مكاناً أكبر من حجمها في الاقتصاد العالمي. فالصين ما زالت تصنع جزءاً من عشرين من كل شيء ينتج في العالم، غير أنها تلعب على الساحة الدولية دور مصنع جديد في بلدة صناعية قديمة. إنها تستطيع أن تُنفِق، وتستطيع أن تَتَنَمَّر على من هم أضعف منها، وتستطيع أن توظف وتحدد الأجور، وتستطيع أن تطرد المنافسين القدامى من أعمالهم. إنها تغير الطرائق التي يعمل بها الجميع.

ويميل الأمريكيون إلى التركيز على التفاوت الهائل في التجارة بين البلدين. إنه قلق ساهم الأمريكيون في خلقه بزيادة شرائهم المستمر من مصانع الصين النشطة. فقد باعت الصينُ سنة 2004م الولايات المتحدة بضائع تزيد قيمتها

http://www.ibtesama.com/vb

162 بليون دولار عما اشـــترته منها. وبخلاف الحكمة السـائدة، فإن العجز في الميزان التجــاري مع الصين لا يعني أن الأمريكيين ينفقـــون دون الثروة الوطنية بسرعة تفوق ما أنفقت في أي وقت مضى. وهكذا كانت معظم مكاسب الصين مع المشـــترين الأمريكيين على حساب البلدان الأخرى التي اعتادت غواية الدولارات الأمريكية، وبخاصة الاقتصاديات الآسيوية الأخرى. ويجني الأمريكيون – والعالم – مزيداً من الحشـــو في الصفقة. وتكســب الصين لأنها تســتطيع أن تصنع ما يصنعه الآخرون بثمن أقل. إنها تُحَوّل ما كان مواداً غالية الثمن، كأجهزة أقراص DVD، والأدوات الكهربائيــة، والســترات الجلدية، إلى مــواد نابضة رخيصة الثمن تنادي المشترين من رفوف المخازن. وإن كثيراً منا يجد بيوتنا تزدحم بأكوام من الألعاب الرخيصة، والإلكترونيات الاستهلاكية، والأدوات، والأحذية، وأجهزة الهاتف، والثياب لا يدركون أن هذه الأشياء ربما أتت إلى أمريكا من بلدان أخرى، وأن ســبب هذا الفيض الذي نشــهده هو أن الصين قد صــارت المصنع الرائد لهذه الســلع وتضرب الجميع بأسعارها. فصناعة الثياب في أمريكا، مثلاً، بدأت بالتلاشي زمناً قبل أن تبدأ الصين تجني الطلبات على حساب المصانع الآسيوية والأمريكية اللاتينية الأخرى.

ولصناعة المفروشـــات الأمريكية قصة أخرى. فقد اسْتَنْزَفَت الصين منفردة معظم قوتها. إنها تبين كيف تستطيع الصين أن تتبع أعمالاً خاصة يتميز بها بلد ما وتُهلِك القِسْمَ الأعظم منها في فترة وجيْزة. (إنها تأتي الآن على جميع صانعي المفروشات الخشبية في العالم، فتعطي العالم رفوفاً للكتب وخزانات كبيرة يخزن فيها مشـــترياته الأخرى المصنوعة في الصـــين). إذ ارتفعت صادرات الصين من غرف النوم الخشـــبية فقط إلى الولايات المتحدة منذ ســـنة 2000م حتى ســـنة 2003م من 360 مليون دولار إلى ما يقرب من 1.2 بليون دولار. وخسرت القوى العاملة الأمريكية التي تعمل في مصانع المفروشات الخشبية خلال بداية التحول الصينـــي بقدر 840 مليون دولار وخمســـة وثلاثين ألف موقـــع، أو واحد من كل

http://www.ibtesama.com/vb

ثلاثة عمال يعملون في هذه الصناعة الأمريكية. وتصنع الصين الآن 40 بالمئة من جميع المفروشات التي تباع في الولايات المتحدة، وسيزداد هذا الرقم حتماً. وستستمر فرص العمل الأمريكية في المفروشات بالانخفاض.

غير أن إحدى مفارقات نجاح الصين في سوق المفروشات الأمريكية هي أن مصانع الصين قد أتقنت عملها في تسليم المستهلك الأمريكي، وقدّمت جوهر التصميمات الأمريكية والأُوروبية على نحوٍ أفضل من الورشات الأمريكية. حتى نرى كبار بائعي المفروشات، من مخازن مثل جي سي بني JCPenney إلى المخازن المختصة مثل كرِيْت آند بارِل Crate & Barrel تعرض الآن مفروشات محفورة ومزخرفة بأسعار كانت قبل بضع سنين أسعار نماذج مفروشات «حديثة» أسهل صنعاً، تتطلب ساعات عمل أقل.

وأما البلدان الأخرى، فقد صارت الصين لهم ضرورة كزبون ومُمَوِّل. فاليابان وألمانيا تتمتعان الآن بفائض تجاري كبير مع الصين، فالصين أكبر مشتر لآلات المصانع، وتحتاج إلى المعدات التي تصنعها ألمانيا واليابان - أجل - كي تصنع المعدات والأجهزة الإلكترونية التي تصنعها ألمانيا واليابان. وتفلح البلدان الغنية بالموارد إذ تبيع الصين المواد الأولية التي يعاد تشكيلها في مصانعها، والطاقة التي تحتاج إليها لتزودها بالطاقة. فقد اشترت الصين سنة 2003م، بناء على تقدير ستيفِن روش Stephen Roach، كبير اقتصاديي مورجان ستانلي Morgan Stanley، 7 بالمئة من نفط العالم، وربع جميع الألمنيوم والفولاذ، وثلث فِلِزّات حديد العالم وفحمه، و40 بالمئة من إسمنت العالم. ولعل المقبل أعظم.

الصدمة القادمة

وليس أكثر ما يُرعب من الصين أنها تبلي بلاء حسناً في الإنتاج الصناعي. فلا بأس أن يفقد الأمريكيون تجارة المفروشات أمام الصين. ففي المخطط الأعظم للأمور تعد الطاولات والكراسي أموراً تافهة في الاقتصاد الأمريكي.

http://www.ibtesama.com/vb

ويفقــد اليابانيون تجارة أجهزة التلفزيون. ويفقد الإيطاليون تجارة الحرير. ولا يســتطيع الألمان المنافســة في زينة عيد الميلاد. وســيفقد الجميع، خلا الصين، مصانع النسيج والثياب. وإن أكثر ما يقلق الأمريكيين وغيرهم من الأمم هو حدّ خط المستقبل، حيث يطغى تحول التصنيع نحو الصين من كل حدب وصوب، ولا تُسْــتَثْنى من أولئك الولايات المتحدة. فتجارة البضائع الاســتهلاكية تظهر على ســطح الاقتصاد العالمي وتســهل متابعة حركتها. غيــر أن التحول الأكبر، الذي يكتسب زخماً الآن، يقع بين المنتجات التي يتعامل الصناعيون والمنتجون بها فيما بينهم: إنه عدد لا يحصى من المواد التي تكّون كل ما يُصَنَع، سواء أكان ذلك مئات مــن قطع تدخل في صناعة الغســالات، أو الكومبيوتــر، أَمْ مئات أُلوف القطع في الطائرات. ثم هناك المنتجات الكبيرة كالســيارات، والشاحنات، والطائرات، والسفن، وشبكات تحويل أنظمة مقاسم الهاتف، والمصانع، والغواصات، والأقمار الصناعية، والصواريخ. تسير الصين على درب هذه الصناعات أيضاً.

اتبع المال – إلى الصين

ولعل أحد الأســباب الرئيســة لنمــو الصين هو أن العالم يغذي رأســمالها باســتمرار. فقد أفاد معهد أبحاث اليابان للاقتصــاد والتجارة والصناعة Japan's Research Institute of Economy، Trade and Industry أن ثلــث إنتاج الصين الصناعي قد تَحَقَّق بفضل نصــف تريليون دولار من المال الأجنبي الذي تدفق إلى البلاد منذ سنة 1978م. وقد استثمر الأجانب في تجارة البناء في ســنة 2003م أكثــر مما أنفقوه في أي مكان آخر فــي العالم. وكانت الولايــات المتحدة تجتــذب معظم الأموال الأجنبية فيمــا مضى، غير أن الصين احتلت موقع الريادة ســنة 2003م، فجذبت 53 بليون دولار بينما أخذت أمريكا 40 بليون دولار. وتأتي مع المال المعرفة. ومازال الدور المحفز للأجانب في البلاد ينمو ســراعاً؛ إذ تســتقبل الصين في كل يوم نهراً من والأُوروبيين، والآسيويين، والأمريكيين الخبراء في الصناعة، والأعمال المصرفية، والكومبيوتر، والإعلان،

http://www.ibtesama.com/vb

والهندسة. وارتفع الاستيراد والتصدير الذي تقوم به شركات أجنبية تعمل في الصين في سنة 2003م حتى زاد 40 بالمئة. وتسيطر شركات أجنبية الآن على أكثر من نصف تجارة الصين، يستورد كثير منها سلعاً تدخل البلاد يصنعونها للتصدير. وقد نفخت الشركات الأجنبية حجم التجارة الصينية حتى صارت الصين ثالث بلد في التجارة العالمية، بعد الولايات المتحدة وألمانيا، وتتقدم الآن على اليابان.

وإن الحكومات التي تحاول أن تحمي موقع صناعاتها لتحمي حِرَفِيِّيها يجب أن تواجه الصين بما لديها من قوى عاملة غير عادية. فهل لعشرات الألوف من صناع القماش والمفروشات أهمية تذكر عندما تستطيع الصين أن تجمد الأدوية الأمريكية، ومعدات الاتصالات، وبضائع المزارع، أو أي صنف من أصناف المنتجات الضخمة التي تأمل الولايات المتحدة أن تصدرها؟ وثمَّة بلاد أضعف يداً. فمعظم بلدان العالم تنظر الآن إلى نمو الصين كآلة حساسة لنموها الاقتصادي. وإن إلقاء نظرة على الأخبار في أي يوم في البرازيل، وأُستراليا، وكندا، والمكسيك، وألمانيا، واليابان وأي مكان آخر في العالم تنبئ عن موازنة يومِيَّة عالمية تبقي الصين راضية لكونها عميلاً، وعلى كفاءة جيدة كمُوَرِّد، وبعيدة كمنافس.

أوامر من جبار

وبعد أن بدأت الصين نهجها الرأسمالي، تباينت الآراء في إمكان نجاحها واحتمالاته. وإن التقييمات السائدة الآن هي خليط متفجر من الغبطة، والخوف، والإعجاب، والسخرية. ويمتطي هذا الشعور موجات كبيرة من رأس المال، وخطط إستراتيجية لأعمال كبيرة وصغيرة، وحسابات سياسية هي الأخطر في عواصم العالم ومدنه. والإغراء هو الغوص في أعمال البلد نفسه. فهل حكومته حكومة حكيمة أم سلطة مجنونة فاسدة؟ وهل شعبه سعيد بتقدمه أم إنه مسحوق كمواطن ومُسْتَغَلٌّ كعامل؟ وهل تكسب الصين مزيداً من بَريق أم تغرق في أوحال

http://www.ibtesama.com/vb

الصناعة؟ وهل تنهار مصارفها أم تنجح وتصبح لاعباً بما تستأهله بين لاعبي العالم؟ وهل يشق فلاحو الصين طريقهم بسهولة نسبية إلى مستقبل بلدهم المديني أم يثورون؟

هذه أسئلة تطرح نفسها، وليس ثمَّة شك في أن الشعب الصيني يستحق قلق حكومته والعالم واحترامهما. وأما أربعة أخماس سكان العالم الذين لا يعيشون في المملكة الوسطى، فإن ثمَّة حقيقة هي أن الآلة الصينية مهما أنتجت فإنها تنتج للصينيين أنفسهم، وإن أثر البلد على الكرة الأرضية سيتجلى حتماً على حياة العالم برغم كل شيء. فليست الصين بحاجة إلى ازدهار لاحدود له لكي تمد العالم بمصانع منافسة. وليس جميع سكانها، ولا معظمهم ولا ثلثهم ولا خمسهم، في حاجة إلى بلوغ الطبقة الوسطى في العالم لتطارد أسواقها – وإنما يكفي 50 مليون أسرة.

وليست الصين مضطرة لمجاراة أمريكا، أو أوروبا، أو اليابان في التزامها بالتعليم العالمي أو في تأمين فرص لجميع تلاميذها المبدعين لمتابعة دراستهم في الجامعات؛ إذ تستطيع الصين أن تنتج عدداً هائلاً من المديرين، والمهندسين، والعلماء من المستوى العالمي بنظامها التعليمي القائم الذي يبعد كثيراً عن أن يكون شاملاً. وإن لم تستطع قيادة الصين أن تروِّض نفسها مع دفق المعلومات الحر الذي يرعاه النظام الرأسمالي، أو مع القوة المتصاعدة لطبقتها التجارية التي تزداد قوة، فإن شركات العالم التي تشق طريقها نحو بابها لن تتحول عنها، ولن تهجر مصانعها. وقد أظهرت أن الحزب الشيوعي الصيني يناسبها تماماً.

وباستثناء انبعاث ماو Mao، أو خوض حرب يُفَجِّرها يأسُ كورية الشمالية، أو تعالي تايوان، أو ضريبة أمريكية تفرض على كل ما ترسله الصين إليها، يصعب أن نرى الصين تنكمش عائدة إلى موقعها على خارطة العالم القديمة. وقد أشار توم سالر Tom Saler، الصحفي المتخصص بالشؤون المالية في صحيفة ملووكي جورنال سنتنل Milwaukee Journal Sentinel إلى أن

http://www.ibtesama.com/vb

إحدى وعشرين فترة ركود، وكساد اقتصادي، وصدمتين في سوق الأوراق المالية، وحربين عالميتين لم تستطع أن توقف نمو الاقتصاد الأمريكي خلال القرن الماضي من 118 بليون دولار (367 بليون دولار في سنة 2000م) إلى أكثر من 10 تريليون دولار. ويعني هذا، بالقيمة الثابتة للدولار، زيادة مقدارها سبع وعشرون ضعفاً. ويبدو لنا من جميع الظواهر أن الصين ستحقق نمواً مماثلاً في هذا القرن الجديد. وحتى إن لم يلحق الشعب الصيني، وسطياً، شعوب دول العالم الغنية، وإن استمرت منافسة الصين الرئيسة لكي تكون التكنولوجية الأفضل، فستبقى الصين دائماً متافساً مرعباً.

وليس ثَمَّة شك في أنه إن كان لبلد أن يَحِلَّ محل الولايات المتحدة في السوق العالمية فإنه الصين. وينصح جِفري ساكس Jefferey Sachs اقتصادي في جامعة كُولُومبيا Columbia University ومستشار دُوَل، ينصح الأمريكيين بالاستعداد لعالم يكون اقتصاد الصين فيه في سنة 2050م أكبر من اقتصادهم بأكثر من 75 بالمئة.

غير أن التسليم بنهضة الصين لا يعني الاستسلام للصين. وإنما يعني الاعتراف بحقيقة جديرة بالملاحظة تواجهنا جميعاً. فإن قلّة من الأمريكيين العاملين يدركون إدراكاً كافياً حقيقة نهضة الصين. وأنَّى لهم أن يفعلوا؟ فذلك شيء لم يحصل من قبل، ويجري الآن على الجانب الآخر من الكرة الأرضية. وإننا في حاجة لأن نعرف الذي يجري اليوم في الصين – عاملاً فعامل، ومصنعاً فمصنع – ولماذا سيؤثر ذلك في الجميع؟.

وهذا، في مجمله، هو موضوع هذا الكتاب.

http://www.ibtesama.com/vb

الفصل الأول

مَرْكَبٌ بَطيءٌ في صِينٍ سَريعة

ليس تَعَرُّج ضفاف نهر هوانجبو Huangpu، الذي يعبر شـنغهاي، تَعَرُّجاً عاديـاً. إنه تَعَرُّج يأخُذُ الألباب. فكانت آثار تيارات التغيير التي عَصَفَتْ بالصين الحديثة مدة قرن ونصف، أكثر وضوحاً على ضفاف شنغهاي من أي مكان آخر. فقد اندفعت القوى الغربية في هجوم ضارٍ في منتصف القرن التاسـع عشر من هنا، ثم أدلى اليابانيون بِدَلْوِهِم سـنة 1895م. وأسـس الأجانب دولةً في مدينة يمكن وصفها بأي شـيء إلا أن تكون مسـتقلة، ليديروا منها تجارتهم الصينية. واختلطت الأذواق الغربية مع الصينية على مدى واسـع حتى نرى رصيف الميناء بَند Bund، الذي كان يومئذ المركز التجاري في شـنغهاي، على الضفة الغربية للنهر، أشبه بجادة رئيسة تزينها الأضواء في عاصمة أُوروبية كبيرة.

كانت شـنغهاي في أوائل القرن العشـرين تعد واحداً من أهم خمسة مراكز تجارية فـي العالم- قبل أن تفك الصين ارتباطهـا بالعالم في ثلاثينيات القرن العشـرين - إلى جانب لندن، ونيويورك، وباريس، وطوكيو. وكان ميناؤها الميناء الثاني ازدحاماً في العالم، وضَمَّت مَصارِفُها، التي قامت ضمن الخَليط المفروض من قصـور المال الأُوروبية الضخمـة والأبراج الضئيلة علـى الرصيف، فكانت تعامـلات تجارية مغرية تجري مـع الغربيين واليابانيين الذيـن يبيعون الآلات، والنسـيج القطني، والأدوية، والأفيون. وكان نِتاجُ مصانع الصين يَفيض بالثياب، والورق، وسـواهما من سِلَعٍ سهلةِ التصنيع بأسعار لا يستطيع الغرباء مضاهاتها في أوطانهم. فكانت كميات ضخمة من السِّلَع تنتقل في الاتجاهين معاً.

http://www.ibtesama.com/vb

وقد أنشـــأ الغرباءُ في شنغهاي ميناءً عالمياً، غير أنها سرعان ما تَحَوَّلَت إلى مِغْناطيس يجذب الصينيين الذين يرغبون في العمل في المصانع، أو في الحراسة في فترات الاضطرابات الاجتماعية. وقد أسهمت الهجرةُ الواسعةُ إلى شنغهاي، والخــوفُ من أن يَبْتَلِــعَ الغُرباءُ مدينَتَهم، في التَوَجُّه إلى نظام قَسَّــم المدينة إلى مناطقَ مُنْفَصِلَة؛ فأقسام من المدينة لها بوابات خاصة بالمُسْتَعْمِرين، عُرِفَت بأنها امتيازات، والباقي للصينيين. وتتجَلّى المفارقة في أن التقسيم قد أوجد أيضاً أول مدينة حديثة في الصين عندما فرض الأُوروبيون حكماً يتمتع باســتقلال محلي رســـمي على شـــنغهاي. ولم يكن للمدن الصينية فيما مَضَى برغم أن كثيراً منها كان كبيراً، وكانت حكومات تتمتع باســتقلال محلي. ويلفت الانتباه هنا أن كلمة حديث modern بالإنجليزية، قد نُقِلَت حروفُها إلى اللغة الصينية أول مرة في شنغهاي، فصارَت المدينةُ مُرادِفَةً للحداثة.

لقد شَــيَّدَت هذه المدينة الصينية التي وُلِــدَت من جديد بإدارة غربية أعلى مبانــي البلاد، وآوَت أبرز مصارِفها، وكان فيها حافلات ومياه جارية، وصالونات تجميل، ومقارّ تجارية، وأزياء فرنســية. ولم يكن دعاة الحداثة في المدينة دائماً من الأُوروبيين أو الأمريكيين من النمط الاستعماري التقليدي. فقد كانت شنغهاي الحديثة، منــذ أن انطلقت، وطناً لمجموعة صغيرة اســتثنائية مــن اليهود. أتى كثيرٌ منهم من العراق، وإســبانيا، والبرتغال، والهند. وأسهمت عائلات هاردون Hardoun وقدوري Kadoorie، وساسون Sassoon، في بناء عالم شنغهاي الجديد الذي لم يكن غربياً ولا شرقياً.

غير أن المدينة لم تكن حديثة حتى تكفي لغســل الأحقاد القديمة. إذ تُرْوى قَصَصٌ عن الشــاخصة البغيضة على باب حديقة هَنجبو البريطانية British Hangpu Park التي تمنع دخول «الكلاب والصينيين». كانت شــنغهاي يومئذ، ولم تزل، تجمع تناقضات العالم. وكان محور آســية الرأسمالي هذا أيضاً المكان الذي شــهد سنة 1921م أول اجتماع للحزب الشــيوعي الصيني. وكانت مدينة

http://www.ibtesama.com/vb

شنغهاي موطناً لليائسين. ففي الحرب العالمية الثانية أصبحت المدينة، التي بقيت منعزلة عن الأمم، ملاذاً لثلاثين ألفاً من يهود أوروبا الهاربين من النازية.

واستولى الشيوعيون على البلاد سنة 1949م، وتحولت قوة شنغهاي الإبداعية عن الاستثمار طيلة أربعين سنة تلت. وجَمُدَت الحياة التجارية، وذَوَى بَريق فن العمارة الأوروبية في شنغهاي وأبنيتها القرميدية التي تعود إلى ما قبل 1940 التي كانت تعكس المزيج الدولي للمدينة.

وعادت اليوم شنغهاي المدينة العالمية الأكثر كبرياء وحداثة في الصين. غير أن تاريخ الهيمنة الأجنبية على المدينة ما زال يحمل فَيْضاً من جراح وطنية صينية. ذلك الأذى الجماعي يساعد في إذكاء توجه الصينيين اليوم، إضافة إلى تناقض الصين في استعدادها لما يمكن أن تعطيه للغرباء ولما تأخذه منهم. كانت شنغهاي قديماً فاسِدَة غير أنها بَرّاقة، وهمَجِيَّة لكنها مُنَمّقة، وبَغيضَةً وإنما مُرْبِحَة. وقد اعتادت حكومة الصين أن تخفي هذا الجانب من ماضي شنغهاي، وتستعمل الحكومة ماضي شنغهاي الاستعماري الذي وُصِم مرة بعبارة «عاهرة آسيا» لتذكر جمهورها بأن ثَمَّة عالماً معادياً جاهزاً دائماً ومستعداً لإهانة حضارتهم الفخورة.

فإذا كان ثمَّة من لديه استعداد للقتال فإنهم أهلُ شنغهاي. إنه استعداد يجمعونه بحماسة شديدة ويحوّلونَه إلى ناطحات سَحاب. فبرغم شُعورهم التاريخي بالمهانة، ربما كان أهلُ شنغهاي أكثر ثقة – أو أكثر غروراً، كما يقول الصينيون – بين أبناء بلدهم. ويعتقد أبناء شنغهاي أنهم أفضل رجال أعمال الصين، وأكثرهم قدرة على الإدارة، وأكثرهم عَوْلَمَة، وأشدّهم إقداماً على المغامرة. وليس صدفَة أن يكون عددٌ غير متكافئٍ من القيادة العليا للحزب الشيوعي قد قَدِم من تلك المدينة، أو أن الصين خصت شنغهاي دون سواها لتكون المدينة التي تحل محل هونج كونج مركزاً مالياً كبيراً في البر الرئيس، ثم احتلت موقعها مركزاً من أهم مراكز المال والأعمال في العالم. وهكذا يعد

http://www.ibtesama.com/vb

وسط هوانجبو Huangpu مكاناً ملائماً ليشهد تناغم المدينة وائتلاف الماضي والحاضر. فالمواصلات تزدحم في الطرق المائية كما هي الحال في طرق المدينة المكتظة بوسائط النقل. ورحلة المركب بعد الظهر تقل المسافرين إلى ذُرْوَة ساعة الازدحام المائية، حيث مئات المراكب، بعضها على شكل سمبان مُضَخَّم، وبعضها مثل جبال عائمة من الرمل أو الفحم، تَصْطَفُّ أربعةً أو خمسةً على عرض النهر تحت ظلال سفن شحن عابرة محيطات برتقالية أو مراكب رمادية أنيقة تَبْدو مصانع عائمة غير أنها تحمل وقوداً ومواد كيميائية.

ومركب النزهة هو قَطْمَران catamaran، غير أن شكله والركوب فيه يشبه ركوب مركب بطيءٍ - مجهَّزٍ بمطعم من ثلاثة أدوار مفتوح من أعلاه. ولولا رأسيّ التنين النحاسيتين بعينيهما الجاحظتين يبرزان من مقدمته لكان القارب أشبه بقاعة احتفالات صينية رخيصة الأجر. والمركب المليء بمقاعد كالعروش محفورة على طراز الباروك مُوَشَّاة بالذَّهَب المكثف. وطاولات الطعام مغطاة بمفارش منشاة غير أنها مُلَطَّخَة بالبُقَع، وطاقم من العاملين بليد، كل ذلك يعطي المركب شكل سفير عائم لقطاع سياحي حكومي، وإمبراطورية في طول البلاد وعرضها تضم المطاعم والفنادق الرديئة. أما خدمة القارب، وهو أحد المشاريع السياحية التجارية الأولى في الصين، فمازالت تُرَوِّج للنسخة الشيوعية من السحر حتى عندما يذرع النهر الرمادي جيئة وذهاباً ثلاث ساعات ونصف، شاقاً طريقه ببطء نحو تقاطع نهر يانجتزِ Yangtze وبحر الصين الشرقي.

وبرغم المواصلات النهرية، فقد بَقِيَت شنغهاي مُحْتَواة بذاتها، يطوِّقها ريف زراعي. وعندما بدأت الجولات بالمركب بُعَيْدَ تحَرُّر الصين الاقتصادي في مطلع ثمانينيات القرن العشرين، كان المرء يستطيع أن يَمُدَّ بَصَرَه خلال الماء ليرى حقول الأرز والخضار، وساحات يربى فيها الدجاج، والخنازير، والإوز، والشَّجَرِ الظَّليل. فأصبح رصيف الميناء زَرِيّاً إثر عقودٍ من الاحْتِقار الشيوعي، فلا يَصْلُح لِعَمَل تجاري منذ سنين بعيدة. واستولت الوكالات الإقليمية والإدارية، بما تحمله

http://www.ibtesama.com/vb

مـن حِقْدٍ على الفنادق والمصارف الأجنبية، علـى أكبر الأبنية. فعندما ازدَهَرَت شـنغهاي في تسعينيات القرن العشـرين، بقي رصيف الميناء راقداً، مثل مشهد مدينـة في فيلم غير عادي من أفلام هوليـود في الثلاثينيات لم تَعُد تَجِد قِصَّة فيلم أُخرى.

وعندما اسـتعادت شـنغهاي مَوْقِعِها التجاري، حاولت تَرْميـمَ بعضَ أَلَقِها وحَيَويَّتِهـا الدولية بِتأجير حَيِّـز من أبنية الرصيف الكبيـرة إلى مطاعِم دجاج كنتاكي Kentucky Fried Chicken التي كانت تحمل نكهة الغرب «الفاخرة» عند السـكان المحليـين في تلك الأيام. أما اليوم، فقـد انْجَلى دجاجُ كنتاكي عنَ الرصيف، غير أنَّه انتشر في أماكن أخرى من المدينة، حيث يعد رفاهية مرغوبة. واكتسـب رصيفُ الميناء، في هذه الأثناء، البريقَ الذي يَحمِله إلى عواصم العالم متعهدو أسلوب الحياة الدولية. وإنَّكَ تَسْتَطيع أن تجد الآن على الرصيف الشوكولا الإيطالية، وماء إيفيان الفرنسـي، وفنادق ومخـازن أنيقة، ومطاعم عالمية جاءَ طُهاتُهـا الكبار من باريس ونيويورك. ومجمع ترفيهي على الشـاطئ يحتل برجاً لمكاتب قديمة كَلَّفَ تجديدُها 50 مليون دولار قام بها مايكل جريْفس Michael Graves، وهو من أشـهر مهندسـي العمارة في العالم. ويضم صالةَ فنون ربما كانت من أكثر مواقِع الاسْـتِعْراض الذي يَرْتادُه الناسُ في العالم، وله نوافذ تطل على حركة المواصلات المائية وضفاف النَّهر كستائر راقصة من أضواء مُلَوَّنَة.

إنها مدينة ذات ثروة حقيقية تلك التي تسـتطيع أن تُجري كُلَّ هذا التغيير. فمتوسـط الدخل في المدينة يزيد عن عشـرة أضعاف الدخل خارجها، وهناك طبقة وسـطى كبيرة يبلغ دخـل الفرد فيها 10.000 دولار أو أكثر في السـنة. وقد سَـمَّى الناسُ المالَ الذي يَكسِبونه غير الدخل الذي يصرِّحونَ عَنْه «مصادر إضافية»، ويبدو أن كثيراً من الناس يملكون هذه المصادر. وتزدحم على الرصيف وعلى الطرقات المرتفعة سيارات خاصة تكلف أُلُوفاً أكثر مما تكلفه في الولايات المتحدة وأوروبا. حيث تفرض بلدية شـنغهاي على السـائقين دفع 5.000 دولار

http://www.ibtesama.com/vb

ثمن إجازة لشــراء ســيارة. وبرغم ذلك، فإن الأنواع الراقية تُطلَب مُسْــبَقاً. وما كان الإقبال على الشــقق الخاصة، وكثير منها يكلف 10.000 دولار وربما أكثر، ليحــدث في مدينة ليس لها موارد إضافية كثيرة. إنه ازدهار يُمَوِّل ازدهاراً. لقد ارتفعت أملاك شنغهاي ارتفاعاً سريعاً أنشأ طبقة مالية جديدة في المدينة. فقد ارتفعت قيمة أملاك السكان المحليين الذين يملكون ما يكفي من المال والجسارة لدخول سوق الإســكان في أواسط تسعينيات القرن العشرين وأواخره 20 بالمئة على الأقل ســنة بعد سنة. وتضاعفت قيمة كثير من العقارات في أقل من ثلاث ســنوات. وأقبل الناس على شراء المزيد. إنهم يبيعون قليلاً ليشتروا المزيد. وقد ثارَت فَضيحَةٌ محليَّة على أخبارٍ بَيَّنَت أن ثُلُثَ شــقق شــنغهاي الجديدة الفخمة قد اشــتُرِيَت ثم بِيْعَت قبل أن تســكن. وقد أدى ذلك إلى طفرة ثراء لشريحة من الســكان الشباب في شــنغهاي لا يعرفون من أين أتت ثرواتهم، كأنهم إذا رفعوا أيديهم في الهواء يأتيهُم المالُ طائراً.

وكان مِن أســباب انتصار الحزب الشــيوعي نجاحُه في نشر التَداوُل السَّهل لِلُّغة الصينية بين مُعْظَم سُــكَّان الصين. ويُتْقِن أهل شنغهاي اليوم اللغةَ الصينية، غير أن الوافدين إليها من شَــتَّى مناطق الصين يَدْرسون أوَّل مَرَّة لهجة شنغهاي المحلية،وقد بدأت الكتب والمعاجِم التي تساعد الناطقين باللغة الصينية الرسمية (الماندارين) تلتقــط اللهجة، وأخَــذَت طريقَها إلى مكتبات المدينــة. وازدَهَرَت مــدراس تعليم لهجة شــنغهاي. كل ذلك لأن طبقة شــنغهاي العليا من المديرين فــي المدينة يتحدثــون فيما بينهم بهذه اللهجة، وفي حضور المســؤولين والعمال والمديريــن الأجانب. وتوحي الإيماءات والنظرات للآخرين أن من يتحدَّثون بهذه اللهجــة يُخفون أســرارا، ويَعْجَبُ الأجانب من الأمر، فصــارت مواد تعليم اللغة تُعرَض للأمريكيين والأُوروبيين الراغبين بشرائها.

إن الغَــرَضَ مِن تَعَلُّم اللهجة المحليَّة هو أن يُحيــطَ المرءُ بِكُلِّ جزءٍ مُمْكِنٍ من طاقة المدينة. ازدهرت شــنغهاي في فترة الاســتعمار [المعروفة بحَرب الأفيون]

http://www.ibtesama.com/vb

بتَعاطي الناس الأفيونَ فأدمنوا عليه. فصارَت مُخدِّرات شنغهاي طاقةً تَشُدُّها جماهيرٌ كبيرةٌ من السكان الذين يَتَدَفَّقون على المدينة لأخذ نصيبهم منها. ويتَّقِدُ شبابُ شنغهاي تفاؤلاً بعيش رَغد يوم تضاعف الاقتصاد المحلي، ثم تضاعف أضعافاً مُضاعَفَة.

وإن وراء الرصيف ما تكاد تراه من المركب، فتجد المدينة تندفع وراء جميع الحدود شمالاً وجنوباً وغرباً. فقد زَحَفَت رافعاتُ البناء بعدد كبير إلى شنغهاي من أنحاء العالم المُخْتَلِفَة في أواخر الثمانينات، وتمددت حُدودُها في عَنانِ السَّماء. فقد أُنْشِئَ أكثر من خمسة آلاف بناء جديد يرتفع كل بناءٍ خمسةَ عشرَ طابقاً سنة 2004م.

وإذا كان النهرُ خَيْرَ مكانٍ تَنْظُرُ مِنْهُ إلى المدينة، فليست المباني العالية أفضلَ مكانٍ تنظرُ منه إلى المدينة. فمن هذه الارتفاعات يرسل المرء بصره عبر غمامة مقيتة من سخام smog بني اللون تطفو على خط الأفق كالسحابة التي تُخَيِّم على حَمَّام عامل منجم فحم. وإن أوضح مشهد لشنغهاي تراه في قاعة عرض التخطيط المديني لشنغهاي. وإن من التحف الخيالية الغريبة عن حديقة رينمين (الشعبية) Renmin (People's) Park، رَدّ شنغهاي الاحتفالي على ساحة تيانانمين Tiananmen Square، والقاعةُ عُلْبَة بيضاء زجاجية، بحجم متجر كبير من متاجر المدينة، يعلوها أربع قباب عملاقة على شكلِ خيام سيرك مقلوبة، فيجعلها من أبهى مباني المدينة.

وقد يرى المرء في الداخل مدى ما تمحو شنغهاي من ماضيها المتواضع وبناء مستقبل رفيع. فيجد في الدور الثالث نموذجاً مصغراً للمدينة كُلّها، يشمل جميع مبانيها كما هي في مواضعها أو كما هو مخطط لها، وقد حُوِّلَت إلى برج صغير لا لون له. ويغطي المجسم مساحةً تُعادِلُ ملعب كرة السلة، ولا يزيد ارتفاع أي بناء عن عشرة سنتيمترات. فأيّ مدينة في العالم تأخذ قسماً من عقاراتها القيمة متخطية حديقتها الرئيسة وتخصصها لبناء يُمَجِّد خطط قادتها المدينية

http://www.ibtesama.com/vb

للمستقبل؟ فقد يكون في مدينة أخرى صُوَرٌ لمخططات المستقبل على جهاز كومبيوتر، ومجسم تحت الزجاج في دار البلدية أو متحف للعلوم، ولا يُفْرَدُ له بناءٌ كاملٌ. أما في شنغهاي، فإنَّك تجد الدعاية للمدنية تطالها حُمى الفخامة، وتنجح في ذلك. وعندما تصغر المدينة المزدهرة إلى حجم دقيق فإنها تبدو كائناً حياً يمتد على الأرض، ويتلاشى أفقها وراء مجال البصر.

ويسير سُكَّانُ المدينة على رصيف مُرْتَفِع يُحيط بالمجسَّم باحثين عن مَواقِعَ بيوتهم، أو المباني العالية التي حَلَّتْ محل بيوتهم. وقد يبدو المجسَّم مختلفاً كله عن هيئَتِه هذه قَبْلَ زَمَنٍ غير بَعيد. فقد عاش الناس في شنغهاي، وكَبُروا في جوار مدارس (كان مُعْظَمُها قُصوراً لِنُخْبَة الأجانب في المدينة)، ودكاكين صغيرة، وباعة مُتَجَوِّلين، وبيوتاً مُتَراصَّة من طبقتين أو ثلاث، تَضمُّ كلها تجمعات متآلفة من السكان. كان الأولاد يلعبون بالكُرَة، والأُمَّهات يَنْشُرْنَ غَسيلَهُن، والأَجْداد يَلْعَبون مهجنج mah-jongg أو يجلسون مع أقفاص عصافيرهم. أما اليوم فيذهب الفتيان والفتيات إلى مدارس في مدنٍ أُخْرى أو خارج البلاد، ويغادر المتخرجون المدينة للعمل ويعودون إلى بيوتهم بعد سنة أو سنتين ليجدوا مكان البيوت الصغيرة مجمعاً تبلغ مساحتُه مساحَةَ ساحة الأمم المتحدة في نيويورك. وهذه التجربة لاتؤدي إلى تشتت واضح فحسب، بل تُخَلِّف شعوراً بأن المدينة زائلة، مهما بُذِلَ من جُهْد في إعادة بنائها، وأن الذي سيبقى هو طموح شنغهاي فقط.

وتَشُدُّ الأنظارَ قاعةُ المعارض في حديقة رِنمين Renmin، حيث مسرح المدينة الكبير الذي صَمَّمَه فَرَنسي وافتُتِحَ سنة 1998م يُشْبِه مركز بومبيدو Pompidou Center [في باريس] وقد أعيد بناؤه على شكل معبد صيني. وتجد عبر الشارع متحف شنغهاي الدائري، المبني من الجرانيت الإسباني الوَرْدي، وقد صُمِّم على شَكْل مركب برونزي صيني قديم، بقبابه وشكل قبضاته. وكان المتحف أول متحف صيني يُخَطَّط على النمط الأمريكي الحديث. وقد دُعي للتبرع الأغنياءُ، وبخاصة أصحاب الملايين من مُهاجِري الصين الذين يقيمون وراء البحار، والذين يرغبون

http://www.ibtesama.com/vb

بتقديم شيء لوطنهم الأم – عَلَّهم يَجْنونَ شَيْئاً بالمقابل. إنه المكان الذي يشعر فيه السياح الأجانب بالراحة القُصْوى في شنغهاي، فيربطون عظمة الصين الغابرة بالحاضر. ويَتَجَوَّل فوج من الأجانب في الصالات، يُتعبُهُم فارق التوقيت، وتَباطؤ الزمن، وخمسة آلاف سنة من الاستعراض الإمبراطوري.

كيفَ غَزَت تايوانُ شنغهاي

لم ينمُ كلُّ طموح شنغهاي في داخلها، بل على خلاف ذلك. فبرغم أن القصد من المجسم في قاعة عرض تخطيط المدينة إعطاء انطباع أن المدينة تتحكم بمصيرها، غير أن المشهد من الخارج يعكس مدى ما أسهمت الطاقة والمال الأجنبيان، ومواهب الطبقة العالمية التي تتدفق على المدينة في إعادة بنائها. وإن إحدى مناطق شنغهاي التي كانت في يوم مضى خارج مجال البصر، أصبحت الآن فوق خط الأفق، وتضم أحدث مَعْقِلٍ للأجانب في المدينة، موقع ولادة شنغهاي الجديدة.

وبدأ الأجانب يَتَدَفَّقون ثانيةً في التسعينيات، فأُعيد بناءُ منطقة كاملة من المدينة هي منطقة جوبي الجديدة Gubei من أجلهم. أما القادمون الجدُد فقد كان شعار الترحيب متكرراً – بل يَبرُزُ – وفرة تايبي Taipei وهونج كونج Hong Kong ومدناً آسيوية أخرى. حيث انبثقت تجمعات سكنية فاخرة ضخمة بحجم فنادق لاس فيجاس العملاقة وفخامتها. وبرغم أن تجمعات جوبي تبعد عدة كيلومترات عن الرصيف، غير أنها كانت – مع تجمعات ناطحات السحاب الجديدة الأخرى في شنغهاي –كبيرة جَعَلَت المباني القديمة تبدو صفاً من البيوت الريفية. ومثلما لَبَّت المستوطنات الدولية في شنغهاي القديمة الحاجات الشَّخْصِيَّة للأوروبيين واليابانيين، فإن جوبي الآن مدينة داخل شنغهاي تقدم صورة من آسيا المزدهرة التي تمتد إلى خارج الصين.

http://www.ibtesama.com/vb

ولعل ما يدعو للتساؤل أن نجد كتب الأدلة السياحية لا تتطرق لذكر جوبي. فكتاب Lonely Planet Shanghai يصفها بتسع جمل؛ ولايذكرها كتاب Let's Go: China أبداً. إن ما يغفلونه اليوم قد يكون مكاناً غير عادي للسياح في المستقبل. ومثلما كانت شنغهاي القديمة، فإن جوبي مكان يُشْبِه امتيازاً أجنبياً، واستيراداً كاملاً لنمط حياة غريبة ابْتُدِعَت من أجل الأجانب ومن قِبَلِهِم.

كانت الموجة الأولى من القادمين الجُدُد تحمل عائدين من نوع خاص حقاً، إنهم «صينيو ما وراء البحار»، قَدِمَ مُعظَمُهُم من تايوان، وهذا ما جعلهم إضافة غير عادية على المشهد المحلّي. وإن حكومتهم في تايبي Taipei لاتحمل وضعاً رسمياً في الجمهورية الشعبية، وإنما أَحْضَروا معهم المال والخبرة؛ أمران لم تكن شنغهاي لتقاومهما. فأقامت شنغهاي الرسمية مكتباً خاصاً كقنصلية أمر واقع للتايوانيين، تقدم لهم ما تُقَدِّمُه حكومة لمواطنيها ذوي الوضع السياسي الأقل ضبابية. ويصعب تحديد عدد التايوانيين في شنغهاي، ولايستطيع إحْصاءَهم المكتب. ويتراوح الرقم الرسمي بين 250.000 و 500.000 فرد. غير أن الرسميين في شنغهاي يستطيعون تحديد عدد الأعمال التايوانية في المدينة. فهناك أكثر من خمسة آلاف منهم، يستثمرون أكثر من 10 بلايين دولار في استثمارات أجنبية تدخل المدينة. كانت الأعمال التايوانية ترحل إلى الصين بحماسة مُخَلِّفة في تايوان خوفاً شديداً من أن يتداعى اقتصادها مع هجرة المال والخبرة إلى بَرِّ الصين.

فكم يغير الاستثمار الأجنبي من المشهد للناظر إليه من نافذة قارب في النهر؟ لقد كان في المدينة، مع انسلاخ سنة 2003م، أربعة عشر ألفاً وأربعمئة شركة يملكها كلّها أجانب، إضافة إلى 13.000 من الأعمال التي تضمنها أموال أجنبية. فقد جذبت المدينة سنة 2004م أكثر من 12 بليون دولار في استثمارات أجنبية مباشرة، كان الجزء الأكبر منها لصناعات من أجل التصدير بخاصة للولايات المتحدة. وبكلام آخر، جذبت شنغهاي بمفردها مقدار الاستثمار ذاته

http://www.ibtesama.com/vb

الذي جذبته إندونيسيا كلّها، البلد الذي يحتل المرتبة الرابعة في كثافة سكانه في العالم، والمكسيك، البلد الذي يفترض أن تحوله اتفاقية التجارة الحرة في أمريكا الشمالية North American Free Trade Agreement إلى مغناطيس يجذب رأس المال العالمي. والصينيون وراء البحار، هم أكثر المستثمرين حيوية، يقدمون أكثر من نصف المال الأجنبي الذي ينفق في تأسيس الأعمال. حيث بلغت حصتهم في أوائل تسعينيات القرن العشرين 70 بالمئة تقريباً.

وما زال سهلاً أن تدرك الحُمى التي ألهبت مستثمري المدينة الأوائل بعد مُضيّ سنوات على ازدهار شنغهاي الاقتصادي. فالاحتكاك المباشر بالصين يغيرُ نظرة المرء إلى الممكن والمتاح. والرحلة النهرية وحدها تثير الخيال، وتحرك كُلَّ المخططات والمشروعات لاقتناص الثروة من مشروعات الآخرين وجَرِّ جزءٍ يسير من تجارة هذا الحشد الكبير إليك. إنها أمور قد تبدو، ضمن أُطُر أخرى، مُنَفِّرَة، نجِدُها هنا متألِّقَة. فهناك حشد محدق واضح للعيان، والبصمة السياسية للحزب الشيوعي تحيط بكل شيء، وتُفَجِّر المدن وتنشرها نَشْراً عشوائياً؛ ورغبة مشتركة ودفينة في مقايضة الوقت بالمال، مهما كانت الكلفة الاجتماعية لذلك. فتبدو، هذه السجايا على البعد، كلها في الصين كالشياطين. غير أنها قد تُسَيْطِر على تفكيرك إذا اقتربت فتظهر لك غِنى. فكم تَخَلَّت بلدان عن نظرتها إلى العالم عندما دخلت الصينُ المشهَد.

فَتَخَيَّل أثر هذا الضغط النفسي على التايوانيين، الذين كانت الصين دائماً نُصبَ أعينهم. وتناضل الآن الدولة الزائفة على الجزيرة التي مالت إلى الديمقراطية في أمر الاستقلال وتدرك تعامل العالم مع بر الصين. إذ تفرض فرصها عليها إعادة النظر في هُويَّتها. وانظر في التعقيد السياسي لمزج درر تايوان الاقتصادية مع فرص الصين الفَسيحَة. فللتايوانيين كل الحق في أن يخشوا على روح تايوان الديمقراطية الجديدة المزعجة. وتُلِح الحكومة الشيوعية على أن يُنكِر التايوانيون الذين اختاروا إقامة أعمال في بر الصين تطلعات القيادة التايوانية

http://www.ibtesama.com/vb

إلى الاستقلال. ويأتي التوجيه أشبه بطلب أب يعرف ثروة أبنائه وارتباطاتهم الاجتماعية، وكذبة الهوية ضمن العائلة. وفي أحداث الصين المثيرة، نجد آباءً يطردون أبناءهم وبناتهم، غير أن قلوبهم ترقّ بما يكفي للتّرحيب بمصالحة طال انتظارها، أو يعيشون المأساة عندما يدركون الأمر متأخرين. ويتساءل أهل البر الرئيس والتايوانيون، متى يغير الآخر آراءه؟. فالصين الشيوعية لن تتغير أبداً لأسباب تتعلق بتايوان. وربما تتغير تايوان وتقترب من الصين الشيوعية، غير أن الرهان على ذلك ضعيف جداً.

لقد سافر أكثر من مئة ألف تايواني إلى موطنهم للتصويت في انتخابات الجزيرة سنة 2004م، وكان كثيرون منهم يمارسون حقهم الانتخابي أول مرة في حياتهم. فَمَنَع الصينيون الاجتماعات السياسية للتايوانيين في الصين خشية فتح باب نقاش استقلال تايوان. غير أنهم أساؤوا التقدير. فالتايوانيون الذين يعملون في الصين لا يميلون إلى مؤيدي الاستقلال، فهم يعيشون حالة فريدة. والتايوانيون في شنغهاي مؤمنون يراهنون على الصين الأكبر، وليس على صناعات قليلة الأجر فقط، تستطيع أن تنهض وتنتقل في نزوة خاطفة إلى عمال محليين قليلي الأجور. ولعل الأهم هو أن شنغهاي وطن جديد للخليط التايواني العالمي الرائع. وعندما يأتون إلى الصين فإنهم لا يأتونها بدولارات استثمارية فحسب وإنما يحملون مزيجاً من التكنولوجية المتطورة، ويقع في ذلك المزيج ممارسات تجارية، وشبكة دولية مرتبطة بأفضل شركات العالم، ومصارف تايوانية وشركات تأمين وضمان، ومختبرات بحث عالية التكنولوجية.

وهكذا أيضا حال حشد شباب ذوي تطلعات دولية، الذين يتمتعون بأسلوب وطاقة إبداعية وأسلوب وسَطٍ بين شجاعة قوة البر الصيني الصناعية، وبين ما هو ضروري وغير ملموس من اعتدال التكنولوجية العالمية. وأما شباب الصين فيما وراء البحار - الذين وُلِدوا لآباء من الصين؛ وشَبُّوا في تايوان أو هونج كونج، أو ربما في كليفلاند، أو فانكوفر، أو ساوباولو، أو سَيْبريا الشرقية،

http://www.ibtesama.com/vb

الذين تَعَلّموا في الولايات المتحدة، أو أُستراليا، أو بريطانية العظمى- فيعدون شنغهاي نسخة عن باريس عشرينيات القرن الماضي. وصحيح أن بيكاسو Pi-casso غير قادم، وإنما تتحول مناطق المخازن في شنغهاي إلى صالات عرض، بينما تأتي أستوديوهات السينما من هوليود أو هونج كونج وسواهما إلى هنا بمجموعة من رجال الأدب والتكنولوجية والشخصيات المرموقة الأنيقة الذين لم يسبق للصين أن عرفتهم من قبل.

لم تعد منطقة الجوبي Cubei للتايوانيين وحدهم فقط، بل صارت تُؤْوِي الكوريين، واليابانيين، وسواهم من صينيي وراء البحار، وبخاصة أولئك الذين يأتون من جنوب شرق آسيا وهونج كونج. وهناك مَعْقِل لأبناء شبه القارة الهندية يتَكَوَّن في إنديا تاون India Town. ويَفْخَر الجوبي الآن بمخازن عصرية ومطاعم ذوات خمس أدوار تتألف من غرف خاصة، ومحلات مُصَمِّمين، وصالونات راقية، حُدِّدَت أسعارُها كُلّها بعين مغمضة عن تكاليف المعيشة المحلية المنخفضة.

شنغهاي

إن الصُّحبةَ هي أحد أسباب الراحة التي يَلْتَمِسُها القادمون الجُدُد إلى شنغهاي، وقد تحول الجوبي إلى منطقة قادرة على استيعاب عدد متزايد يأتي إليها من مَحْظيّات «وزوجات ثانيات» سعيدات. ويستطيع المرء أن يلحظ نساءً صينيات خلال النهار، ارتَبَطْنَ برجالٍ، معظمهم صينيون، يعيشون في المدينة لمتابعة عمل ما، ويشترون للنساء ثياباً من الماركات الشهيرة، والأحذية ذات كعوب عالية، وحقائب يدوية فاخرة. فالجنس مازال من مُغريات شنغهاي. وتفاوت الثروة بين الوافدين والأغنياء المحليين من جهة، والعدد الجَمُّ من السكان الذين يبحثون عن سبيلٍ للصعود من جهة أخرى، كلها تُوَلِّدُ ما يُتيح جميع أنواع الاتصال. وما انخفاض مبيعات الجنسنج Ginseng المحلية سوى مؤشر بسيط على عدد الرجال الذين تحولوا إلى الفياجرا Viagra، التي لم تَعُد تَحْميها قوانين حماية براءة العلامات التجارية في الصين لشِدَّة الإقبال عليه.

http://www.ibtesama.com/vb

وهنا، يستطيع كهل صيني عائد من وراء البحار أن يجد فتاة راغبة، ويستطيع ميكانيكيٌّ ألماني فَظٌّ مفتول الساعدين أن يجد فتيات لدنات رشيقات لا يَجِدُهُنَّ في وطنه، ويجد مهندسون غربيون باردون فتيات حارّات يُضْحِكن أصدقاءهنّ في الوطن. ويمر فيض من سيارات بورشه Porsche وSUV الرياضية المكشوفة أمام نوادي شنغهاي المزدحمة، تجري على أنغام موسيقى الراپ الصينية. ويجلس وراء مقود هذه السيارات سماسرة سِمانٌ قِصارُ القامة يَتَعَشّون كل ليلة مع زبائن ويسمرون بعد ذلك مع صُحْبَة، أو «قوارين» [جمع قارون] صغار اشترى لهم آباؤهم ذوي العلاقات والنفوذ أسلوب حياة صيني يشبه طراز حياة بِلْ إرْ Bel Air. ترى يداً على المِقْوَدِ، والثانية على أحدث هاتف قيمته 800 دولار، يقودون سياراتهم ببطء ويتصلون بأصدقاء لهم في الداخل لتقدير المشهد هناك. وتقف أمام أبواب النوادي عصابات من رجال فظين يشتبكون كل ليلة في مشاجرات لإبعاد أبناء البروليتارية [الطبقة العاملة] القذرين اللجوجين الذين يُسْرِفون في الشراب المُسْكِر المَحَلّي، في مكان غير مرغوب بوجودهم فيه.

ويصيحون: «هذه هي الصين! ومن أنت الذي يطردني؟ إن أَجْوَدَ عاهرات شنغهاي هنا في الداخل وإني أريد أن أُجَرِّب عَيِّنَةً مِنْهُن!»

وتأتي الشرطة كل ليلة، وهي التي لا تكاد تُرى في المدينة، لتطرد الغاضب بعيداً. وإن مُقْتَحِمي البوابة مُصيبون، فأجود عاهرات المدينة تجدهن في الداخل. ويحرص تلاميذ الأخوات هِلتُن Hilton Sisters على أن تكون ملابسهن ضيقة لها فتحات في مواضع حساسة، وأن تكون كعوب أحذيتهن بطول تنانيرهن، وقد صَفَّفن شعرَهُن وجَعَلن زينَتَهُن على طراز مراكب الأحلام الآسيوية. يوقفن القلوب ويكسبن نصيبهن من الاستثمار الأجنبي المباشر.

وثمَّة أولئك الذين يرغبون في البحث عن رفاق من جنسهم، في فورة الشباب، يَتَّصِفون بِنُعومَةٍ ودِفْءٍ. وترى مشهد الشذوذ الجنسي في شنغهاي نشيطاً، وبانكوك لا تبعد أكثر من حزمة زمنية واحدة. فالجنس يستقطب الأجانب إلى الصين، وإنما ليس بِقَدْر ما يَسْتَقْطِبه المال.

http://www.ibtesama.com/vb

أَبْنِيَةٌ صاروخِيَّة

إن المفارقة التاريخية المذهلة عن المركب ليست في تصميمه على شكل التِّنين أو خدمتــه البطيئة؛ وإنما هي اللوحة التي تصف الجولة النهرية للزبائن. إذ تَعِدُ بأجمل الرحلات المائية في الصين، حيث تكشــف في كل دورة مشــاهداً طبيعيّة وافرة. ويَعْكِسُ استمرار المَشْهَد البهيج تَعَثُّر المشروع الحكومي، ويُظهِرُ أن اللوحة بعيدة عن واقع المدينة، مثلما هو حال جولة بِقارِبٍ حَوْلَ مانهاتان Manhattan التي مازالت تذكر أعجوبة قبر جرانت Grant's أو الذروة الرائعة لبناء وُولوُرْث Woolworth وتُهْمِلُ جمال خــط الأفق كُلّه ومنظر المدينة الكبيرة الذي يُغَطّي المَشْهَد. أما اليوم، وبعد انقضاء عشرين سنة على تدشين ذلك القارب، فلا مَفَرَّ من منظر مدينة شنغهاي وما يحيط بها من مصانع. وتطل المدينة وصناعتها من أعلى نهر هوانجبو على التنينات مع كل منعطف.

ولا يَتَجَلّــى هذا التباين في موضع آخر أكثر مــن بودُنج Pudong، وخط الأُفُق الزجاجي في شنغهاي حقاً. وترتفع الأرض التي كانت من قَبْلُ حقولاً، عَبر هوانجبو وبودُنج فغَدَت مُوازية لمركز مدينة ينمو نمواً لايُصَدَّق في القرن الحادي والعشرين، مُحَقِّقاً قراراً صدر قبل خمس عشرة سنة فصار مركزاً كبيراً بعد أن كان أرضاً سبخة منخفضة. ويُسَمّيها المسؤولون «صورة مصغرة لمعجزة الاقتصاد الصينــي»، وهي في حقيقتها مِثْل المعجزة. إذ تُؤوي منطقة بودُنج حوالي ســتة آلاف عمل أجنبي التمويل، وفيها ما يقارب ثلاثمئة من خمســمئة شــركة ثروات عالمية Global Fortune (وعلى ضفة شنغهاي القديمة للنهر توجد مئة شركة أخرى). وتَسْــتَغِلّ الشــركات التجارية الأجنبية وضع بودُنْج كمنطقة اقتصادية خاصة Special Economic Zone أو SEZ لِكَسب تخفيضات في الضريبة وحوافز أخرى، منها، علاقات صداقة مع القيادة الصينية، التي شجعت المشروع. إن هذا النمو – الذي يشمل أبراجاً مُسْتَدِقّة وأضواء نيون، وعرض أفلام فيديو من أعالي ناطحات الســحاب، ومطاعم دوارة تَعلو كمركبــات فضاء أُخِذَت من

http://www.ibtesama.com/vb

صفحات مجلة أميزنج ستوريز (قصص مذهلة) Amazing Stories مشاريع تشبه قصص إتش جي ولز H. G. Wells حيث يُخرج المستقبلُ التكنولوجيُّ المتطور الصينيينَ من وقائع الحاضر القاتمة. وهذا ما يجعل بودُنج خير دعاية للأمل.

وقد تكون بودُنج من أكثر الأعمال التافهة التي عرفها العالم. فمن أين أتى كل هذا المال لبناء ضاحية مدينة ستضاهي باريس في حجمها في زمن غير بعيد؟ لقد استثمرت حكومة الصين أكثر من 12 بليون دولار في إنشاء بنية تحتية لكي تَتَهَيّأ الأرض لمزيد من البناء. وإذا استثنينا تكاليف البنية التحتية البلدية، فإن طفرة البناء في بودُنج، مَثَلُها في ذلك مَثَلُ كثير من تطورات الصين الأخيرة، قد ضَمِنَتها ثروة من المال العام أُنْفِقَ وخُصِّصَ دون اعتبار لجدوى الاستثمار الاقتصادية. ويبقى التفاؤل شديداً، فثمة جهاز اجتماعي كامل قائم ليؤكد بقاء التفاؤل عالياً.

فهل ينبغي أن يُراهَن ضدَّ بودُنج؟ ربما لا. فهذه شنغهاي، حيث تنطلق المَباني من الأرض مثل الصواريخ، وحيث الرجال يلتهمون فياجرا مُزَيَّفَة [مُقَرْصَنَة]، وحيث يندفع روَّاد المدينة وراء مشاريع تَشعُّ تَفَوّقاً كلما ذكرت. فهم ينظرون إلى المباني والأشغال العامة قد ضُخِّمت لتكون الأكبر، والأعلى، والأطول، والأسرع، وكل ما له صفة الأفضل.

ويعد برج تلفزيون لؤلؤة الشرق Orient Pearl Television Tower المَعْلَم الأَبْرَز في بودُنج، فهو أعلى برج تلفزيون في آسية كُلِّها، وثالث أعلى برج في العالم. فيشمخ في عُلُوِّه حاملاً ثلاث كرات معدنية متناقصة في أحجامها، صُمِّمَت لتبدو كالجواهر. فأكبرها وأدناها صالة رقص وغناء كَرُوُوك karaoke، ويعلوها مطعم دوَّار، وأما الكرة الأصغر فهي منصة للمراقبة. ولما كان البرج قد بني سنة 1994م فإنه لم يعد يلائم مقام شنغهاي المتطوِّر، لولا أن شعوراً عاطفياً مطلوب ليفيض عند بقاء مَبَانٍ ضخمة في مواقعها على مَرِّ السنين. وربما كان لها بريق بعد الحداثة، مطلقة العنان لخيال معماريي مباني شنغهاي الجديدة

http://www.ibtesama.com/vb

في كَسْــر أسلوب تقليدي دولي للاستمتاع بطراز مبانيهم. ويُحِبُّ أدلاء السياحة في المدينة أن يشــيروا عند رؤية البرج على نســق ما جسرين قريبين فيصورونه تِنِّينَــيْن يلعبان باللآلئ. وهناك أمام البرج مبنى آخر على نســق مُمتع. إنه مركز المؤتمرات الدولي، وهو بناء على شــكل مستطيل مُنحنٍ يضم قاعتين زجاجيتين كبيرتين أخذتا شــكل العالم في نهايتيه. وبينما يُيَمِّمُ قارَب الرحلة شــطرَ أعلى النهر، يَتَدافَعُ الناسُ إلى الحاجز [السُّور] ليلتقطوا صورة لبرج التلفزيون الذي يعلو مركز المؤتمر، وتعلو مِسَــلَّة البرج بكبرياء بين الكرتين الزجاجيتين. تُرى هل أغْفَلَ المُصَمِّمون هذا الاحْتِمال؟ أم تُراهُ أُثارَهُم؟

وقد أدَّت توهو بيكتشرز Toho Pictures سـنة 2004م أعلى مجاملاتها لبودُنْج، إذ جعلت بودُنج موقع مشهد قتال مناخي في فيلم جدْزيلا: Godzilla Final Wars. فيســحق البرمائي الكبير مدناً رئيســة كثيــرة في العالم في ما قيل إنه فيلمه الوداعي، غير أن مشهد القتال الناري ضد التنين في شنغهاي كان أعظم ما في الفيلم. فيعطي برج تلفزيون لؤلؤة الشــرق وضعاً مُمَيّزاً أعطاه من قَبْل فيلم كنج كنج King Kong لمبنى إمبايرسْتيت Empireate State.

غيــر أن هذا ليس كل شــيء. فثمَّة برج آخر مــن الأبراج التي يمر في ظلها مركــب الرحلة هو مبنــى جِنْماو الفضي اللامع Jinmao، الــذي يرتفع ثمانية وثمانين دوراً في بودُنْج على ضِفَّة النهر الشرقية. وتضم ناطحة السحاب، وهي أعلى بنــاء في الصين، فندق جراند هايــات Grand Hayat، وهو أعلى نُزُلٍ فــي العالم. ويشــبه مبنى جِنْماو القاربَ، فهو مطلي مــن خارجه برموز صينية، واســتبدلت رؤوس التنين على ســطحه الخارجي بإطار برونزي عُدواني المظهر يمثل عصر الــدول المتحاربة Warring States Epoch أو دمية جســم آلي صيني. إنه نوع من ناطحات سحاب قوية غنية كانت تبنى في نيويورك وشيكاغو تُعَبِّر عن طموح المدينتين الذهبيتين، تُنْبي عن رغبة شنغهاي في أن تحتل مكانها بين أولى مدن العالم، وإنما بطريقة صينية خاصة لثقافة مالٍ عالمية. لقد صَمَّم

http://www.ibtesama.com/vb

الرموز معماريون أمريكيون في شركة شيكاغو العملاقة سكِدْمور، أُوِينْز أَند مرِل Skidmore ،Owens and Merrill، وهي التي صَمَّمَت برج سِـيِرْز Sears Tower [في شيكاغو]. وتبدأ أجور الغرف في فندق جراند هايات في شنغهاي من 240 دولاراً، أي ربع متوسـط الدخل السـنوي للفرد الصيني الذي اعتاد أن يدفع عشـرة دولارات في الليلـة في فنادق البلاد الكثيرة التـي تقدم خدماتها للشريحة الأكبر من السكان الأقل دخلاً.

وليس هذا كل شيء. فالمشروعات المطروحة الآن التي ستنتهي العقد الحالي في منطقة شنغهاي وتتضمن أطول أبنية في العالم، وأكبر حوض للسفن، وأعلى عجلة حديدية على الرصيف، يبلغ طولها 197 متراً. أضف إلى ذلك مئات أميال من طرقات رئيسة داخل المدينة وحولها، وتوسعاً كبيراً في نظام قطارات الأنفاق الحديث ينطلق إلى مناطق من شنغهاي يُعادُ بِناؤها.

وثمَّة مشـروع لِمَدِّ أسرع قطار في العالم، إنه قطار مغناطيسي سابح يجري الآن على مسـار واحد قصير بين ضفتي النهر الشرقية والغربية لينقل الناس إلى المطار الجديد. فقطار ماجلف Maglev الذي بلغت تكاليفه 1.2 بليون دولار، يسير بسرعة تقارب خمسمئة كيلومتر في الساعة بين شنغهاي وبيجنـج. وقد بنى القطارَ التجريبيَّ هذا شـركتان صناعيتان ألمانيتان عملاقتان هما سيمِنْس Siemens وتيسِن كروب Thyssein Krupp، مُحاوِلَتَـيْنِ بيـعَ تكنولوجيَّتَيْهما للصـين، غير أنهما قد لا تُوَفَّقان في الحصول على مشـروع أكبر. فللصين قطاراتها عالية السـرعة التي تُصَنِّعُهـا، بثقة العصر وبالتدفق السـهل للتكنولوجية الأجنبيـة إليها، تلك التي اشـتراها الآخرون ودفعوا ثمنها. وقد كانت اليابان قبل أربعين سنة مُنتِجاً مُقَلِّداً منخفض الكلفة. فسـاهم قطارها السريع، شينكانسن Shinkansen في وضع البلاد فـي موقع ريادة التكنولوجيـة. وقام القطار بأول رحلة له سـنة الألعاب الأولمبـية في طوكيو، فكان نجم صور براقـة طُبِعَت وبُثَّت عبر العالم، فأظهرت البلاد في أَوْجِها، وحَوَّلَت الأولمبياد إلى مَشْـهَد أخّاذ. وسـيبدأ الخط السـريع

http://www.ibtesama.com/vb

الذي يربط شنغهاي وبيجنج رحلاته سنة 2008م، مع احتمال تأخير في موعد إنجازه، وهي سنة أول أولمبياد صيفي في الصين. وعندما يوازن قادة الصين بين جنون إنفاق 1.2 بليون دولار على مسار تجريبي لقطار سريع طوله أربعة وثلاثون كيلومتراً، وبين إنفاق 16 بليون دولار على نظام نقل داخل المدينة، فإنهم يرفضون منطقاً يقول إن المال خير ما ينفق على برامج تخدم مئات ملايين البَشَر الذين لن تكون تذكرة سفرٍ في قطارٍ شديد السرعة رفاهيةً متاحة لهم. إن الاستثمار في مكانة عالية للأمَّة يفترض أن يَجني الجميعُ أُكُلَه. وإن إقناع العالم بأن الصين تستطيع التفوق على اليابان يعطي ثمرات نفسية لا يشتريها مال.

وهذا ليس كل شيء أيضاً! فآباء المدينة يخططون لبناء ثلاثة جسور كبيرة وأربعة أنفاق للمواصلات، سيكون أحدها أَطْوَلَ نَفَق في العالم. وإن مشروع الجسر الوحيد، أطول جسور العالم يقع خارج شنغهاي، غير أنه يدخل ضمن مصالح المدينة. إنه الطريق الرئيس الذي خُطِّطَ لبنائه عالياً كلفته 1.4 بليون دولار، يصل الطريق الممتد في جنوب المدينة إلى خليج هانجزو Hangzhoo Bay فيقطع الجسر خمسة وثلاثين كيلومتراً، ليصل النهاية الجنوبية بمدينة سِكسي Sixi بوابة مقاطعة زيجيانج Zhejiang، إلى جنوب شنغهاي المحشوة بالصناعة.

وتُوَثِّق هذه الضخامة بحرص كل يوم على الصفحات الأولى لصحيفة شنغهاي دِيْلي Shanghai Daily التي تصدرها الصحافة الحكومية باللغة الإنجليزية. إنها صحيفة سريعة بهيجة مُطَعَّمَة بالأخبار المحلية، وبموجز لمنجزات الحكومة، وزيارات الدولة، وأخبار وكالات الأنباء عن أحداث العالم – ربما في الدانمرك أو تونجو– والتي لا يكون لها أهمية محلية في أغلب الأحوال. وتمتلئ سلال المهملات في قارب النُزهة بنسخ من الصحيفة حتى قبل أن يُبْحِرَ القارب.

غير أن الصحيفة تستحق القراءة مرَّة وثانية، فأخبارها – مثل معظم أخبار الصحافة الحكومية في الصين – تُعدّ مقياساً ومحرضاً لطموح الصين. وتسجل صحافةُ الصين كلَّ جهدٍ يُبْذَل، سواء أكان عاماً أم خاصاً، لدفع الصين إلى قمة

http://www.ibtesama.com/vb

أي سـباق تعلن عن دخوله. وتحمل أخبار الصين، طبعاً، رسالة «تصعيد السباق» التي تشجع الآسـيويين، والصينيين بخاصة، على بذل جهود أفضل في مجالات شَـتَّى. وقد يصف موضوع الصحيفة الرئيس في أحد الأيام فوز صانعي أجهزة الهاتف الجوالة الصينيين في السـباق ضد الأجانب، مصـوراً الانتصار فخراً. غير أن الحساب مشدود، والبحوث التي يستند عليها مُسْتَهْدَفَة. فأجهزة الهاتف الجوال الصينية ليسـت رائدة السـوق، وإنما يقول مسـتعملوها الصينيون إنهم يأملون أن تستطيع الأجهزة المحلية أن تسود السوق في مُقْبِل الأيام. ويكون الأمل أن تساهم عناوين الصحيفة في تحقيق تلك الأمنية.

وتملأ الإنجازات الشخصية الكبرى الصفحة الرئيسة أيضاً. فثمَّة موضوعات رئيسـة تتحدث عن الفائزين الشـباب في مسـابقات للناطقين بالإنجليزية في الوطن كلِّه. فتأمَّل لو أَنَّ صحيفةً أمريكية حاولت أن تزيد مبيعاتها بنشر موضوع عن فتـى أمريكي مجتهد تَفَوَّق على أقرانه في مسـابقة للمحادثة بالفرنسـية فألقى خطاباً عـن فضائل الأخوة الدولية. فالصحافة الصينية تنشـر بانتظام موضوعـات مثل هذه. ففـي بلد يُعَوِّل كثيراً على منجـزات الجيل القادم، حيث تضطر الأُسَرُ إلى الرِّهان على منجزات طفل واحد هو الذي تسمح لها الحكومة بإنجابه، لا شك أن يجد الأبوان والأجداد انتصارات أطفال الآخرين المبدعين أمراً مُمتِعاً، ونشـوة نصر في بلد يعطي علامات النجاح الجيدة والمسارات الأكاديمية الصحيحة ما يُشْـبِه النشوة الجنسـية. فالأطفال الألمعيون يحملون مفتاح تفوق الصين، وربما اسـتطاعوا يوماً ما أن يبنوا أعظم مـا في العالم إن هم اجتهدوا الاجتهاد الصحيح. وليس ثَمَّة شك في أنهم سيساهمون في بناء اقتصاد سيكون أكبر اقتصاد في العالم، إن سارت الأمور كما يشتهي الصينيون ويتوقعون، ويصبح أقوى قوة جيوبولتيكية تتمتع بأعظم نفوذ في آسيا وربما في العالم.

وعندمـا تبلغ رحلة القارب نهايتها ويصدم قوس التنين بِرِفْق برصيف الميناء،

http://www.ibtesama.com/vb

لا يملك المرء إلا أن يرى مصير الصين في مدنها في تبعية تايوان، وعودة صينيي ما وراء البحار إلى الوطن الأم. وتعد المشروعات الكبرى مقدمة عامة للهيمنة، وجزءاً من هيكل وطني يُبْنى. وربما لا تكون مناظر الطبيعة من القارب في شنغهاي جميلة في عَيْنَيّ من ينشد الراحة بعيداً عن أزيز محرك الصناعة المدنية الذي هو شنغهاي، لكنها تملك جمالاً خاصاً يراه الذين يعدون القوة الصناعية والفن المعماري طريقاً إلى عالم استعادت الصين مكانها الطبيعي فيه – في المركز، حيث هي موضع احترام، وربما تكون مصدر خوف أيضاً.

http://www.ibtesama.com/vb

http://www.ibtesama.com/vb

الفصل الثاني

الثَّوْرَةُ على الثَّوْرَةِ الشُّيُوعِيَّة

يَبِيْـعُ دُكَّانُ عائلة لي زهانْوي Li Zhanwei للتحف في الجانب الخامل من سوق دونجتاي Dongtai في شنغهاي كلَّ شيءٍ. فرفوف البضائع التي ترتفع إلى السقف قد تكون رفوفاً للأدوات أو مخزناً لقطع غيار السيارات، غير أنها تُملأ عشوائياً بِتُحَف من ماضي الصين. وتجد قرب الباب خطاف صغير عُلِّقَت عليه إسوارات من اليَشَب (نوع من الأحجار الكريمة). وتجد خيلاً طائرة صُنِعَت من البرونز، بعضها بحجم الجوز الأمريكي pecan وأخرى بحجم كلاب جولدن رِتريفر golden retriever تملأ المكان. وتجد قوارير النّشوق الزجاجية رُسِمت عليها صُوَر شخصيات شفافة تَتَجَمَّعْن حَوْل بوذا في عشرات التَجَليات.

والشمس هي مصدر النور الأول لدكان لي: وتجد تحت ضوء مصباح فلورسنت في مِشْكاة في المؤخرة أطْباقاً خزفية يعلوها سخام مئة سنة خُبِّئَت فيها نقودٌ متآكلة وقلادات لِجَلْب الحظ وتَعِد بألوان السعادة. ويقف تمثالان على الأرض من سلالة تانج Tang عمر الواحد منهما ألف وثلاثمائة سنة، فيستطيع مساوم طويل الأناة أن يشتري الواحد منهما بخمسة دولارات. وهناك رفوف من قَصَبات الخط والكتابة صُنِعَت من الخيزران قيل إن لها هُدب من شعر الذئب وأخرى بشعر الأرنب الأبيض. ويضم دكان لي Li مجموعة منوعة من الأقفال الصينية القديمة، التي تُعْجب المهندسين الزائرين من الولايات المتحدة وألمانيا. وتجد على الرفوف العليا، بعيداً عن متناول المتفرجين غير المبالين، مجموعة من الساعات المذهَّبَة من أوروبا القديمة. ويعلوها تماثيل غانيات من الخزف الصيني يرتدين ثياباً، وينفخن في أبواق، أو شخصية بريطانية كالغول. ومجموعات ماه جونج

http://www.ibtesama.com/vb

mah-jong عاجية، بعضها كبير يليق بالعمالقة وبعضها الآخر صغير يناسب براغيث السيرك، وقد رُتِّبَت في أهرامات أنيقة.

ويحتفظ دكان لي بكمية كبيرة من أدوات القتل - فؤوس، ونَنْتْشَكو nunchaku، وخناجر، وحِراب، ومجارف حادة، ونصول قاطعة - كافية لتملأ غرفة معدات أحد استوديوهات هونج كونج. وألوف من قِطَع، مُعْظَمُها مُقَلَّدة صنعت في مصانع الصين. أما الذين يشترون من دونجتاي بانتظام، فإن مخازن لي عندهم من أشرف باعة ذلك الشارع. فهم يلتزمون بشعار حَذّر المُشتري، ويعترفون بالخداع عندما يُسألون، وإنما عندما يُسألون فقط.

لو لم تكن شنغهاي والصين يتغيران هكذا سِراعاً لما باعَ السيد لي وزوجُه شيئاً في دونجتاي. فقِصَّتُهُما تختصر القوى الهائلة التي تعمل في الصين، فتُبعِد الناسَ عن مجتمعاتهم الزراعية الموروثة وتُدخِلُهم خِضَمَّ التجارة العالمية.

وصل الزوجان قبل ست سنوات من قرية زراعية في هِنان Henan لايَمْلِكانِ قِطْميراً، وهي ليست إلا مدينة من مُدُن مُقاطعات الصين الكثيرة التي يزيد عدد سكانها على 95 مليون نسمة. ومازال الزوجان يحملان سمات أصلهما الريفي، مثل كثير من مستوطني المحافظات. فالسيد لي نحيل تملؤه الحيوية، لايكاد يحمل من سمات أهل المدن شيئاً. فشَعره المقصوص فوق جبينه كأنما قُصّ في البيت. أما سِرواله المصنوع من البوليستر، وقميصه ذو الأكمام له طوق حول المعصم قد لا يَعْدم شيئاً من الأناقة لولا أن كثرة الغسيل التي جعلتهما لا يمُتّان إلى الأناقة بِصِلَة. وترتدي السيدة لي سِرْوالاً أكثر أناقة وقميصاً رشيقاً، وقد سَرَّحَت شعرها على شكل ذيل الفرس. ولوجهها الوردي خدّان عاليان عضلاتهما بارِزَة؛ وتجوب الدكان بعينيها البراقتين. وقد بلغ الزوجان لي مَطْلَعَ كهولتهما، وتراهما يبتسمان بِرِقَّة عندما يُسْألان عن طريقهما الذي سَلكاه إلى شنغهاي، فيرويان قصتهما بتفصيل وعاطفة من ينتظر أن يُسْأل - فتراهما عندما دخل أسترالي الدكّانَ ليُحَوِّل نقوداً ويشتري بعض السيوف الحربية، وهي سِلْعَةٌ رائجة

http://www.ibtesama.com/vb

في دونجتاي، استرسلت السيدة لي في كلامها، فقالت، بواسطة تُرجُمان: «لن نكون أبداً مقبولين كُلَّ القَبول مثل أهل شنغهاي، غير أن المدينة أثَّرَت فينا أثراً كبيراً». إن هِنان Henan، التي تبعد محافظتين في العمق عن شنغهاي، تُقدم حوافزاً كثيرة لمن يغادرها من أهلها. ويقدم مصرف التنمية الآسيوي The Asian Development Bank تقييماً قاتماً للمنطقة، فيقول إنها مُبْتَلاة «بِكثافةٍ سُكّانِيَّة شَديدةٍ وبُقْعَةٍ زِراعِيَّةٍ مَحْدودَة بسبب تضاريسها الجبلية، ومناخها القاسي، وندرة مياهها». وكان الجراد والفيضان من آخر المِحن التي شَهِدَتها الأُسْرَة عندما رَحَلَت.

وصلت عائلة لي إلى شنغهاي في ذروة موجة الهجرة إلى المدينة. وبلغ عدد المهاجرين إلى هذه المدينة سنة 2003م أربعة ملايين وافداً. ومما يثير الدهشة أن 97 بالمئة من الذين هاجروا إلى المدينة وجدوا من فورهم عملاً فيها. وقد اجْتَنَبَت أُسْرَةُ لي الطرقَ المألوفة في أعمال البناء والمطاعم. فَبَسَط الزوجان ملاءة على قارعة الطريق فور وصولهما، وباعا قِطعاً بسيطة استطاعا جمعها من حيث قَدِما. وتوقِفُ الشَرطة كثيراً من الباعة المهاجرين، وقد أمضت أُسْرَةُ لي سنتين تُطارَد من مكان إلى آخر. ثم فازا بفرصة بيع بضاعتهما في الدور الأعلى من سوق السِّلَع المُسْتَعْمَلَة في البرج الرئيس على أطراف شنغهاي القديمة، وهي منطقة تجارية مزدحمة نَمَت حول مَشْرَب شاي وحديقة عمرها أربعمئة سنة. وتجد اليوم مبانٍ جديدة على طراز المعابد والقصور الصينية القديمة تؤوي دكاكين للسياح، ومطاعم، وباعة للتحف القديمة.

ويؤجرالسوق في أعلى البرج للباعة من جميع أرجاء الصين، جميعهم مهاجرون يحاولون امتطاء أول حلم مديني. والقاعة جرداء لاشيء فيها؛ يجلس فيها الباعة المتجولون على ملاءات أو قطع من ورق مقوى قديمة يحنون فوقها قاماتهم، أمام طاولات منخفضة مُلِئَت بقطع مهمة، بعضها حقيقي ومعظمها غير حقيقي (مقَلَّد). وأثبتت أُسْرَةُ لي قدرتَها في السوق واكتسبت زبائن منتظمين

http://www.ibtesama.com/vb

بين فئات اجتماعية تَتَرَفّع وتبحث عن مواد تزين بها الشقق الجديدة التي تنتشر في أرجاء المدينة. غير أن الزوجين لم يستطيعا أن يبيعا أكثر من ذلك في القاعة المزدحمة. كانت عائلة لي تدرك أنها لو كان لها دكان لاستطاعت أن تخزن مواداً أكثر وتُغري الزبائن بإنفاق وقت أطوَلَ في شرائها فتَتَمَكَّنُ أسرتهم من حصة أكثر ثباتاً في شنغهاي الصاعدة.

غير أن أسرة لي اضطرت، من أجل توسيع تجارتها، إلى دخول شبكة الإقراض الكبيرة المحلية غير القانونية التي تُمَوِّل مُعظم اقتصاد الصين، ويعود أصلها إلى تآزر مجتمع المهاجرين. فكل ما يتعلق بسوق التمويل غير الرسمي يتم بالكلام، والمصافحة، وأحياناً بعقود مكتوبة خارج أُطُرٍ قانونية. وتضم مخازن بيع الكتب الكبيرة في الصين كتباً تجارية في جميع فروع التجارة غير أنها لا تتطرق إلى الإقراض غير الرسمي. ولا يعلن عن ذلك أبداً إلا عندما تداهم الحكومة الصينية المرابين بين وقت وآخر. وإن هذه القناة الخفية من رأس المال تتعهد بتقديم العون المالي لملايين المتعهدين الريفيين ممن لهم أعمال تجارية في المدينة. وقد خلصت دراسة تَمَّت برعاية أكاديمية شنغهاي للعلوم الاجتماعية Shanghai Academy of Social Sciences، وهي مركز يتمتع بسمعة طيبة يجمع بين مركز للأبحاث وجامعة، وقد كانت نسبة كبيرة جداً من مقاولي شنغهاي وأصحاب الأعمال المستقلة فيها من الدخلاء الذين انتقلوا إليها من مكان آخر.

وإن حال أُسْرَة لي، التي صارت تملك دكاناً في أحد مدن الصين الكبرى، حيث تستطيع الوصول إلى المعلومات، والسِّلَع، والأسواق، والأجانب، والمنفقين، ووسطاء أذواق المدينة المتبدلة، يساعد في تفسير إثارة شنغهاي الطاغية. غير أنَّ أهمية صعود تلك الأُسْرَة هي أنها لم تعتقل لأنها فعلت ما فعلت. لقد كان المهاجرون في الصين منذ زمن غير بعيد يواجهون وطأة سلطة الدولة المصممة على إبقائهم في مواطنهم. غير أن التحرر الاقتصادي جَرَّأَ الناسَ على الانتقال،

http://www.ibtesama.com/vb

فصاروا يتجمعون واحداً بعد آخر، حتى حشوداً كبيرة جداً وصارت البلاد تعيش الآن أكبر عملية هجرة في تاريخ البشر.

مليارات كثيرةٌ منَ العُقول

إذا أردت اليوم أن تواجه الصين عليك أن تواجه شعبها – مهما كان عددهم. ويأتـي التناقض بين الإحصاء الصيني الرسـمي للسـكان الـذي يُقدّر عددهم بـ 1.3بليون نسـمة والتقديـر الغربي الذي يجد عددهـم 1.5 بليوناً في تحليل لوكالات الاسـتخبارات لاستهلاك الصين من الحبوب، الذي يتجاوز كثيراً حاجة 1.3 بليون نسـمة. فالأشـخاص الذين يفترض أنهم أُسقطوا من العدد الرسمي الـذي أعلنته الصين يختبئـون في الزحام. وثمة أطفال اسـتثنوا من الإحصاء، لو عَرَفَت السُـلطات بوجودهم لكانت أسـباب حياة أبويهـم في خطر. وينقص من الإحصاء فلاحـو الصين الذين تحولوا إلى عمـال مهاجرين يجوبون البلاد دون إذن رسـمي ضروري لذلك، وليس لهم عنـوان ثابت. وربما كانوا عمال بناء يعيشـون في مواقع عملهم، وينتقلون حسب تقدم العمل، ولا يملكون سوى جعبة ثياب، وينتقلون إلى مكان آخر عند إنجاز عَمَلِهِم. وربما كان بين من لم يشـملهم الإحصاء قرويو المناطق الخلفيـة الذين يلوذون بالفرار من مقرضي الأموال في موطنهـم؛ ففي الصين أفـواج كاملة من المدينين الجوّالين الذين لا يسـتطيعون العودة إلى بيوتهم ثانية. وليس ثمة شـك في أن موظفيّ الإحصاء الرسـميين لا يجدونهم عندما يبحثون عنهم من منزل إلى منزل آخر.

وربمـا كان حجم الصين الحقيقـي هو الأدق عن البلاد، غيـر أن المقياس الإنسـاني لهـذه الأعداد يصعـب وضع اليد عليـه. تذكـروا أن تقديرات عدد الصينيين الوافدين من الريف الصيني إلى المدن في السنوات الأخيرة يتراوح بين 90 مليـون و300 مليون. وإن الرقمين كبيران جداً وتَصْعُبُ مَعْرِفَتُه. وهناك ناس يتراوح عَدَدُهُم بين 100 مليون و 200 مليون سـينضمون إلى الوافدين الحاليين

http://www.ibtesama.com/vb

خلال العقد القادم. وإن هؤلاء العمال أنفسهم يشكلون تَجَمُّع عَمَلٍ هائل. وإليك مقارنة أخرى، فإن تعداد القوى العاملة في الاتحاد الأوروبي يصل إلى 223 مليوناً. ويبلغ في اليابان 63 مليوناً. ويزيد عدد المقيمين في بعض مراكز المدن في الصين، مثل شنغهاي، مليوناً في السنة. ويصل في مدن أخرى أُحْدِثت مؤخراً إلى حجم شيكاغو أو لوس أنجِلس في بضع سنين.

كان إطعام كلِّ سكان الصين في سالِف الأيام صَعباً، وكذلك توظيفهم، ودَرْءُ انغِماسِهِم في الفوضى، ويعدون أكبر تهديد لرفاهيتها. فالرحالة في الصين الذين يبلغ عددهم 100 مليون أو 200 أو 300 مليون من البَشَر هم الذين يجب أن يكونوا قانونياً في مكان واحد غير أنهم ليسوا كذلك، وينبغي أن يكون لهم عمل معين، غير أن لهم في الواقع عمل آخر، إنهم أُمَّةٌ مُتَجَوِّلَة تُشَكل مجموعة هي أكثر تمزقاً في الصين، والمجموعة الأصعب انضباطاً. وهم، مثل السيد لي وزوجه، المجموعة التي تعطي حداثةَ الصين جوعَها.

مَكائد شُيوعِيَّة

وإذ تقرعُ الصينُ أبوابَ القرنِ الحادي والعشرين ويتحرك سكانها بحثاً عن الحرية ويكتسبون سلطة، فإن أكبر مفارقاتها هو أن كل هذا التغيير قد حدث تحت أنظار الحزب الشيوعي الصيني، الذي كان مرةً العدوَّ الراديكالي الأَشَد والمُخيف للمشروعات الخاصة التي شهدها العالم. كانت أهم إصلاحات الحزب داخلية المصدر، ولم تَرِد إليها من الخارج من حكومات أجنبية أو وكالات دولية. وقد أتت نتيجة تخطيط حتماً، غير أن الصين تدين بنجاحها لحكومة اعترفت مُرْغَمَةً أنها لن تستطيع أن تَقِفَ في وَجه شَعْب مُصَمِّم ولديه مصادر كافية لأن يحط من قَدْرِ ذلك النظام الراديكالي القديم. وإن استطعت أن تفهم تطور الصين، برغم عقباتها، عَرَفت كيف استطاعت أن تهز العالم عندما يسقط ما تبقى من الحواجز التي لا يستهان بها.

http://www.ibtesama.com/vb

ولعلّ المثال الأبرز عن إعاقة الشيوعية للنمو يتجلى في موضوع الملكية الخاصة. فمنذ أوائل سنوات الشيوعية كانت الحكومة الصينية، بشكل أو بآخر، تملك جميع الأرض في الصين. فقد أنهَت الثورة التي قادها ماو تسي تونج Mao Zedong سنة 1949م نظام ملكية خاصة يعود إلى قرون خلَت.

لقد كان ماو شيوعياً ناشطاً منذ عشرينيات القرن العشرين، وطالما اعتقد أن على ثورة الصين الاشتراكية أن تنطلق من صفوف الفلاحين وليس من عمال المدن، خِلافاً لما تقوله النظرية الماركسية. وتَعَرَّضَ جيش ماو من الفلاحين لِصِعابٍ كثيرة في ثلاثينيات القرن العشرين وأربعينياته، أيام الاحتلال الياباني والحرب الأهلية الصينية، كان منها مسيرة 7.700 ميلاً. وقد كادت قواتُه أن تُمحى، وبقيت حتى النهاية. وأُسِّسَت الجمهورية الشعبية في تشرين الأول/ أكتوبر 1949م، يوم كان عدد أعضاء الحزب الشيوعي الصيني 4.5 مليوناً، تسعة أعشارهم من الفلاحين. وتميزت السنوات الأولى بإعادة بناء كبيرة للصين، فَجاءَت رفاهيةُ البلاد الجديدة واستقرارُها على خلاف صِعابِ العقود السابقة.

وسرعان ما شَنَّت القيادةُ الصينيَّة حَمْلَةً ضِدَّ «أعداء الدولة» وبدأت عملية إصلاح للأراضي سنة 1950م بقانون الإصلاح الزراعي.

قضى القانون، بضربة واحدة جريئة، على حقوق الأفراد في ملكية الأرض في الصين. وصادر القانون أملاك إقطاعيِّي الصين، بادئ ذي بدء، الذين كان معظمهم يملك مساحات هائلة من الأرض، ومنح مزارعيهم المستأجرين السابقين حق استخدام قطع من الأرض. ونجح الإصلاح في تحقيق طموح طالما حمله الشيوعيون بوضع الأرض بين أيدي الفلاحين الذين يعملون فيها. وقد جاءت ممارسة الشيوعيين على خلاف ذلك أيضاً. فقد أخذ الشيوعيون الأرض من الإقطاعيين الذين يكرهونهم، غير أنهم أخذوا الأرض أيضاً من ملايين الفلاحين المزارعين الذين يملكون قطعاً صغيرة من الأرض. وقبل أن تحول كل الأرض قسراً

http://www.ibtesama.com/vb

إلى الدولة الشيوعية كان 60 بالمئة من سكان الصين الريفيين، وكان أكثرهم من الأسر الفقيرة، يملكون أرضاً، مهما صغرت مساحتها.

وكان ثمة قواسم مشتركة بين الإصلاح الشيوعي الراديكالي الأول والإصلاحات التي طبقت في الفترة نفسها لتعزيز الرأسمالية في فَلَك النُّفوذ الأمريكي خارج الصين. فقد جعل الجنرال دُوجلاس ماك آرثر Douglas MacArthur في مقدمة أهدافه، عند احتلالِ أمريكا لليابان بعدَ الحرب العالمية الثانية، إصلاحَ النظام الإقطاعي في اليابان والسيطرة على الأرض وإعادة توزيع المزارع على الذين يعملون فيها. بينما نجدُ ما فَعَلَه في الصين، كان على خلاف ذلك، فقد فرض ماك آرثر على المستأجرين شراء قطع الأرض التي يعملون فيها، برغم ما عَرَضَتْه الحكومة من شروط يسيرة جداً، غير أنها حقَّقت أيضاً معجزات؛ فالأرض التي كانت تُزرع قسراً أثناء الحرب لتلبية طلبات العسكريين اليابانيين ضاعفت الإنتاج على أيدي الفلاحين. ولم يُؤدِ الإصلاح في اليابان، على خلاف الإصلاح الصيني، إلى الانتقام العنيف الذي انْتَقَمَهُ المزارعون الصينيون من سادتهم السابقين. بينما أعطَت إصلاحات ماك آرثر، المحتلين الأمريكيين والغرب الرأسمالي شكراً من الأنصار اليابانيين فاستمر تقدمهم الاقتصادي استمراراً رائعاً، ففقد الصينيون قوَّتَهُم الدافعة بإدخال مزيد من الإصلاحات الراديكالية.

التعاوُنِيّات ومساوئها

وتحولت الصين في منتصف خمسينسيات القرن العشرين، من ملكية الأفراد للأرض إلى نموذج التعاونيات السوفيتي الستاليني. وقد فُرِض البرنامج التعاوني في الاتحاد السوفيتي بالعُنف الذي مَيَّز ستالين، الذي جعل القتل والسجن جزءاً من سياسة الاتحاد السوفيتي الزراعية. فأعدم ستالين أُلوفاً من الكولاكيين (المزارعين الأغنياء في روسية)، قام بذلك الفلاحون السابقون الذين هم مثل المزارعين المستأجرين السابقين في الصين، الذين منحوا قطع أرض في موجة

http://www.ibtesama.com/vb

إصلاح ما قبل الشيوعية. ونفى ستالين ملايين منهم إلى سيبريا. وقد خطط الشيوعيون الصينيون لاتباع النموذج الستاليني في التعاونيات منذ بداية الثورة، وكان هدف الحزب الإصلاحي الأول هو الخطوة الأولى لتحقيق ذلك.

وجاء هذا التحول الراديكالي المُتَشَدِّد سنة 1956م. فأُجبر الفلاحون في البداية على مساعدة بعضهم بعضاً، كل في أرض الآخر. وكانت الأراضي تَشْمَلُ ما يتبعها من أملاك وحيوانات ومعدات زراعية جماعية. فضربت القرارات الجديدة الأُسْرَة، وهي أساس المؤسسة الاجتماعية في الصين. إذ أدَّى أكثرُها تَطَرُّفاً إلى إخراج الناس من بيوتهم إلى مهاجع كبيرة كفيلة بتشتيت شمل الأسرة. وصار العمل في الأرض مُشْتَرَكاً بين جماعات تَتَكَوَّن من مئة عائلة.

وكان من دوافع التغيير دافعٌ عملي. فالأراضي المزروعة لم يعد يُمكن تقسيمها إلى قِطَع صغيرة من الأرض، يزرع كل منها خليطاً مختلفاً من المحاصيل. ورأت الحكومة أن زراعة قطع الأرض الموحدة الكبيرة أجْدى نَفْعاً. ويمكن توظيف المعدات الزراعية الحديثة فيها إن تَوَفَّرَت. ويُمكِن، بذلك، تحرير العمال لبناء السدود وأنظمة الري.

أما صينُ ماو تسي تونج، فقد كان يهمُّها أن يُعيد النظامُ الجماعي الجديد تشكيل عدد كبير من الفلاحين في الصين. فقد كان في تعاليم ماو الرئيسة ما ينصُّ على أن الحاجة تدعو إلى قولبة الفلاحين والعمال الصينيين في قوة عَمَل تَسْهُل تَعْبئتها، وليس يعني ذلك تحريكها جُغرافياً وإنما تعبئتها في حملات إيديولوجية، وفي سياسات الحزب الاقتصادية والسياسية المُتَغَيِّرَة، وأبقي العمال الريفيون في الصين يعملون في الأرض حيث يُمكن أن يقوموا بدور «جيش احتياط» يُدعى إلى العمل عندما يحتاج إليه الحزب في مشروعات التصنيع. وهكذا وُظِّف الريف وأُعيد توظيفه في حملة بعد أخرى، بدفع من قوة الدولة، وضغوط كوميونية اشتراكية الشعب، وتمييز إيديولوجي، وعواقب رهيبة تنزل بالذين لا يَنْصاعون.

http://www.ibtesama.com/vb

وهكـذا كانت المرحلة الجماعية مرحلة ولادة سـكان ريـف الصين. فعندما سيطر الشيوعيون على جميع الأملاك الخاصّة، بدأوا بتصفية الأعمال التجارية الصغيـرة التي لا تُعدُّ ولا تُحصى، والتي تُشـكِّل تجـارة البلاد اليومية. ففقدت الأُسر التي تملك متاجر صغيرة متاجرها، إذْ تَوَلَّت الدولة دَوْرَ أصحاب الدَّكاكين، فأُجْبِرت الأُسَـر علـى العمل في الأرض كلَّ الوَقْـت وإن كانوا قد انقطعوا عنها انقطاعاً كاملاً. وأصدرت الحكومة مرسـوماً سنة 1956م منع المصانع والمناجم وعمّال البناء وخطوطَ النقل التي تملكها الدولة من توظيف أي شخص يعمل في مزرعة. واستَنْفَرَت أجهزة أمن الصين الداخلي الأشخاص الذين يهجرون الريف إلى المدينة.

وزادَ الأمرَ سوءاً أن أسَّسَت البلادُ نظام هوكو hukou؛ وهو مجموعة قوانين جعلت الدولة سـيداً إقطاعياً على فلاحيها. فبينما كانـت الأهداف الصناعية الضخمة، بين سنتي 1959م و 1960م التي دفعها الحزب تُسْهِمُ في قفزة كبرى إلى الأمام وتسمح للفلاحين بمُغادرة الريف والانضمام إلى شركات مدينية، كانت الصين تشـهد، خلال هذه النافذة القصيرة مـا كان مُتَوَقَّعاً؛ إذ اندفع الفلاحون إلى المدن مثل معظم فلاحي العالم بعدَ الحرب العالمية الثانية. فَجُنِّد 19 مليوناً للذهـاب إلى المدن، فأتـى 50 مليوناً غير أنَّ الصين لـم تزدهر وإنما تضورت جوعاً. وتَدَفَّقَ عَشـرات ملايين الفلاحين إلى المدن أثناء المجاعة. وجاء ردُّ الفعل سـريعاً، فأقدم الحزب، في تحرك لحماية عمالّـه الريفيين، على ترحيل معظم المهاجرين الريفيين وإعادتهم إلى الريف، حيث كانت الحكومة تريد إبقاءهم.

وكان الشيوعيون مع حلول سنة 1960م قد أبعدوا معظم أهل الريف، ليس عن العالم، وإنما عن مدن الصين نفسها. ونشأت كِيْت زياو زهو Kate Xiao Zhou، وهي صينيَّة، وُلِدَت سنة 1956م، وقوطعت طفولتها المدينية المبكرة أثناء ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، أيام الثورة الثقافية وذروة قيود هوكوhukou، عندما سُمي والدها، الذي كان أستاذاً للغة الإنجليزية في الجامعة، «بورجوازي مُثقف»

http://www.ibtesama.com/vb

و«عدو للشـعب». وكان هذا اللقب يعني خراب أُسَرٍ بكاملها. وحَملَ جميعُ أفراد الأُسْـرَة وطأة وَصْمَة العار فصار الأطفال منبوذين في المدرسـة إن اسـتطاعوا الذهاب إليها أصلاً، وحُـرِم الأقرباء من فرص العمل. وتَغَيَّرَت حياة زهاو تغيراً سـريعاً وشَرِساً. فقد سُـجن أبوها في مدرسـته، وعلقت ملصقاتٌ في الحرم الجامعـي اتهمَته بتصرفات جنسـية قـذرة. وهاجم الحـرسُ الأحمر بعد ذلك مُباشرة والدة زهاو، وهم الجنود الشباب للثورة الثقافية، فعدّوا جمالها وحيويتها الجنسـية فوق الحد المقبول. فَقَصَّ الحرس شَـعْرَها، ثم أجبروها على المسـير إلى حشـدٍ أُهينت فيه عَلَناً. وفُتِّش بيت أُمِّها (إذ كان أبواها مطلقين) وأُخرِجَت المجوهرات والخزف الثمين من مخبئه تحت الأرض. وأخيراً نُفِيَت زهاو وشقيقها ووالدها إلى ريفٍ في مقاطعة هوبي Hubei كي «يُثَقِّفَهُم المزارعون».

وفَصَّلت زهاو في كتابها «كيف غير الفلاحون الصين؟»-How the Farmers Changed China الذي نَشَـرَته سنة 1996م، عن تجربتها مع المزارعين. فذكرت أولاً قمع السياسـات الرسـمية الصينية للسـكان الريفيين، وكيف وجد المزارعون سـبلاً لفرض التغيير بالقوة. وركزتْ فـي وصفها لرد فعلها تجاه بيتها الريفي الجديد على الفوارق الكبيرة التي كانت موجودة إذ ذاك بين أسلوبي الحياة فـي الريف وفي المدينة. «كانت القرية، لنا، عالمـاً غريباً تماماً. ليس فيها كهرباء، ولا مياه جارية، ولا مراحيض. كل ما كُنا نسـلم بوجوده في المدينة لم يكن موجوداً فـي الريف». إن الخـط الفاصل الذي اجتازته زهاو فصلها عن عالمها السـابق بِقَسْوَةٍ لاتقلُّ عن تلك التي مارَسَتْها أنظمة التفرقة العنصرية في جنوب إفريقية، وقوانـين الأمريكي جيم كراو Jim Crow، ونظام جتوات أوروبا ضد قطاعات كاملة من السكان.

وُضِعَ نظام هوكو hukoub، كما وصفته زهاو، ليحرم الهجرة من الريف إلى المدينة. كانت البطاقة العائلية تقوم مقام جوازات سفر داخلية. «كانت كلُّ بطاقة عائلية تُسَجِّلُ أَصْلَ العائلـة، وانتماءها الطبقي، وهويتها الشـخصية، وتواريخ

http://www.ibtesama.com/vb

الـولادة، وأعمال جميع أفرادها». فكان الذين يحملون هويات ريفية ويسـافرون إلـى المدينة دون الموافقـات اللازمة، التي يصعب الحصـول عليها، يوقفون، ثم يُعادون إلى مزارعهم. كما كانت البطاقة العائلية مطلوبة للحصول على الغذاء من مخازن الحكومة. وكان الذين يذهبون إلى مخازن خارج منطقتهم يُرَدُّونَ خائبين. وتقول زهاو إن النتيجة كانت أن حكمت الدولة على أطفال المزارعين بالبقاء في المزرعة. وكان العاملون في الجيش وذوو المناصب السياسـية، أو الأعمال المؤقتة في مدينة مجاورة لايَعْدَمون سبيلاً للخروج.

لم يكن الفلاحون يحصلون على غذائهم من الدولة فحسب، وإنما كان عليهم أن يحملـوا الغذاء إلى الدولة أيضاً. إذ يُفرض علـى التعاونيات تحقيق أهداف الإنتاج، ثم يسـلم المحصـول إلى الدولة لتلبية حاجات المُـدن. وبذلك، فقد كان المزارعـون الذين يزرعون غذاء البلاد هـم أول الجائعين. وقد حصدت مجاعة سـنة 1957م أرواح عشرات الملايين من سكان الريف بينما نجا سكان المدن، لم يَمْسَسْهُم سُوء.

وكان التفسـير المألوف لانخفاض إنتاج الشـيوعية إلقـاء اللوم على غياب حوافز المزارعين. ويشـكو المزارعون في المـزارع التعاونية الصينية من ضمانات الدولة التي لا تمدهم بغذاء أكثر ولا أقل مما تسمح به كتب مخصصاتهم، لذلك لا تجدهم مضطرين إلى أن يُجهدوا أنفسـهم في العمل أكثر من حدوده الدنيا، وكيف تتوقع ممن يَرَون ثمرة عملهم يجنيها آخرون أن يرهقوا أنفسَهُم؟!. غير أن هذا التحليل يهمل حرمان الفلاحين القَسْـري المُجبرين على البقاء في الأرض. فقد حُوِّلوا إلى عبيد لمُدن الصين.

كان سـكان ريف الصين، وما زالوا، يعانون من تمييز عميق راسخ من سكان المـدن. فقبل وصول الشـيوعيين إلى السـلطة وبعدها، كانـت مدن الصين هي التـي يرغب الناسُ العيشَ فيها أكثر من سـواها. فالمدن فيها الغِنى، والمدارس، والثقافة، والحِنْكَة السياسية. كانت المدن تقدم فرصة للتحرك الاجتماعي. فكان

http://www.ibtesama.com/vb

سكان ريف الصين، مثل سكان كل ريف، فقراء، يفتِكُ بهم الجَهْل، وتُفسِد بريقَهُم الأنماط السلبية من سكان المدن الذين يَتَّصفون بالكسل، والغباء، ويعوزهم الاستقامة. وبرغم أن الثورة قد أعطت سكان الصين الريفيين كرامة جديدة، ولما كان المزارعون الفلاحون هم الذين غذوا الحزب الشيوعي في قتاله الطويل، وكان كثير من القادة الشيوعيين من الريف، فقد وجد الشيوعيون سُبُلاً لإخضاع الريف واستعباده.

كَيْفَ أنْقَذَ الصينَ ثمانية عشر مُزارِعاً؟

إن الجوع الذي اجتاح مساحات واسعة من ريف الصين خلال ستينيات القرن العشرين وسبعينياته قد حرّك جهوداً سريةً لجماعة من المزارعين جعلت الإصلاحيين أسطورة بعد ذلك في الفترة التي جاءت بعد عهد ماو. فأتت الجماعة من قرية مهملة اسمها زياوجانج Xiaogang في مقاطعة أنْهوي Anhui الفقيرة. كانت الأُسَر في زياوجانج في ستينيات القرن العشرين تعيش فقراً مدقعاً. وكان المزارعون، الذين لا يتجاوز دخلهم عشرين يوان في السنة، من أكثر الناس فقراً على وجه الأرض. (يعادل سعر صرف 20 يوان اليوم 2.50 دولاراً) فأرسَلَت أُسَرٌ كثيرةٌ أبناءَها يَتَسَوَّلون.

إن مُعْظَمَ من في الصين يعرف الرواية الرسمية لقصة ارتقاء هؤلاء، وهي كما يأتي: اتفق ثمانية عشر مزارع يَتَطَلَّعون إلى سُبُلٍ أفضل لإطعام أُسَرِهِمْ على تقسيم الأرض التي يزرعونها مجتمعين، وخَصُّوا كلَّ أُسْرَة بقِطْعَة من الأرض. وكان التعاونيون في ذلك الوقت مُجبرين على دفع «ضريبة حبوب» حصّةً تدخل قنوات توزيع الحكومة. فوافق المزارعون على أن يستمروا في دفع ضريبة الحبوب، غير أنهم يستطيعون، عند تَسْديدِهِم التزاماتهم، أن يبيعوا أو يُقايضوا أي فائض يمكنُهُم انتزاعه من الأرض، ويستطيعون عندئذ الاحتفاظ بما يعود عليهم منه. وكان ذلك الترتيب السري مُخالفاً للقوانين، وكان الفلاحون يعرفون أن ميثاقهم

http://www.ibtesama.com/vb

سـيودي بهم إلى السـجن، أو ربما إلى الموت. وقّع الرجالُ الثمانية عشر الميثاقَ بشجاعة ببصماتهم في كانون الأول/ديسمبر 1978. ونَصَّ الميثاق على أن يرعى بقية الموقعين على الميثاق أُسْـرَةَ من يوقَف منهم، إن أُوقِفَ أَحَدُ مُوَقِّعي الميثاق أو عوقب.

وجـاءت النتائج فورية، فَحَقَّقَت خلال أشـهر ما لم تُحَقِّقه الإيديولوجية والتخطيط المركزي في سنين. وارتفعت محاصيل الأرض ارتفاعاً عظيماً. وتقول الرواية الرسـمية إنّ الاتفاق السري ونتائجه لفتت انتباه بكين، حيث أصبح دنج زياوبنـج Deng Xiaoping قائـداً أعلى للصين. لم يكـن مزارعو زياوجانج Xiaogang فـي الحقيقـة، أول من أفسـد النظام. فقـد كان بعض الفلاحين يقدمون رشاوى صغيرة ليشتروا لأنفسهم بعض الحرية في بيع المحاصيل. وسَمَح مسؤولو المقاطعات بتلك الممارسات غير القانونية. حتى أن دنج نفسه أقر أخيراً اتفاقيات مماثلة، قائلاً: إن اتفاقية زياوجانج «نظام تعاقد مسـؤول يربط الربح بالإنتاج»، وبِدَعْمِ دنج، سُـمِحَ باتفاقيـات مثلها بُنِيَت على التجربة في مقاطعات أكثر فقراً وأشـد حرصاً على الخلاص. فقـدم ذلك الإجراء طريقةً فعالةً وغير مكلفة لحكومة تناضل لتعبر مرحلة انتقالية صعبة ترفع فيها شعبها.

وكان معظم مزارعي أنهوي Anhui بعد مرور سنة على الميثاق، وهي مقاطعة ريفية يسـكنها 50 مليون نسمة، يعملون حسـب ما صار يعرف بنظام المسؤولية المنزلـي Household Responsibility System. وسـاعد علـى اكتمال الأسـطورة أن أبطالها كانوا مزارعين فلاحين، ولـم يكونوا من مُثقفي المدينة أو مخططي الحكومة في بكين، الذين زرعوا هذه الثورة الجديدة. ورسَّخت الصين رسـمياً نظام المسؤولية المنزلي سـنة 1980م. وسـمح النظام للعائلات زراعة المحاصيل وبيعهـا بقصد الربح، على أن يلتزموا بمسـؤولياتهم المحددة للدولة. وبذلك انطلق اقتصاد السوق حقاً على أيدي المزارعين.

http://www.ibtesama.com/vb

أما اليوم، فقد وجدت الوثيقة الأصلية التي وقّعها المزارعون الثمانية عشر طريقها إلى متحف الثورة الصينية Museum of Chinese Revolution في بكين، وتبذل وكالات الإعلام الحكومية الصينية قصارى جهدها لكي تبقى القصّة حيّة. فنشرت صحف الصين في كانون الأول/ديسمبر 2003 مقالات في الذكرى السنوية الخامسة والعشرين للاجتماعات السرية. قابلَت أحَد مُوَقّعي الوثيقة، يان هونج تشانج Yan Hong Chang. ونسبت إليه قولَه إن الاتفاقية كانت «تَصَرُّفاً رأسمالياً تحدَّى يومئذ الملكيةَ العامّة الاشتراكية». وأشار التقرير إلى الرأي السائد القائل إن المزارعين كانوا يَتَحَدّون ماو Mao برفضهم الانصياع لنظام الزراعة التعاونية. وقال: إن المزارعين كانوا يعملون بجد أكبر التزاماً «بأفكار ماو في الإخلاص في خدمة الشعب». وتقول وكالة أنباء الصين إن كل أُسْرَة في زياوجانج تملك جراراً زراعياً وجهاز تلفزيون، وبعضهم يملك سيارات وبيوتاً من دورين فيها غُرف للمعيشة. ويقول يان هونج تشانج Yan Hong Chang: «لقد بنينا دورات مياه عامّة يتدفق الماء فيها، وغُرف مطالعة، وبرج ماء، وساحة ثقافية في قريتنا. وأصبح دخل الفَرد (سنة 2003م) يزيد على ألفين وستمئة يوان (313 دولاراً)». واتجه مزارعو المنطقة إلى التنوع في زراعة الغابات وتربية الماشية، وعدم الاكتفاء بالحبوب.

ويشك الأكاديميون خارج الصين إن كان نظام المسؤولية المنزلي يدين بوجوده إلى تجربة زياوجانج أم إن المزارعين في جميع المناطق أقبلوا راغبين في تطبيقه، كما يزعم مؤرخو الصين الرسميون. ويشير بعض العلماء إلى أن نهاية المزارع التعاونية قوبلت بمعارضة أعظم مما تسمح به الروايات الرسمية. وربما ما زالت صحافة الصين الرسمية، نتيجة لذلك، تروّج قصّة الاتفاقية السرية، ومناقب المزارعين المعنيين بها. ومهما يكن الأمر، فإن تفاصيل أصول الإصلاح العملية أقل أهمية الآن من الصناعة والإقبال الذي فَجَّرَتْه الإصلاحات الريفية.

http://www.ibtesama.com/vb

وقَلَبَت الإصلاحات الاقتصادية التي انبثقت من فساد الريف الأمورَ رأساً على عَقِب، كانت نتيجتها الموجة الأولى من ثروة الصين الجديدة التي وصلت إلى الريفيين أنفسهم. ووصلت الرفاهية إلى المناطق التي كانت من أفقر مناطق الصين، ولم يكن ذلك صدفة أو ضربة حظ، وإنما لم يكُن للناس هناك ما يفقدونه، وكانت لديهم دوافع المجازفة التي يَجُرُّهُم إليها الفقر المُدقع والحرمان. وتسترجع كيت زياو زهاو Kate Xiao Zhou قائلة: إن مزارعي الصين عندما شقوا طريقهم لأول مرة إلى المدن، مخالفين القانون، لبيع المحصول الذي جَنوه حسب نظام المسؤولية المنزلي، فصعق سكان المدن بالمال الذي تَدَفّق بين أيدي الفلاحين. كان المزارعون في البداية موضوع نكات لا تُحْصى. ثم أصبحوا مَوْضِعَ حَسَد. ثم أيقظت مشروعاتُ المزارعين أهلَ المدن على إمكانات السوق الحرّة.

وما إن بدأ المزارعون يكسبون مالاً بجهدهم حتى بدؤوا يبحثون عن طرق لتوظيف مالهم. إن كثيراً من المشروعات التي تتنافس على البقاء في الصين اليوم نَمَت من مُدَّخَراتٍ جُمِعَت من مزارعين جاؤوا من مناطق نائيَةٍ مُنعَزِلة يبحثون عن طرق لاستثمار المال الذي هبط عليهم، في مشروعات تجارية أكثر طموحاً. وكان بينهم تعاونيات وتجمعات لا تملكها الحكومة المركزية، وإنما يملكها أعضاء في جماعات محلية. أو تملكها استثمارات خاصة للحكومات المحلية. هذه «المشروعات القروية والبلدية» تملأ المنطقة الرمادية بين القطاعين العام والخاص، وتُشَكِّلُ الآن ثُلُثَ الاقتصاد. إن معظم هذه الشركات- التي صار عدد المتفوقة منها رقماً مذهلاً بَلَغَ 120 مليوناً - كانت تُمَوِّل أصلاً من موارد يجمعها المزارعون، أو بلديات تستعمل صناديق مواطنيها. إنها شركات صغيرة مهيمنة، في كل منها أقل من خمسة موظفين، غير أن مشروعات بعض القرى والبلديات ازدهرت وأصبحت الآن من أكثر شركات الصين منافسةً.

وابتكر المزارعون بنىً بارعة قلما تُفرق بين مصالح الحكومة والمستثمرين، فجعل ذلك المشهد التجاري في الصين يزيغ البصر. فقد صارت الصين بعد

http://www.ibtesama.com/vb

سنوات الإصلاح خليطاً لاحدود له من الأعمال التجارية الهجينة التي تجمع مصالح الجهات الحكومية المالية من مختلف المستويات مع مصالح المسؤولين (الذين قد يكونون مستثمرين أو يعتمدون على المكاسب المشتركة)، وأهل المدن في دور المساهمين، و أفراداً مستثمرين آخرين. وتدمج ملايين الشركات القطاعات بطرق شائكة ومعقّدة تكاد تكون مستحيلة. وتعد هذه البنى المشتركة شديدة الضبابية عائقاً أمام النمو في المستقبل، وقد يكون خلاف ذلك صحيحاً أيضاً. إذ تكون إحدى طرق بدء فهم أثر الصين على الاقتصاد العالمي الذي سيكتشف خلال العقود القليلة القادمة وهي دراسة ما وصلت إليه الصين دون قوانين وحقوق الملكية التي طالما عدّت من أهم اللبنات في بناء التنمية الاقتصادية. وكل شيء بدأ ببيع فائض إنتاج الخضراوات.

الشيوعيةُ وجُنودُ رَأسِ المال المَشْحونُون

إنَّ الإخضاع زمناً طويلاً ثم تَحَرُّر مُزارعي الصين قد فَجَّرَ اقتصادَ السوق في الصين، غير أنَّه حَرَّضَ أيضاً الفيضان الحالي من الهجرة الذي حَمَلَ السيد لي والسيدة لي إلى سوق التحف دونجتاي Dongtai في شنغهاي. وربما كان مجموع عدد المهاجرين الآن ليس إلا الموجة الأولى من مهاجرين آخرين سيأتون قريباً؛ وإليكم السبب. فبرغم صعوبة تَوافُر إحصاءات موثوق بها لسكان الصين نَجِدُ الاتجاهَ الواسع يتضح في كل إحصاء للسكان. وتراجع التَحَضُّر في الصين عن التَحَضُّر في بقية العالم في خمسين سنة مضت، باستثناء بضع سنين أخيرة. لقد شهد العالم نمواً حَضَريّاً غير مسبوق خارج الصين، وفي العقود الأربعة الأخيرة من القرن العشرين، كان معظمه هجرة من الريف. وكان حوالي 30 بالمئة من سكان العالم في سنة 1950م يعيشون في المدن. ويقلُّ هذا الرقم ست نقاط مئوية عن واقع الصين اليوم، وكانت نسبة سكان العالم الذين يعدون المُدُنَ مَوْطِناً لهم تبلغ 47 بالمئة سنة 2000م. وتعكس الأرقام تمركزاً عالياً لسكان المدن في الدول المتقدمة، حيث يعيش ثلاثة أرباع سكانها في المدن.

http://www.ibtesama.com/vb

غيـر أن التحول إلى حياة المدن مازال مُنْخَفِضاً في الصين إذا قورن بالدول النامية- حيث يعيش 40 بالمئة من السكان في المدن- التي لاتملك شيئاً من قوة الصين الصناعية. وقد ذكرنا فيما سلف أن الصين تضم خُمْسَ سكان العالم، وأن رُبعَ مزارعي العالم صينيون. ويتَّضح بذلك أن الاندفاع الصيني الذي نراه نحو حياة المدن يعوض سراعاً ذلك الوقت الضائع، وتتوقع الأمم المتحدة أن يجعل تدفُّقُ سكان الريف الهائل إلى المدن سنة 2010م نسبة التَّمَدُّن (التحول إلى حياة المدن) تصل إلى 45 بالمئة، وتبلغ النسبة سنة 2030م ستين بالمئة. وبهذا نرى سبيلاً آخر لاندفاع الصين السريع في الاقتصاد العالمي، فننظر إليه رداً على إقصاء الشيوعيين معظم سكان الصين عن عالم التجارة. وإن حملات التنظيم الجماعي الشيوعية في الريف وفي المدينة، إذا نظر إليها في ضوء تنمية طويلة الأمد في الصين، قد أدت إلى ظهور قوة عمل مِطْواعة سهلة الانقياد قوامها مئات ملايين البَشَر.

نشأ البرروفسور برازنجيت دوارا Prasenjit Duara – أستاذ التاريخ واللغات الآسيوية الشرقية والحضارات في جامعة شيكاغو، ورئيس دائرة التاريخ في الكلية – في الهند في أَوْج اشتراكية الهند. وكان شاباً في سبعينيات القرن العشرين، فجذبته الصين بما لها من صورة بلد ينعم بمساواة راديكالية. أما اليوم، فيركز دورا بحثه على تلاعب الصين في السجل التاريخي للبلاد بما يخدم أغراض الأجيال المختلفة من القادة، والإصلاحيين، والغزاة. ويرى دوارا عمق السخرية في بروز الرأسمالية في الصين بعد سنة 1978م. أما عن الصينيين الذين عرقوا وجاهدوا أنفسهم في الماركسية ونظرية ماوتسي تونج حتى أدخلوها في عظامهم، فالسخرية أكبر من منعطف تاريخي فحسب، لقد قلبت فِكْرَهُم رأساً على عَقِب. وتقول النظرية الماركسية إن الرأسمالية تأخذ شكلها عندما يعصر أصحاب رأس المال الأوائل المزارعين الفلاحين، الذين يجوعون كي تخرج ثروة الأرض إلى مشروع تجاري برأس مال مُكَثَّف. أما الصين، فقد كان المزارعون

http://www.ibtesama.com/vb

الفلاحون فيها هم الذين عصروا الدولة الشيوعية ليبدأوا أعمالهم الخاصة. وإن من السخرية أيضاً أن يكون إصلاحيو ماو هم الذين وضعوا اللبنات الأولى للرأسمالية الصينية. يقول دوارا: «إن الشيوعيين قد جعلوا قوة العمل مطواعة، ونظموا العمل ليصبح كياناً يمكن إدارته وتعبئته دائما». واسْتَنْزَفت المؤسسات الاجتماعية التي أوجدها.

لقد غَدَت قوة العمل هذه مُغْرِيَة حتى لايستطيع أن يقاومها صناعيو العالم. وإذ تبحث الشركات الأمريكية والأوروبية عن مواقع تنقل مصانعها إليها، أو تحول الإنتاج إلى أطراف ثالثة، فإن الصين تعد المكان الذي يمكن إبقاء تكاليف الإدارة واليد العاملة فيها في مستواها الأدنى.

قد تكون المفارقة التاريخية القادمة أن نرى تلك الشركات الأوروبية والأمريكية ذاتها تُعَلم الشركات الصينية كيف تستخدم القوى العاملة المِطواعة تلك لتكسب ميزة المنافسة ضدهم في السوق العالمية.

http://www.ibtesama.com/vb

http://www.ibtesama.com/vb

الفصل الثالث

عليك أن تَخْرقَ القانون قَبل أن تَصْنَع

16 بليون جوربا

تمتد مقاطعة هوبي Hobei الجبلية الخضراء على غير ما نَسَق في أواسط الصين، تبعد نهايتها الشرقية ثلاثمائة ميل عن شنغهاي. ويجهل الغربيون جمال هوبي، إلا أولئـك الذين رأوا فيلم النمر الرابض والتنين المتواري Crouching Tiger، Hidden Dragon،إنــه تحفـــة انج لـــي Ang Lee الفنية بمؤثراته الخاصة الــذي عرض روعة المقاطعة تحت المداريــة. وإن هوبي منقة من أغنى مناطق الصين الزراعية، وهي مصدر مهم للحبوب والخضار. فيها الأودية المائية علـى نهر يانجتــز Yangtze الذي يُعرَف أيضاً باســم الأودية الثلاثة Three Gorges، التــي نُسِــجَت حولها معظم الحكايات عن أعاجيــب الطبيعة. وتضم أيضاً موقع ســد الأودية الثلاثة Three Gorges Dam، الذي يرتفع ســتمئة قدم ويبلغ طوله 1.2 ميل ليشــكل حوضاً مائياً طوله 350 ميلاً يشــبه البحيرة العظمـــى Lake Superior. وقد أدى بناء أكبر هيكل إسـمنتي في العالم إلى إعادة توطين 820.000 شخصاً، سيتبعهم 350.000 آخرين. وسيؤدي المشروع إلـــى إزالـــة محيط الأودية الثلاثة وعـــدة مدن أخرى. ويهدف الســـد إلى توليد الكهربــاء لتغذية نهضة اقتصادية داخلية وإنقاذ المنطقة من التقلبات الموســمية لنهر اليانجتزِ Yangtze

إنه لعجب أن يغادر كثيرون من سكان هوبي، برغم جمال طبيعتها، وإمكانية التنميــة الاقتصادية فيها في المدى البعيد، إنهم يغادرونها ســيراً على الأقدام، وعلى الدراجات، ومتعلقين بأطراف الشــاحنات، ويركبون المقاعد القاســية في

http://www.ibtesama.com/vb

القطـــارات، حيث يتدفقون في موجة المهاجرين التي تكتســـح الصين. ويقدر ما رفعت إصلاحات الصين مستوى حياة سكان مدنها، بقيت المناطق الريفية أرضاً للعِــوَز والحاجة. لقد رفضت معجزات الاقتصاد الجديد الكثيرة أن تأتي ولا بد من مطاردتها.

إن تشانجزين Changxin قرية زراعية صغيرة في هوبي تشبه قرى كثيرة مثلها، طالما اشـــتكى المســـؤولون ذهاب أفضل أبنائها إلى العمل في مكان آخر. لقد غادر ثلاثمئة قروي من بين ألف قروي، وإن اثنين فقط من خمسة وعشرين عضواً من أعضاء الحزب في القرية هم تحت سن الأربعين، ويشير ذلك إلى خلل سيقع في قيادتها في المستقبل. لقد اكتسب الرحيل الريفي زخماً يضعف الريف مـــع كل تذكرة مغادر في قطار، ويعطي من لم يرحل مزيداً من أســـباب الرحيل. ويجد المســـؤولون سيئو الطالع في تشـــانجزين، الذين بقوا مع من بقي، صعوبة في إيجاد جيران يتطوعون لأداء أعمال مثل مراقبة فيضان النهر – فنهر يانجتزِ عرضة للتصدع – وأعمال الإنقاذ – وتقع هوبي على قمة خط فالق زلازل رئيس. وحســـبك ســـوءاً أن تعيش في قرية فقيرة، غير أن الأســـوأ هو أن تعيش حيث تتلاشى الحياة المدنية مع المهاجرين المنسحبين.

ولا تســـتطيع البلدات متوسطة الحجم أن تحتفظ بساكنيها. ففي مكان آخر من المقاطعة، في بلدة تشـــاهيChahe في مدينـــة هونجهو Honghu، وهي محافظة يعيش فيها أربعون ألف شخص، غادر ربع سكانها للعمل في مكان آخر. وما زال كثير من الســـكان، كما هو حال هذه القرى، يجدون في الزراعة ســـبيلاً إلـــى العيش. ويعني هذا في هونجهو عيش الكفاف. فدخل الفرد الســـنوي في الأســـر المزارعة لا يتجاوز 12.50 دولاراً ولابد من وصول مال إضافي من مكان آخر، من أعمال غير نظامية أو عن طريق حوالات يرســـلها من شـــق طريقه إلى الخارج. ومما يزيد الأمور ســـوءاً أن كثيراً مـــن الحقول تُرِكَت غير مزروعة؛ لأن ما بقي من السكان كبيري السن لا يمكنهم العمل والعناية في أرض العائلة. وقد

http://www.ibtesama.com/vb

تُرك ربع الأرض الزراعية بوراً في إقليم جيانلي في هوبي، لأن مئتي ألف شخص تركوهـا للعمل في المدينة. وبرغـم ذلك، فإن المنطقة وجوارها تدين بملايين من أموال الضرائب على الأرض، إضافة إلى الفائدة، وليس ثمة أمل في تسديدها.

وليست هوبي الوحيدة. فلكل منطقة ريفية في الصين قصة كئيبة، منها إقليم في مقاطعة هنان Hunan التي فقدت 156.000 مزارعاً ركبوا قطار الهجرة. أمـا الحقول التي كانت تفيض بالمزروعات أصبحت الآن بوراً ومرتعاً للأعشـاب الضارة. ويتسـاءل رجل في الخامسـة والستين من عمره بقي وراء الركب، «لماذا لا تبتكر السلطات العليا حلولاً لمناطق مثل التي نعيش فيها؟ إنها بلدة مفرغة لم يبق فيها سوى الشيوخ؟ ليس هناك من يريد أن يكون مسؤولاً في قرية.

وبلغت الهجرة في بعض مناطق مقاطعة سيتشـوان Sichuan نسبة عالية حتى أنّا نجدكل أسـرة تبعث شـخصاً إلى الخارج. وفي إقليم سانتاي Santai، الذي يحوي من المزارعين أكثر من أي إقليم آخر في الصين، ولما كان عدد سكانه يزيد على مليونٍ ونِصف مليون، فإن سـبعاً من كلِ عشـر أسر ودَّعَت فرداً منها، ذهـب ليبحث عن عمل في المدينة. ولا عجب أن نجد على مزارعي سـانتاي أن يزرعوا قطعاً من الأرض لا تزيد مسـاحتها عن إيكر واحد (0.05 هكتاراً). وكم تَصعُب الحياة على قطعة أرض أصغر من مسـبح أُولمبي. ويغادر سكان سانتاي المنطقة بأقصى سـرعة ممكنة، فهم يعرفون، مثلما عَرَفَ السـيد لي وزوجُه، أن أبسط الأعمال في المدينة تدر أجوراً أفضل من المناطق الزراعية الفقيرة.

أصبحت الفرصـة الاقتصادية في الصين، التي تدفعها الجغرافية بالدرجة الأولـى، غيـر متوازنة حتى صارت الصـين تصنف بين الـدول الأكثر بعداً عن المسـاواة. فمتوسـط الدخل في الريف لا يزيد عن ثلث دخـل أهل المدينة. غير أن الإحصـاءات لا تسـتطيع أن تقيس التفاوت في خدمـات الحكومات المحلية بسهولة. ومع قدوم الإصلاح، صار لزاماً على الأقاليم المحلية أن تدعم خدماتها الاجتماعية الخاصة كالمدارس. فقسم مجلس الشعب الوطني سنة 1998م وزارة

http://www.ibtesama.com/vb

التربية إلى قسمين، تاركاً التعليم الريفي في سقوط حر. ففي المحافظات الصينية الأكثر فقراً تنعدم فرص حصول الطفل على التعليم الأساسي تماماً. ففي خمس وثلاثين منطقة ريفية كانت موضوع بحث أجري من أجل مشروع جديد للبنك الدولي، تبين أن أربعة من كل عشرة أطفال بين عمر السابعة والخامسة عشرة لم يشموا رائحة التعليم المدرسي. وكان فرص البنات أقل كثيراً من الصبيان. ولما كانت الزراعة شحيحة المورد، وكانت الميزانيات الإقليمية ضعيفة جداً، أو تعاني من سوء الإدارة التي لا تستطيع توفير الخدمات الأساسية، تصبح المدرسة بعيدة المنال. وينسحب الازدهار المدني في الصين مع كل نشرة دعائية من آلة الأخبار الحكومية، التي تبث قصة بعد قصة عن النجاح العظيم لاقتصاد البلاد، الذي يعد إعلاناً ملحاً يدعو الناس للنزوح إلى المدن.

تجَوَّل دان رايت Dan Wright، المدير السابق لبرنامج هوبجنز - نانجنج Hopkins-Nanjing في كلية الدراسات الدولية المتقدمة في جامعة جونز هوبكنز Johns Hopkins University School of Advanced International Studies، في الريف الصيني سنة كاملة سيراً على الأقدام، تحدث فيها مع فلاحين في أفقر مناطق الصين. ورأى رايت السخرية المُرَّة في أن رفاهية الصين المزدهرة قد عَمَّقَت حرمان ملايين الفقراء في الصين. جمع رايت قصصاً في كتابه وعد الثورة The Promise of the Revolution: « تَذَمَّرَ مُدَرِّس في إحدى القرى من أن ثلث نفقات المدرسة... تُنفق على طعام مسؤولي التعليم المحلي الذين يأتون في زيارات «تفتيشية». إنهم يسافرون من قرية إلى قرية يأكلون ويشربون، ولا نجرؤ على تقديم طعام بسيط لهم، لما لهم علينا من سلطة.

وثمَّة دافع قوي آخر لمغادرة الريف هو البؤس الذي يوقِعُه المسؤولون المحليون الطماعون والمتنفذون. فقد غدت مضايقات المزارعين إحدى الضغوط المُفَجِّرة، وعندما نشرت مجلة صينية تقريراً في كانون الأول/ ديسمبر سنة 2003م

http://www.ibtesama.com/vb

لـ تشِن جيدي Chen Guidi و وُو تشونتاوWu Chuntao الزوجان الكاتبان في هيفيHefei عاصمة مقاطعة أنهُويAnhuui. وقد سـبب كتابهما (فلاحو الصين) تحقيق China's Peasants: An Investigation، إحساسـاً جعله يجدد الغلاف بجاذبية أكثر ككتاب من 460 صفحة بيعت منه مئتا ألف نسـخة من الطبعات النظامية، وعندما منعت الحكومة الكتاب باع سـبعة ملايين نسخة أخرى طُبِعَت سراً.

وانطلقت فكرة كتاب China's Peasants من اللحظة التي سـمعت فيها وُو Wu عن أم ريفية نزفت حتى الموت عقب ولادة ابنها لأنها لم تكن تملك 360 دولاراً طلبتها المستشـفى المحلية لعلاجها. فقررت وو Wu، التي صارت أُماً، أن تبحث عن الأسباب الاقتصادية للمأساة، وتتبع أسباب ذلك قدر ما تستطيع.

وأمضى الزوجان ثلاث سنوات يجولان في أنوي Anhuui يجمعان القصص. اسـتقبلهما المسـؤولون بحماسـة في البداية. وقرأ كثير من الناس الكتاب على شـبكة الإنترنت، حيث طبعه متطوعون في مجموعات إخبارية. وقيل إن القراء كانـوا يبكون ويستشـيطون غضباً من القصص التـي يقرؤونها في الكتب وعلى الشاشـات. وعندما ثبت أن رد الفعل أقوى مما ينبغي، أمرت الحكومة الناشـر الحكومي الذي طبع الكتاب أول مرة أن يوقف بيعه. فشـعر الصحفيون الآخرون بالخزي بسبب الكتاب، ووجدوا أنهم قد تجاوزوا آلام أبناء ريف بلادهم.

وكتب الزوجان في مقدمة كتابهما: «شـاهدنا فقراً لايمكن تَصَوُّرُه، وشـراً لا يخطر على بال، ورأينا معاناة لا توصف، ويأسـاً، ومقاومة لا يمكن تصورها، وصمتاً لا يفهمه أحد؛ فدفعنا ذلك إلى وراء الخيال في مأساة لا تصدق.» صدم المؤلفان أن وجدا نصف قرن من الإصلاحات الزراعية خلفت مزارعين دون ثروة مازالوا يعتمدون على وسـائل الزراعة البدائية وتنتـزع منهم الضرائب. وبينما ارتفـع دخـل المناطق الريفية بمعـدل 90 بالمئة منذ منتصف تسـعينيات القرن العشـرين، فإن المحليين يدفعـون أربعة أضعاف الضريبة التـي كانوا يدفعونها

http://www.ibtesama.com/vb

أو ربما أو خمسة أضعافها، للاستفادة من الرفاهية النامية في البلاد، قام المسؤولون المحليون عملياً بمسح تلك الرفاهية كاملة عمن يستحقها، وتركوا لهم مئات أنواع الضرائب الجديدة. فالزوجان اللذان يرغبان بالزواج عليهما أن يدفعا أربعة عشر ضريبة لتسجيل زواجهما. فالنظام الضريبي يشكل دافعاً للهجرة. والمزارعون يشكلون جزءاً مما يشكله سكان المدن، وإنما تطلب الحكومة منهم تحمل ضرائب لا تتناسب مع ما يدفعه سكان المدن.

والكتاب مليء بمشروعات وهمية فاسدة لاتُحصى تبقي المزارعين فقراء. ويصف بالتفصيل كيف يعصر المسؤولون المحليون في أنوي Anhui المزارعين في دفعات مختلف أنواعها. والاختلاس جريمة أخرى مألوفة؛ فالمبالغ التي تخصص للتحسينات العامة تختفي بانتظام. وقد جلبت الاهتمام الوطني في الصين قصة عن دِنج زومنج Ding Zuoming، القروي الذي ساءته السرقات والاختلاسات الصغيرة حتى طلب تفتيشاً عاماً للصندوق المحلي. قال المؤلفان إن دِنج فلاح عادي، غير أنه تلميذ نجيب لم يستطع دخول التعليم الجامعي لنقص درجتين في علاماته في الامتحان الوطني. وقالا: إنه لو عاش في المدينة لاستطاع الحصول على تعليم أفضل ولعاش حياة أفضل. لقد عانى بِصَمْت، وبقي مع أسرته في مزرعة لم يكن فيها ما يؤكل. وقد اعتُقِل بعد أن طلب المحاسبة العامة، وضرب في معتقله حتى مات. فعوقب قاتلوه، وَوُعِدَت أسرته بمال لم يصل إليها أبداً. وأجبر أطفال القتيل على ترك المدرسة، وتُرك أبواه المريضان يذبُلان.

وخَصَّصَت الحكومة معظم سنة 2004م للإعلان عن إجراءات تُخَفِّف من شكاوى المزارعين، استجابة للكتاب، وخوفاً من أن يهدد عدم التوازن بين مناطق الصين الغنية وريفها استقرار البلد وتقدمه. فقامت بتخفيف الضرائب، ومنح الإعانات، وبذل جهد لتشجيع الصناعات على التمركز في مناطق الصين الأفقر. ودفع رئيس الوزراء وِن جيباو Wen Jiabao بنفسه في سنة 2004م في جهود

http://www.ibtesama.com/vb

تعطي العمال المهاجرين ملايين الدولارات المسترجعة من الموظفين الفاسدين. ودعا في مجلس الشعب الوطني الأعضاء إلى التركيز على «عطاء أكثر وأخذ أقل» في كل ما يتعلق بفلاحي الصين. وسجلت تقارير الإعلام الرسمي التقدم. فقيل إن دخل المزارعين قد ارتفع حوالي 5 بالمئة من سنة 2003م إلى سنة 2004م. وليس ثَمَّة سبيل لمعرفة دقة ذلك الرقم.

غير أن الإصلاحات الريفية، مهما بلغ طموحها، لا تستطيع أن تقلب مزارع الصين الصغيرة إلى محرك نمو للصناعة الصينية. فمعظم ظروف مناطق الصين الريفية مُرعِبَة، وما زالت إستراتيجية الحكومة الرئيسة لإنهاء فقر الريف تركز على إخراج الناس من المزارع. ولا يخفى هذا على أحد. فكثير من فلاحي الصين يعيشون اليوم كما كانوا يعيشون منذ قرون خَلَت، فيسكنون بيوتاً صنعوها بأنفسهم، ويأكلون على طاولات وكراس صنعت من الأشجار المحلية، ويعتمدون على الثيران وجاموس الماء، أو على أرجلهم، في الأعمال الزراعية الثقيلة. ويعيشون في قرى يزرعون فيها بأنفسهم معظم ما يستهلكونه، أو يحصلون عليه من جيرانهم. وإن الدخل الإضافي، الذي لا يزيد عن بضعة دولارات في السنة، يحصده أولئك الذين يمسكون بالثعابين المتوحشة أو الطيور ويبيعونها. ويأتي مُعظم المال من بعض أفراد الأسرة الذين غادروا الريف، ويرسلون مالاً عندما يجدون عملاً في مكان آخر.

اقْتِراضُ الوَقْت لشراء المُسْتَقْبَل

وإذ يرحل المهاجرون إلى الحاضِرات الأكبر والمُدُن، فإنهم يواجهون كثيراً من مِحَن الاستغلال، والتمييز، والخوف. ويُرى القادمون الجدد بأعداد كبيرة في محطة القطار في بِكين، بعد أن قطعوا مئات الأميال أو الألوف، جالسين على مقاعد خشبية أو واقفين. فأرخص تذكرة سفر بالقطار تقطع نصف طول الصين تكلف 10 دولارات، وربما كان ذلك كل ما جمعته عائلة المهاجر في

http://www.ibtesama.com/vb

بضعة شهور. ويصير الهواء داخل القطار في الرحلات الطويلة خليطاً عفناً ورديئاً جداً من الأحياء البشرية، والطعام المقلي الرخيص، والفواكه الناضجة حتى الفساد. وتجد الركاب، المزدحمون، والقلقون، والمنهكون، يغطّون في إغفاءة موجعة. وإذ تحمل القطارات المهاجرين بعيداً عن بيوتهم، فإنها قد تصِلُ بِهِم إلى أماكن غَدَّارَة. فمن بين الأخطار التي نواجههم، عصابات هناك جَوَّالَة يرى منها المهاجرون أسوأ معاملة؛ فَتُسْرَق نقودهم قلَّت أو كَثُرَت. وتُجَرِّدهم شرطة القطار، شركاء اللصوص، إذا هم اشتكوا من اللصوص، فَتجَرِّدهم الشرطة مما لم يأخذه اللصوص منهم. وعندما يغادر المهاجرون القطار يخرجون إلى عالم يتوقعون أن يروا فيه سوء الاستغلال، ويأملون ألا يَشْتَدّ فيه استغلالهمَ. ففي ساحة المحطة المعتمة يجلس النازحون والنازحات عن الريف قرب متاعهم الذي حَزَموه بإحْكام، ويتوجّسون خِيفَةً مما حولَهُم مَذْعورين مُتْعَبين كلاجِئي حرب. ويستقبلهم، إن حالفهم حَظٌّ، أقارب لهم أو أهل قريتهم من الذين سبقوهم إلى المدينة فيرشدونهم إلى عمل. ويعتمد القرويون على شبكاتهم الخاصة لتمويل هذه الرحلات ولتوطين أنفسهم في بلدات كبيرة ومدن. أما السيد لي وزوجُه، صاحبا المتجر في شنغهاي اللذان ذكرناهما في الفصل السابق، فقد أتت النقود إليهما من مرابٍ في البلدة يعمل عمل مصرف لقرويين يغامرون بالخروج. وقد وصفه الزوجان لي فقالا: إنَّه أغنى رجل في بلدتهما، وقالا: إنه لا يستثمر ماله فقط. فالمرابي يجمع المال من قرويين آخرين يريدون نصيبهم من حركة المدينة ولكنهم لا يستطيعون الرحيل إلى المدينة بأنفسهم. فالشروط قاسية. ونسب الفائدة عالية بالمقاييس الصينية، غير أنها أدنى كثيراً من نسب الفائدة على محتالي القروض في شوارع نيويورك. إذ بعضهم يدفع 12 % في السنة، على أن يسدد أصل المال في سنتين أو ثلاثة، وربما يحتم ذلك جولةً أخرى من تمويل غير رسمي.

أما معظم الأسر في الصين، فيأخذ المال عندهم شكلاً واحداً: نقداً. إن حماية المال وإخفاءه هاجس الجميع؛ في الفراش، والأجران، والخزائن الحديدية

http://www.ibtesama.com/vb

الصغيرة، وفي حفر في الأرض أكثر أمناً من الخزائن الحديدية. ويخبأ المال أثناء السفر في الأحذية، والجوارب، والأحزمة المصنوعة يدوياً، ويشكل الأمن هاجساً لمقرضي المال، الذين يبنون أحياناً أبنيتهم الخاصة التي تشبه المصارف لإدارة نقودهم، ثم يسمونها اسماً آخر. سافرت كِلي تساي Kellee Tsai، المختصة بعلم السياسة في جامعة جونز هوبجنز John Hopkins University والمحللة السابقة لدى مورجان ستانلي Morgan Stanley، في البلاد تستجوب ملاّك مصارف الأزقة الخلفية، والمتعهدين الكبار والصغار عن دورهم في سوق البلاد الخاصة. فوجدت واحداً من أولئك المرابين الذي كان يقوم بإجراء أعماله من خلال «نادي المطالعة» الخاص به.

كان إقراض الأعمال التجارية الخاصة حتى وقت قريب، عملاً غير قانوني في الصين، وإن حجم شبكة التمويل غير الرسمية ينافس الأنظمة المصرفية في دول أخرى. وهذا إنجاز كبير عندما تتخلى الدولة عن دورها في تزويد الناس سنة 1978م، فقد أرسى 30 مليون عمل جذوره في الصين، كان معظمها بحاجة إلى رأس مال يبدأ به.

كيف كان ذلك؟ يقول تساي Tsai: إن من أبرز ملامح شبكات الإقراض الخاص في الصين أنها لم تكن تملك قوة التنفيذ القانوني. ولما كانت أرض الصين تملكها الدولة فقط وليس زارعوها، فلم يستطع المقترضون تقديم أملاك ضمانةً للقرض، وإنما كانوا يخاطرون برأس مال أُسرهم الاجتماعي، وإذا كان المقرضون قساة فإنهم يرهنون صحتهم وسلامتهم.

وكثيراً ما يقامر المهاجرون على دكاكين صغيرة. كدكاكين التنظيف على البخار في ظلال المباني المرتفعة الجديدة في زوجياهوي Xujiahui، وهي ضاحية سريعة التغيير على تخوم شنغهاي تشبه وسط مانهاتان، ووسط يشبه ساحة تايمز Times Square. و تتألف دكان التنظيف من غرفتين في شريط مُتَداع يرتكز على الشارع. وتَقْتَسِم البناءَ أعمالٌ أخرى منخفضة الإيجار، منها حجرات

http://www.ibtesama.com/vb

للطعـــام وضعت أمامها غلايات مـــن الخيزران متعددة الطبقـــات بحجم برميل رفعت فوق ماء يغلي ليلاً ونهاراً، ودكان لإصلاح الدراجات، وقاطع زجاج.

أما الأُسْـــرَةُ هناك، فَسَنُسَـــمِّيها أُسْرَة تشِـــنس Chens، وصلت إليها سنة 2000م من قرية في إقليم شاندونج Shandong لا تملك قِطْميراً. عمل السيد تشِـــنس وزوجه في أعمال خدمات في ســـنتهما الأولى، ثم قَـــدَّم لهما تاجر من شـــنغهاي عرضاً لِيَبيعَهُما آلةً يســـتعملها في التنظيـــف بالطريقة التقليدية على البخار. فإذا اســـتطاع الزوجان تسديد دفعة مقدمة، فإنهما سيُسددان ما يبقى من ثمنها من رَيّع عَمَلِهِما في التنظيف.

ورَجَـــع الزوجان إلـــى قريتهما واتصلا بمقرض المـــال (المرابي) مقابل رأس مـــال البذار. ولِمرابي القريـــة هناك تاريخ مع المهاجرين. فقـــد لقيت أول موجة مـــن القروض نهاية غير ســـعيدة. فقد اعتمدوا في ذلـــك الوقت على الضغوط الاجتماعية التقليدية للمجتمع الصيني، حيث الأســـر والأفراد يعملون جاهدين للحفاظ على علاقات طيبة ضمن شبكة واسعة من الأقارب، والجيران، وآخرين ارتبطـــوا بهم في المدرســـة، أو العمل، أو من خلال أصدقـــاء. وإن الحفاظ على علاقات العمل ضروري للحياة المحلية، حيث يعمل الصينيون لبناء «وجه» يحافظون علية ويعرضونه، هو مزيج من النيات الطيبة، والسمعة الحسنة، ورسائل صغيرة تســـاعد في تحديد مكان الفرد في المجتمـــع. فعندما يكون التفاعل محلياً تكون الحاجة المشـــتركة للحفاظ على ماء الوجه آلية فرض عالية الفعالية ضد كســـر الوعود أو المخاتلة. وعندما أقرض المال في البداية للمهاجرين، كانوا يغيبون في مجاهل المدن الصينية الكبرى وســـكانها العائمين، دون أن يخلفوا وراءهم مرجعاً للمقـــرض، الذي لم يكن لديه من مـــلاذ يُذكَر لمتابعة الديـــون الهالِكَة، أو اتخاذ إجراءات تلزم دفع الدين.

وللتكيف مع الحقائق الجديدة، صارت القروض تمنح لأفراد الأسرة الباقين فقط، الذين يمكن تحميلهم المســـؤولية. وهكذا كان الأمر لأســـرة تشِـــنس. كان

http://www.ibtesama.com/vb

الزوجان يعلمان أن المرابي سوف يطالب أسرتهما، وأن الاستنكاف عن التسديد سيقابل بضغوط قاسية. وتأخذ المطالبة شكل زيارات ليلية يقوم بها الجباة، الذين يقل لطفهم مرة بعد أخرى. وكان المُرابون الذين ينتظرون تسديد الدفعات المتأخرة في قريتهم يذهبون إلى بيوت أسرة مدينيهم، ويرفضون مغادرتها ويطالبون أصحابها بالطعام والشراب والمبيت حتى يسدد القرض. وكانت هذه الطرق مجدية تماماً، وكانت دافعاً قوياً للمهاجرين لقبول أي عمل يريح أسرهم من أعبائهم المالية. إنهم يغادرون البلدة تدفعهم حوافز مستمرة.

وتعمل الأهمية المالية للهجرة في الأسر الريفية في الصين في اتجاهين. إذ يستطيع الفلاحون الاستثمار في ثروات الآخرين إن هم دخلوا مجال الإقراض الذي يملأ جيوب المهاجرين. وكسب مزيد من المال يمكنهم من تحسين حال بيوتهم الريفية، والاستثمار في مزارعهم، أو إقامة أعمال تجارية محلية، غير أن الأفضل دائماً أن تجد سبيلاً بطرق باب اقتصاد المدينة الغني مباشرة. ويعني ذلك إرسال أفراد من الأسرة سعياً لتحصيل الرزق (وهم ثلاثة أو أربعة مهاجرين من الذكور). وقد تكون الكلفة المباشرة باهظة، حيث يكون الشخص الذي يقع عليه الاختيار للهجرة هو الذي يَعْتَمد عليه أهل بيته أكثرَ من سواه. فكانت الأسرة تضطر للعيش دون ما يَكسِبه ابنها هذا حتى يُمَكِّن مَوقعَه في المدينة. ويكون الوقت الذي يمضيه المهاجر بعيداً مثل السعر المرتفع للموارد المالية في سوق الاعتمادات الريفية.

ولا تلجأ الأسر إلى الاعتماد على أعضاء ضعفاء في هذا النظام، فالمجازفة شأنُها هنا عظيم. وشق الطريق صعوداً إلى وحدات التصنيع البسيطة، والمناجم، ومقالع الحجارة، وأشغال الطرق أو أعمال البناء يحمل أخطاراً كبيرة. وسجلت الإحصاءات الرسمية حوادث صناعية كان يُقتَل فيها حوالي 350 شخصاً في اليوم الواحد. فالعمل الشاقّ يتطلب عمالاً مناسبين. والمهاجرون الصينيون هم زبدة البلاد، إنهم أشخاص في ربيع سنوات كسبهم، أمضوا، وسطياً، سنتين

http://www.ibtesama.com/vb

وتصف من التعليم المدرسي أكثر من العمال الزراعيين العاديين، ويصغروتهم بعشر سنوات. وهكذا، فإن إرسال شخص للعمل بعيداً يأتي أُكُلَه، وفي كثير من الحالات يزيد دخل البيوت الريفية بين 14 و 30 %. غير أن ذلك لن يُغني مُعظَم الأسر الريفية، وإنما هو أفضل من عيش الكَفاف بدخل ضئيل إضافي. وقد يوفر ثياباً إضافية، وجهاز تلفزيون، أو ربما بيتاً جديداً للدجاج. ويتعلم المهاجرون مهارات ومعارف قد تكون أثمن من المال الذي يكسبونه في المدينة. فيحصلون بها على مواقع عمل أفضل ويبدؤون أعمالهم الخاصة.

لابُدَّ من قَريَة للفَوْز بحصَّة في السَوق العالمية

شكلت شبكة التمويل الخاص نزوعاً آخر نحو التمدن. فقد قلبت مناطق ريفية أو شبه ريفية معينة إلى محاور صناعية. ففي مقاطعة زيجيانج Zheijiang على سبيل المثال، نجد أن 90 % من التجارة خاصة، وهي نسبة تفوق النسبة في أي مقاطعة صينية أخرى. ولعل الأهم هو أن الأعمال التجارية المحلية في زيجيانج بدأت كلها تقريباً برأسمال بذار الحبوب قدمته شبكات الإقراض المحلية. براد هوانج Brad Huang مواطن من المقاطعة، تخرج من كلية الإدارة في جامعة يِيل Yale School of Management، وعمل في مصرف كريدي سويس Credit Suisse، يدير الآن لوتُس كابتال Lotus Capital، وهو صندوق استثمار يشتري حصصاً في أعمال خاصة في الصين. قال إن نجاح زيجيانج جاء من بدايتها بداية فقيرة جداً. كانت زيجيانج تتلقى إعانة من أخفض نسب المساعدات الحكومية بين المحافظات الصينية، مما ترك سكانها، وأغلبهم ريفيون، أكثر عِوَزاً وحرماناً في الصين. وعندما بدأ التحرر هاجر كثير من أبناء زيجيانج إلى مدن الصين الكبرى. وثمَّة كثيرون آخرون، كانت انطلاقتهم في موطنهم، فأمسكوا بسرعة وحماسة فرصة أعمالهم التجارية الخاصة.

http://www.ibtesama.com/vb

وتصطف الآن جميع أنواع المصانع على أطراف الحقول القديمة في المقاطعة. فإذا حَطَّت طائرتك في أحد مطارات زيجيانج الصغيرة الكثيرة، فإنك لن ترى إعلانات اعتدت أن تراها للمسافرين. كالأنواع البراقة من السجائر، والهواتف الجوالة، والكاميرات الرقمية، وإنما تملأ جدران مطارات زيجيانج إعلانات عن مثاقب الضغط، وآلات سَبْك البلاستِك، وآلات الخراطة الصناعية. فتُحَيِّيك اليوم شركات الصين الخاصة الناجحة، ويُحَيِّيك أغنى أفراد المقاطعة.

ولعل المنطقة المدهشة أكثر في زيجيانج هي وِنْزْهو Wenzhou، فجزء منها مدينة وجزؤها الآخر ريف، وكلها قوة اقتصادية. تقع المنطقة على الجانب الآخر من مضيق تايوان مقابل 22 مليون شخص تايواني، وكانت وِنْزْهو في السنوات الثلاثين الأولى بعد الثورة، أرضاً حدودية تقسم جمهورية الصين الشعبية عن جمهورية الصين الأصغر. ومازال للطائرات المقاتلة والجنود الذين يحملون الأسلحة الرشاشة، حتى اليوم، حضور دائم في مطارات وِنْزْهو. وكذلك دِفْقٌ من رجال الأعمال التايوانيين. وقد أَهْمَلَت الحكومة اقتصاد وِنْزْهو إهمالاً شديداً أثناء الفترة التي طُوِّرَت فيها الصناعة في مناطق ظَنَّها ماو أنها ستكون في منأى عن مهاجمين أجانب.

وتَحْتَضِن الجبالُ وِنْزْهو مما يجعل بناء الطرقات والسكك الحديدية عسيراً. إذ تتقاطع السكك الحديدية على معظم الشاطئ الشرقي للصين، غير أن أول خط قطار لم يصل إلى وِنْزْهو حتى أواخر سنة 1992م. ولم يتجاوز استثمار الحكومة الصينية فيها بين سنة 1949م و1981م مبلغاً زهيداً هو 80 مليون دولاراً، أي بمعدل 2.5 مليون دولار في السنة. وهذا رقم ضئيل جداً، إذ كانت الحكومة تسيطر رسمياً على جميع الفعاليات الاقتصادية، وقد ارتفع عدد سكان وِنْزْهو في تلك الفترة من 4 ملايين إلى 7 ملايين، أي أن الفرد في تلك المنطقة كان يتلقى أقل من دولار واحد في السنة. وبرغم نضالها كأرض محرومة، فإن المساحة المخصصة لمزارعي وِنْزْهو كانت أقل من ثلث المعدل الوطني، و كانت الأرض أقرب إلى البور.

http://www.ibtesama.com/vb

وبالرغم من ذلك الحرمان، فقد أخرجت هذه الأرض المهمشة نماذج رسمت مصير اقتصاد الصين.

كيف؟ فمثلما كان حال المزارعين الثمانية عشرة المشهورين الذين اتفقوا على إدارة أعمالهم التجارية الخاصة بعيداً عن التعاون الريفي، فقد اضطر المقاولون الصينيون الناشئون إلى اتخاذ قرار بِخَرق القانون. كان البدء بعمل تجاري خاص في الصين أمراً غير قانوني. ومثل بقية الأعمال التجارية غير القانونية التي تزدهر برغم القانون، فقد كان لا بد من مزيج من الإرادة، والحِنكة السياسية، والفِطنة، والاستعداد للالتزام بقواعد النظام بأي سبيل ممكن، بالاعتماد على السرِّيَّة، والرشوة، والبراعة مع القانون على نحوٍ يُعيد صياغة ما يعد مغامرات غير قانونية فيصنفها أعمالاً تجارية تنسجم مع بعض الصيغ القانونية التي يقبلها المعنيون بمراقبة الاقتصاد المحلي. أما عمل الأجانب الذين يقومون بنشاط تجاري في الصين، أو ينافسون الأعمال الصينية، فقد كانت نظرة التجارة الصينية للاتفاقيات، واستخفافها الواضح بالشرعية، من أكثر الأمور إثارة. غير أن التجارة الصينية نمت في بيئة كان الخروج عن القانون هو الخيار الوحيد المتاح فيها. فقد نما القطاع الخاص الناشئ كلُّه نُمُوّاً متفجراً تحت أنواع القيود ذاتها التي واجهها المهربون الأمريكيون وأصحاب الحانات أثناء تحريم بيع المسكرات.

وبدأت الأعمال التجارية الخاصة في وِنْزهو تأخذ شكلها قبل أن يبدأ دنج زياوبنج بالإصلاح رسمياً، غير أن القائد الأعلى لَمَسَ قيمتَها وامتدح المنطقة برغم أنها كانت رسمياً مرتعاً للجرائم ضد دولة الشعب. وهكذا وُلِدَ الاقتصاد الخاص بتغاضي الحكومة المركزية وإيمائها. واحتُفِي بمقاولي وِنْزهو، مثل المزارعين الثماني عشرة المشهورين، لتعاملهم مع قوانين الصين وأنظمتها كما لو أنها كانت كلها خاطئة. وكثيراً ما نسب إلى دنج قوله: «ليس مُهِماً أن تكون القطة سوداء أم بيضاء، طالما أنها تصطاد الفئران». التي قالها أثناء مناقشات

http://www.ibtesama.com/vb

سياسية في ستينيات القرن العشرين، وتُذكَرُ الآن في معرض الحديث عن فشل السياسات الاقتصادية الشيوعية القديمة، التي لم تستطع أن تصطاد الفئران، والسياسات الجديدة التي مَنَحَت الناسَ رخصاً تُرَكِّز على الغايات بغض النظر عن الوسائل.

وما إن سُمِحَ لأهالي البيوت الريفية بدخول مجال التجارة، حتى سَرَت المقاولات مَسْرى النار في الهشيم. وأُنشئت أعمال تجارية في تسعة من عشرة بيوت، وفي خمسة سنوات قصيرة في بعض القرى في المنطقة، أسَّسَت فيها 80.000 أسرة بعض العمليات الصناعية الصغيرة، وكانت 110.000 أسرة قد فعلت ذلك بحلول سنة 1986م. وكان القانون يمنع أن تصبح الأعمال التجارية كبيرة؛ فكان توظيف أكثر من خمسة أشخاص يجلب اهتمام السلطات فوراً، وكان لديها سلطة إغلاق المشاريع الأكبر. وبرغم ذلك فقدكان فلاحو وِنْزْهو، في سنة 1986م يوظفون ثلاثمائة ألف عامل، فأبعدوا بذلك عن المزرعة أول المئات عن ملايين المهاجرين الريفيين - فيما بعد - بحثاً عن عمل أفضل.

وكانت جميع هذه الأعمال التجارية بحاجة إلى مال كي تنطلق وتجري. وعلى خلاف كثير من البقاع التي ستشهد الازدهار في الصين، فقد مولت المنطقة بذاتها الازدهار الأول في زيجيانج، وكان منها وِنْزْهو، دون الحاجة إلى مال أجنبي يساعد في انطلاقها. وللتحايل على الأنظمة التي تمنع تقديم القروض لشركات خاصة، لجأت الأعمال التجارية المحلية مرة ثانية إلى شبكات تمويلها الخاصة، وقد نما بعضها منذ ذلك الوقت لتصبح من المؤسسات المالية الأكثر قوة في الصين الحديثة، وهي قادرة اليوم على جمع مئات ملايين الدولارات لإقامة مصانع عملاقة، وطرقات خاصة يَدفَع سالكوها رُسوماً، وأي مشروع لو كان في مكان آخر في الصين لاحتاج إلى رأس مال من أحد مصارف الدولة، أو إحدى شركات الدولة ذات الصلات الجيدة، أو مصدر تجاري أجنبي.

http://www.ibtesama.com/vb

وابتدعت قرى الفلاحين في وِنْزهو جميع أنواع البُنى المتحدة البارعة لكسب الوضع القانوني الذي لا بد منه للحصول على المال دون استعانة بمحام من وول ستريت، أومن لندن. وكانت إحدى هذه البُنى «المشروع المنزلي المتماسك» حيث تحولت الشركة العائلية إلى فرع من مشروع تابع للدولة. ويستطيع المشروع المنزلي أن يغطي نفسه باسم الشركة التي تملكها الدولة، من خلال ترتيب مع إدارة الشركة الأكبر، وأوراقها، وأرقام حساباتها المصرفية. ولم يُؤَدِّ ذلك إلى جعل الشركة في وضع يُمَكِّنُها من الحصول على القروض من مقرضي الدولة فحسب، وإنما حَرَّرَها من دفع الضرائب. وقد كانت التعاونيات الحكومية أيضاً في اللعبة، في شراكة مع الشركات المنزلية بطرق مماثلة. وإذ اتَّخَذَت الأعمال التجارية هذه الأشكال الجديدة فقد وَرَّطَت بُنية السلطة الشيوعية المحلية في اندفاعها نحو السوق. ونَمَت الأعمال التجارية الهجينة ليُصْبِح اسمُها مشروعات «قبعة حمراء». ويشير كِلِي تساي Kellee Tsai إلى أن أصحاب كثير من التعاونيات المزيَّفَة كانوا من الكوادر، ومن المسؤولين الحزبيين المعنيين بإدارة المزارع أو التجارة تحت رعاية الدولة. حتى شَجَّعَت الحكومة المسؤولين المحليين على الانخراط قدر ما يستطيعون. فإذا كان القصد من ذلك أن يصبحوا شركاء في المشروع، والإثراء في الصفقة، فليكن.

وكان الشيوعيون الصينيون، المشبعون بماركس وأفكاره، يعرفون أن المراحل الأولى من تكديس رأس المال في اقتصاد سوق في مرحلة التكوين لابد أن تسودها الفوضى. لقد كان في أوروبا قراصنة، وكان في أمريكا بارونات السرقة، وكان في كورية زايباتسو Zaibatsus وشيبول Chaebols الاندماج المتكامل اللطيف للمصارف والصناعة والسياسيين والعسكريين، وجميعهم مُسْتَعِد لِحَكِّ ظهور بعضهم وإخفاء أخطاء بعضهم بعضاً. وصار تَداخُل المصالح بين المقاول الخاص والمسؤول في السلطة أمراً عادياً في الصين. ويمكن أن يعمل بطرق شَتَّى لا تُعَدُّ ولا تُحْصى، بعضها تعاوني جداً وبعضها الآخر قسري جداً. أما زيروي

http://www.ibtesama.com/vb

تيان Zirui Tian فهو مهندس صار باحثاً اقتصادياً في جامعة بِكين وإنستيد INSTEAD، كلية التجارة الفرنسية، فيقول: «إن أحد البراهين على عبقرية رجل الأعمال الصيني هي أنه يستطيع النجاح في نظام يضمُّ هذا العدد الكبير من القيود».

وساعدت العملية، مع مرور الوقت، في ربط مصالح مجموعات في الصين لم تكُن متحالفة تاريخياً. فقدكانت هناك طبقة وسطى وطبقة تجارية طموحة تحتاج إلى المال وحقوق الملكية كي تقوم بعملها التجاري، وكانت هناك الدولة ومسؤولو الحزب الذين كانوا موجهين أيديولوجياً ضد الأعمال التجارية والملكية الخاصة. أما المنظمون، فإن مصالح المسؤولين معقدة ومتناقضة حتى إن شدَّ زمام القطاع الخاص على أي جبهة سيصطدم أيضاً بمصائر أولئك الذين يديرون الدولة.

ولو تمكن النظام من التخلص من إرث عدم الالتزام بالقوانين والالتفاف عليها، فإن أثره على تعامل العالم مع الصين تجارياً سيبقى إلى مستمراً دائماً. فإذا بقي نظام الرشاوى والشِكّات وحك الظهور (تبادل رعاية المصالح) في البلاد لعقود قادمة، فسيكون له نفوذ قوي على الشركات التي تدخل السوق، التي ستطالب، في أقل تقدير، بإطلاق يدها للتعامل مع السوق الصينية كما يتعامل أصحاب الأعمال الصينيين معها.

اعبر النهر بتَحَسُّس الحَصى

وعندما تولى دنج زياوبنج DengZiaoping الإشراف على الاقتصاد سنة 1978م وانتقل الحزب الشيوعي إلى تصحيح أخطاء الماضي الأيديولوجية، ومنها أخطاء ماو وعصابة الماويين الأربعة Mao and the Maoist Gang of Four.كانت هذه التغييرات مؤشراً إلى مرحلة من القيادة العملية. أهاب دنج بمثقفي الصين، الذين كانوا موضع سخرية وأذى أثناء الثورة الثقافية التي انتهت، المساعدة في معالجة مشكلات البلاد الاجتماعية والاقتصادية. وأنهت

http://www.ibtesama.com/vb

الصين تحت قيادة دنج أيضاً النضال الطبقي ولم تَعُد تُشَهِّر بالطبقة العليا، التي ستَتَشَكَّل سِــراعاً من جديد. وطُبِّقَت إصلاحات دنج الجريئة وتغييراته بقواعِد شـــديدة من المحافظة. فرصـــد الحزب التغييـــرات الاقتصادية التي تمت تحت رقابته عن كثب، وتقدم المثقفون لدعم الإصلاح.

وأثبتـــت الحرية الاقتصادية التي تمتع بهـــا المزارعون نجاحها العظيم. فقد اســـتولت على المزارعين حُمّى المقاولة، وانطلق الملايـــين بحثاً عن أفكار تجارية تدعم دخلهم الزهيد من الزراعة.

إن الصعوبة كبيرة في اتخاذ قرار عن عمل يختار المرء أن يعمله في اقتصاد ناضج حيث يعيش مع خيارات واســـعة. غير أن مجال الاختيار كان محدوداً جداً أمام المزارعين الصينيين. حيث يمكنهم استحضار ذكريات أعمال تجارية قبل أن تتولى الشيوعية الصينية البلاد، وبرغم ذلك، فقد كان الريف فقيراً وبعيداً جداً عن التنوع الأغنى للمـــدن الصينية، وعندما تبرز أفكار جيدة، أصابت المزارعين حُمّى المقاولة، وانطلقت الحشـــود بحثاً عن أفـــكار تجارية مزدهرة تدعم دخلهم الزهيد من الزراعة تُقْتَبَس بســـرعة تجعل أي عمل رابح يعج بالمنافسين. وكانت الصناعات الجديدة تنطلق لتلبي الطلب الواسع على الحاجات الضرورية اليومية كالثياب، والمؤن المنزلية، والمكانس، والفراشي، وأدوات المطبخ.

تحرك مزارعو وِنْزْهو سِراعاً ليمسكوا بميزة سوقهم على نظام التوزيع الجامد الذي تديره الدولة، فأرســـلوا عدداً من مندوبي المبيعات إلى جميع أرجاء الصين ليروجوا بضاعتهم. وقد نما قســـم جديد كامل من البلدة في بكِّين سُـــمِّيَ قرية زيجيانج، حيث تجمع المهاجـــرون من المقاطعة، ومعظمهم من الرجال، في جيتو صنعوه بأنفســـهم. وبرغم أن أوائل القادمين كانوا أغنى من أهالي بكِّين، غير أن سكان العاصمة جمعوهم معاً وعدّوهم «رعاع الريف». وقد هَدَمَت الحكومة مرَّة القرية، وذلك أســـلوب واجه استعداد الجنوبيين الجريء للالتفاف على القانون.

http://www.ibtesama.com/vb

وسرعان ما بوشر ببناء قرية زيجيانج جديدة وأصبح الرجال الذين غادروا المنطقة ليبيعوا بضاعتهم في أنحاء البلاد يعرفون بالمغامرين الجنسيين. وقد صور الذين خارج المقاطعة رجال أعمال زيجيانج تصويراً كاريكاتورياً على شكل فلاح غني مغرور يجوس خلال البلاد بحثاً عن فريسة. وأثار مقاولو زيجيانج غيرة مواطنيهم، مما حثّ كثيرين على طلب ما يمتلكه المختالون.

كانت وِنْزْهو وزيجيانج خير مثالين يُدرَسان عن إصلاحيي الصين. كان دنج يؤمن إيماناً راسخاً بأن التنمية الاقتصادية تتطلب خطوات مدروسة وتجارب محلية. عندئذ يمكن تعميم الإصلاحات الناتجة في كل البلاد. وهذا يناقض إصلاح السوق الذي اختارته أوروبا الشرقية لنفسها عندما تداعت الشيوعية هناك، فكان له فعل الحمّام البارد المفاجئ. غير أن زيجيانج كانت تحتاج إلى قليل من التشجيع كي تبدأ تجاريها الخاصة، وعندما حاول بعض المسؤولين الحكوميين إعاقة ازدهارها، طغت عليهم ديناميكية المقاطعة. وقد شجع قول دنج الشهير «اعْبُر النهرَ بِتَحَسُّس الحصى» الصينيينَ على تَلَمُّس طريقهم بحذر وشيئاً فشيئاً عندما ينتقلون نحو حياة أفضل. لقد تحَسَّس قُرَوِيّو زيجيانج وسكان وِنْزْهو الحصى، وإنما فعلوا ذلك وهم يركضون.

وهكذا ألقي مزارعو الصين في خِضَم المنافسة في مرحلة الإصلاح، حيث اندفع مئات أو ألوف من المتنافسين المحليين إلى التجارة نفسها. وكثيراً ما يُمَجِّد الصينيون قِيَمَهُم الثقافية التي تجعلهم أصحاب أعمال بالفطرة. ويُعجَب الأجانب باقتصادهم في النفقات، وقدرتهم على العمل الشاق، وإدارتهم فريق عمل بنجاح. فالثقافة تكوّن مكان العمل في كل الدنيا، أما في الصين فقد أدّى انبعاث رأس المال فيهم، والتنافس الحاد إلى تكوين ثقافة خاصة فرضت الكَدَّ والكفاءة مما كان نادراً في ظل الزراعة التعاونية.

http://www.ibtesama.com/vb

مصنع للأحزمة الجلدية يغلق في مَسَتْشُستْس Massachusetts بينما تفتح ألوف المصانع في الصين

كان مِرِل واينجـــرُد Merrill Weingrod، مدير اســتراتيجيات الصين China Strategies في مدينة بروفدَنس Providence، في ولاية رود آيلاند Rhode Island، يدير أعمالاً تجارية في آسيا الصينية Chinese Asia –أولاً في هونج كونج، ثم في تايوان، وعاد إلى العمل في الصين منذ أوائل ســبعينيات القرن العشـــرين. ويقدم واينجرُد الآن استشـــارات لشـــركات أمريكية وأوروبية تبحث في نقل صناعتها إلى الصين، أو في إنشاء شبكات بيع في البلاد. غير أن عمله في سنواته العشرين الأولى كان في شركته الخاصة، التي كانت واحدة من الشركات الأمريكية الرائدة في صناعة الأحزمة الجلدية.

أغلق واينجرُد مصنَعَه في مَسَتْشُســتْس في نهاية الثمانينات وأقام، بدلاً عنه، علاقات مع مصنعين صينيين. ولطالما اشتهرت الصين بتجارة المصنوعات الجلدية حتى في الفترات الشيوعية الأكثر جموداً. وكانت الدولة تدير دَبَّاغات ضخمة جداً. ففـــي الصين أقدام كثيرة يلزمهـــا أحذية. وقد أدرك واينجـــرُد في وقت مبكر أن القوى العاملة الصينية ســتقضي على صناعته، فجال في البلاد ليصنف المُصَنِّعين الذين ينهجون مقاييس المصانع الآسيوية الأخرى، وإنما بأسعار أقل.

كان واينجرُد يزور مصانع الجلد والأحزمة في منطقة وِنْزْهو الريفية عندما تبين له أمر. يقول واينجرُد: «كانت اللحظة التي أدركت فيها اســتحالة منافسة الصينيين عندما زرت مصنع وِنْزْهو الذي يعالج جلد الحيوان».

ويذكر أنه دخل كوخاً مســتديراً سقفه صفيح فيه طاولات ومِئَتا عامل. كان الرجال الحُفاة فيه منحنية أصلابهم على أســوأ جلد رآه في حياته، إنها طبقات رقيقـــة من جلد الحيوان المهترىء المليء بالثقوب».كان هذا النوع من الجلد يُرمى تَلفـــاً فـــي أي مصنع جلد في أي مكان آخر من العالم». غير أن الأشـــياء التي لا

http://www.ibtesama.com/vb

قيمـــة لها في مكان آخر قد يكــون لها قيمة كبيرة في الصين، حيث اليد العاملة رخيصـــة جـــداً. كان العمال الذين يتفحصون جلد الحَيــوان في مصنع الأحزمة الصيني يسدّون كلَّ ثقب صغير في الجلد واحداً بعد آخر، فيقصّون قطعاً صغيرة من الجلد التالف تملأ كلَّ ثقب. ويشــطفون حواف الرقع الصغيرة باليد بواسطة سكين، ثم يشطفون حواف الثقب باتجاه مناسب ويرتقون الرقعة. كان عملهم وكأن صاحب العمل قرر أن يكون الجبن السويسري كثير الثقوب أملساً فاستأجر عمالاً ليقصُّــوا رتقــاً تُلائم حجم كل ثقب. فوجئ واينجــرُد إذ يقول: «لا يمكن أن تفعل هذا إلا في الصين». فالأحزمة التي تنتج من جلد أُعيد تشــكيله تُباع في المخازن الصينية بأقل من دولار، وليس ثَمَّة من يستطيع كسر هذا السعر.

ويرغم شــبكة الاتصالات الواسعة في الصناعة، فلم يكن واينجـرُد يعرف أن صناعة الأحزمة كان هذا حجمها في وِنْزهو، قال: «أذكر أني ذهبت إلى الســوق حيث تبيع شــركات الجلد والأحزمة منتجاتها، ولم أر شــيئاً قطُّ كهذا. كان بناءً مســاحته مثل مساحة ملعب كرة قدم، يضم ثمانمئة كشــك يُشرف عليها بائعو السلعة ذاتها».

وأغلق واينجـرُد مصنعه في مَسَتْشُسِــتْس حيــث كان يعمل فيه مئتا عامل، وأعاد ابتكار عمله في الأحزمة بما يلائم التَحَوُّل الحتمي باتجاه الصين. وسيكون أداؤه أفضل كوسيط بين البائع الأمريكي والمصنع الصيني مما لو أنه استمر في مصنعه الأمريكي. ومن أســباب ذلك أن باعة التجزئــة الأمريكيين والأُوروبيين واليابانيين كانوا مُصممين على شق طريقهم نحو الصين ومُدَّخراتها الواعدة.

ويقول واينـجـرُد إن عدد مصانع الأحزمة النسائية الأنيقة، متوسطي الحجم، في الولايات المتحدة التي يزيد عدد العاملين فيها على خمســة وعشرين عاملاً لم يكُن يتجاوز ستين مصنعاً في أواخر التسعينيات. وصار عدد المصانع من ذلك النوع أكثر من مئة وخمسين مصنعاً ضمن دائرة نصف قطرها عشرة أميال حول وِنْزهو سنة 1999م.

http://www.ibtesama.com/vb

كانت صناعة السلع الجلدية إحدى المجالات التي طغت الصين فيها على مُنافسيها في العالم باقتحام قوي في سوق لم يكن لها فيه حضور يُذكر من قَبْل. أما الآن، فإن مصانع الجلد الصينية تُزَوِّد العالم بكمية من الجلد لصناعة الأحذية والثياب أكثر من أي بلد آخر. فستة آلاف شركة سلع جلدية تُعالج 460 مليون قطعة جلد حيوان مدبوغ، وخمسة بلايين زوج من الأحذية، و70 مليون قطعة ثياب جلدية في السنة.

وتشكل الأحزمة فرعاً من صناعة الأحذية، وتحتل وِنْزْهو المرتبة الثانية في إنتاج الأحذية في العالم بعد مقاطعة جوانجدُنج Guangdon في جنوب الصين، التي تنتج 175 مليون زوج من الأحذية شهرياً، ومنها أحذية لمعظم الماركات الغربية المشهورة، وقد تخصصت في تزويد الأسواق الأقل غِنى. فستين بالمئة من صادرات أحذيتها يذهب الآن إلى أُوروبا الشرقية ودول الاتحاد السوفيتي سابقاً. ويقول واينجرُد: «إن كل هذا قد نشأ من عدم».

وتَكتظُّ زيجيانج وراء وِنْزْهو بمناطق تركز على الصناعة ذاتها. وتعد هونج دونجيانج Hong Dongyang رمز تلك المقاطعة. وهي مقاولة لها قصة معروفة في الصين. كانت هونج مُدَرِّسَة، بدأت بصناعة الجوارب في السبعينيات على آلة خياطة منزلية. كانت هونج تبيع الجوارب في البداية على الطرقات قرب منزلها. ففتحت كشكاً وأطلقت مشروعها البدائي، وسَمَّته شركة جوارب زيجيانج. وما لبث كثيرون آخرون أن قلدوا شركة هونج للجوارب، وهي الأولى في المقاطعة. أما اليوم فقد غدت المقاطعة عاصمة للجوارب، فيها أكثر من ثمانية آلاف شركة تغزل ثمانية بلايين زوج من الجوارب في السنة، وهذا ثلث إمداد العالم.

إن التنافس مع المزارعين السابقين والصناعيين المنزليين ليس سهلاً. لقد ساعدت مصانع زيجيانج في جعل سوق الجوارب الأمريكي الأكثر تنافساً بين جميع الصناعات الأمريكية الإكسائية. فقد أنتج الصنّاع الصينيون 1% من

http://www.ibtesama.com/vb

الجوارب التي يرتديها الأمريكيون سنة 2001م. وقفزت الجوارب الواردة من الصين إلى الولايات المتحدة في سنتين مئتي ضعف، وتُشكل الآن 20% من السوق الأمريكية. وقد كان لحصّة السوق هذه أثراً غير متكافىء على فُرص العمل الأمريكية. وقد قال سيد سميث Sid smith، الرئيس السابق لرابطة الجوارب والملابس المحبوكة لوكالة أسوشيتد برس Associated press: ليس من شك في أن الواردات قد أطاحت بعدد هائل من فُرص العمل في صناعة الجوارب». وتساءل: «هل تشكل خمساً وسبعين في المئة من جميع فرص العمل؟ ربما، ومن يدري؟ ونجحت أربع مجموعات أمريكية تعمل في النسيج والتجارة في حزيران/ يونيه 2004م، في التماس تقدمت به إلى وزارة التجارة الأمريكية لتضرب حصة الجوارب المستوردة من الصين، غير أن الحصص الجديدة أبطأت نمو الصين داخل السوق الأمريكية فحسب.

وتبين أن الاستغناء عن الصنّاع الصينيين لم يعد ممكناً في تزويد شركات الجوارب الأمريكية الكبرى، الذين يحبون ما فعله مقاولو زيجيانج لسوقهم. إن جِم ويليامز Jim Williams رئيس شركة جولد تو براندس Gold Toe Brands Inc ومديرها التنفيذي، وهي شركة في بِرلِنجتُن Burlington، في شمال كارولاينا North Carolina، التي تتحكم بنصف مخازن بيع جوارب الرجال في الولايات المتحدة. ويتباهى موقع جولد تو على شبكة الإنترنت أن «كل زوج من جوارب جولد تو يصنع بكل فخر بأيد حرفية ماهرة ويفحص بدقة ليعطي المستهلك أجود جورب مُمكن». ولا يتطرق الموقع إلى القول إن هؤلاء الحرفيين قد يكونون من النساء المُزارعات المُهاجرات اللاتي يعملن بجد في مصانع الجوارب في زيجيانج.

وقد كتب ويليامز Williams أن «جميع أعضاء الكونجرس وكل من في الحكومة الأمريكية» يُعارض فرض حصص الاستيراد. وقال لوكالة أسوشيتد برس: «إن لديك فرصة للبحث عن مصدر لنوع أفضل وأسعار أفضل في العالم».

http://www.ibtesama.com/vb

لم يكن الجلد، والأحذية، والجوارب سوى البداية في زيجيانج. أما الآن فقد صار للمدن في جميع أرجاء المقاطعة صناعاتها التي تهزم صناعات العالم. وتصنع إحدى المناطق بليوناً من الأزرار، وأغرقت منطقة أخرى العالم بلآلئ المياه الحلوة، وهناك مناطق تصنع الأدوات وولاعات السجاير. وسُمِّيت ونَزْهو المزدهرة مدينة الأحذية الصينية، وعاصمة الأدوات الكهربائية، ومدينة الأقلام الصينية، ومدينة الأقفال الصينية، ومدينة الطباعة الصينية، وكانت في كل حال من الأحوال المذكورة منافساً عالمياً لا يُستهان به. فالأراضي التي لم تعد تبدو مدنية ولا ريفية، وإنما صارت مراكز لصناعاتها الخاصة. إذ يمرُّ أحد الشوارع عبر صَفٍّ من المصانع المتخصصة بصناعة مجاري تصريف الماء في الأحواض المنزلية، وأخرى لصناعة الصنابير الصناعية، وغيرها لصناعة أدوات التثبيت.

ويأتي الزبائن إلى هذه المصانع من أرجاء العالم، يبحثون عن أسعار محسومة جداً: صناديق كبيرة مثل وال مارت Wal-Mart، وكارفور الفرنسية Carre-four وتِسْكو البريطانيةTesco مصنعون من جميع الحجوم يبحثون عن قطع، وبخاصة الموزعون الذين يمدون السباكين، والبنائين، ومنشئي المدرجات المنزلية، وباعة الهدايا، التي تعادل الدولار ومخازن المئة ين في الجوار، وكل من ورد اسمه في دليل الصفحات الصفراء في العالم. هذه الصناعات هي التي يجب أن تضع نصب أعينها لمنافسة مصانع طوكيو واستُكهولم وساوباولو وسِنْسِناتي.

سيأتون إليك إن بَنَيْت المصانع

وبرغم أن زيجيانج مقاطعة صغيرة جداً بالمقاييس الصينية، غير أن لها فعل المغناطيس في جذب المهاجرين. فتسعة من كل مئة من عمال الصين الجوالين يذهب إليها بعضهم يأتي من هوبي Hubei الخضراء الجميلة. وتجد في بعض مناطق زيجيانج أن أكثر من ربع سكانها من الخارج، وقد أتى معظمهم لشغل أعمال منخفضة الأجر في المصانع المحلية. حيث يبلغ معدل الأجر في المصنع

http://www.ibtesama.com/vb

حوالي أربعين سنتاً في الساعة، وربما يكون أقل. وفي ضوء الأعداد المهاجرة واتجاهات الهجرة، فسيكون لمقاولي زيجيانج إمداداً وافراً من العمال المندفعين الذين يتقاضون أجراً منخفضاً لسنوات عديدة قادمة.

إن زيجيانج هي خير مثال لظاهرة تتكرر بتفاوت في أماكن أخرى من الصين. وتتذكر كِيْت زياو زهاو Kate Xiao Zhou قولاً ريفياً تردّد كثيراً في سنوات الإصلاح الأولى للسوق، يجسد اتجاه رجال الأعمال الصينيين في تقليد صيغ الآخرين الناجحة، «بيت واحد يؤثر في قرية، وقرية تؤثر في منطقة، ولكل قرية مدخنة صناعية، وكل منزل يبعث الدخان». وتقول: إن القرى كثيرا ما كانت تنمو لتصبح مراكز وطنية لإنتاج منتجاتها الخاصة. غير أنها لم تكن تتخم أسواقها وتفشل ككل. ولم ترق المناطق لتسيطر على أسواقها لأنها حققت مستويات واسعة من الاقتصاد أو كان فيها بعض الحالمين، قلبوا صناعتها، مثلما غير هنري فورد Henry Ford صناعة السيارات. لقد حققوا مواقع أسواقهم بتطبيق قاعدة القطيع مرات ومرات، معظمها في حدود ضيقة. وتشير زهاو إلى أن ثمانين ألف أسرة ريفية في مقاطعة زهاو Zhuo ومقاطعة هِبي Hebei province أنشأوا عمليات بسيطة في الثمانينيات لإنتاج ثياب من الأكريليك وباعوا، مجتمعين، أكثر من 20 مليون قطعة ثياب في السنة، وكسبوا حوالي 100 مليون دولار. أما بلدة زيكياو Xiqiao في جوانج دونج Guangdong فهي مركز اجتماعي كبير، بدأ عمالها عقب أول شعاع للإصلاح الاقتصادي بإقامة مصنع نسيج من ألفي كوخ، وهي الآن من أكبر مراكز صناعة النسيج في العالم، وتجلب العمال المهاجرين إلى أنوالها من جميع أرجاء الصين.

ولعل أكثر ما يُسْتَغرَب في أوجه التنمية الاقتصادية في الصين الوفرة المالية الكبيرة التي انتشرت في جميع أرجاء البلاد. و يبدو أن قطعان المقاولين الصينيين المقلدين سيتمكنون مع مرور الوقت من الاستيلاء على أي صناعة في العالم وسحبها إلى القوى العاملة الهائلة المستعدة للعمل في أي نوع من المصانع.

http://www.ibtesama.com/vb

فـكان الرأي التقليـدي في التنميـة الاقتصادية هو أنهـا تنتقل ببطء من الصناعات الزراعية إلى تجارة السـلع التي لا تتطلب تكنولوجية عالية، ثم ترتفع إلى صناعات أعلـى وصناعات خدمات. غير أن التنميـة في الصين مضغوطة حتى تبدو كأنها في آن معاً

تشمبيتر Chumpeter في القرن الحادي والعشرين

يخطئ منافسـو الصين الصناعيون كثيراً، ومنهـم أمريكا، فهم مصدر قوة الصين الإنتاجية. ويخشون أن تخطط الصين لهجوم مركزي آخر على الصناعات الإسـتراتيجية. فقد لمس العالم كفاءة اليابانيين، والكوريين، والتايوانيين عندما يركزون على قطاعات يُصَمِّمون على اكتسـاحها حتى أن المخططين الحكوميين الصينيين يحبون الحديث كمن يحاكي هجمات تمولها الحكومة وتنسق لها تنسيقاً مركزياً على صناعات عالمية إسـتراتيجية تمكِّن جيرانهم الآسيويين من إنجازها خلال السنوات الأربعين الماضية. غير أن كيلي تساي Kellee Tsai إذ تنظر إلى تطـور الأعمال الصينية محلياً وانتهازيـاً، تقول إنها أبعد ما تكون عن الحقيقة. فبالنسـبة لعالم تقلقه المُنافسـة الاقتصادية الصينية ليست الكيانات التي تُثير الخوف هي تلك القوة الماحقة التي تدعمها الحكومة.

وإنما المشـاريع التي تقفز إلى السـاحة هزيلة وخجولـة، خَطَّطَ لها ومَوَّلها مستثمرون يسعون إلى الإثراء السريع.

وتَعَلَّـم الصينيون أن الرأسـمالية ضـربٌ من الدمار الخَلاق، كما سَـمّاها جوزيف تشمبيتر Joseph Schumpeter اقتصادي القرن العشرين. ويصعب أن تَتَّهِمَهُـم بالضعف العاطفي، ويبدو أنهم يتحملون الآن الشـتات الهائل الذي يعيشـونه. وبهذا فإن منافسي الصين لايسـتطيعون تطبيق مقاييسهم الخاصة بهم على ما سـيتحمله شـعبهم كي ينافس. قليلون هم الذين يعملون في أمريكا، مثلاً، باسـتثناء المكسيكيين الذين يعملون في الزراعة خلافاً للقانون، ويخضعون أنفسهم بملء إرادتهم لظروف عمل يتلهف كثير من الصينيين إلى القبول بها.

http://www.ibtesama.com/vb

ورافق الإصلاحَ وبروزَ المشروعات الخاصة في الصين بعضُ القسوة التي تجلت في خَلْق مَوْجة جديدة من الفقر، ليس بين المزارعين فحسب. فالجزء الأكثر اضطراباً وانكماشاً في الاقتصاد تتحكم به مشروعات تملكها الدولة، كالشركات التي تشكل إرث سنوات التخطيط المركزي في الصين. فقد أُغلقت منذ سنة 1978م أربعين ألف صناعة تقريباً تملكها الدولة. كما فقد 53 مليون شخص يعملون في قطاع الدولة الصيني أعمالهم بين سنة 1996م وسنة 2001م، بزيادة 7 ملايين شخص على مجموع عدد العاملين في خمسمئة شركة من أكبر شركات العالم الذين يبلغ عددهم 46 مليوناً. ولِنَضَع الأرقام على نحو مختلف، ففي أربع سنين منذ سنة 1998م، استغنت الشركات التي تملكها الدولة عن 21 مليون عامل. وهذا العدد يزيد على عدد جميع الأمريكيين العاملين في الصناعة.

بدأت مسيرة موت الشركات التي تملكها الدولة عندما أخذ القرويون الريفيون على عاتقهم أن يتفوقوا على احتكارات الدولة، وبدؤوا بأعمالهم الخاصة. ولم تكن القيادة الصينية مستعدة لديناميكية شعبها. فقد نُسِب إلى دنج زياوبنج قوله لوفد يوغسلافي سنة 1987م، «لقد تقدمت إصلاحاتنا الريفية سريعة، وأبدى المزارعون حماساً كبيراً حتى أخذتنا تطورات الصناعات القروية على حين غرة، كأن جيشاً غريباً ظهر في الساحة يصنع ويبيع أنواعاً كثيرة جداً من المنتجات. وهذا ليس من إنجازات حكومتنا المركزية... هذا شيء لم أتصوره أبداً... لقد كان مفاجأة».

هاجمت مشروعات القرية والبلدة عجز المشروعات التي تملكها الدولة الصينية، وبدأت الأعمال الخاصة تَحل مَحَلها. وقد كان فشل الشركات القديمة، وكان معظمها في مناطق ريفية، عاملاً آخر في تمدن الصين. وإذ تمضي البلاد في التحامها حول المدن، تستطيع المناطق المدنية أن تقدم بيئة أكثر كفاءة للأعمال، لا يستطيع أن يُجاريها كثير من المناطق الريفية المعزولة.

http://www.ibtesama.com/vb

وهكـــذا، بينما يقلق العالم من قـــدرة أفضل المصانع في الصين على اغتيال فرص العمل، لابد للصينيين أنفســـهم من القلق أيضاً من أن تزيد المنافســـة في بلادهم نســـبة البطالة. وربما كان عدد العمال الصناعيين الذين فقدوا أعمالهم في الصين مؤخراً، وبخاصة كبار الســـن منهـــم، يعادل عدد عمال من في العالم كله مجتمعين. أما اليوم، فلا تنتج الشـــركات التي تملكها الدولة أكثر من خمس المنتجات الصناعية في الصين. ويغطي القطاع الخاص نصف ما تصنعه الصين وربع الناتج الإجمالي المحلي تقريباً. وسوف ترتفع هذه النسبة.

إن هـــذه العوامل المُعَزِّزَة – فَقْرُ الريف، والهجـــرة الداخلية الهائلة، وتحرير التمويل، والدافع الذاتي المحموم إلى المنافسة، والتمدن المكثف – تُسْرِع مجموعة العمليات التفاعلية الكبيرة للرأسمالية الصينية.

http://www.ibtesama.com/vb

الفصل الرابع

لقاء مع جورج جِتْسُن George Jetson في بكين

إن مـــدن الصين اليوم هي مُحَرِّكاتُ حَيَوِيَّتِهـــا الاقتصاديَّة. إذ تتنافس مدن العالم على المكانة،وفرص العمل، والنفوذ السياســـي. أما الصين، فالمنافسة بين مدنها لَهُوَ دَمَوِي.

يطالب مئات الملايين من المواطنين حكوماتهم بتســـليمهم مزايا عصر الصين الذهبي بأسرع وقت مُّمكن. غير أن الصينيين يعلمون، على الرّغم من تفاؤلهم، أن المـــال الذي يَجوسُ في البلاد قد يُدفن يوماً في باحات البيوت الخلفية، وفي ثنايا الفراش، وفي حسابات في مصارف أجنبية في لَمْحِ البَصَر. وإن تقلباً اقتصادياً أو أزمة سياسية، إن وقعت، فقد تُنهي سراعاً كلَّ الخير الذي يَعمُّ الجميعَ اليوم. ويقول الصينيون إنهم يميلون، بِطبائعهم، إلى الادِّخار وإلى وضع خطط لأَيّام سَـــوّداء قد تأتي، لقناعتهم أن ثَمّة مجهولاً خبيئاً ربما يُطلُّ عليهم. والصينيون يختَصّون بأعلى نسبة ادِّخار في العالم، إذ يُخَبِّؤون، وسطياً، أربعين بالمئة من دخلهم.

فتفاؤل الصين في ظاهره، ثم ســـلوكُها نهجاً لبناء ســـريع كبير إذن، هو مؤشِّـــرُ قَلَقِهـــا. وقد تعيش الصين طويلاً وتُعَمّر، غيـــر أنِ ذلك يزيد من الاحتمالات الجيدة والسيئة في آنٍ معاً. فالاندفاع الصاخب الذي تشهده المدن الشرقية المُهِمَّة من الصين لبنـــاء كتل كبيرة ومهمة، والتي طالمـــا أَحْبَطتها الحكومةُ المركزية، إنما يُعطي ســـيرَ الأُمور فيها الآن سيراً حسناً لهو أفضلُ ضمانٍ للمستقبل، وأفضل خيارٍ لها اليوم.

كانـــت مراكـــز المدن الكبيرة على طول الشـــاطئ الشـــرقي، قبـــل أن يصل الشـــيوعيون إلى الســـلطة، تُؤوِي 90 بالمئة من صناعة الصين. وكانت شـــنغهاي وجوانجـــزهاو Guangzhou تمتازان بقوتهما. فقد حَوَّلَ اســـتثمارٌ يابانيٌ كبيرٌ

http://www.ibtesama.com/vb

في منشورية، في الشمال الشرقي للصين، في ثلاثينيات القرن العشرين، مدينة شنيانج Shenyang، التي كان اسمُها مُكْدِن Mukden، إلى مركز صناعي رئيس. واليابانيون الغزاة، المذمومون بوحشيتهم، رأوا في الصين موقعاً لأفضل صناعاتهم. وقد استثمرت اليابانُ اليومَ في الصين استثماراً نَهِماً. فتدفقت أعمالها عليها لأسباب مألوفة- هي إغراء أُجور اليد العاملة البخسة والأسواق الكبيرة - ولاستغلال المصادر الطبيعية التي تنقص اليابان.

لم تعد مزايا المدن الصينية الاقتصادية وقوة جذبها للمستثمرين العالميين ذات شأن، بعد أن تولت الحكومة الشيوعية مقاليد الأمور. فكان للاعتبارات الإستراتيجية والسياسية الأولوية عندها. أما ماو، فكان يعنيه تنمية مراكز الصين الصناعية ونشرها في أرجاء البلاد. فثارت المنشآت الصناعية الأولى في منشورية المصدر الأول لخطط التنمية الصناعية الشيوعية في عهد ماو، إذْ نُقِلَت الآلات والمصانع التي أحضرتها احتكارات الشركات اليابانية وسواها إلى مراكز صناعية مُخْتارةٍ جديدةٍ بعيدة عن الشاطئ. فأُدْخِلَت بذلك مدن الصين القوية في سُبات قَسْرِيّ دام عقوداً.

وعندما حَوَّلت حكومة الصين في عهد دِنْج زياوْبِنْج مَسارَها، التَفَتَت ثانية إلى مُدُنِها التي شَهِدَت الازْدِهارَ مِن قَبْلُ. ربما كان المزارعون قد بدأوا الثورة التجارية يومئذ، غير أن حكومة الصين جَدَّت في دَعْم الإصلاح، وبَرَعَتْ في ذلك أحياناً في مراكز المدن التي اختارتها.

إن كلية شنغهاي للعلوم الاجتماعية خير مثال على الموارد التي نظمتها. حيث ارتبطت الكلية بمجموعة مُعْجِبَةٍ من المعلومات مع الدوائر الداخلية في حكومة المدينة، جُلّهم خريجو جامعاتها. وارتَبَطَت الكلية بشبكة دولية من أهم جامعات العالم ومراكز أبحاثه. إنها مركز قوي للمعلومات في الصين وفي أكبر مدنها. وستصبح شنغهاي، بمساعدة الكلية، الابتكار الذي أظهر الصين في أفضل حال لها: مَكُّوكها الفضائي، ومعرض العالم، وموقعها المتَمَيِّز في آن معاً.

http://www.ibtesama.com/vb

يَستقبل المسؤولون في حرم الكلية، أمام شارع هواي هاي Huai Hai المزدحم في شنغهاي، عدداً كبيراً من كبار الشخصيات في كل يوم، فيهيئون قاعات استقبال على النحو الذي تكون عليه غرف الفحص في عيادات الأطباء المزدحمة. فيبتسم كبار الزوار الأجانب ويشيرون بالتحية إلى زوار كبار آخرين باستغراب وهم يسيرون في الممرات. وقد تمركز أكثر من ستين صحفي أجنبي في شنغهاي في شهر واحد من سنة 2003م، كان معظمهم يعتمد على الكلية لكي يحصل على معلومات عن الموقع. وكان الباحثون مُجبَرون، كواجب عليهم، تجاه بلدهم، ومدينتهم، ومعهدهم،، أن يُلقوا محاضرات على كل مجموعة من القادمين الجدد. كانوا يقدمون لهم الخليط الأكاديمي المُعتاد من وجهات نَظَرٍ ونَقْدٍ حَصيف، يفي بغرض المؤتمرات الدولية الذي يطلبه حثيثاً علماء شنغهاي. ويدعوهُم الأجانب الصينيين، من ثم لزيارة مؤسساتهم ومعاهدهم تعزيزاً للارتباطات الأكاديميَّة في الصين. فكل مختص في علم الاجتماع ومسؤول مديني في العالم قد يرغب في الاطّلاع على داخل الصين لكي يَسْتَوْعِب «المَرَق» الصيني السحري، ويأخذ نصيباً من مُشْكِلاتها، ويعود إلى وطنه ويقول إنه رأى مستقبل الكوكب، بِخَيْره وشَرِّه. وتُرسلُ الكلية خيرَةَ علمائها ليقيموا طويلاً في جامعات عُصْبَة آيفي Ivy League الأمريكية وشبكاتها المنتشرة حول العالم. وعندما يعودون، يضعون شنغهاي في صورة أفضل اتجاهات الفكر العالمي عن سُبُل بناء المدن الحديثة.

إن كياتو Qiya Tu من خريجي جامعة هارفارد Harvard اللامعين، وهو الرئيس المساعد لكلية شنغهاي وأحد المفاتيح الرئيسة لطبقة الموظفين في المدينة. كان كياتو عضواً في هيئة العُصْبَة الزرقاء المعنية بتخطيط مسار مستقبل المدينة. درست اللجنة موقع المدينة في الثقافة، والمال، والصناعة. ودرست كيف يكون مخطط المدينة مفيداً لسكانها الحاليين والملايين الذين يأملون أن يحشروا أنفسهم فيها. وقد جالَت اللجنةُ في بحثها مُدُناً رائدة في أَصقاع العالم. وعندما

http://www.ibtesama.com/vb

سئل عما يمكن أن تتعلمه شنغهاي من المدن الآسيوية الأخرى؟ قال: إن المدن الآسيوية لا تهمُّ كثيراً أهل شنغهاي.

وقال: «لا تخطئوا، فشنغهاي تتطلع إلى أعْلى. فلندن وباريس ونيويورك هم نماذج أفضل، وليست طوكيو. إننا نطمح إلى ريادة التجارة، والمال، والثقافة، وللمدينة أهدافها الطموحة».

«ولأن هذه هي الصين، وشنغهاي بالذات، فإن التوصيات، عندما تُتَّخذ، تُثَمَّن من فورها، وإذا لَقِيَت قبولاً تُنَفَّذ. لقد تَعَلَّمَت مجموعة كياتو من رحلاتها، على سبيل المثال، أن المدن الأكبر في العالم ترى قيمة في أبنيتها العتيقة التقليدية. أما الزائرون، فلا يرون في الحفاظ على كنوز شنغهاي من المباني القديمة أمراً مسلَّماً به، لا يقيده سوى الدَّمار غير المُبَرَّر للمباني القديمة الجميلة المَبْنِيَّة على الطراز الأُوروبي الذي كانَ مِن قَبْل. وثَمَّة مدن أخرى مثلها في أمريكا، وأستراليا، أَو جنوب إفريقية، حاكى فيها الأُوروبيون مَبانيَ مُدنهم في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فَفَنُّ العمارة الذي كانَ قبل الحرب العالمية الثانية ينعَكِس في شنغهاي رغبةً بالارتباط بالثقافة الأوروبية قديمها وجَديدِها. حيث ملأت بيوت مُصَمَّمَة على طراز قلاع، وقصور إنجليزية، وفيلّات فرنسية منطقة النخبة في المدينة. وتميزت المباني الداخلية في المدينة بأبراج الشقق الانسيابية والبيوت المستقلة على طراز حداثي في عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته. كانت المخازن الكبرى في شنغهاي عصرية مثل المخازن في غيرها من الدول، وتباهت فنادقها الأجود بحيويتها وغرفها المزخرفة. ويقال: إنه قد كان في المدينة أكبر مجموعة مبانٍ زيَّنَتْها الفنون في العالم، فتناقصت الآن كثيرا بسبب إعادة بناء المدينة وتخطيطها. فقد أزيلت نصف مباني المدينة التي أُنْشِئَت قبل سنة 1949م، أُزيل مُعْظَمُها خلال السِنين العِشْرين الماضية.

غير أن سِحْرَ المدينة لم يَكُن مصدره كُلُّه أُوروبياً. فبقي كثير من المناطق المتهاوية القديمة في المدينة، تعيش في ظل حاضِرَة أُعيد تَصميمها لتناسب

http://www.ibtesama.com/vb

النظــر العلوي فحســب. وماتزال هناك في المدينة بضعة بيوت خشــبية صينية الطــراز، تبدو طبقاتها الثانية كالقمرات في ســفن الصيــد القديمة، بألواحها الخشبية الحمراء وســقوفها القرميدية التي تكاد تَهْوي. ترى الغسيل يَتَدلّى من نوافذها الخارجية المنخفضة والمرتفعة، وترى ســراويل من صوف طويلة وسِخَة وأخرى قصيرة رَثَّة، تبدو أوســع من أن يرتديها صيني - تَتَدَلّى من أعمدة كأنها رايات جيش مَهزوم، تُذَكِّر أن الصينيين ليسوا سواء في أناقة المشاة في الطريق. وكأن هذه المناطق مُعَلَّقَة بخيط.

فَسُــوق دنجتايDongtai مثلاً، حيث دكان التحف الذي تملكه أُسْــرَة لي، اتُّخِذ قرارٌ بإزالته ســنة 2004م. ويُرَجَّحُ أَنَّه سَيُسْــتَبْدَل بمجمع أســواق حديث كبير. وســيُنقل أصحابُه إلى مَوْقِع في المُجَمَّع الجديد يُخَصَّص للباعة المُهَجَّرين. وبهــذا يصبح دكانهــم واحداً من مصادر كثيرة مثله تبيــع قطعاً مقلّدة للقديمة، ينقُصها ســحر النَّسَق القديم من دكاكين شنغهاي وأشباحها القديمة التي يسعى زوّارها إلى رؤيتها.

وإنه ليُسْــعِدُنا أن نرى بعض أجزاء المدينة تحتفظ بِســحْرِها القديم ويمكن إنقاذهــا. ولا بُدَّ لِذلك مــن أن تقود المدينةُ الصينَ إلى تغييــر أذواقها. فمعظم أجزاء البلاد عالقٌ حيثُ كانت المُدُن الأمريكية في الســتينيات، تُفَضِّلُ كُلَّ جديد علــى مباني البيوت والمكاتب القديمة في المدينــة، ولم تَهُبّ لحماية القديم. وإن كان لشــنغهاي أن تُحسِنَ اســتعدادها لجذب أكبر الأعمال إلى المدينة - وجعلها مَقَرَّهــا الإقليمي أو العالمي - فلابُدَّ لآباء المدينة من العمل على أن تَنالَ شــوارعُ شــنغهاي القديمة التي تحفها الأشجار القديمة، والبيوت الفرنسية والبريطانية، والحيّ اليهــودي العتيق، وبعض المســتودعات القديمة ومبانــي رصيف الميناء، حِمايَــةً فَوْرِيَّة. وأن تصمم أبنية جديــدة وتبنى في بعض المواقع، حيث لا بد من هدم المباني القديمة، على طراز تلك التي تهدم - وربما أكبر- لِتُقامَ مكانها.

http://www.ibtesama.com/vb

وقد كان قرار إجبار أصحاب البيوت القديمة على التباهي بها من التغييرات الأكثر براعة وإثارة للدهشـــة. لقد كانت تُفْصَلُ بيوت شنغهاي الأفخم عن حركة الســـير في الشوارع بجدران ســـميكة مُسَـــيَّجة قويَّة وعالية. وكانت النظرة في المدينة ترى حاجة البيوت والحدائق إلى مشــهد عام، بينما نرى اليوم الطرقات التي كان امتداد حواجزها طويلاً يُشْبِه حواجز القلاع قد صارت مَمَرّات للحدائق، والبيوت الفخمة التي لا تُرى من خارجها تُعطي المدينةَ أَلَقاً وجمالاً.

وقد سَنَّت الحكومة الصينية قوانين تُجبِر المدن أن توسع المساحات الخضراء فيها. ففَعَلَت شـــنغهاي أكثر من ذلك، فَسَــوَّت رقَعاً كبيرةً من المدينة بَنَت عليها حدائق عامة ومنتزهات. فربما اضطرت، كي تحقق ذلك، إلى تسوية الأرض أولاً ثم حرثها. وقد حملت في شـــنغهاي، شحنات بعد شحنات من الأزهار المبرعمة، وزرعت في تربة ســـوداء جهزت لذلك حديثاً. وحُفِرت البِرَك في أســـابيع قليلة، وبُنِيَت غرف أنيقة في التلال للاستراحة. واقتُلِعَت أشجار كاملة النُموّ من تربتها في غابات بعيدة وزرعت في حفر ورُبِطَت جذوعها إلى الأرض بأسلاك تشدُّها. وتَسعى شنغهاي إلى أن تُحاكي لندنَ وباريسَ في حدائقها العامة.

وصَمَّمَت المدينةُ أيضاً، بُغْيَةَ حُصولِها على مكانتها التي تستَحِقُّها، أَن تَتَخَلَّصَ من قذارة صناعة الجيل الأول ورائحته المنتنة. فلم تعد تُرَحِّب شنغهاي بالمزروعات الورقية، والمُصْهرات القذرة، ومصانع الكيميائيات، وعشـــرات من أصناف أُخرى من الصناعات التي يَنْبَعِثُ منها دُخانٌ ورائحة.

ولا بُدَّ لِكياتو ولآخرين من مُخَطِّطي شنغهاي الآن، بعد أن عادت إلى مجدها، مـــن ترويض اتِّجاه عنيد في الاقتصاد الصيني لتركيز الصناعة في مدن الصين الشـــرقية المهمة. وإن شـــنغهاي التي يزيد ناتجها المحلي الإجمالي 80 بالمئة عن من يليها من المدن المنافســـة هي الرائدة حتماً، وتخضع الآن لضغط مزدوج لكي تصعد إلى أعلى المســـتويات الدوليـــة دون أن تمتص مالاً وطاقة، بعيدة عن بقية الصين.

http://www.ibtesama.com/vb

ويقول تشِن جِيَهاي Chen Jiahai مدير مركز أبحاث سياسة التنمية في كلية شنغهاي: كان ثلثا المقاطعات الصينية يعتمد، بين الخمسينيات والسبعينيات، على شبكاتها الصناعية الخاصة في تزويد كل ما يحتاج إليه مواطنوها من مواد استهلاكية. وكان المتوقع أن تنتج المصانع بضائع أسعارُها منخفضة، يستطيع الناس تَحَمُّلَها. غير أن الطبيعة المشتتة للصناعة الصينية قد أدّت عملياً إلى اطّراد في عدم كفاءتها، وعندما بدأ إصلاح السوق، جعل الشركات الإقليمية التي تملكها الدولة ضعيفة وغير حصينة. وعندما عاد الاستثمار إلى مدن الصين الساحلية، عادت الصناعة تتركز هناك من جديد، وأحدث اقتصاد السوق هوة بين القديم والجديد، بين الشرق والغرب، بإجبار مشاريع الدولة القديمة غير الفاعلة على التخلي عن أسواقها المحلية لمنتجات شرقية أفضل، تجعل المدن الشرقية الناجحة أكثر غنى وإغراء. وتغطي مدينة شنغهاي 5 بالمئة من اقتصاد الصين، وتجذب 10 بالمئة من الاستثمار الأجنبي في البلاد تقريباً. وتتجاوز نسبة نموها المعدل الوطني أيضاً بما يجعل المدينة الخيار الأول للناس والأعمال التي تبحث عن مستقر لها في الصين. كما يخلق تنافساً مكثفاً بين الآخرين للحاق بها.

سحر التقليد والمحاكاة

تساءل جون جنتر John Gunther، الصحفي الذي شرحت كُتُبُه ورسائلُه العالمَ للأمريكيين في منتصف القرن الماضي، «ما الذي يجعل امرأً مُسَهَّداً وآخر في حيوية ومرح: وما الذي يجعل امرأً فَجّاً غراً ومنفعلاً وآخر هادئاً وقوراً مصقولاً ومُحَنَّكاً؟ إنه العمر؛ والجغرافية والتاريخ؛...إنها العلاقة بعمق البلاد؛ والتَنَوُّع الديموغرافي؛ وعوامل خَفِيَّة يَصْعُب تفسيرها».

وعندما طرح جنتر هذه الأسئلة سنة 1947م، كان ينظر في الاختلاف بين وقار مدينة سانت لويس واستقرار مدينة كَنْسَس سِتي وفوضويتها. أما اليوم، فربما يسأل الأسئلة ذاتها عن نانْجِنْج Nanjing وبكين Beijing وجوانجدُنج

http://www.ibtesama.com/vb

Guangdong ومئـات المدن الصينية الأخرى التي تُبنى وتحاول أن تفعل ما في وسـعها لتحاكي شيئاً من سحر شنغهاي. يريد قادة المدن حيثما كانوا إعادة بناء مدنهم لإيجاد أنفسـهم لاعبين في اقتصاد السـوق. وتكون النتيجة، إن سـارت الأمور وفق المخطط، قيام أمة من بناة المدن المتحمسين وبسبب ذلك تحدث هزة في أرجاء العالم لسنين عِدَّة.

إن معركة البناء تُسَـلِّط الحكومة على المقاطعات، وتُسَـلِّط المقاطعات بعضها على بعض، وتُسَلِّط مُدُناً على مُدُنٍ أُخرى. تكون أسلحتها جرافات، وكُرات الهدم، وخَلاَّط الإسـمنت، ورافعات. كانت الملصقات، والعلامـات، وأغلفة المجلات التي تمجد الآلات القوية تمثل اللون الشيوعي وألَقَه في عهد ماو. أما الفارق الآن، فهو السـعي إلى كسب المال. فإذا اسـتُعمِلَت الآلات الكبيرة على نحوٍ رأسمالي فاعل، فإنها تُنَمِّي المال. وإنها حتى لو اسـتُعْمِلَت على نحو رأسمالي أقل فعالية، وفاسد، وغير ملائم، فإن شبكات المالكين والمُشَغِّلين يستطيعون تأمين ثروات منها.

وعندمـا زار جورج بيترسُـن George Peterson الصينَ، وهو زميل في معهد المدن Urban Institute، والمعهد مؤسسة أبحاث ومنظمة دعم أمريكية خاصـة للبحث في تمويل الحكومات الصينية لذلك النمو الهائل لبُنيَتها التَّحْتية، أبان لمسؤول صيني مَحَلِّي عن عجبه لأن حكومته تخطط وتبني مراكز مؤتمرات ووحدات لتنقية المياه خلال الفترة التي يمضيها هو، أي بيترسُن، في كتابة بحثه. ابتسم المسؤول وقال لبيتريسن: لابدَّ أنك تكتب بسرعة.

ويقول بيترسُـن، إن «المدن تبنى بسـرعة وتوازن ببسـاطة لا نَفْهَمُهما حتى تراهـا». فالمدن التي تُعدُّ متوسـطة الحجم في الصين، تبنـي مراكز مؤتمرات ومعـارض تفخَر بمثلها برشـلونة أو أُرْلاندو. وقـد أدى التنافس في بناء مراكز مؤتمـرات أفضـل وأكبر إلى المبالغـة في حاجة الصين إلى تضخيم كل شـيء. وفي المدن مسـاحات عرض شاسعة تملؤها الآن بمراكز عرض تضم مخازن بيع

http://www.ibtesama.com/vb

التجزئة مثل كارفور Carrefour الفرنسي، وهوم دِبو Home Depot عملاق بيع الأدوات الأمريكي.

وربما كانت لاس فيجاس Las Vegas وحدها، بين المدن الأمريكية، تُشْبه المدن الصينية في السرعة والمدى. ويبدو للناظر أيّ موقع إنشائي صيني كبيراً، مقارناً بمعظم مواقع المنشآت الأمريكية، مثل معسكر للجيش يستعد لمعركة على عجل. حيث تتجول فرق البناء المنوَّعة، التي ترتدي ثياب عمل حسب مهامها - ثياب عمل برتقالية اللون لعمال الكهرباء، وخضراء لعمال الحديد، وهكذا - يتجولون في الموقع في مجموعات منتظمة، يقومون بأعمالهم اليومية. ويبدأ العمل عادة في الثامنة والنصف صباحاً ويستمر حتى السابعة مساء، ستة أيام في الأسبوع أو سبعة.

يأخذ زمن تقدم العمل في البناء كمقدار انحراف زمني في التصوير الفوتوغرافي. فيُقبل المستأجرون على أبراج المكاتب ومباني السكن قبل أن يتم بناؤها، ويشاهد المارَّة تَقَدُّم البناء وأصابعهم تشير إلى أعلى لتُحصي عدد الأنوار المضاءة عند الغسق. ويشارك أوائل المستأجرين للمبنى مع عمّال البناء الذين ينامون في الموقع، فتبقى بذلك كلفة البناء في حدودها الدنيا.

وترتفع المباني سراعاً، فما هي جودتها؟ وكيف تبدو؟ يقول مهندس بناء أمريكي يقيم عدداً من المشاريع الكبيرة في الصين: «كانت أجور العمال تبلغ عشرين بالمئة من تكاليف مباني الولايات المتحدة قبل سبعين أو ثمانين سنة، ويبقى ثمانون بالمئة منها قيمة المواد، ولذلك ترى المباني القديمة في المدن الأمريكية الكبرى جميلة. كان المهندسون والبناؤون يستطيعون تحمل أجور العمل ليبنوا واجهات خارجية من الحجر ويُعْنَوْن بزخارف الداخل. أما اليوم، فقد انعكست النسبة، فصار معظم المال يخصص للعمل. وهكذا صارت المباني اليوم أبسط».

http://www.ibtesama.com/vb

إن هـــذا التغيـــر الديناميكي هو مقياس ما حَلَّ بصناعـــة الأثاث المنزلي في العالم. إذ يمكن أن يُســـتأجر عامل في الصين بأقل من دولار واحد في الساعة، يتمتـــع بمهارة واســـتعداد لازمين للقيام بمـــا يتطلبه العمل، مـــن زخرفة المباني الكبيرة المنبعثة بجميع الأحجام. ويقول مهندس نشـــأ في نظام مقتصد لمطوري المدن الأمريكية ومجالس مدنها: «إن تصميم بناء في الصين أشبه بالحلم، حيث تستطيع أن تضع تفصيلات في المبنى لا نحلم بها في أمريكا، تبنيه اليد العاملة المحلية على أفضل طراز».

فإذا كانت خطوط أفق المباني كما تبدو في ســـماء شـــنغهاي وبكين وشِـــنْزِهِن Shenzhen مثل مشاهد المدن من جِتْسون The Jetsons فذلك لأنها تستطيع ذلك.

فالارتقاء الحاد الذي يعيد تشـــكيل المدن الصينية بأي سعر مساوم سيبقي تدفق مد المهاجرين الراغبين من المزارع ومن المشاريع الحكومية المقفلة. ويمضي بناء مدن تنافس أكبر العواصم بشكل أسرع بوجود معين لا ينضب من اليد العاملة الرخيصـــة لتقوم بالبناء، وفي أوائل عام 2004م كان هناك ما يزيد عن ثلاثمائة بناء يزيد عدد طوابقها على خمسة عشر طابقاً قيد البناء في شنغهاي.

أكياس نَقْد أسطوانية

كانت المباني الشـــاهقة التي أُنشئت في مغامرة كبيرة لسوق الإسكان الملتهب في شـــنغهاي ســـنة 2004م أبنية شقق سكنية شـــاهقة بيعت على شكل ملكيات مشـــتركة. وقد أســـهمت مضاربة شراء الشـــقق في ارتفاع السوق بين 20 و 50 بالمئة في ســـنة خلال الســـنوات الخمس الماضية، مما جعل ســـوق العقارات في شـــنغهاي أكثر الأســـواق العقارية ارتفاعاً في العالم. وقد نشرت مجلة نيوزويك Newsweek في طبعتها الآسيوية قصة أُسترالي يعيش في شنغهاي بدأ يبحث عن شـــقة مساحتها مئة متر مربع في خريف سنة 2003م. كانت قيمة أول شقة زارها $120.000. وارتفعت قيم الشـــقق المشابهة خلال ثمانية أشهر تَفَقَّدَ فيها أربعين شقة حتى بلغَت $300.000.

http://www.ibtesama.com/vb

ووجد أهل شـــنغهاي مدينتهم قد غدت، خلال طفـــرة الازدهار الاقتصادي هذه، وجهة ســـلالة جديدة من المسافرين، سُمُّوا مافيا وِنْزْهو the Wenzhou Mafia، ليس لأنهم مجرمون، وإنما بسـبب التبجح الـــذي يميز أهالي زيجيانـج وولعهـــم بزيارة مواقـــع البناء في شـــنغهاي يحملون هواتفهـــم الجوالة وأكياس أسطوانية مليئة بالنقود.

بلغ شـــغف جيران شنغهاي إلى امتطاء موجة طفرة ازدهار المدينة حداً جعل صحيفـــة وِنْزْهـــو إيفننْج نيـــوز Wenzhou Evening News تنظم جولات لشراء العقارات. واندفع المشـــترون يختطفون العقارات كما يختطف السائحون الآخرون الســـاعات والحقائب اليدويـــة. وكان حضورهم الظاهـــر، الذي يذكر بأن رفاهية الصين بين أيدي قادمين جدد يشـــقون طريقهم نحو مراكز السلطة القديمة، مؤشـــراً علـــى أن على المســـؤولين المحليين أن يدركوا أخطار الســـوق الموقَدَة. وقد اســـتطاعت الصحافة الرديئة واســـتياء المســـؤولين أن تقنع وِنْزْهو إيفننْـــج نيوز بوقـــف الجولات، غير أن ضغط القراء الموســـرين في وِنْزْهو أقنع الصحيفـــة بالتراجع عن قرارها بعد شـــهور فقال دونـــج وِنيوان Dong Wenyuan مِـــن وِنْزْهو إيفننْج نيوز للفايننشـــال تايمـــز Financial Times: إن الحكومـــة المركزية أمرتنا بِوَقْف الجولات، وإنما العرض والطلب هو الذي يحكم الســـوق وليس التصرف الفردي أو التدخل الإداري. وقالت الصحيفة اللندنية إن الحكومة المركزية ومســـؤولي شنغهاي لم يكونوا وحدهم قلقون من وصول مافيا وِنْزْهو. فقد كان قلق كبار المســـتثمرين الأجانب نحو مُرْغان ستانلي Morgan Stanley، ودويْتش بانـــك Deutsche Bank، سنجـابوركابتال لاند Singapore Capital Land وأُستراليا ماكواري بانك Australia's Macquarie Bank من وصول الرأســـماليين أكياس النقد الأســـطوانية الذين ربما يفجرون الفقاعة فوق جداول حساباتهم.

وقد أكد آندي زي Andy Xie، وهو اقتصادي في مُرْغان ســـتانلي، ســـنة 2004م أن «أملاك شنغهاي كارثة تنتظر أوانها».

http://www.ibtesama.com/vb

هل كان ذلك تحذيراً للذهاب إلى أبواب النجاة؟ لا ليس للبنائين المحليين. ففي منطق طفرة ازدهار الصين، يعد إدراك وجود كارثة توشك أن تقع دافعاً لمضاعفة الاستثمار. وتصل نسبة الشقق الجديدة الخالية إلى 40 بالمئة في بعض المدن، وبرغم ذلك، يوالي البناؤون التقدم بمشاريع جديدة تتجاوز إنجازاتهم السابقة. وعندما تقع مشكلة، إن وقعت، ينتظر المالكون عودة أيام أفضل.

ولاتحتاج كل أملاك شنغهاي ازدهاراً كي تَنْتَعِش. فالركود المؤقت في الأسواق تكمن فيه أوقاته الطيبة. وإن الأزمة الاقتصادية التي تبعت فقاعة عقارات شنغهاي الأخيرة في التسعينيات خَلَّفَت مئات المباني العالية في المدينة غير منجزة. كان بعضها ضحية ندرة المستأجرين، و كان بعضها الآخر نتيجة فساد مقاولي البناء الذين تزلفوا إلى مصارف الدولة أو المستثمرين المتهورين لتغطية المال اللازم لمشاريعهم، ثم تصرفوا بالمال في غايات خاصة بهم. فأنفق بعضهم المال في العيش الرغيد، وحَوَّل بعضهم الآخر المال إلى مشروعات أخرى، فشل كثير منها أيضاً.

وتستطيع الأملاك التي لاحياة فيها أن تُبْعَث في بلد أنقذ نفسه من موت اقتصادي. فمباني الأشباح في شنغهاي التي لم تكن تُقَيَّم بأكثر من ثمن الأرض التي تقف عليها والحجارة التي قد تُسْتَرَدُّ منها، صارت الآن تُشْغَل. فعندما ارتفعت أسعار الشقق الفاخرة الجديدة في المدينة على نحوٍ فاق قدرة المشترين، تحوَّلوا إلى استئجار المباني التي كانت ميتة، حيث تبلغ أجرة المسكن الشهرية في الأبنية الجديدة الخُمْس أو أقل. فمن تُرى ينتقل إلى السكن فيها؟ إن سكانها هم بعض المهاجرين الجدد. وإن معظمهم مازال يعمل بأجور «فقيرة». غير أن كثيراً منهم استطاعوا أن يعيشوا عيشاً أفضل، بأن يباشروا أعمالاً خاصة بهم تعتمد على جلب عمال جدد من قراهم.

إن ذلك نهج مألوف في أرجاء العالم، غير أن تَحَرُّك الصين إلى الأعلى يفوق بقية دول العالم النامي مجتمعة. وهذا جزء من الخليط الذي يجعل الصين

http://www.ibtesama.com/vb

شـديدة المنافسة على مسـتويات مختلفة. إنها تسـتطيع أن تطور مدناً عظيمة وتبنيها بينما تسـتمر في تلبيـة حاجة العالم بقواها العاملـة الرخيصة في آن معاً. وبينما نجد أماكن أخرى في العالم تؤمن العمل الرخيص وهي تَتَسَـلَّق سُلَّم التمية درجةً درجة، وتلهج بالدعاء مع كل خطوة كي لا تتعثر.

كيف هرب المارد من القمقم

ربما لاتكون شـنغهاي، برغم كل عجائبها، التَحَوُّل المدني الأكثر إعجاباً في الصين. فهذه المأثرة هي من حق شينْزهِنShenzhen حتماً، وهي مدينة قريبة من هونج كونجكانت حتى سـنة 1980م مدينة صيد سـمك يسـكنها سـبعون ألف شـخص تحيط بهم حقـول الأرز. ولم يكن في المدينـة خدمة نقل عام في ذلـك الوقت، وكان زائـرو المدينة يتجولون فيها على أقدامهـم أو على دراجات يستأجرونها من محطة القطار على تخوم المدينة.

غير أن كل شيء تغير سنة 1980م عندما وقع اختيار دنج زياوبنج Deng Xiaoping علـى المدينـة لتكون من أوائل المراكز لتجربة رأسـمالية السـوق. ومنحت شينزهين اسم أول منطقة اقتصادية خاصة في الصين، أو SEZ Spe- cialEconomic Zone وكأنمـا رفع القائد الأعلى للصـين بضربة إلهية، أو ربما بضغط مفتاح على كومبيوتر في لعبة سِم سيتي SimCity – مكانة مدينة ستصبح قريباً أكبر من باريس، أو مونتريال أو لوس آنجِلُس.

اعتقد دنج أن موقع شـينزهين قرب هونج كونج سـيجذب الاهتمام والمال والتجـارة من هونج كونج . وسـتمتلئ شـينزهين بالمسـتثمرين الأجانب الذين سـيحملون معهم التكنولوجية، والسـلع التي تحتاج إلى تطوير، والعملة الأجنبية القيمة، التي يفضل أن تكون الدولار. وتسـتطيع الحكومة المركزية أن تأخذ زمام المبـادرة بالتغيير في شـينزهين. فحتى ذلك الحين، كانـت الحكومة تلعب دور التابـع، تُجَمِّل بالإصلاح كُلَّ عمل تجاري يبدأ المزارعـون به. أراد دنج أن تكون شينزهين تجربة مستقبل الاستثمار الحر في الصين.

http://www.ibtesama.com/vb

لـــم تتوقع قيادة الصين في ذلك الوقت أن يطغى الاســتثمار الخاص في قلب مســتقبل الصين. وإنما كان أملها أن تقدم بضعة مناطق رأسمالية علاجاً للبطالة، والجمود الاقتصادي، وخزائن الدولة الفارغة. وإن إصلاح الصين الذي طرحه دنج لم يَتَخَل عن الماركسية. ولن يسلم السلطة إلى الذين هم خارج الحزب الشيوعي، الذي ســيبقى في مكانته حارساً للمســتقبل. هذا المرسوم، الذي حمل الصيغة الشهيرة: «اشــتراكية على الطريــقة الصينية». قد حدده دنج بوضوح في خطاب شمل بذور تطور المستقبل ألقاه أمام المؤتمر الوطني للحزب الشيوعي سنة 1982م.

يجب أن ننطلق من الحقائق الصينية في تطبيق برنامجنا للتحديث. ســواء أكان ذلــك في الثورة أم فــي البناء الذي ينبغي أن نتعلمه مــن البلدان الأجنبية ونفيــد من خبراتها، غير أن التطبيق الآلي للخبرة الأجنبية ونســخ نماذجها لن يعــود علينا بالنفع. لقد اســتقينا كثيراً من الدروس في هــذا المجال. ويجب أن تتكامــل الحقيقة العالمية للماركســية والحقائق الواقعية في الصين، وأن نشــق طريقنا بأنفسنا، ونبني اشتراكية على الطريقة الصينية – فذلك ما خلصنا إليه بعد مراجعة تاريخنا الطويل.

لقــد ركَّزَ ماو على الطريقــة الصينية، غير أن تَحَوُّل دنـج سَــمَحَ «للطريقة الصينية» أن تتضمن استثماراً حراً طالما تستطيع الحكومة أن تبقي تطور شينـزهين منضبطاً، فقد يَتَضَمَّن أيضاً أثراً مُفْســداً تَحمِله الرأسمالية في خباياها. ولكي يحصل ذلك، قدمت منطقة SEZ مزايا فريدة ضمن حدودها. وقد حصل الذين جلبوا أعمالاً إلى المنطقة على تخفيضات ضريبية سخية.5 فصارت هونج كونج من أغنى المدن في العالم بســبب الدور الذي لعبته كوســيط بين الصين والعالم الخارجي. وقد حققت شــينزهين، كأول مدينة رأســمالية بطبيعتها في الصين الشيوعية، نجاحاً مماثلاً.

وجدت الحكومة أنها لا تســتطيع اســتيعاب آثار الرأسمالية ضمن منطقة SEZ. لقد انْفَلَتَ مارد الرأســمالية من القُمْقُم بسرعة حتى حاولت الحكومة في

http://www.ibtesama.com/vb

الثمانينات أن تلجمه بحملة وطنية ضد «التلوث الروحي». وتكشف أن التلوث كان من النوع الاستهلاكي الذي ستعقد الصين آمالها عليه فوراً.

وليس ثَمّة نظير تاريخي لنمو شـينزهين. وربما كانت شيكاغو أقرب شبهاً. لقد اسـتغرقت تلك المدينة الواقعة في الغرب الأوسـط الأمريكي خمسين سنة ليصبح عدد سـاكنيها مليوناً. غير أن شينزهين لم تستغرق أكثر من عقد واحد، وبعد ربع قرن فقط صارت شينزهين مدينة تأوي 7 ملايين ساكن، كما أصبحت المدينـة الرابعة في اقتصادهـا في الصين. وإن دخل الفرد واسـتطاعة المدينة الاقتصادية يقع بين أعلى النسب في البلاد.

استشعرت تنمية شينزهين المبكرة في الثمانينيات والتسعينيات بالدور الذي ستلعبه الصين فيما بعد في الاقتصاد العالمي. وقد استغلت هونج كونج ، المركز الصناعي الرئيس شـينزهين في الثمانينيات للحفاظ على منافسـة صناعاتها بالتحـول إلى اليد العاملة الرخيصة فـي البر الرئيس، وبذلك حولت اقتصادها إلى اقتصاد يعتمد أكثر على التجارة والخدمة.

واختفت الصناعة من هونج كونج بسـرعة كبيـرة. وتوقفت مصانعها أكثر من عقد بعـد أن ازدهرت في صناعة الأجهزة الإلكترونية، والألعاب، والأحذية، والنسيج. كانت الصناعة تغطي ربع اقتصاد هونج كونج سنة 1980م، وانخفضت سـنة 2002م إلى واحد من عشـرين. وبينما كان أربعة من كل عشرة من أهالي هونج كونج يعملون في المصانع، فقد انخفضت النسـبة إلى أقل من واحد من عشرة. وانخفضت أجور العمال الذين استمروا في العمل في الصناعة في هونج كونـج ، مما أعطى اطمئناناً لخـوف عمال صناعيين في أنحاء أخرى من العالم بأن الصين تسـتطيع فرض تخفيض على الأجور خـارج حدودها. كانت مصانع هونج كونج مرة تنافس المصانع الصينية منافسـة مباشـرة أكثر من منافستها مصانـع الولايات المتحدة أو أوروبا، لكن وسـائل الاتصال المتطورة، والشـحن، ونظم الاتصالات جعلت المسـافة بين هونج كونج وشـينزهين تعادل المسـافة

http://www.ibtesama.com/vb

بين شينزهين وأي مكان آخر. ويوازي تراجعُ هونج كونج الصناعي التراجعَ الصناعي في معظم الاقتصاديات المتقدمة في العالم، غير أن هونج كونج بدأ مبكراً أكثر وخطا شوطاً أطول. وأصبحت الخدمات المالية والتجارية، وبخاصة تلك التي تتعلق بالوساطة التجارية والسياحية أقوى. يعكس ذلك الاتجاه أيضاً توجه اقتصاديات أخرى، بخاصة الاقتصاد الأمريكي.

وإذ اكتَسَبَ عمال هونج كونج الخبرة التي يحتاجون إليها للعمل في اقتصاد يحتاج كثيراً من الخبرات، بنى صناعيو هونج كونج مصانع في شينزهين وحولها، حيث يجول البر الصيني الرئيس ملايين من ذوي الخبرة الضعيفة بحثاً عن عمل. ووظفت المصانع التي أنشأها رأسماليو هونج كونج في النهاية عدداً من العمال يكاد يعادل عدد سكان هونج كونج كلها. وقد وجد 6 ملايين عامل في سنة 1994م أعمالاً في ثلاثين ألف مصنع في شينزهين وحولها يديرها ويمولها أشخاص من هونج كونج. وكان مستثمرو هونج كونج في نهاية سنة 2002م مسؤولين عن 60 بالمئة من 23 بليون دولار تدفقت إلى المدينة الجديدة منذ انفتاحها.

ولم يكن في مخططات الحكومة الصينية أن تجعل من شينزهين مغناطيساً يجذب المهاجرين الريفيين. فقد كان النظام الصارم الذي تفرضه الدولة لتنظيم حركة الناس سارياً عندما وافق دنج على تطور شينزهين. وبرغم ذلك، فإن اثنين من كل ثلاثة من عمال شينزهين أتوا من مهاجري الصين العائمين. وهم يتفقون مع نوع السكان أيضاً، مما يجعل شينزهين أكثر المدن شباباً في العالم، فمعظم سكانها دون التاسعة والعشرين من عمرهم.

ليس ثَمَّة مدينة في العالم يطبعها الشباب مثلها. تأخذ الحياة الثقافية في شينزهين، من يستطيع أن يتحملها، شكل حدائق ألعاب. وتهتز المدينة في المساء على أنغام أدنى فرق الموسيقى الإلكترونية في الصين.

http://www.ibtesama.com/vb

وقبل أن تجد شنغهاي الحال الذي يلائمها في أواخر التسعينات، كانت شينزهين مصدر إلهام جيل من الصينيين الشباب. وعندما أجرت عالمة الإنثروبولوجية كونستانس كلارك Constance Clark دراسة عن المدينة في منتصف تسعينيات القرن العشرين، وجدت أن أبناء العشرينيات الصينيين، الذين بلغوا سن الرشد في الوقت الذي كانت شينزهين تنمو وتزدهر فيه، رأوا في المدينة رمزاً لكل ما هو ممكن. كانت شينزهين المكان الذي تتحقق فيه أحلام المهاجر بالعمل والمغامرة والحب؛ وكانت المكان الذي يستطيعون اللجوء إليه هرباً من ضغوط الأبوين، والأسرة، والجيران، ويستطيع أن يَغْنَى بطريقته الخاصة. كانت المكان الذي يستطيع الشاب أن يعيد تكوين نفسه في أرض حيث تملي الدولة جميع احتمالات المرء. وعندما انتشر التلفزيون في جميع أرجاء الصين، كان لظهور شينزهين وقع الدراما الوطنية، فكان أشبه باستعراض ترومان Truman Show حيث ألهبت حياة سكان المدينة الجدد والمدينة نفسها القلوب والخيال في كل مكان.

الفتيات العاملات في شينزهين، القسم 1

يفوق عددُ النساءِ عددَ الرجال في شينزهين، وهذا غير مألوف في الصين. في عام 2001 فقد كانت 3.5 مليون فرصة عمل تؤديها نساء من أصل 4.75 مليون فرصة عمل، وذلك حسب إحصاء رسمي. وتقول مصادر مستقلة: إن المسؤولين يعطون في إحصاءاتهم عدداً دون الحقيقة. ولا يمكن استغراب هذه الأرقام من وجهة نظر تاريخية معينة. فقد طلبت نساء شابات العمل في صناعات خفيفة منذ بداية الثورة الصناعية. وكان لصانعي النسيج الأمريكيين، في منتصف القرن التاسع عشر، الريادة في نظام مسكن العمال. كان أصحاب المصانع، يرون الشابات ملائمات لأعمال المصانع التي تتطلب صبراً ومهارات آلية بسيطة، وهذه صفات يقال إن الرجال لا يتمتعون بها. إن هذا النقاش التافه أعاد تشكيل قوة العمل عندما أتيح له ذلك. ولو كان الأمر صحيحاً، لكانت صناعة الساعات، وقَطْع الألماس، وعمل الأقفال، ورسم المنمنمات الفارسية

http://www.ibtesama.com/vb

كلها بأيدي النساء الشـابات.، ويمتدح أصحاب المصانع في قوة العمل النسائية الشابة سلاسة انقيادها وفي لحظات يكونون فيها أكثر أمانة. ويقول مدير وحدة الكترونيـة صينية عَمِلَ فترة في الولايـات المتحدة، وتايوان، وكورية، «إن الرجال يدخنون ويتقاتلون وتصعب إدارتهم، ويمكنهم إثارة المتاعب».

وبرغم الانطباع السـائد عن أن العمـال الصينيين طيعون، غير أن المديرين يخشون العمال الأكبر سناً، الذين يعتمدون على الراديكالية الجازمة التي أملتها الثورة الثقافية في رفع الشكاوى. والاحتجاجات في ازدياد.

ففـي الوقت الذي تنسـجم فيه قوة العمل النسـائية الطاغية في شـينزهين مع نموذج التنمية الذي يعمل بانسـجام مع نخبة السـلطة في الصين – المجموعة المتداخلة من قادة العمل والمسـؤولين الحكوميين – فإن استخدام النساء المهاجرات في المناطق الصناعية الحديثة يسيء إلى مكانة الصينيين الأكبر سناً، الذين ما زالوا على رأس عملهم. وإذ يُجْبَر عشرات ملايين العمال على ترك وظائفهم في المصانع التي تملكها الدولة، وملايين أخرى تسـتبعد عن الأجهزة البيروقراطية والعسكرية الحكومية المتضخمة، وتوضح إعلانات الوظائف الجديدة في مصانع البلاد الأكثر نشـاطاً إن العمال المتقدمين في العمر – وبخاصة الرجال منهم – ليسـوا مرغوباً بهم. وقد قامت إحدى منظمـات حقوق العاملين في هونـج كونـج مؤخراً بترجمة إعلان عن وظيفة في أحد المصانع بَثَّه تلفزيون شينـزهين، جاء فيه:

شركة إكس إكس تي في تكنولوجي المحدودة (شينزهين)

XX TV TECHNOLOGY(SHENZHEN) LIMITED COMPANY

إعلان توظيف

إكس إكس تي في تكنولوجي شركة استثمار تملكها هونج كونج، تأسست في تموز/يوليو سنة 1992م، في جاردين ستريت، كوزوِيّ بِيّ، هونـج كونـج. Jardin

http://www.ibtesama.com/vb

HongKong،CausewayBay،eStreet. تنتج الشـــركة أجهزة هاتف ثنائية اللغة لها بشاشـــتين، وهواتف «خلية النحـــلbee nest» ومحولات. وقد حققت الشـــركة مســـتوى جودة إيزو9002 ISO الدولية. ونعرض أجوراً معقولة، وبيئة عمل مريحة، وإدارة شـــفافة. وإننا نطلب موظفين فـــي المجالات الآتية بموافقة الإدارة العليا وفي ضوء التوسع في ورشتي إنتاج.

دائرة الإنتاج

عاملات نساء، يوجد 260 وظيفة شاغرة متوفرة.

الشروط المطلوبة:

(1) تعليم ثانوي.

(2) أن يكون العمربين سنة 18 و26 سنة.

(3) أن تكون صحة مقدِّمة الطلب جيدة، وأن تتَّصِف بالجِدّ في العمل.

وتعدالخبرة في المصانع الإلكترونية ميزة لِمُقَدِّم الطلب.

الأجر:

(1) الأجر اليومي 17 يواناً.

(2) أجر العمل الإضافي:1 : 1.5.

(3) مكافأة المواظبة على العمل دون انقطاع: 45 يواناً.

عاملون رجال، يوجد 20 موقعاً شاغراً.

الشروط المطلوبة:

(1) خبرة عملية مدة سنتين.

(2) معرفة أولية بالإصلاح والصيانة.

تعد رخصة الإقامة ميزة. الأجر: حسب المهارات.

http://www.ibtesama.com/vb

إن البنات والشابات اللاتي يملأن مصانع الصين الجديدة يشكلن أيضاً قوة عمــل تقلق بقية العالم. فخطوط الإنتاج في مصانع الإلكترونيات الاســتهلاكية التــي تجعل الصين الآن الصانــع الرائد في العالم لعدة أصناف رئيســة، منها: أجهـــزة التليفزيون، معظم من يعمل فيها نســاء. وإن هذه المصانع ضخمة جداً، يعمل في بعضها عشرات ألوف الموظفين.

وتســتطيع نساء الصين الشابات أن يَشْــغَلْنَ كثيراً من الوظائف في مصانع الأحذية، والثياب، والنســيج في البلاد، حتى إنهن قــد يقوِّضن نظماً اقتصادية كاملة. ويُتَوَقَّع أن تســحب معامل نســيج في جنوب الصــين ملايين فرص عمل من عمال في مصانع أخرى خلال الســنوات العشــر القادمة، ويشمل ذلك أيضاً كثير من النســاء في بلدان نامية أخرى. وتشــكل الثياب والنسيج 6% من جميع صادرات العالم، وتتجاوز قيمتها 340 بليون دولار. فيصنع العالم النامي – ومنه الصين – الآن من الثياب والنسيج أكثر مما تصنعه الدول الصناعية، وفي بعض الأماكن الأكثر فقراً في العالم – مثل باكستان، وبنجلاديش، وسريلانكا، والهند، وتركيا، ونيبال، ولاوس، وكمبوديا – تغطي تلك التجارة حصة الأسد من عائدات التصدير وتشكل عادة مَصدَر عدد هائل من الوظائف الصناعية.

كانت صادرات الصين من الثياب والنســيج إلى الولايات المتحدة في الماضي يحكمها نظام حصص تقســم الســوق الأمريكية بين بلدان مختلفــة. وقد تغيَّر كل ذلك ســراعاً فألغت أنظمــة تجارية دولية جديدة نظــام الحصص وأعطت الصين تســديداً واضحاً على ســوق الولايات المتحدة والعالم في كل مصنوعات القمــاش أو الجلد. وقد تمكنت الصين الآن من الســيطرة على المناطق المحددة التي استطاعت دخولها.

ويقــول نِيِّل كيرني Neil Kearney الأمــين العام للاتحاد الدولي للعاملين في النســيج والثياب والجلد الذي يضم 217 عضواً كجماعة منتســبة من 110 دول، عــن خوف العالم من الصــين. ويقول كيرني: إن حصة الصين من البضائع

http://www.ibtesama.com/vb

التي تستوردها الولايات المتحدة من تسع وعشرين صنفاً من الثياب التي رفعت من الحصص (الكوتا) سنة 2002م تضاعفت ثلاثة أضعاف، بينما انخفضت الواردات من بقية دول العالم بمقدار 14%. وقد اكتسحت العاملات الصينيات الشابات المنافسة في بعض الأصناف. فكانت صناعة ثياب الحمام تجارة جيدة في المكسيك والفلبين، فخسرت هذه البلدان ثلث تجارتها، بينما توسعت تجارة الصين سبعة أضعاف. كما كانت جواتيمالا وبنجلاديش وسريلانكا مناطق جيدة لصناعة القفازات، فانخفضت صادراتهم إلى الولايات المتحدة بمقدار الثلثين عندما دخلت القفازات التي تصنعها نساء الصين المخازن الأمريكية. كان نجاح الصين محدوداً طالما ضَبَطَ نظام الحصص وصولها إلى السوق. ويقول كيرمي: «إن هذا يقدم صورة عما يمكن أن يحدث عندما ترفع جميع الأصناف من نظام الحصص».

ونجد الصورة مماثلة في صادرات الصين إلى الاتحاد الأُوروبي، حيث تضاعفت تجارة الصين في كثير من أصناف النسيج مرتين أو ثلاثة وربما أكثر. إن المصانع الجديدة تصعب مضاربتها. فعندما بلغت الصين الأسواق التي لم يكن متاح لها دخولها من قبل، خفض المنتجون الصينيون أسعار السوق بمعدل 44%. وأجْبَرَت الصينُ أُوروبا على تخفيض الأسعار بمقدار 42%، لأن النساء الشابات القادمات من شينزهين يعملن جادّات، ساعات طويلة، وبأجر ضئيل.

العمل الجاد لتحصيل المال

إن نمو شينزهين السريع جعل شوارع المدينة تزدان بفنادق خمسة نجوم، والدكاكين الفاخرة، والمطاعم اللامعة مثل فرساي، وصالات بيع سيارات بورشه، وأرصفة يسلكها رجال يحملون أكياساً بقبضات إيطالية، ونساء توسعت عيونهن بأدوات التجميل أو بالجراحة التجميلية وقد حشرت أوراكهن في تنورات جلدية من تصميم لوي فيتون Louis Vuitton. ويجدر بنا أن نلاحظ أن تعاظم المال، والتباهي، والوتيرة ليست مجرد حواجز ضد الاستمرار، وإنما هي ثمارها.

http://www.ibtesama.com/vb

وطالما أن شـينزهين لم تجـد موقعها كمركز للتكنولوجيـة العالية، أو ممر للتكنولوجيا الإحيائية، فإن ثروتها ستبقى للطبقة العليا من بلدة مصانع ضُخِّمَت كثيـراً - إن الأمركلـه هو بناء قوة عمل لن تجد لنفسـها مكانـاً، ولن تتمكن من التنظيم، وسـتبقى رخيصة طالما اسـتطاعت ذلك، مثل جميع مدن المصانع التي تعتمد على النساء المهاجرات أولاً، ثم على الرجال ثانياً.

وعندما انتشـرت تظاهرات الطلاب في أرجاء الصـين، في ثمانينيات القرن العشـرين، وأدت فـي النهاية إلى الاحتجـاج والإجراءات الصارمـة التي اتخذتها الحكومة في سـاحة تيانانمين Tiananmen Square، كان عَدُّ الشباب الصيني التحـديَ الرئيس للنظام القديم أمـراً طبيعياً. فعندما تتفكك الحكومات الحديثة، يكون الشـباب هم الذين يفككونها. ومازالـت الحكومة الصينية تفتح عينيها جيداً على الطلاب، ومازال الطلاب يرفعون رؤوسهم مطالبين بالحوار والديمقراطية.

لا يُشَـكِّل المثاليـون في الحـرم الجامعي الكتلـة المتفجرة فـي ثقافة المال الجديـدة التي تميل ميلاً طاغياً نحو شـباب المدينة، وإنما هم الصينيون الأكبر سـناً، مدنيون وريفيون، الذين حُرِموا حَقَّهم بالاحترام والإجلال. واتَّسَعَت دائرة الاحتجاجـات بين هذه المجموعة. حيث ضَمَّت المسـيرة الواحدة ثلاثين ألفاً من العمال على الأقل، يخرجون إلى الشوارع عندما توقف مرتباتهم، وعندما تعدهم الدولة مُنشَقِّين، وتطردهم بمرتب تقاعدي مُبَكر يدعو إلى السخرية. لقد أَغفلت مصيرَهـم فيما مضـى حكومةٌ تناضل للتخلص من نَمِـر الإصلاح والنمو، صار في الآونة الأخيرة يُعالجُه، بحذر شـديد، بعضُ أعضاء الحكومة الذين يحسبون للمستقبل ألف حساب.

وصلت رسالة إلى جيانـج زيمين في تموز/يوليو 2001م، وكان ما يزال يومئذ الرئيس والقائد الأوحد الأكثر قوة في الصين، فضربت الرسالة على وتر حساس عند الحكومة المركزية. كتبت الرسـالة فـي الوقت الذي كان الحزب يفكر بِجِد، لأول مرة، السـماح للصينيين من القطاع الخاص بدخول الحزب الشيوعي. كتب

http://www.ibtesama.com/vb

الرسالة المدير العام السابق لشركة الفولاذ التابعة للحكومة الصينية ومسؤول رفيع سابق لاتحاد العمال الصيني الذي تديره الدولة. لم يكن أيهما ليوحي بأنه مُنشَق، غير أن كلماتهما التي تهاجم التزام جيانج زيمين الصارخ باقتصاد السوق ما كان لها أن تكون أقوى:

لقد أصبح العمل سلعةً اليوم. ولايستمتع العمال إلا بقليل من حقوق الديمقراطية في المؤسسات، وحتى ذلك القدر القليل الذي ليس مضموناً أبداً.... يترك العمال مواقع عملهم فَيُحرَمون مزايا أقدَميَّتهم، مثلما يؤمرون. وقد فقد عدد هائل من العمال أعمالهم اليوم؛ ليس لهم من يلجأون إليه لوقف هذه الحيف الذي حَلَّ بهم. وبعد تركهم العمل، تتدفق مجموعة من المزارعين الشباب لتحل محلهم. وعند مقارنتهم بالعاملين في المدن، باستثناء المزارعين صغار السن، وذوي الأجر المتدني، وضعف علاقاتهم مع المشاريع، فإن شيئاً من أمور تعليمهم، ومهاراتهم، ورؤيتهم السياسية والشخصية لن يتحسن. وإن حال العمال في الأعمال الخاصة المحلية أو الاستثمار الأجنبي سيئة ولا تطاق، وليس فيها ضمانات.

تحرص الشركات الغربية التي تستعمل المصانع الصينية على التأكد من أن منشآتها تطبق مقاييس التوظيف الإنسانية. وتقوم فرق من المفتشين بتفقد المصانع للتأكد من حسن الإنارة، والتهوية، وأن العمال لا يُكَلّفون بالعمل في ورديات غير معقولة. وتعرف المصانع النظام جيداً وقد ابتدعت أساليب لغش المفتشين بسهولة، باستعمال المواهب ذاتها في الهجوم المضلل الذي طبق أمداً طويلاً في خداع مسؤولي الحكومة والحزب الشيوعي الذين يتفقدون المزارع والمصانع للتأكد من علو الإنتاج وأن الناس «سعداء». ويعني ذلك في المصانع إجراء عمليات أمامية وأخرى خلفية، تقدم منشآت نموذجية في مكان، وأخرى أقل نموذجية وأعلى إنتاجاً في مكان آخر. ويلح كثير من العمال بطلب العمل ساعات أطول، مما يشكل أفضل فرصة لهم للتقدم في نظام عمل ثابت فيه لا يكفي لتسديد الفواتير وإرسال مال لأولئك الذين يحتاجون إليه في البيت.

http://www.ibtesama.com/vb

غير أن الأنظمة المزدوجة تستطيع أن تلبي حاجة المسرفين من أنصار التفكير الذين قد يحبطه الواقع. ميشيل مون Michelle Mone متعهدة قادمة من جلاسكو في اسكتلندة، التي أسست شركة لصنع صديريات سنة 1996م عندما كانت في عشرينيات عمرها، قد تكون واحدة من اللاتي جعلن عملياتهن الصينية تبدو أجمل مما هي حقاً. فشركة مون، واسمها إم جي إم إنترناشُنال MJM International تنتج ماركة أولتيمو Ultimo line of bras المشهورة بحشوة السيليكون التي تظهر من تلبسها أجمل. التفتت إلى المصانع الصينية النامية لتجميع خطوط الإنتاج لـ إم جي إم وتبقي الآن هذه المصانع أسعار المنتجات مقبولة حيث يباع صديري أولتيمو بما يقارب 35 دولاراً.

نشرت صحيفة ديلي ريكورد Daily Record الاسكتلندية في نيسان 2004م إعلاناً ملفتاً على الطراز اللندني - كمية كبيرة من العناوين الكبيرة، وطباعة باللون الأحمر، وصور في أوضاع مختلفة - عن زيارة قامت بها مون لـ دونجوان Dongguan، وهو مركز صناعي كبير آخر لابيعد عن شينزهين، بعد أن نقلت إنتاجها إلى هناك من البرتغال. واعتمدت تغطية الديلي ريكورد Daily Record على الضغط الشديد، فنشرت عناوين تشد القراء بالطريقة التي تخشاها الماركات الغربية. وقد جاء في أحد الإعلانات الأكثر تشويقاً، «جنيه استرليني واحد في اليوم. هذا ما تتقاضاه فتيات المعامل لتصنع الصديري الأكثر إثارة في العالم. وتذهب الريكورد إلى الصين لتكتشف القذارة الكامنة وراء البريق». جعلت مون عمل الصحيفة أسهل بملاحظات عامة أدلت بها بعد زيارتها للمصنع. فنسب إليها قولها: «ليس هناك أطفال تعمل في المصنع. ولا ساعات عمل غير معقولة. فالطعام فيها جيد والأجور عظيمة. إننا ندفع إجوراً تزيد عن المتوسط».

أقامت مون أثناء زيارتها في نُزُل للعمال، ثم قامت بتقييمها المضحك. قالت: «إن العمال يعيشون في نزل.. رائع كأنه نزل للمسافرين Travel Inn. ففي إم جي إم يستطيع المديرون الذهاب إلى بيوتهم ليلاً ليريحوا رؤوسهم على وسائدهم

http://www.ibtesama.com/vb

دون أن يقلقوا من أننا نستغل عرق العمال بأدنى الأجور». وامتدحت مون المصنع لأنه مجهز بأجهزة تكييف الهواء ويقدم وجبات لأسر العمال.

ويتّضح أن رؤية مون لم تكن كاملة. فقد دققت الصحيفة النظر في أحد المصانع التي تنتج إم جي إم وقالت، إن أكثر من ثمانية نساء يشتركن العيش في غرفة مزدحمة، وإن حرارة الغرفة في الليل ترتفع إلى ست وثمانين درجة فهرنهايت، وإن تكييف الهواء يقدم فقط للنزيلات اللاتي يدفعن مقابله من مرتباتهن التي تتراوح بين 50 و 60 دولار في الشهر. وإن معظم النساء اللاتي يعملن هناك أتين من المناطق الفقيرة في شمال الصين، وقد جندن للعمل بوعود وردية لا تمت إلى الواقع بصلة. وتُعطى العاملات عادة إجازة قصيرة واحدة في السنة في رأس السنة الصينية؛ يقضين معظمها في القطار الذي يحملهن إلى مواطنهن.

ولا تلبي وحدة تصنيع أولتيمو الحد المطلوب في أي من دول أوروبا الغربية أو الولايات المتحدة، غير أنها ربما كانت أفضل من كثير من المصانع الصينية، ويزداد الطلب على فرص العمل فيها. ويجدر القول إن الصديري القادم من الصين كان أحد المنتجات التي دارت عليها معظم النزاعات في التجارة الدولية. وأدّت العقوبات الأمريكية المفروضة على الصديري الصيني في أواخر سنة 2003م بالحكومة الصينية إلى التراجع عن صفقة لشراء ثلاثة ملايين طن من القمح الأمريكي. أما سوق الصديري العالمي، فإن عدم تصنيعه في الصين قد يعني هزيمة على أيدي الآخرين الذين يصنعون هناك.

الفتيات العاملات في شينزهين، القسم 2

حددت إحصاءات الحكومة متوسط رواتب النساء العاملات في شينزهين، ومعظمهن في سن المراهقة، بـ 72 دولار في الشهر سنة 2002م. تقيم معظمهن في مهاجع، مثلهن مثل الرجال العاملين في المدن. وشمل إحصاء الصين سنة 2000م أربعة ملايين مهجع سكني في المدينة والمناطق المحيطة بها. وإن كل

http://www.ibtesama.com/vb

ثمانية إلى اثني عشر من الساكنين يقيمون في غرفة واحدة مثل الحال في مصنع الصديريات. وربما تكون مجمعات المهاجع مدناً داخل المدن، حيث تؤوي عشرات ألوف العمال من شركة واحدة. وحري بأجراس العمل أو مواعيد وجبات الطعام أن تطلق الجماهير في مجمعات الشـــركة بكثافة تضاهي ســـاعات الازدحام في أنفاق المدن الكبرى. وإن متوسط عدد ساعات العمل في الأسبوع سبعون ساعة، وإن نصف العاملين في شينـزهين يعملون سبعة أيام في الأسبوع. ويحدد القانون ســـاعات العمل في أســـبوع العمل بنصف ذلك، غير أن العمل الإضافي، ســـواء أكان طوعاً أم كرهاً، يعنـــي مالاً إضافياً، كما يعني للكثيرين تذكرة مبكرة للعودة إلى البيت. فالنســـاء اللاتي يأتين للعمل في شينـزهين يذهبن إلى موطنهن غالباً ليتزوجن، ولا يرغبن في الانتظار إلى ما بعد منتصف العقد الثاني من العمر.

إن كثيراً من النســـاء الشـــابات يَتْرُكْنَ العمل الذي أَتَيْنَ من أجله في المصنع عندما يدرِكْنَ أن أَجْرهن البســـيط يُســـتهلك في مصاريـــف تحول دون تقدُّمهن فـــي الغالب. وهكذا فإن مصانع الصين تؤدي على نحو غير مباشـــر إلى إحدى الصناعـــات الكبرى الأخرى في المدينة. وإن الشـــابات اللاتي يتركن عملهن في الإنتاج يَتَلَمَّسْنَ طريقَهُن نحو نوادي موسيقا karaoke.

دَع عنك جانباً أي صورة انتقيتها من صور النوادي الموســـيقية من Lost in Translation or Duets. فهن يَرَيْنَ النوادي الموسيقية في الصين مثل السور العظيم بالنســـبة لســـياج الباحة الخلفية. إن حجم نوادي شينـزهين تماثل حجم فنادق المؤتمرات، مثل نوادي بكين وشـــنغهاي وجميع المدن المزدهرة. وإن النقاط الرئيســـة هي أن مئات الغرف في الداخل مزودة بشاشات من البلازما وأجهزة توزيع صـــوت رائعة. وتحجز جماعـــات الغرف، وتبدأ ألعاب الغناء والشـــراب. ويتحوَّل مشهد جاك دانييلJack Daniel مقلوباً رأساً على عقب ليصبح إبريقاً مكبوتاً من 7 أب.

http://www.ibtesama.com/vb

وكذلك أمر النساء اللاتي يدرن المكان. فأكبر نوادي شنغهاي تستطيع استيعاب ألف امرأة. إنهن رائعات. يُغَنِّين، ويجلسن إلى جانب بعضهنَّ بعضاً، يطربن ويمزحن، وعندما يختلط الرجال ذوي الثراء، الشبان منهم والكهول، برشاقة وسلاسة بشابات لا يَلوين على شيء، فتشبك العلاقة سريعاً. وتحتل فتيات نوادي موسيقا karaoke موقعاً رئيساً في تجارة الجنس في شينزهين، ولعله أقل نضجاً من فتيات الطريق، وأقل أماناً من مومسات المدينة. إن أقدار المغنيات توجِّهُهُنَّ في أي من الاتجاهين.

قام فكتور يوان Victor Yuan الباحث الذي تدرب في جامعة هارفارد، والذي يدير مكتباً استشارياً يجري دراسات عامة للشركات التجارية والوكالات الاجتماعية باسم هورايزن ريسيرتش Horizon Research في بكين، قام بدراسة موسعة لتجارة الجنس في الصين سنة 2003م كجزء من جهد متعدد الجنسيات لفهم مصدر مشكلة الإيدز AIDS في البلاد. قال يوان: «إن كثيراً من الفتيات لا يَرَين في العمل في المصنع سبيلاً إلى التقدم. فالأجور منخفضة، وثمَّة نفقات لا بد منها عندما يَعِشْنَ بعيداً من مواطنهن. فإذا عملن ثلاث سنوات أو أربع في مصنع، فإن حياتهن وآمالهن لا تتقدم أبداً».

إن الشابات اللاتي يعملن في الدعارة يُحَقِّقْن ثلاثة أضعاف أجورهن في المصانع. ولا يقتصر عملهن على مشارب النوادي الموسيقية فحسب. بل إنهن يجلسن في نوافذ صالونات التجميل التي تفتح طوال الليل بانتظار لقاء مَدفوع الأجر، وتذاكر للسينما مخادعة، ويتصلن بغرف نزلاء الفندق على أمل أن يَجِدن زبوناً راغباً. وإن أجهزة الهاتف المعلقة قد تواصل الرنين طوال الليل. فالفنادق الكبيرة هي بيوت دعارة كبيرة أيضاً. في تشرين الأول/أكتوبر 2003م، وأغارت الشرطة الصينية على فندقين يقطنهما الأثرياء في مدينة زوهاي Zhuhai شقيقة مدينة شينزهين، حيث ادعى المسؤولون أنهم اكتشفوا معربداً استمر في عربدته هناك ثلاثة أيام بناء على طلب مديري فرق جنس محلية. وكان

http://www.ibtesama.com/vb

المشـــاركون أربعمئة رجل ياباني، وهذا ما يغـــري الصينيين باعتقالهم، إذ يحمل ذلك غرضاً سياسياً. فالاحتقار السائد لليابانيين له مضمون جنسي قوي، حيث يُشَـــبَّه الغزو الياباني نفسُــه بالاغتصاب. وتعد القسوة الجنســـية التي مارسها جنود اليابان مع النساء الصينيات، وبخاصة في مذبحة نانجنـج Nanjing سنة 1937م، مـــا زالت جرحاً نازفاً ينوء الصينيون بألمــه. فكانت الاعتقالات الأخيرة انتصاراً للروح الوطنية، غير أنها ســـببت صعوبـــة عملية. فقد اتخذت الحكومة إجـــراءات صارمة في مناطق حياة الليل وتجارة الجنس، ونضب معين الســـياحة من هونج كونج وتايوان واليابان، وإنما لبعض الوقت فقط.

كان مخطط اللعبة للنســـاء، في النهاية، هو العودة إلى قراهن، حيث يفتحن أعمالاً تجاريـــة خاصة بهن، لإعالة أبويهِنّ، ويجدن بالمـــال أزواجاً أفضل. يقول يوان «وليس ثمة من يسأل عما كُنَّ يفعلن بعيدات، فذلك لا يهم».

لا تتضمن تجارة الجنس فـــي إحصاءات مكاتب الترويج الاقتصادي المحلية فـــي المنطقة، وإنمـــا تأتي الأرقام ذات الدلالة من مصـــادر أخرى. فقد بلغ عدد أولاد السفاح، سنة 2001م، من نساء عاملات وخليلات في شينـزهين 520.000 في عشرين سنة.

وماذا عن العنف؟ يقول يوان إنه يكاد لا يجد ذلك. فالســـوق لن تســـمح به، والأعمال تحتاج إمداداً ثابتاً من النســـاء الجديدات، اللاتي يُعْتَمَد عليهن لتجنيد صديقات لهن من مواطنهن. فالعمال الذين يتعرضون للابتزاز لا يصلحون لتجنيد أحد. وإنما النســـاء هن اللاتي يقررن الحد الذي يُقَدِّمْنَه للزبائن. بعضهن يغني فقط. وبعضهن يتحسس للمس. وهناك من ينضممن بسرعة إلى ركب الوطن.

غير أن صناعة الجنس في الصين لاتخلو من ضحايا. فالبلد كبير فيه كثير من وحشية غير منضبطة. وربما لانجد في صناعة الجنس في الصين محرمات نجدها في بلدان أخرى، غير أن ثَمَّة محرَّماً خطيراً واحداً؛ فالرجال في الصين

http://www.ibtesama.com/vb

يؤثرون الجنس بلا واق أو عزل ويصرون عليه، ويدفعون ضعفي ما يدفع للجنس المحمي وربما أكثر ليمارسونه. فليس بِمُسْتَغرب أن تجد الأمراض الجنسية تُحدِث مشكلات كبيرة. فالأرقام الأخيرة تُقَدِّر عدد المصابين بالتهاب الكبد من الفئة ب بحوالي 120 مليون، والمصابين بنقص المناعة إيدز بحوالي مليون مُصاب. وتُحَذِّر الأمم المتحدة من أن يصبح عدد المصابين بالإيدز 10 ملايين سنة 2010م، وقد بقيت السلطات الحكومية صامتة حتى سنة 2004م، ولم يكن ثمَّة حملات وقاية.

وثَمَّة أمل موجود. فقد لا يكون صدفة أن تأتي برامج الوقاية في وقت يزداد قلق الصين من التفاوت في الدخل بين المدن الشرقية المزدهرة وبقية مناطق البلاد. فصناعة الجنس إحدى الطرق القليلة القوية التي تعيد المال إلى مناطق الصين الفقيرة. ولاتوجد تقديرات رسمية لذلك، وإنما قياساً على حالات مماثلة في بلدان أخرى، فإن المبلغ يصل إلى بلايين الدولارات. ففي تايلاند، النظام الآسيوي الآخر الذي يتساهل مع الجنس، يرسل العاملون في الجنس 300 مليون دولار سنوياً من دخل المدن إلى الريف. وتعني هذه الأرقام في الصين أكثر للاقتصاد المحلي، ليس لأن عدد السكان أكثر بخمس وعشرين مرة فقط، وإنما لأن معظم المال الذي يدفع مقابل الجنس مال أجنبي، وهو المال الذي يحتاج إليه اقتصاد الصين.

وأعلنت الحكومة في أيار/ مايو 2004م عن برامج أشَد لمراقبة انتشار نقص المناعة المكتسبة الإيدز ومراقبته. وتروج الآن الحملات العامة لممارسة الجنس «السليم»، التي تتضمن حرية الحصول على الواقيات الذكرية. ومما يقلق في الأمر أن الإعلانات لم تركز على منع الدعارة في المدن الشرقية وإنما استهدفت المناطق الريفية بالدرجة الأولى.

http://www.ibtesama.com/vb

مصانع مُشْرِقَة ومدينة مُعْتِمَة

ليست كلُّ أحلام شينزهين ورديةً اليوم. فقد وقعت المدينة تحت سحابة حملة طويلة لمكافحة الفساد شملت عدداً كبيراً من المسؤولين، كان كثير منهم متورطاً بخطط رشوة مقدارها مليون دولاراً. والمدينة مركزٌ لأعمال تجارية تقدر بمليارات الدولارات تُرَوِّج لسِلَع مُزَيَّفَة. وربما كانت تجارة الجنس فيها الأكثر نشاطاً في الصين.

وقد صَوَّرَت الروائية الصينية ميان ميان Mian Mian وهي من المهاجرات المراهقات إلى المدينة في منتصف التسعينيات الجانب المعتم من شينزهين تصويراً حيوياً فاضحاً، إذ تروي قصصُها تفاصيل الحشد اللامنتمي والمدمن على المخدرات الذي سقطت فيه. قالت ميان ميان في إحدى المقابلات، «أتى كثير من الضائعين إلى شينزهين من أماكن أخرى، وكانوا جميعاً يحلمون بمال ينقذ حياتهم. وشينزهين مدينة قاسية، لا قلب لها. وليس ثَمَّة شيء فيها اسمه صداقة. وليس ثَمَّة صديق فيها».

وربما استطاعت سمعة شينزهين الملطخة القذرة بقدر ما كانت مُحَلِّقَة يوماً، أن توجه بعض الاستثمار والمراكز الرئيسة للشركات إلى شنغهاي. فالمدينة الآن من أكثر المدن المتنافسة. غير أنها ما زالت مدينة رائعة، تفوق شنغهاي جمالاً. وإذ تجمع شينزهين قوة أسر عالمية لا تناسب حجمها. فهي نقطة عبور إلى دلتا نهر بِرْل Pearl أكبر منطقة صناعية في العالم. ويأتي ترتيب شينزهين الآن سادس أكبر ميناء في العالم. وتقف على أرصفتها عشرات الرافعات العملاقة التي تعمل على مدار الساعة في تفريغ المواد الأولية التي تحتاج إليها الصين لبناء مزيد من المدن مثل شينزهين، ثم تعيد تحميل السفن بحاويات تملأ على أرصفة التحميل في أكبر تمركز مكثف للمصانع التي تنتج الإلكترونيات، والأحذية، والساعات، والمجوهرات في العالم.

http://www.ibtesama.com/vb

غير أن بعض السلع القَيِّمَة لا تشحن من ميناء شينزهين. فقد صارت المدينة مركزاً لتنمية التكنولوجية العالية والتكنولوجية الحيوية في الصين، حيث تسافر منتجاتها بالبريد الإلكتروني على نحو أفضل من البحر. وهذا أيضاً تنافس مدني في الصين، فلشينزهين منافسان رائعان بين المدن القديمة التي تضم مؤسسات تعليمية ومراكز بحوث عريقة. وقد أُرسلت فرق من شينزهين مؤخراً إلى مراكز التكنولوجية العالية في أوروبا وأمريكا لجمع الخبرات وفرض اختيارهم بالقوة على صينيي ما وراء البحار. وقد استعادت المدينة أرضاً على الجبهة البحرية لإقامة رَحْبَة صناعية ذات تكنولوجية عالية ب 250 مليون دولاراً. ويستطيع المهاجرون الجدد دعم خبرتهم بقوة عمل منخفضة الأجر من شينزهين، يصنعونها بأنفسهم، ويبنون ثانية صناعات تستطيع المنافسة عالمياً، ولن تكون من فراغ هذه المرة، وإنما فوق الماء.

وتفعل مصانع شينزهين للعمال الصناعيين في هونج كونج ما سبق أن فعلته شيكاجو من قبل، وهي المدينة التي نَمَت نُمُوّاً سريعاً. فقد روت صحيفة لوس أنجيلوس تايمز Los Angeles Times الفائزة بجائزة بولِتْزر Pulitzer سنة 2003م عن سلسلة مقالات نشرتها عن وول مارت Wal- Mart قصة شركة Second City's Lakewood Engineering & Manufactur-ing Co. التي تصنع المراوح المنزلية. كانت المراوح تباع قبل عشر سنين في المخازن الأمريكية ب 20 دولاراً. فطلبت وول مارت، وهي عميل مهم أن تبيع المراوح بسعر أقل. قالت الصحيفة إن كارل كراوس Carl Krauss يخفض التكاليف مع كل دورة. وقد أتْمَتَ (جعله أوتوماتيكياً) الإنتاج في مصنع الآجر الأحمر الذي بناه جده في الجانب الغربي من المدينة. وكان المنتج يحتاج إلى اثنين وعشرين شخصاً فصار يحتاج إلى سبعة أشخاص الآن. وضغط على مموليه ليحطموا أسعار القطَع. فحمل هذا الشركة بعض الوقت فقط. فتخفيض سعر المراوح تخفيضاً كافياً حمل كراوس على إقامة مصنع في شينزهين، واستأجر

http://www.ibtesama.com/vb

عمالا صينيين مهاجرين يتقاضون خمسة وعشرين سنتاً في الساعة. ويفترض ذلك أن وول مارت كانت سعيدة. وسنكتشف في الفصول القادمة الدور الذي لعبته الشركة في اقتصاد الصين.

قد تكون شينزهين انبثقت من عَدَم، وأتى عُمّالها ومديروها من كل مكان في الصين، غير أنها - مثل جميع مدن الصين المزدهرة - شقت طريقها وأقحَمَت نفسَها في حياة العمال وأصحاب المخازن في جميع أرجاء العالم.

أين الصِّبْيَة؟

تعد الهوة بين الجنسين في شينزهين أحد جوانب التحول إلى حياة المدن. فمطالب مصانع المدينة تجعل النساء الشابات أكثر قيمة هناك. وإنما الصحيح هو على خلاف ذلك في جميع مناطق الصين الأخرى تقريباً، ويعطي هذا أيضاً مدن البلاد شكلها وأثرها على بقية العالم.

أرَّخَت إحدى الروايات الإخبارية الجديدة التي تثير الريبة عن الصين في السنوات الأخيرة لعدوان على المواليد الإناث يحرف السكان على نحو غير طبيعي إلى الذكور. لماذا؟ تُذْكَر تعاليم كونفوشيوش Confucianism والتقاليد الريفية في أسباب تفضيل الأسر الصينية الذكور، وذلك تحامل يسود بخاصة خارج المدن الكبرى. فاسم العائلة، والارتباط المهم بالأجداد، يحمله عادة الخط الذكري. لكن الأسباب الاقتصادية تثقل خيارات الأسرة. ويسهم في ذلك نظام الإيجار في الصين. فالأسر المزارعة تحصل على قطعة واحدة من الأرض، ولما كانت الفتيات اللاتي يتزوجن ينتقلن بحكم العادات إلى العيش مع أسرة الزوج، فإن الأسرة التي لديها ولد ذكر تتمتع بفرصة أكبر في نظام تخصيص الأرض. ويعطي الأولاد الذكور أبويهم فرصةً أفضل في أن يكون لديهما من يخدمهما في شيخوختهما ويكون أقدر على الاهتمام بالمزرعة. أو هكذا هو الاعتقاد السائد. وإن تفضيل الذكور، على المدى البعيد، سيؤدي إلى هجر كثير من آباء القرية،

http://www.ibtesama.com/vb

وإن ما يدعو إلى السخرية أن العمل في مزارع الصين ينتقل بازدياد إلى عهدة النساء، إذ يترك الذكور قراهم، وإن فرصة ترك الزوجين أبويهم بعد زواجهما أصبحت أكثر الآن.

وتعود هذه التبعات غير المتوقعة إلى سياسة تنظيم الأسرة في الصين. فقد وُضِعَت سياسة الولد الواحد لتُصَحِّح ما كان التخطيط المركزي يعده أحد أكبر أخطاء حكم ماو بحض الأزواج الوطنيين على تكوين أسرة كبيرة. وإن الدولة، التي شجعت بحماسة ضارية الأسرة الكبيرة في منتصف القرن العشرين، وعدّتها السبيل إلى قوة الصين الصناعية وثقلها الجغرافي، غيرت وجهتها تغييراً جذرياً. وأصبح النمو السريع لعدد سكان الصين يعد، ربما بحق، أكبر خطر يهدد رفاهية البلاد في المستقبل.

فرضت الدولة منذ بداية 1979م أن لايُنجب الزوجان أكثر من ولد واحد أو اثنين. ويعتمد ذلك على المكان الذي تعيش فيه الأسرة، وعلى ترتيب إنجاب الأولاد. فيُسْمَح لسكان المدن إنجاب أكثر من ولد واحد إن كان الزوجان في زواجهما الثاني ويريدان إنجاب طفل مشترك. أما في الريف، فيسمح القانون للأسر إنجاب طفلين، إن كان المولود الأول أنثى - إي إن لم يكن الطفل الأول الصبي الذي يتمناه معظم المزارعين الصينيين.

تنجب الأسر في الصين اليوم 118 صبياً مقابل كل 100 بنت. (إن النسبة الطبيعية في العالم هي 106 ذكور مقابل 100 من الإناث) ويقوم الأطباء، بالفحص بالموجات الصوتية، بأعمال غير قانونية وخطيرة، لتحديد جنس المولود قبل الولادة، وإجهاض الإناث. حيث تُفْقَد واحدة من كل سبع إناث في الصين، بالإجهاض، أو تقتل بعد الولادة، أو تُرمى بعد ولادتها. وقد أجرت هيئة الإذاعة البريطانية مقابلة سنة 2001م مع شين رونج Chen Rong، وهي امرأة تفرز القمامة في مقلب النفايات في بكين. فوجدت شين في أثناء تجولها خمسة أطفال إناث بين القمامة، وحملتهن إلى حيث تعيش في كوخ فيه غرفة واحدة، وتولتهن هي وزوجها بالرعاية.

http://www.ibtesama.com/vb

وليس كل آباء البنات المفقودات في الصين يتمنون موتهن.. فقد عُرِضَت مئات آلاف البنات للتبني في السنوات العشرين الماضية. وقد صار تَبَنّي أكثر من خمسين ألف طفل، معظمهم بنات، تَبَنَّتهُم أُسَرٌ أجنبية منذ سنة1991م، كانت خمس وثلاثون ألف أسرة منهم أمريكية. وإنك ترى أبوين من أُوروبا والولايات المتحدة، تبنيا طفلاً، يدفعون بهم العربات في المدينة الممنوعة من بكين، يلفتون الاهتمام بأطفالهم الصينيين الجدد. كما تعج رحلات شركة يونايتد ايرلاينز United Airlines بين بكين و شيكاجو بصخب الأطفال الصينيين وبكائهم في أقمطتهم بين ذراعي أمهاتهم وآبائهم الأمريكيين الجدد. وإن العدد المتزايد للأطفال المتبنين في الولايات المتحدة يُوجِدُ عدداً من السكان المعنيين عناية كبيرة بالثقافة الصينية، وهذا يبني جسراً بين الثقافات في المستقبل.

إن بعض المواليد من الإناث في الصين لا يسجلن أبداً لدى السلطات، لأن الأُسر تدرك أن تسجيلهن سيحرمهم من فرصة إنجاب صبي. فقد كان تفضيل الصبيان في الريف طاغياً حتى أُجبِرَت الحكومة على تغيير سياستها، لتسمح للأُسَر التي كان طفلها الأول بنتاً الإنجاب ثانية.

ولن تخفف سياسة الحد من عدد سكان الصين من سكانها لعقود كثيرة قادمة، ولن تُدْني عددَ السكان عن بليون نسمة. فعندما تولى ماو أمورَ الصين سنة 1949م كان عدد سكانها 550 مليون نسمة. وسيرتفع العدد في سنة 2020م ثلاثة أضعاف ذلك الرقم، على أقل تقدير. وستوقف سياسة الطفل الواحد في النهاية خطر الزيادة الهندسية في عدد السكان. وبينما ترى بقية البلدان النامية زيادة عدد سكانها إرهاقاً لقدرة اقتصادها في مدهم بأسباب العيش، فإن عدد سكان الصين يستقر في وقت تشهد فيه ثروتُها الوطنية ارتفاعاً هائلاً.

ويزيد عدد الصبية والرجال على عدد النساء، اليوم في الصين 20 مليوناً وسيقل عدد الإناث والنساء عامّة في الصين في العقد القادم 60 مليوناً إن كانت النسبة بين الإناث والذكور فيها طبيعية. وبلغت المجموعة الأولى ممن أنجبوا

http://www.ibtesama.com/vb

طفلاً وحيداً سنّ الخامسة والعشرين سنة 2004م، وسيكثر الغلط ويتعاظم في المجموعة التي ستليهم. ويسمي الصينيون العدد الفائض من الذكور فروعاً عارية bare branches. وقد أبدى علماء الاجتماع في الصين قلقهم من عدم التوازن الذي سيعرضها إلى عدم استقرار.

يبدى فاليري ام. هودسون Valerie M. Hudson من جامعة برِجهم ينج Brigham Young في أوتا Utah وأندريه ام دِن بُور Andrea M. den Boer من جامعة كنت في كانتربري the University of Kent in Canterbury بإنجلترة، قلقهما في كتابهما The Security Implications of Asia's Surplus Male Population من أن الكثافة العالية للرجال التي تلوح في المستقبل القريب قد تؤدي إلى العنف. ويتركز خوفهما الرئيس من أن الرجال سيتجمعون بتزايُد في عصابات من رجال، تميل تاريخياً إلى السلوك العدائي. ويخشون أن يؤدي نقص النساء إلى أنماط متزايدة من التفرقة الجنسية. وإذ تصبح النساء أكثر ندرة، يصبحن أغلى كعرائس في المقايضة وفي تجارة الجنس.

وقد قال باحثون، «لقد رأينا في الصين انطلاقاً للشرور، مثل الخطف وبيع النساء لتقديم عرائس لمن يستطيع أن يدفع الثمن، وندرة النساء تؤدي إلى حال يتزوج فيها رجال ذوي مزايا – كالمال، والمهارات، والتعليم – غير أن الرجال الذين لا يملكون هذه المزايا من فقراء وغير ذوي المهارات والأميين – لا يستطيعون. وهكذا ظهر فرع رئيس دائم من الفروع العارية من أدنى الطبقات الاجتماعية – الاقتصادية».

إن الآراء المطروحة ضاغطة، وإن ديناميكية الاقتصاد الصيني المتغير تقدم سيناريو بديل أقل عنفاً. أما الآن، بعد أن قلّت النساء المناسبات للزواج، ويزددن ندرة مع مرور الوقت، بدأ صبية المزارع الفقراء يشعرون بالحاجة لتحسين فرصهم بتحسين وضعهم. فإنهم يغادرون البيت للانضمام إلى فرق البناء وخطوط

http://www.ibtesama.com/vb

الإنتاج، عوضاً عن الانخراط في خلايا إرهابية أو جيوش سـرية. وبرغم الآمال التي تعلقها الأُسـر على إنجاب الذكور والاحتفاظ بهم في المزرعة، فإن الشـبان يهاجـرون إلى المدن الصينية. ويعودكثير منهم إلى قراهم، وأكثرهم أولئك الذين لم يستطيعوا أن يتحملوا حياة المدينة. أما الرجال الأقْدَر، فإن عدداً كبيراً منهم يبقى بعيداً. ويرسـلون المال إلى موطنهم. وأرسـل المهاجرون إلى أهلهم في سنة 2000م حوالي 545 دولاراً وسـطياً.. إذا ضُـرِبَ ذلك الرقم بـ 90 مليون عامل، وذلك الحد الأدنى من السكان المهاجرين، يبلغ المال السنوي الذي يرسل من المدن الصينيـة حوالي 50 بليون دولاراً. غير أن الأماكن التي خَلّفَها المهاجرون وراءَهَم تكون مأساةً في الغالب، تؤوي أشخاصاً في عمر أصغر من عمر العمل أو أولئك الشيوخ الذين يقعدهم التقدم بالعمر عن الحركة.

السباق إلى الذهب

تُشَـبَّه بكين كثيراً بواشنطن العاصمة. فمركزا الحكم هذان يشتركان بأُبَّهَة تتجلـى فـي أبنيتهما العامة الضخمة غير المرتفعة. غير أن هذا التشـابه قد لا يدوم طويلاً. فقد بدأت بكين تندفع إلى الأعلى، بعد أن أصابتها حمى ناطحات السـحاب وانطلقت لترسـم لنفسـها خط أفق يحاكي خط الأفـق المزدحم في شـنغهاي. وتتطلع المدينة لأن ترسـم لنفسـها صورة أنيقة وبنية تحتية تستطيع أن تجـذب الدولارات الأجنبية مثل أي مكان آخر. وليس الإقبال الشـديد على البنـاء جديداً على المدينة، وإنما الجديد هو تَطَلّعُها لكي تصبح أبنيتها بمقاييس الذوق الدولي. فشنغهاي التي طالما تطلّعت إلى جذب العالم، استقطبت بضراوة مهندسـي العمارة الأجانب ليبنوا أبنيتها الضخمـة. وآثرت الحكومة في المدينة العاصمة والعاملون في التنمية الحريصون على رضا الحكومة توظيف مهندسي عمارة صينيين في المشاريع المهمة.

http://www.ibtesama.com/vb

وكانت النتيجة، أن صارت مُعظم الأبنية الكبيرة في شوارع بكين الرئيسة خليطاً بين ضخامة المرحلة السوفيتية وحب الصينيين للزخرفة. وتَجِد مراكز التَسوّق في بكين ومجمعات المكاتب الحكومية تشبه مستودعات سلاح حُوِّلت إلى مطاعم. وتبدو الفنادق أشبه بعلب ضخمة مربعة الشكل تعلوها مطاعم دوارة، أو أسطح معابد، أو أقواس إسمنتية مقلوبة. وكُل ذلك يتغير بسرعة. فالمدينة تستقطب الآن أشهر مهندسي العمارة في العالم. وسيكون في بكين قبل أولمبياد 2008م مجموعة جديدة من المباني الهائلة التي تعكس ذروة التصميم الحديث والهندسة. غير أن واقع الميزانية قد يفسد بعض هذه الخطط. فقد أحضرت بكين لبناء مدرج للألعاب المهندسَيْن السويسريَّيْن جاك هيرتزوج Jaque Herzog وبيِّير دو مورون Pierre de Meuron الحائزَين على جائزة بريتزكر الهندسية Pritzker Architecture Prize سنة 2001م التي تعادل جائزة نوبل في مجالهما. وسَيُقَزِّم المدرج العملاق أشهر الأبنية التي صممها المهندسان، وهي قاعات الفن الحديث في متحف تات في لندن Tate Museum التي صممها المهندسان من وحدة قديمة لتوليد الكهرباء على نهر التيمز Thames. وقد شُبِّه المدرج، الذي سيكلف 500 مليون دولار ويتسع لثمانين ألف مشاهد، بعشٍّ عصفور ضخم، وبكتلة من المعكرونة. وتحيط به شبكة تعارضية من الفولاذ منحنية برشاقة ومفتوحة فوق مركزها لترسل شعاعاً من الضوء الأبيض فوق المدينة. إنه مشروع فريد يهدف إلى إعطاء بكين مظهراً عالمياً سابقاً لعصره. غير أنه ليس مشروع البناء الأكبر في بكين. فتلك المكارم ستكون في بناء المسرح الوطني، بكلفة 700 مليون دولار، الذي يصممه سوبرستار فرنسا المثير بول أندرو Paul Andreu. لقد صَمَّم مسرح بكين ليكون تجمعاً لمسارح ترقد تحت قبة هائلة من الزجاج والتيتانيوم. تجثم كلها فوق بحيرة اصطناعية فتعطي انطباعاً أنه مسرح عائم، وهناك درج متحرك في المدخل يَشعر رواد المسرح أنهم ينزلون تحت الماء.

أما المبنى الجديد لشبكة التلفزيون الوطنية الصينية فهو ربما كان العمل

http://www.ibtesama.com/vb

الهندسي الأكثر أثراً وشهرة في العالم. فهو برج ليس كالأبراج- إنه بناءان متصلان ببعضهما، يرتفعان 760 قدماً في الهواء على أرض مساحتها 5.7 مليون قدم مربع. لا يشير تصميم كولهاس Koolhaas إلى السماء وإنما يؤطره ضمن حلقة مستمرة حادة الزوايا من الزجاج والفولاذ. وقد صُمِّمَ المبنى ليذهل من يراه، ولا شك أنه سيفعل. وهو من أول الأبنية التي تقف في المكان الذي وقع عليه الاختيار ليكون أحدث مركز حضري في بكين- وسمي المنطقة التجارية المركزية الجديدة – وسينضم إليه ثلاثمئة بناء كبير آخر مع اقتراب أولمبياد 2008م.

وعندما زار روبرت آيفي Robert Ivy مدير آركِتِكْتشرال ريكورد Archi-tectural Record مجلة العمارة الأمريكية الأولى بكين، كان عليه أن يعيد تحديد مفهومه للممكن. قال آيفي، «إن الأرقام تجعل العقل لا يتردد. وإن ملايين الأقدام المربعة من البناء الجديد تجعل بكين أكثر مناطق البناء ازدحاماً على وجه البسيطة. حيث يُبْنى ألفا مبنى شاهق، في تركيز لهندسة العمارة، وتصميم مدن، يجعل برلين تبدو مقدمة فقط».

ومثلما هو حال شنغهاي، والمدن الصينية الأخرى، فإن فن العمارة المعاصر يعلو على أنقاض الماضي، وغالباً ما يكون ذلك نتيجة تدمير قسري. كانت جيرة بكين التقليدية، وأزقتها القديمة، تشكل معظم المساحة المأهولة من المدينة طيلة قرون عديدة. حتى يعود تاريخ بعض البيوت إلى سنة 1300م. وتبدو الأبنية من خارجها متاهات من الممرات، والبوابات، والأبواب. وتجد في الداخل تجمعات متزاحمة من البيوت، لمعظمها باحات داخلية.

وبينما يناضل المحافظون على التراث لإنقاذ المناطق القديمة، تجد سكان تلك الأزقة أنفسهم لا يطمحون إلا بالهرب من بيوتهم القديمة، الضيقة، الباردة، التي تعصف بها الرياح، ويعدونها بيوتاً خَرِبَة لا تتوفر فيها الشروط الصحية. وبينما تنطلق الأبنية الجديدة، يطلق منشئوها حشود الباعة إلى شوارع المدينة ومحطات الحافلات والقطارات. وتستضيف مراكز المؤتمرات المعارض العامة

http://www.ibtesama.com/vb

المجانية، وتتباهى بلياقة ممتلكاتها الجديدة. وينتشـــر الوكلاء بوجوههم المشرقة فـــي كل مكان، يلوحـــون بكتيبات دعائيـــة براقة عن المشـــاريع المقبلة، وخرائط للمناطـــق الجديدة المجاورة للمدينة حيث ســـيصل قطار الأنفـــاق قريباً، وصور مرســـومة بالكومبيوتر لداخل الأبنية: بيوت صينية حديثة أعطيت شـــكلاً مثالياً بنوافذ عريضة، وخطوط تلفزيون ســـلكي، وتدفئة، ومياه ساخنة، وتكييف هواء، وغســـالات، وبرادات، ومدافئ على الغاز، وزوايا جميلة مزينة بكنوز أثرية. وربما كان هناك في البناء ســـوبرماركت، وباحة صغيرة للعب التنس، ومكان للجدة كي تُمـــارس التاي تشـــي tai chi. وهناك وعد غير ملموس يأتـــي عند ترك جيرة قديمـــة. فالأبواب تقفل بحذر في البنايات العالية، وللشـــقق في بكين بابان من الفولاذ وثلاثة أقفال قوية.

ويصعـــب على أهالي بكين أن يروا حال بيوتهم القديمة في أحيائها الضيقة إن جُـــدِّدَت، كما حدث في المناطق القديمة فـــي أُوروبا، وبخاصة عندما يخضع المشـــترون المحتملـــون لفيض لا ينضب من الرســـائل التي تناديهـــم لهجر بكين القديمة. وربما أُنقذت بعض المناطق المجاورة القديمة، وإنما ســـيمحى معظمها. إذا أرادت بكين أن تتفوق على شنغهاي في حداثتها، أي إنها تريد أن تبزَّ طوكيو ونيويـــورك ولندن أيضاً. وأي مكان سيتســـع لبناء يضـــم دورة مياه عامة واحدة، وأكواخ عمرها سبعمئة سنة؟ كما يصعب على المدينة أن تقف في طريق المنشئين مـــن أصحاب المال، وبناة الطرق، ودوائر الحكومـــة التي تعمل على إزالة الأحياء القديمـــة. وبخلاف الدول الديمقراطية، ثمَّة عـــدد قليل من لجان المواطنين، أو الأعضاء الناشـــطين في مجالس المدينة، أو المحامين المستعدين للتدخل لحماية الأبنية القديمة.

ولعـــل الطريقة التي أُجبر بها الناس على إخـــلاء بيوتهم كانت أهم عندهم من الحفاظ على المباني القديمة التي أخرجوا منها: لقد تمت بســـرعة، وعنف، وأُعطوا تعويضاً زهيداً. وقد وصف لي يونج يان Li Yong Yan، وهو كاتب يقيم في

http://www.ibtesama.com/vb

بكين ويهتم باقتصاد الصين، طريقةَ تطوير المدن الصينية بأنها «Compitalist» أي مزيج من طريقة الحكم الشيوعية الرسمية المتحكمة وانتهازية اقتصاد السوق.

إن الصورة التي رسمها لي Li لتجديد المدن تجعل منشئ العقار التجاري الحقيقي يعرّف أبنية المدينة التي تستحق إعادة البناء، بأنها ربما تصلح لمجمع أسواق (مول)- ويحمل الفكرة إلى لجنة المناطق البلدية المحلية، حيث يحصل على رخصة استعمال الأرض مقابل إيجار. ولما كانت دولة الصين تملك كل الأرض، فإنها تحدد سُبُلَ استخدامها وثمنها.

وعندما يرضي المُنشئ المسؤولينَ، تأتي البلدوزرات بعد شهر واحد. وتعد الإنذارات، وتأتي فرق العاملين لترسم على الجدران دوائر كبيرة إشعاراً بأن الدمار وشيك. ويُعْرَضُ تعويضٌ تُحَدِّده الحكومة على سكان المنطقة، إنه تعويض غير قابل للتفاوض. يقول لي Li، ويُقطَع المياه بعد ذلك عن تلك الأحياء، وكذلك الكهرباء، ويأتي رجال أشداء ليجرجروا السكان عُنوةً. وإذا أخذ النزاع بُعداً خطيراً، تدخلت الشرطة إلى جانب الحكومة وعَمِلَت على إخلاء البيوت. يقول لي: «عندما كانت الصين تمارس الاشتراكية قلباً وقالباً في الماضي لم يكن ثَمَّة تطوير تجاري. أما الآن فإن تطوير العقارات التجارية ينتشر انتشار النار في الهشيم في جميع أرجاء البلاد. والحكومة تجبي بلايين الدولارات من إيجار الأرض. وقد سُدَّت جميعُ سُبُل التفاوض والمخارج القانونية في وجه «الصينيين القدامى» الذين لم يكونوا يوماً في قاعة المؤتمر، من أجل الحفاظ على الموارد.

لاتُنقل ملكية كل الأراضي من شخص إلى آخر بالحد الأدنى من اللباقة القانونية التي تعطي مهلة شهر. فقد أحصت الحكومة الصينية 160.000 حالة مصادرات احتيالية سنة 2003م، وقد تضاعف هذا رقم عن السنة السابقة، مع ارتفاع حرارة الحمى الاقتصادية في الصين. وربما ترى الصين لزاماً عليها أن تعيد تشكيل مدنها كي تستطيع المنافسة في الاقتصاد العالمي، ولكي تفوز في

http://www.ibtesama.com/vb

هذه المنافسة عليها أن تتخذ موقفاً شرساً ممن يعترض طريقها. وعليها أن تجعل الأشخاص المناسبين أغنياء.

لقد خَلَّفت ممارسات الاستيلاء على الأرض مقاومة لا يستهان بها جعلت الحكومة الصينية تتريث في الأمر. وقد أخذ الاحتجاج أحياناً شكل مسيرات جماعية. حيث تَجَمَّع عشرة آلاف متظاهر في بكين في صيف سنة 2004م. وفي بلد لا تتوانى عن عقاب المتظاهرين وأسرهم، أثار الاستيلاء على الأرض شكلاً آخر من الانشقاق بالانتحار على رؤوس الأشهاد. فيأتي كثير من المضطهدين إلى الأمكنة الشهيرة في بكين، مثل ساحة تينانمين Tinanmen Square والمدينة الممنوعة Forbidden City لإعلان تصريحاتهم الأخيرة. سار مزارع في الخامسة والأربعين من عمره اسمه زهاو شنجليانج Zhu Shengliang بهدوء في أيلول/ سبتمبر 2003م، إلى النقطة التي تلتقي فيها بوابات القصر الإمبراطوري القديم في الساحة، وجلس، مع زوجه، تحت الصورة الكبيرة لماو تسي تونج التي مازالت معلقة على جدران الحرس القديم وفي القاعات الكبيرة للحكومة الشيوعية، وفوق ضريحه، التي تصور ماو تسي تونج تعلو وجهه نصف ابتسامة. صب زهاو البنزين على نفسه ثم أضرم النار.

إن التضحية بالنفس عمل يائس يعبر عن احتجاج، وله معنى خاص في آسيا البوذية. تعرف العالم الغربي عليه في الستينيات أثناء حرب فيتنام عندما أضرم الكهنة النار في أنفسهم، ثم في الآونة الأخيرة في سنة 2001م عندما أقدم أحد الشيوخ من أتباع فالون جنج Falun Gong على إحراق نفسه قرب المكان الذي جلس فيه زهاو نفسه. إن التضحية بالنفس هي في التقاليد تضحية، يأمل الضحية فيها أن يحدث تغييراً عاماً للذين يعانون. وقد تكون رمزاً قوياً لفشل القيادة، وهي من ثم تضحية خطيرة. إن زهاو الذي بقي على قيد الحياة، رغم فظاعة بقائه، سافر إلى بكين من الريف في مقاطعة أنهوي Anhui ليحتج على إجبار أسرته على الإخلاء.

http://www.ibtesama.com/vb

كان هــذا التصــرف مصدر إلهــام المحتجين الريفيين الــذي عانوا مصيراً مماثلاً. ففي محاولة أخرى للانتحار في تشرين الأول/ أُكتوبر التالي، في العيد الوطني للصين، ألقى أحد مواطني بكين بنفســه من أعلى جســر مشهور داخل المدينــة المحظورة. حقق الرجلان بعض ما كانا يتطلعان إليه، ففي الأشــهر التي تلت، قــام متظاهرون من جميع أرجاء الصين بمســيرات يومية تقريباً في أكبر موجة احتجاج عام عرفتها الصين منذ احتجاجات ساحة تينانمين سنة 1989م. طالــب الجميــع التراجعَ عن الإخلاء القســري. وتتوقع جماعــة مراقبة حقوق الإنســان أن «تنظيف المواقع الجديدة في بكين لإقامة الأولمبياد ســتبقى نقطة الوميــض». وتفيد تقارير مراقبة حقوق الإنســان أن الحكومة اســتجابت، حتى الآن، بقسوة متوقعة، إذ اتُّخذَت إجراءات صارمة ضدَّ المتظاهرين، وسجنت كثيراً منهــم، ومنعت عدداً كبيراً من المحتجــين من ركوب القطارات المتجهة إلى بكين، وبلمسة مأساوية ساخرة أصبحت تعد انتحار المحتجين جريمة.

ويلبي الدمار في بكين متطلبات الهيبة الوطنية التي يمليها تسليط الأضواء على أولمبياد 2008م. أما بقية أرجاء الصين، حيث تبذل القيادة الوطنية جهوداً كبيرة لترسخ جديتها في رفع معاناة الناس العاديين، فتصطدم مصالح المسؤولين المحليــين، الذين يريدون حصتهم من الثروة والمجد، مــع برامج القيادة الوطنية في هذا المجال. وإن إجراءات مكافحة فســاد المســؤولين المحليين ضعيفة حتى أن فرصة وقوع المســؤولين المحليين في قبضة مكافحة الفساد لا تتجاوز واحداً في المئة. وقد تكون مكافأة المســؤولين المحليين مرتفعة. إذ يستطيع أولئك الذين يتمتعون بسلطة فسخ إيجار أرض تملكها الحكومة أن يتوقعوا استرداد نسبة من المبلغ تعادل 30 بالمئة مما يدفعه المنشئون للحكومة لاستخدام الأرض. وغالباً ما يدفع بالبيوت وسواها من أسباب الرفاهية إضافة إلى ذلك.

وقــد ألقى فو وينجوان Fu Wennjuan، نائب وزير الإنشــاء، اللوم على الحكومــات المحليــة في تدمير نصف المــدن الصينية ونقل ســكانها إلى أماكن

http://www.ibtesama.com/vb

أخرى، إذ قال لصحيفة تشاينا ديلي China Daily إن «بعض مشاريع الإسكان الإقليمية تجاوزت النمو الاقتصادي المحلي وطلبات المحليين أيضاً». ولم تستعمل بعض المنشآت العامة في المدن نتيجة لذلك، وذهبت الأرض وذهب المال الذي أنفق هباء منثوراً. وتحرض المشكلات السلطات المحلية التي تقترض المال لأعمال البناء تلك.. بما يؤذي صدق المجتمع برمته».

وأبدت الصين فيما مضى استعداداً لتحمل أي استياء تثيره خططها للتجديد لبناء سد المضائق الثلاثة Three Gorges Dam، وستضطر الحكومة الصينية إلى نقل حوالي مليوني شخص ريفي ومدني على حد سواء. وقد قابلت الشرطةُ وقوات الجيش الشعبي الأفرادَ والجماعات الذين احتجوا على بناء السد بشدة. فتمية الصين، ومصير أولئك الذين يحرضونها، تعتمد كثيراً على تحرير قيمة الأرض الموجودة تحت بيوت مواطنيها، بما يسمح للمظلومين أن يقفوا عقبة أمام المستقبل. وعندما يتنافس العالم مع الحضور الصاعد لمدن الصين وقوة الآلة الصناعية لمدنها، فإنه يتنافس مع حكومة تستطيع أن تقود الحداثة بكل ضراوة.

أما الفوائد التي يجنيها الشعب الصيني فقد تسوغ طرح الحكومة، أو تبرر إدانتها. فمهما يكن من صالح للصين، فإنه يجدر بمنافسي الصين أن يأخذوا في اعتبارهم الاتجاه الذي يتخذه لاعب عالمي يدعم تصميمه العنيد على التقدم بقبضة من حديد. كما يجدر بالمنافسين أن يأخذوا في اعتبارهم أن التطبيق الفوضوي للديموقراطية المتأنية - حيث المساومة تبطئ وربما توقف مشاريع تسمح أنظمة قوية الإرادة بتقدمها - حري به أن يعزز أو يفت من عضد القوة التجارية للمدن الأكثر انفتاحاً.

مزيد من العصير من فضلك

لا يغير تجديد الصين مظهر المدن على طول الشاطئ الشرقي، وفي مراكز مدنية داخلية مختارة تفضلها الصناعة والمنشئون فحسب، وإنما يغير طريقة استغلالها لطاقة الكوكب.

http://www.ibtesama.com/vb

إنك عندما تتجول في نانتونج Nantong، وهي مدينة تضم 7.5 مليون نسمة، ولا تحمل إلا القليل من بريق شنغهاي، أو بهاء بكين، أو ازدحام وينزهاو، لا بد لك أن تذهب إلى المخازن الكبرى في وسط المدينة. تجد هناك باعة في قسم الأجهزة الإلكترونية المحموم، حيث تباع مكيفات الهواء، والسخانات المنزلية، يقودون الزبائن إلى قسم كامل لسخانات الماء بالطاقة الشمسية التي توضع على سطوح المنازل.

وتبدو السخانات كصفوف من مصابيح فلورسنت، مُلأت بالماء بدل الغاز. وتدفئ الشمسُ الماءَ في الزجاج، بما يخفف معظم الثقل الذي يحمله سخان الماء الكهربائي المنزلي. وإن الأجهزة المعروضة في المخزن هي إرث تكنولوجي صَمَّمَه علماء تكنولوجيين صينيين سنة 1978م في جامعة كنجهوا Qinghua في بكين وأنتجتها شركة أحدثتها الجامعة في أواخر الثمانينات اسمها شركة تسنجهوا سولار Tsinghua Solar Co. وأصبحت الصين أكبر مستعمل للطاقة الشمسية لأغراض منزلية في العالم، لكن معظم الاستعمالات هي تطبيقات بارعة لتقنية منخفضة، كسخانات المياه، لا تعتمد على خلايا كهربائية ضوئية أو عمليات معقدة لتركيز الطاقة الشمسية وتحويلها إلى كهرباء.

ويزدهر الآن استخدام تسخين الماء والتدفئة بالطاقة الشمسية. فالسخانات توفر المال، وتَحِلّ مَحَلَّ الكهرباء في المدن الجديدة التي تُحَمّلها ما لا تطيقها فتضطر إلى تقنين الكهرباء أو في فترات. لقد تقدمت النهضة الصناعية في الصين، والتحول إلى الإسكان الحديث والأجهزة التي ترافقه، بخطوات سريعة فاقت قدرة البلاد على توليد الطاقة الكهربائية، فصارت البلاد تعاني من تعتيم وتخفيف في الإنارة، بتخطيط و بدون تخطيط. ونقلت جوانزهاو ومدن أخرى، أثناء أزمة طويلة سنة 2004م، مئات ألوف العمال للعمل في نوبات ليلية تلبية للطلب على الكهرباء خلال ساعات النهار. كما تلقت الشركات التجارية في شنغهاي تعليمات بإرسال العمال إلى بيوتهم عندما ترتفع درجات الحرارة فوق خمس وتسعين درجة فرنهايت.

http://www.ibtesama.com/vb

ولا تملك الصين الآن أكثر من 80 بالمئة من الطاقة التي تلزمها لتسير سيراً مقبولاً. وتضطر بعض المواقع إلى الاستغناء عن الكهرباء يوماً أو يومين. كما يمكن تخفيف بعض الصعاب باللجوء إلى التكنولوجية البسيطة كسخانات الطاقة الشمسية. وإن قسم التسخين بالطاقة الشمسية في مخزن كبير يعج بأنظمة من مختلف المصانع. ويتطلب سوق الصين أجهزة تستطيع مصانع الصين إنتاجها بأسعار منافسة. وقد باعت شركة تسنجهوا سولار سخانات بقيمة 370 مليون دولار في السنة مع حلول سنة 2000م، وقد وجدت نفسها تنافس خمسة وثلاثين شركة أخرى سرقت تصميماتها وصنعت مايماثلها في مصانعها.

سحب مؤذية تملأ الأفق

يعد نقص الكهرباء كارثة وطنية طارئة. وإن زيادة استعمال مصادر الطاقة - كنتيجة مباشرة لتحول الصين نحو المدن والتصنيع - يسبب للعالم ورطة أيضاً. فالتلوث، الذي كان خطراً عالمياً قبل إصلاحات الصين الاقتصادية، تفاقم خطره بدخول مئات ملايين العمال إلى المصانع، وسيارات، وبيوت جديدة. ولا يمكن الفصل بين إسهام الصين في تعتيم الكوكب وبين ما تطمح إليه مدنها، التي تعد المصدر الأسوأ للتلوث. وقد عرف العالم مع سقوط الستار الحديدي أن الاقتصاديات الشيوعية غير الفعالة تحمل أخطارها الخاصة إلى البيئة العالمية. فقد خَلَّفَت الحكومات الحمراء جُلَّ أوروبا الشرقية في دمار قاتم. وثمة كتلة تنمو من باحثين متخصصين تبحث في سياسات الصين البيئية المرعبة تحت تأثير ماو والجيل الأول من القادة الشيوعيين. ولو تركت الصين الحمراء لأساليبها القديمة لما كانت بصمتها البيئية على العالم أفضل مما يخلفه اقتصادها الذي يتَّجه إلى السوق اليوم. غير أن القذارة التي تلفظها تنمية الصين تضيف أبخرة جديدة متزايدة من الهواء والماء السيئين في عالم يزداد تَلَوُّثاً.

http://www.ibtesama.com/vb

ومازال متوسط استهلاك الفرد للطاقة في الصين أقل كثيراً من استهلاك سكان أوفر حظاً في دول أكثر تحولاً نحو الصناعة والديمقراطية. وقصة الصين، تعتمد على عدد سكانها الكبير، وسرعة نموها الاقتصادي. ففي مدن الصين أكبر شهية للفولاذ في العالم، وأسرع سوق سيارات نمواً، ونَهَم إلى الإسمنت لا يبدو له نهاية. وإن صناعة الفولاذ والسيارات من الصناعات الأكثر تكثيفاً للطاقة.

تعد صناعة الإسمنت أكثر الصناعات التي تطلق غاز ثاني أكسيد الكربون في الجو، الذي يسهم على حد سواء مع البيوت الزجاجية بتسخين الكوكب، كما تمتصه بكميات كبيرة كتل المياه الكبيرة في العالم، حيث يهدد ثاني أكسيد الكربون الحياة المائية. وأصدر الصليب الأحمر الدولي، في خطوة غير عادية، تحذيراً إلى الصين من آثار التلوث الذي يسببه تحولها إلى الحياة في المدن. وجاء التحذير بعد مؤشرات مقلقة صدرت عن الحكومة الصينية. كان أولها مقال افتتاحي في صحيفة الشعب اليومية People's Daily حث الصين على إيجاد سبل لتحويل مئات ملايين المزارعين إلى أماكن سكنية مدنية «بالسرعة الممكنة». وجاء المؤشر الثاني في بحث أصدره حماة البيئة الصينية، لم يجد مدينة واحدة بين مدن الصين الكبرى التي يصل عددها إلى 340 مدينة، تلبي شروط الهواء الجيد، قياساً بكمية ثاني أكسيد الكبريت الضار في جوها المحلي. وبينت الدراسة أن حوالي مئتي مدينة منها ينطبق عليها معيار التلوث العالي الخطير.

وثمة مقياس آخر لتلوث الهواء هو مستوى المادة الدقيقة العالقة، نتيجة الدخان، والسخام، والسقط الناتج عن احتراق الوقود في الهواء. ويبلغ مستوى المواد العالقة في هواء المدن الثلاث الكبرى في الصين ثلاثة أضعاف ما تعده منظمة الصحة العالمية سليماً، وإن سبع مدن من المدن العشر التي تعدها منظمة الصحة العالمية أكثر تلوثاً في العالم موجودة في الصين.

وإن الارتفاع الأخير الحاد للتلوث مثال مزعج على المأزق الذي تسببه التنمية للصين وللعالم. فقد سمِّيت الحداثة «صفقة مع الشيطان» منذ مجيء آلة الغزل،

http://www.ibtesama.com/vb

لأنهـا تفرض مقايضة بـين المزايا والتكاليـف. وإن اسـتعمال الطاقة هو أكثر الخيارات بغضاً، وهذا أقل ما يقال في ذلك. ومنذ سـنوات فقط، كانت الصين تبدو كأنها قد صَمَّمَت على معالجة التلوث الأسوأ فيها. فتَحَسَّن الهواء من سنة 1998م إلى 2002م، اعتماداً على سياسـة الحكومة، ودفاع الأُلوف من جماعات البيئة الجديدة في الصين، ومن الاتجاه العام الواعي للتصنيع، الذي يصبح أكثر نظافـة مع مرور الوقت ومع ازدهار الاقتصاد. (ومثال ذلك شـنغهاي). لقد كان نمو الصين أسـرع من حملة التنظيف الوطني، إذ ارتفع الطلب على الكهرباء في الصين بمعدل 15 بالمئة. وإن جوع الصين للطاقة، وإن تناقص عما كان من قبل، سيتطلب قدراً هائلاً من توليد الطاقة في المستقبل. فقد لبت البلاد، حتى الآن، الحاجة إلى مزيد من الطاقة بتشـغيل وحدات توليد الطاقة التي تعمل بالفحم، وتسـتخدم فحم الصين الطري، ذا الدرجة المنخفضة، والكبريت العالي، وهو من أقـذر أنواع الوقود. هذه الوحدات، وهي لـبّ البنية التحتية للطاقة في الصين، ويُستبعد أن تُزال أو تَتَغير أساليبها قريباً.

«عليّ أن آتي بزوجي إلى الصين»

تنغمـس الصين فـي أكبر اندفاع لبناء وحدات طاقـة عرفه التاريخ. وتمتد الخطط في عمق المسـتقبل وتمتص في اندفاعها مقـداراً هائلاً من المال. فقد استثمرت الصين سـنة 2004م أربعة وعشرين بليون دولار في مولدات جديدة. وبحسـاب صحيفة الجارديان Guardian البريطانية تضيف الصين ما يعادل استطاعة بريطانية الكهربائية كلها كل سـنتين. وهذا يعني أن الصين ستحتاج قدرات صناعة الطاقة في الولايات المتحدة في أقل تقدير.

وسـتعطي الحكومة الصينية حصة الأسد من بناء وحدات الطاقة لشركات صينية، غير أن أهداف الصين كبيرة حتى إن الشركات الأجنبية تقطف ثمار نمو قطاع الطاقة في الصين أيضاً. فشـركات البناء الصناعية [الأمريكية] الكبرى،

http://www.ibtesama.com/vb

مثل بِكْتِل Bechtel مشغولة منذ الآن ببناء الوحدات. والمؤسسات الدولية ناشطة أيضاً. فشركة إيه إي إس AES الأمريكية الكبرى تدير خمس وحدات طاقة في الصين، ومنها أكبر الشركات في البلاد. وتبيع شركةُ جنرال إلِكتريك General Electric الصينيينَ العنفات العملاقة وسواها من المعدات والخدمات؛ ففي سنة 2003م أنجزت أعمالاً في البلاد تزيد قيمتها على بليون دولار. وحصلت شركة ميتسوبيشي Mitsubishi Heavy Industries على عقود كبيرة لتزويد الوحدات بعنفات، بينما تزود شركة سيمنس Siemens الألمانية وحدات الفحم بالتكنولوجية الأساسية. فالأسعار المحددة باهظة وتمثل نوعاً من سلع غالية الثمن، وتجارة التكنولوجية العالية التي تأمل أمريكا وأوروبا واليابان أن تقبل الصين عليها. وليس ثمَّة ما يحرّك المسؤولين عن رؤوس الأموال العالمية أسرع من فرصة إقحام شركاتهم الكبرى في تنمية المدن الصينية. فالتحول المدني في الصين هو الموضع الذي تلتقي عنده أحلام مساهمي جنرال إلِكتريك وعمال الصين المهاجرين.

وتذهب حشود من الشركات الدولية الأصغر إلى سوق الصين، وهي شركات ليس لها ميزانيات ضخمة ولاتقف وراءها حكومات تدعمها. وتهدئ الصين قلق الأُوروبيين والأمريكيين بأن تتيح لهم فرص بيع في سوق ينمو حقاً. فقد منعت حكوماتهم بناء وحدات جديدة للطاقة منذ أمد بعيد، فصار إيجاد موقع لوحدة جديدة من رابع المستحيلات في ضوء أنظمة البيئية. وعندما يقع الاختيار على موقع، تهب المجتمعات بضراوة ضد شركة الطاقة التي اقترحت بناءه. أما الشركات التي تصنع القطع التي تستعمل في وحدات الطاقة فإنها في معظم حالاتها قطع لمشروعات قديمة تمت عندما كانت اقتصادياتهم المحلية في أوج ازدهار بناء وحدات الطاقة، وتعمل الآن لصنع قطع غيار، أو لصنع تكنولوجية مبتكرة تستطيع أن تنسجم مع نظام قديم. تتألف شركة كلايد بِرجمن Clyde Bergmann من شبكة من المصانع الصغيرة والمكاتب في أوروبا والولايات

http://www.ibtesama.com/vb

المتحـــدة، وأخيراً في الصين، تصنع وتقدم الخدمــات لبعض المعدات التي تبدو عاديــة في وحدة طاقــة، مثل أنظمة تنظيف المرجل. فوحــدات الطاقة لا تعمل دون منظفــين، وإذا كان المنظفون من ســوية ضعيفة، فــإن المراجل تصير أقذر. ويديــر مكتب الصين مهندس محلي واحد، وفي يــوم معين قد يكون موعد لقاء رجال المبيعات والمهندســين القادمين من مصانع الشركة في استونية Estonia، والولايات المتحدة، والمملكة المتحدة، وألمانيا.

وعندما يُحَدِّث ستيفن وِنكِل Steven Winkle زملاءَه، وهوأحدُ التنفيذيين الزائرين من منشــأة الشركة في أتْلَنْتا ومن المولعين بالصين، فإنه لا يستطيع أن يُخفي حماســته لفرصة الســوق الهائلة القادمة. ويقول: «أحب هذا البلد كثيراً، إنه مكان مثير. لقد أحضرت زوجتي لكي تراه».

يســتطيع وِنــكِل ومجموعة كلايد بِرجــمَن أن يبقوا في الصــين طالما بقيت نفقاتهم منخفضة. إنهم يتفادون الفنادق الغالية ذات الطراز الغربي، ويســتعملون طاولات تُطوى كأثاث لمكاتبهم. وكان مكتب الشركة في الصين منذ سنة خَلت، في بناء لا تدفئة فيه. ويقول عن شــركته الأم: «إن لمغامرة شــركتنا مشكلة مع النمو، والصين تبني نصف الوحدات التي تعمل بالفحم في العالم». ويدرس وِنكِل المشهد الاقتصادي في الصين ويدرك حاجة حكومة الصين المُلِحَّة إلى التوسع في التنمية باتجاه الغرب. ويقول: «ســوف يَبني الصينيون مدنــاً كاملةً جديدةً حول محطات الطاقــة الجديدة التي تطورها». وســوف يقيمون مراكــز صناعية في قرى كانت نائمة، إن اســتطاعوا تأمين الطاقة اللازمة لها. ويقول وِنكِل: إن شركته قد نقلت بعض صناعاتها إلى الصين، حيث وجد عمالاً شباباً مهرة، تَدَرَّبوا على التكنولوجية الصناعية القديمة، يصعب أن يجدهم في مصانع الشركة في أوروبا والغرب.

غير أن ســوق الطاقة الصيني ليس كله فرصاً. فقــد قيل إن قطاع الطاقة في الصين «من أكبر مقابر الاســتثمارات الأجنبية في الصين». وتشير الخدمات التجارية الأمريكية The U. S. Commercial Service، وهي الهيئة الحكومية

http://www.ibtesama.com/vb

التي ترعى الأعمال التجارية الأمريكية في الخارج، إلى أن الصفقات الكبيرة بين المشغلين الأجانب لمحطات الطاقة وسلطات الطاقة المحلية تسير سيراً سيئاً. وتقول الهيئة محذرة الشركات - سواء أكانت مثل جنرال إلكتريك GE أم كلايد برجمن، أن عليها أن تتوقع ضغطاً لِنَقل تكنولوجيتها إلى الصين فتقيم بذلك تنافسها الخاص داخل البلد. وكما في صناعات أخرى يستعمل الصينيون جزرة أسواقهم الواسعة، والوعود المغرية لانتزاع تنازلات من الشركات الأجنبية تعزز بناء قوة الصين الصناعية. وهذه سياسة تستحق إعجاباً تُحسَد عليه، لِسِجِلها الطويل في النجاح، عندما ينظر إليه من زاوية الصين. أما توليد الطاقة، فإن كلفة طموح الصين قد تشتد وطأته على شعبها وعلى العالم. فإذا بقي المصنعون الأجانب، رُوّاد حلول صديقة للبيئة في صناعة الطاقة، خارج الصين خشية أن يسرق المنافسون الصينيون تكنولوجيتهم، فلن تنشئ الصين البنية التحتية النظيفة للطاقة التي يريد لها العالم أن تحصل عليها.

وإن كلفة الطاقة القذرة لسكان المدن الصينية هي أنهم يموتون شباباً. حيث يقدر أن أربعمئة ألف شخص يموتون كل سنة بإصابتهم بأمراض القلب والرئتين التي يُسَبِّبُها تلوث الهواء. وإن الكلفة التي يتحملها الريف الصيني لتلوث المدن عالية؛ فالأمطار الحامضية تهطل فوق 30 بالمئة من الأراضي. وقد انتشرت إلى بلدان أخرى من شرق آسية. ويشير أخصائي في الطاقة في مصرف التنمية الآسيوي Asian Development Bank إلى أن الصين قد تكون مصدر 40 بالمئة من تلوث الهواء في اليابان وكورية الجنوبية. فاليابان التي عانت من مطر الصين الحامضي جيلاً كاملاً، تدفع للصين مالاً لتنظيف وحدات الطاقة الخاصة بها. وقدمت اليابان بين سنة 1997م وسنة 2002م قروضاً بلغت 3،1 بليون دولار لمشاريع بيئية في الصين.

ويرحل التلوث الصيني بأشكال أخرى أيضاً. حيث يرحل مزيج من الضباب والدخان smog الذي تنقله الرياح، ويعرف بالسحابة البُنيَّة الآسيوية، فوق

http://www.ibtesama.com/vb

نانتونج Nantong ومدن أخرى على الشاطئ الشرقي، ليَحمِلها، على نحو مَرئي إلى الشاطئ الغربي لأمريكا، التيار النفاث السريع، وتقاس الملوثات الصينية عبر البلاد. وتغير السحابة البنية أنماط المناخ العالمي. ويرى العلماء الآن أنها ربما كانت تخفف المطر على امتداد غابات واشنطن وأُرِجن Oregon حتى مزارع الغرب الأوسط Midwest.

وبخلاف شنغهاي وبكين، لم تزدحم شوارع نانتونج الرئيسة بالسيارات، غير أنها ما زالت تعج بالدراجات العادية والنارية. فتتراكم أمام المخازن الكبرى ألوف الدراجات من الطراز الإنكليزي الكلاسيكي القديم باللونين الرمادي، والأخضر الذي رآه الأمريكيون آخر مرة في وداعاً يا سيد تشِبسGoodbye Mr. Chips. وقد حلّ الزمن ورمل الطرقات محل أي بريق كان للدراجات في منظومة العجلتين أيام المساواة الكئيبة في عهد ماو. وبرغم أنها لا تشير إلى أي بعد إيديولوجي. وتكلف الدراجة المستعملة التي ما زالت بوضع جيد 10 دولارات في نانتونج، وإن قلة من أصحاب الدراجات يغامرون بترك دراجة ملونة حديثة بين حشد الدراجات العادية، فلابد أنهم سيفقدونها.

وسوف يتوقف أهالي نانتونج عن القلق من فقدان دراجاتهم في وسط المدينة قريباً. فالمدنية تسارع إلى بناء الشوارع والطرقات الدولية التي تحتاج إليها لتلبية حاجة الحضور المتزاسد من السيارات والشاحنات. وإن نانتونج، التي تؤوي أيضاً موانئ الصين الأولى على المحيط، تدرك أنها تدور في فلك شنغهاي، التي تبعد عنها مسافة نصف يوم إلى الجنوب. وتنوي نانتونج أن تجهز نفسها لتليق بالمدينة الأكبر، ولا ترغب شنغهاي في أكثر من ذلك. فنانتونج تستطيع أن تستوعب دخان المصانع التي تحتاج موطناً آخر. وليس أمام المدن المجاورة، مثل نانتونج، إلا أن تستفيد غير أنها تريد أن تعطي نفسها شكلاً جديداً. وسيكون راكبو الدراجات والدراجات النارية أول من يعاني من ذلك.

وإذا كانت المدن الأخرى هي القدوة، فإن نانتونج سوف تمنع التنقل على عجلتين في معظم شوارعها. وسيضع هذا المدينة على خط ينسجم مع سياسات

http://www.ibtesama.com/vb

الصين الوطنية التي تشجع الناس على نحو متزايد لاقتناء السيارات، وتدعم بذلك صناعة تعتمد عليها تطلعات البلاد الصناعية الواسعة.

وتمضي تنمية الصين سريعة أكثر من قدرتها على تأسيس نظام بيئي فعال وإدارته. ولما كانت الصين عاجزة عن التحكم بملوثاتها الخاصة، فإن خير ما يستطيع العالم أن يرجوه هو التوصل إلى اتفاق دولي يضبط التلوث في كل مكان – ودون ذلك [خرط القتاد]، غير أنه ضرورة قصوى في ضوء قدرة الصين الكامنة على إفساد الكوكب.

قوة التنّين

أثبتت السيارات أنها نعمة مختلطة في مدن الصين والعالم. فسرعان ما انبثقت صناعة السيارات في الصين بين أكثر أنواع الأعمال إثارة، فكانت مقامرة على مستوى عالمي. وتستحق نظرة أدق في مكان آخر من هذا الكتاب، غير أن أي بحث في المدن الصينية لا بد أن يتطرق إلى دور السيارات.

وكان لدخول ثقافة السيارة إلى المدن الصينية بصورتها الأوسع، تبعات حيثما كانت تسير السيارات. فبائعو النِّفط في العالم لا يحتاجون إلى انقطاعات كبيرة في قواعد زبائنهم أو إمداداتهم ليسجلوا تغييراً هائلاً في الأسعار. وقد أدت تغيرات بسيطة في العرض والطلب فيما مضى، كارتفاع لا يتجاوز 5 % في الطلب على النفط المصفّى، إلى ارتفاع كبير في الأسعار في العالم تجاوز 30 %. ورافق التحول إلى المدن مع الإقبال الشديد على السيارات، فالمدن تنشئ الطبقة الوسطى التي تستطيع اقتناء سيارات. فيجعل ذلك الازدهارُ الصينَ عميلاً رئيساً في أسواق نفط العالم، وقد كان شراؤه أحد العوامل الرئيسة في رفع أسعار النِّفط سنة 2004م إلى أعلى مستوى وصله في حينه، وهو 55 دولار للبرميل في تشرين الأول / أكتوبر 2004م. ورافقت نسبة نمو الصين التي تجاوزت 9% مع الحاجة إلى مليون برميل من النفط يومياً في الشهور التسعة الأولى من السنة.

http://www.ibtesama.com/vb

وأنزل، في ذلك الوقت، ما يزيد على أربعة عشر ألف سيارة جديدة إلى طرقات الصين في كل يوم.

تعيش سـيارات الصين ومنتجو الكهرباء المتعطشـون فيها تحت السيف ذاته. فعندما تعجز وحـدات الفحم الكبيرة عن تلبية حاجات الصناعات، تعمل وحدات أصغر تعمل على النِّفـط لتملأ الفراغ. وقد وجدت المصانع في الآونة الأخيرة أن خير وسيلة تقيهم التقنين هي بناء مُوَلدات الطاقة في مواقعهم، تعمل على الغاز أو الديزل. يتوقع آندي زي Andy Xie من مورجان سـتانلي Morgan Stanley أن أسـعار النفط العالمية ستخضع لطلب الصين للنفط في السنين القادمة. وإن قِلّة من المحللين يرون في الآثار بعيدة المدى لتحول الصين إلى السيارات أيَّ شيءٍ سوى ارتفاع الأسعار.

وصارت السيارات في مدن الصين مصدر التلوث الأول في البلاد. فسيارات الصـين تُلوِّث أكثر مما تلوِّث أي سـيارات أخرى في أي مـكان آخر من العالم، لأن قانـون الصين يحدد قواعد للتلوث أضعـف كثيراً مما تحدده قوانين أوروبا والولايـات المتحدة. فتقول مجلة ذا فار إيسـترن ايكونوميـك ريفيو The Far Eastern Economic Review إن وزارة الخارجيـة الأمريكيـة لن تسـمح للدبلوماسيين الذين يعاني أفراد أسرهم من الربو بالعمل في مدن الصين.

وتعد الحكومة المركزية الصينية بأنها سـتفرض في المسـتقبل قواعد أشد في التلوث، غير أن ذلك الوعد سـيعتمد على اسـتعداد الحكومات المحلية للعب دور الشـرطي، وذلك أمر بعيد الاحتمال. وحتى إن لاقت القواعد المشددة قبولاً، فإن اندفاع الصين في اسـتعمال السيارات في العقدين القادمين سيجعلها ملوثاً مثـل الولايـات المتحدة. ولا بد للعالم خارج الصـين أن يتعامل مع ذلك، بصرف النظر عما تفعله الصين لتنظف عملها. فتَقَدّم الصين مرتبط الآن ارتباطاً وثيقاً بالسيارات، التي تعد أساساً في تنمية الصين، وهذا حق.

http://www.ibtesama.com/vb

جنود الطرقات

يأخذ الظهورُ المفاجئ لثقافة السيارات في الصين الغرباءَ – وحتى الصينيين أنفسهم – على حين غرّة. ونستطيع عَدَّ السيارة في الصين وليدة التنافس الكبير بين مدن البلاد. فذلك السباق، قبل أي شيء آخر، هو اندفاع إلى بناء بنية تحتية، ليس أقلها بناء شبكة طرقات يسلكها عدد السيارات المتزايد في الصين، الذي يدخل إلى الساحة لأن الصين كررت في كل مكان، بأعداد كبيرة، وعلى مستوى أوسع، البنية التحتية للمدن الأمريكية الحديثة الكبرى، على الرغم من أنها تَمَّت بمواصفات صينية.

فمن أين أتى كل ذلك؟ تبدو الطرقات الرئيسة في الصين أفضل من الطرقات الألمانية (الأوتوبان)، وبخاصة في الليل. فالطرقات ذات الإنارة الساطعة الخارجة من شنغهاي باتجاه سوزهاو Suzhou ترتفع عالية على طول معابر مرتفعة تنطلق باتجاه السماء حاملة السيارات فوق حركة السير المتمهلة التي تجري في عدة أدوار في الأسفل. ولا يقدم الطريق السريع حلاً يذكر خلال ساعات ازدحام الذروة الطويلة في المدينة، غير أنه يختصر الوقت ويقدم إطلالة مباشرة على المدينة ذات الأبنية العالية. وعند زحف ضوء النهار على الحواف المزدحمة للمدينة، تتراجع النُّصُب التذكارية أمام ألوف الأبراج غير المميزة المستقاة من المخططات نفسها، تلك التي تسمح ببناء هذه الأبراج بأسرع وقت. وتُبنى الأبراج أصلاً من الإسمنت وأنابيب الفولاذ، منتظمة بصفوف من الأنواع نفسها من النوافذ ومكيفات الهواء الصغيرة. أما في الأبنية الأقدم قليلاً فالنوافذ ترشح – ويقول الصينيون إنها «تبكي» – ومكيفات الهواء تقطر باستمرار، مخلفة خطوطاً غير منتظمة حمراء، وسوداء، وبينية، وخضراء على الوجه الخارجي للبناء. أما الأبنية العالية الأكثر قدماً، وهي مشاريع إسكان كبيرة تُؤوي المُسِنّين والمصروفين من العمل في شقق صغيرة تحوي غرفتي نوم وتؤجر بمبلغ يتراوح بين 12 و20 دولار في الشهر، تنضح جدرانها بكميات من المواد المعدنية تجعلها أشبه بمواقع جيولوجية.

http://www.ibtesama.com/vb

وتختفي هذه التفاصيل في الليل، وعندما تعمل الشبكة الكهربائية بكامل طاقتها، فَتُغَيِّر جميع أجزاء شـنغهاي، حتى القاتمة منها، إلى خليط من البريق الأبيض من نوافذ الأبنية والألوان المشـعة يخطف الأبصار، تلك التي تزرعها لافتات النيون في عتمة الليل. ويجري شـريط من الضوء الأزرق اللازوردي على أُفق المدينة، ويقطع الظلمة مثل قلادة متوهجة، أما الطريق السـريع فيكون هادئاً. ويتحَوَّل ليل شنغهاي إلى شـكل صُوَر التقطت بتعريض الفيلم طويلاً **long exposure** لمشـاهد مدنية تجعـل المدن المصورة في مجلة ناشُـنال جيوجرافيك National Geographic تبدو كأنها تتحرك بسرعة تزيغ البصر.

وليس ثَمَّة شـك في أن السـيارات والقطارات ليست الوحيدة التي تتحرك سـريعة؛ فالحكومات المحلية، والمنشـئون، وفرق بناء الطرق الرئيسـة كلها على هذه الشـاكلة. وإن الطرق الرئيسة داخل شنغهاي وخارجها، التي نُفِّذَت بمعدات بنـاء ألمانيا وإسـمنت عالي الجودة أُعد لِتَحَمُّل مواصـلات الصين المتزايدة، ما تكاد تُنجَز حتى تبدأ غيرها. لقد زاد عدد السـيارات بسـرعة كبيرة على بعض الطرقات، حتى إن مساراتها سرعان ما تضاعفت إلى ثمانية. وربما كانت تزداد أكثر لو استطاع المهندسون ابتكار طريقة لتوسيعها أكثر، غير أن أبعاد الطرق قد مُددت إلى أقصى حدودها.

إن الحل الطبيعي للطرقات شديدة الازدحام هو بناء طرق رافدة. فالصين لا تعاني من مشكلة في تصور طرق سريعة جديدة وبنائها. فقد وضعت الآن خطط لتوسـيع شـبكة الطرق في الصين كلها سـتضيف، عملياً، معادلاً لنظام الطرق الرئيسة بين الولايات الأمريكية كلها.

ولا يسـع العقل إلا أن يذهل، ولِبُرهَة فقط، فإنْ نَظر المرءُ نَظرةً مُتَّزنة وفَكَّر في الأمر، وجد أن ضخامة عدد سـكان الصين، والآمـال التي تزكيها الصناعة في المناطق النامية من البلاد، وأمل الحكومة الصينية وجميع شركات السيارات الكبرى في العالم أن يشتري الصينيون مئات ملايين السيارات، لا يفي بحاجاتها حجم الطرق كالشبكة التي في الولايات المتحدة.

http://www.ibtesama.com/vb

ونجد، بحسب سير الأعمال العامة في كل مكان في العالم تقريباً، أن الطرقات شديدة الازدحام ستدفع الحكومات إلى التفكير في مواقع تبني عليها طرقات تريح حركة المواصلات. والأمر ليس بهذه البساطة في الصين. فكل شِبْرٍ من الطرقات السريعة الجديدة في شرقي الصين هو عمل تجاري، تملكه الحكومة – سواء أكانت حكومة محلية أم مقاطعة – وتؤجره لشركة من شركات القطاع الخاص، التي تستثمره بفرض رسم على المركبات التي تسلكه. وبين الذين يوافقون على بناء طرق رئيسة والذين يديرون أكشاك دفع الرسوم مجموعة من مسؤولين، ومخططين، ومنفذين، وممولين، وشركات هندسية، وشركات بناء مختلفة، جميعهم يرجون ربحاً وفيراً. فالطرقات السريعة تشغل موقعاً يشبه النفع العام، تقدم فيه الحكومة المعنية احتكاراً لمن يقدم تلك الخدمة، وهذا يعيد المال – في الولايات المتحدة بخاصة – إلى الحكومة على شكل ضرائب. إن نقطة الاختلاف هي أن الطرقات الصينية السريعة شركات احتكارية أيضاً، مثلما كانت ستاندارد أويل Standard Oil شركة احتكارية من قبل. وإن دوافع أصحاب المصالح فيها قوية لضمان عدم وجود منافس حقيقي لطرقاتهم، حيث تؤدي شبكات طرق موازية إلى انخفاض الرسوم التي تُجبى.

غير أن المنافسة آتية في كل حال. ولا تكون المنافسة مباشرة، وإنما تأتي من طرق تُبْنى في مناطق أخرى تطمح إلى بنية تحتية حديثة ومنافسة، وأرباح خاصة لها. وكانت مقاطعة زيجيانغZhejiang Province رائدة هذا النظام، يدفعها اليأس الذي دفع مواطني المقاطعة إلى شق طريقهم بنجاح نحو القطاع الخاص. ولما كانت الحكومة المركزية لا تقدم المال اللازم لبناء الطرق التي تحتاج إليها تجارتهم الوليدة، فقد طرحت حكومة المقاطعة فكرة بناء طرقات بمال يجمع من سوق الأوراق المالية في هونج كونج، ويكون لكل طريق شركته الخاصة، وتسدد بطريقتها الخاصة. وتعمل الشركات المسؤولة عن الطرق كشركات خاصة يكون للمقاطعة حصة كبيرة فيها.

http://www.ibtesama.com/vb

ونجحت الخطة، وأصبحت طرقات زيجيانج أمراً مهماً لمستثمري العالم، وليس للمستثمرين الصينيين فحسب، وإنما للمؤسسات الكبيرة وصناديق الاستثمار الأغنى في العالم. وأثبت برنامج بناء الطرق في زيجيانج نجاحاً مع مرور السنين، حتى إن الطرقات الرئيسة في المقاطعة لم تكلف مواطنيها شيئاً من المال العام. بل كسبت زيجيانج 30 بليون دولار من طرقاتها، وهذا مبلغ يكفي لتمويل برامج اجتماعية ضرورية أخرى، كمعالجة المياه، والمدارس، وكلاهما فوق المعدل الصيني الطبيعي. وهذه هي المقاطعة التي لم تحصل على مال من الحكومة.

إن النموذج الذي استعمل أول مرة في الطرق الرئيسة يستعمل الآن في جميع أنواع الخدمات العامة. و تتوقع الحكومة المركزية أن تبادر مدن الصين الكبرى إلى بناء منشآت حديثة لمعالجة المياه، وتفوضها ببناء وحدات تزود سكانها بمياه الشَّفَة. وثَمَّة خطط لبناء مئات من وحدات معالجة المياه الجديدة. إذ إن 15 % فقط من الصينيين يحصلون على ماء الشَّفَة السليم يصل إليهم عبر الصنابير. وتلجأ بعض الحكومات لتمويل هذه المشاريع إلى خصخصة إمدادات الماء أيضاً، وليس واضحاً بعد إن كانت هذه المشاريع رابحة مثل الطرق السريعة أم لا. ويفترض أن تحمل هذه الخطط إلى الصين أسواقاً فعّالة للخدمات، حيث يدفع الناس قيمة الخدمات التي يحصلون عليها. وقد يؤدي هذا إلى مجتمع أكثر حرصاً على صيانة هذه الخدمات والحفاظ عليها. بينما تجد الولايات المتحدة، على خلاف ذلك، حيث معظم استخدام الطرقات الرئيسة مجاني، ويُدْعَم الماء بكرم، ولعل الأمريكيين يميلون إلى الإفراط في الأمرين معاً.

ويغذي الطرحُ الصيني التوسعَ السريع في البنية التحتية. وقد لا تستطيع الدول التي تعتمد على أموال الضرائب وموافقة العامة على بناء طرقاتها مجاراة ما يسارع الصينيون لبنائه. وتأتي الطرق الرئيسة الأفضل في الولايات المتحدة لقاء ضرائب أعلى. وقد أفادت آخر تقارير وزارة النقل الأمريكية إلى الكونغرس، أن المال المرصود الآن للشبكة التي تربط الولايات ببعضها بعضاً لا يلبي الحاجة إلى إبقاء الطرق الحالية في أفضل حال، ولا يتطرق إلى التوسع فيها. ويواجه

http://www.ibtesama.com/vb

السياســيون الذين يؤيدون رفع الضرائب على الوقــود أو الدخل لتغطية نفقات البنية التحتية الضرورية، معارضة المواطنين الشديدة.

وقد أعلــن الصينيون مؤخــراً أنهم يفتحون مشــروعات قطاراتهم لخطط اســتثمار خاص. ويجربون كل ما يمكن أن ينســجم ولو من بعيد مع مشروع هذه الخطة. فعندما تبنى الحدائق العامــة، تؤجر الأرض المحيطة بالحديقة لتغطية نفقاتها. وتُبنى مراكز المؤتمرات البلدية لتحقيق ربح، غير أن هذا ما ثبت استحالته تقريباً في مكان آخر من العالم، وقد ينجح في الصين (بخاصة إذا حولت أجزاء من المراكز إلى مراكز تسوق كبرى!).

وقد تكون البنية التحتية المادية، كالطرقات الرئيســة، ومنظومة الماء، وسواها من الخدمات المدنية أقل أهمية في عصر تتحرك المعلومات فيه بالبايت والجزيء الرقمــي، كمــا تتنافس دول العالم بخبــرات مقارنة في مشــروعات التكنولوجية العالية. وقد تكون البنية التحتية لبلد ما هي التي تحدد قوته التنافســية ســلباً أو إيجاباً. فإذا كان للأصول غير الأساسية في الاقتصاد أن تكرر بسهولة في الخارج – إمــا ببنائها أو بنقلها – فإن الأشــياء التي لا يمكن نقلها هي التي تحدد الفوارق بين الدول. فالسلع العامة القديمة كالطرقات، والماء، والطاقة، والخدمات البلدية ستكون مهمة مثل أهمية أفضل المهندسين، والاتصالات، ومخزن براءات اختراع.

وتُشَكِّل الخصخصة المُلِحَّة للطرق وسواها من منشآت البنية التحتية مفتاحاً آخر لفهم ســبب النمو الســريع للصين. فلقد فتحت الحكومة قيمة الأرض التي تملكها تحت أقدام الجميع. وإن كل كتلة بناء أنشــئِتْ في المدن الصينية تشــكل مظهــراً في هذا الجــزء مهمّاً لأن الأرض التي تقوم عليها تكتســب ســعراً من الحكومة – أو من أحد مسؤوليها ذي الصلة.

وتَدين الصينُ ومُدُنها بتقدمها وتلوثها للثروة التي تُقتَطع من المورد الأكبر من موارد الدولة، وهو الأرض ذاتها التي ضَحّى الشيوعيون بمليون نفس «لتحريرها» من الملكية الخاصة.

http://www.ibtesama.com/vb

الفصل الخامس

الزعيمُ ماوْ يَبيعُ الحساء

تلتف الشـوارع الضيقة والحارات في سوق شـنغهاي لبيع حيوانات البيوت الأليفة في إحدى المناطق القديمة الباقية المجاورة لحديقة الشـعب حول دكاكين صغيـرة لاحصر لها، لكل منهـا موضعه في مملكة الحيوان. بعضها يبيع الطيور المُغَـرِّدَة وأقفـاص الخيزران، وأخرى تبيـع الجداجد (صَرَّار الليـل) المقاتلة أو السـلاحف. ويبيع رجال على قارعة الطريق، السـمك الذهبي المنتفخ، والسمك المقاتل السـيامي ياقوتي اللون، وأنواع أخرى من السـمك الاسـتوائي المرصع. ويسـبح السـمك الصغير في أكياس منقطة منفوخة من البلاستيك تجعله يبدو أكبر عشر مرات من حجمه الطبيعي وتضاعف فيه لون قوس قزح.

وترى المتسـوقين هنا مثل أبنـاء مدن الصين المحترفين مفعمين بالنشـاط والحيوية - يسـميهم المتسوقون الأمريكيون تشبزchuppies - يصعدون على السـلالم المتحركة في المراكز التجارية المتألقة المؤلفة من اثني عشـر دوراً، ولا تبعد أكثر من بضعة أبنية. هذه ليسـت سـوقاً للبضاعة الراقية، وإنما معظم ما يباع هنا بضاعة رخيصة الثمن ممتعة. ويتباهى أصحاب حيوانات البيوت الأليفة حيثما كانوا بحيواناتهم، وهذه الدكاكين تقدم لهم مجموعة منوعة. فالطيور ذات الريش الجميل، والأصوات العذبة، أو الطيور النادرة تعطي بائعيها اعتباراً جيداً. وللأقفاص أيضاً نغمتها الخاصة. فالأقفاص المطوقة بالخيزران في أسـفلها قد تكون بسيطة أو محفورة، مفصلة في تصميمها أو متروكة على حالتها الطبيعية. أما الأوعيـة الخزفية الصغيرة التي تحمل البذور والماء تأتي بأنواع شـتى، بين الحجريـة والخزفيـة. وتجد أكثرها صقلاً تلك التي لها نهائيات خشـبية أنيقة

http://www.ibtesama.com/vb

تربط القفص بخطاف تعليق معدني في أعلاه. وتصنع نهائيات الأقفاص الأرقى من قطع خشـــبية نادرة تحفر عليها مشاهد ريفية بحجم طابع بريد. وقد تكلف النهائيات قروشاً أو مئات الدولارات، كتلك التي توضع في علب زجاجية مقفلة. وإن الأناة والود هما الســـمة العامة للتجارة في السوق. حيث يشترك المتسوقون والعمال مع المخلوقات المتاجر بها في طاولات الدكاكين التي تقدم «نودلز» (وهي خدمة شراء ساذجة) في الهواء الطلق.

وإن سوق حيوانات البيوت الأليفة هو فجوة داخل المدينة يعيش الريف فيها. وإلى جانب العمل في الدكاكين وعلى الدراجات يزرع بعض الباعة أنفسهم حيث يســـتطيعون. فيقف بعضهم أمام مداخل الدكاكـــين يبيعون القوازب (الحيوانات البرمائية) والحشـــرات المقاتلة، وقد وضعوا أمامهم أكياساً كبيرة. وهذا السوق هو أحد الأماكن في وســـط شـــنغهاي التي يمكن أن ترى فيها صينيين ما زالوا يرتدون لباس ماو، وثياباً عســـكرية مهلهلة. ربمـــا لأن الأعمال التي يقومون بها قذرة جداً لاتتيح لهم ارتداء ثياب أفضل، أو أن لابسيها أفقر من أن يرتدوا ثياباً أفضل منها.

إن أســـواق حيوانات البيـــوت الأليفة في الصين أماكن يســـتطيع المرء فيها أن يبـــدأ العمل مـــن الأرض، والأرض في الصين الجديدة هي كل ما يملكه بعض الناس، مثل أبناء أُسْرَة لي عندما وصولوا إلى شنغهاي. غير أن المهاجرين يحملون الأرض معهم أحياناً، مثل امرأتين تعلو خديهما حمرة تحملان أطباقاً صغيرة من الخيـــزران مليئة بالخث (قطـــع من النبات متحللة ونصـــف متفحمة)، تتأملان نظـــرات العابرين من أهل المدينة، كأنهمـــا تخجلان من أنهما قد خرجتا لتوهما من ماضي الصين الســـحيق. إن هـاتين الامرأتـــين تبيعان الديدان، تجمعانها من التربة التي تحملانها على أطباقهما واحدة فواحدة، تستخلصان من الزبائن قطع النقود الصينية الصغيرة التي يحملونها في جيوبهم.

قالت امرأة غريبة تســـير في الســـوق: «هل تتصور ذلّ ذلك العمل؟ إنه عمل وضيـــع لاأرى ثمة عمل أوضع منه، إنهما تبيعان الديدان، تبيعان الديدان للطيور

http://www.ibtesama.com/vb

المدللة عند الناس وحشراتهم». وتشير إلى فقر المرأتين ونحولهما، وقصر قامتهما، ونقص سعراتهما الحرارية، وتقول: إن شنغهاي مليئة بمثلهن.

ويسهل التمييز في شوارع المدينة بين الريفيين الفقراء وأهل المدينة الأحسن حالاً، أو هكذا يبدو للصينيين الذين يلتقطون المؤشرات فوراً ويطلقون حكمهم بناء على البنية، والبَشَرة، واللهجة، ونمط اللباس، وتوقُّع التعالي والسخرية والهزء خلالها.

وقد يحلو للمرء أن يرى الجانب اللامع من المدينةِ كطليعة للتغيير في الصين. فإن المدينة الكبيرة هي المكان الذي يوظف فيه المال الوفير. وثَمَّة أماكن تتباهى بإظهار جانب مهم من جوانب الثورة الحالية كأسواق حيوانات البيوت الأليفة في شنغهاي، حيث يدخل الريفُ المدينةَ، وسوق الديدان يُنبئ أيضاً بتوسع أعمال باوستيل Baosteel works، ومصنع جنرال موتورز GM الجديد في شنغهاي، أو طفرة البُنيان في المدينة. وقد تبدو النساء اللاتي يبعن الديدان في الحضيض، غير أن وجودهن في شنغهاي يذكر بأن طفرة الاقتصاد الجديد قد انطلقت من الريف، وأن القوة الدافعة لسكان الصين الريفيين، الذين كانوا جماعة فتفرقوا وانطلقوا في تحركهم، هي التي تغير الصين والعالم.

كان بيع الديدان بقصد الربح في أسواق حيوانات البيوت الأليفة من رابع المستحيلات قبل الإصلاح. فالإيديولوجية الشيوعية عن الطبيعة، والعمل، والطبقات ما كانت لترضى بذلك، وكأنما خلقت الطبيعة لِتُقْهَر، والعمال لخدمة الدولة. فكانت الأعمال التجارية التي شَجَّعت وجودَ طبقة تنعمُ بالراحة تُهَدِّد الثورة بِخَطَر.

فقد أعطى الشيوعيون أنفُسَهم في عهد ماو مهمة إعادة تشكيل أرض الصين تشكيلاً جذرياً. واعتمدوا في ذلك على الإرادة – التي تذكيها حملات إيديولوجية – وقوة عمل الشعب في تنفيذها. وليس ولع الحزب بمشروعات أعمال عامة عملاقة بِخافٍ على أحد.

http://www.ibtesama.com/vb

إن الذي لا يعرفه كثيرون هو همجية تصميم الشعب الصيني في رفضه للعالم الطبيعي. وقد أمضت الباحثة الأمريكية جُدِث شبيرو Judith Shapiro ثلاث سنوات في الصين تتحدث مع الناس المعنيين بالحملات الحكومية الموجهة لإعادة تنظيم الطبيعة. وكانت إحدى الحملات في أواخر خمسينيات القرن العشرين وأوائل ستينياته تنادي بإفناء المخلوقات المؤذية الأربعة، فوَجَّهَت الصينيين إلى إفناء جميع الفئران، والذباب، والبعوض، والعصفور الدوري. وقد عَبّأ ماو البلادَ كلَّها إلى الحملة، وجَرَّ إليها جَيْشَها الوطني من صغار الطلبة. وقامت قرى بأكملها بالتفتيش عن أعشاش العصافير وبيوضها وتدميرها، في هجوم عام مُنَسَّق على العصافير. وسُيِّرَت دوريات في الحقول تضرب القدور والمقالي لتطرد العصافير. وعندما كانت العصافير تطير هاربة إلى ملاذ بعيد، كانت جيوش مكافحة الحشرات المؤذية تقف لها بالمرصاد، فتضرب القدور والطبول ثانية، لتحرم الطيور أي ملجأ تحط عليه. واختفى العصفور الدوري من الصين أو كاد، وطيور أخرى أيضاً. واختفى معها خط الدفاع الطبيعي الأول ضد الجراد وغيره من الحشرات الضارة بالحقول.

كانت تلك الحملة واحدة من عدة حملات أدت سنة 1960م إلى المجاعة الكبرى في الصين، وأدت إلى الانهيار الزراعي الذي سبب موت أكثر من 30 مليون شخص، في أكبر كارثة جَرَّها الإنسان على نفسه في التاريخ. فاضطر جيش من عمال الإبادة، مزودين بمبيدات كيميائية لمكافحة الحشرات والأرض إلى معالجة غزو الحشرات الذي تبع ذلك. كان الاندفاع إلى تخليص حياة الصين من الطيور والحشرات ضارياً حتى شعر فَنّانو الصين التقليديون، الذين عاشوا عمرَهُم يرسمون الطيور والحشرات، بِرُعْبٍ حالَ بينهم وبين الإبداع أو عرض أعمالهم.

وارتبطت تربية حيوانات البيوت الأليفة بالطبقة الحاكمة و«أسلوب حياتها المتفسخ». فتلعن الإيديولوجية الرسمية الصينية الذين لديهم خدم، أو وقت فراغ، أو حيوانات بيوت أليفة أنها تعاديهم وتبرر العنف ضدهم. أما اليوم، فَبعد

http://www.ibtesama.com/vb

مَلءُ وقت فراغ الناس عملاً مريحاً وجيداً كأي عمل آخر. وبرغم أن الدوافع الرافضة لاقتناء حيوانات البيوت الأليفة مازالت قوية، غير أن قوتها ليست كافية لوقف تجارة حيوانات البيوت الأليفة أو إغلاق أسواقها، فهي التي تؤمن مورد رزق لأسر المزارعين الذين صاروا يعتمدون على تلك التجارة بدل ربط حياتهم بما يزرعونه من حبوب أو بمشروعات الحكومة.

وهكذا نجد باعة الديدان الوضيعين يُجَسِّدون كل تغيير كبير في الريف، وكذلك التنقل بحثاً عن فرص مهما صغرت، وإشباع رغبات الصين من المتع التي كانت ممنوعة، بدخول مجالات جديدة أُلغيت من حياتهم منذ زمن غير بعيد.

طعامٌ جَيِّد

إن أسواق حيوانات البيوت الأليفة هي أحد المواقع التي يدخل الريف فيها إلى المدينة. وثمَّة مزج واسع آخر يجري حول مائدة العشاء. فالإسراف في الطعام واختياره يتناقض تناقضاً شديداً مع عقود الحرمان التي جاءت بعد سنة 1949م فقد أحدث إصلاح الأراضي، في أوائل سنوات الحكم الشيوعي، تحسينات مهمة عند معظم الجماهير الريفية. غير أن إنتاج الغذاء أُلْحِقَ بأهداف النظام الصناعية. وتَكَيَّف المزارعون الصينيون مع هدف ماو، خلال فترة القفزة العظمى إلى الأمام، في أواخر سنة 1950م لتصبح الصين من كبار منتجي الفولاذ، وهو مشروع وطني آخر أسهم في المجاعة الكبرى. وشُجِّع الفلاحون على هَجْر الحقول إلى إنتاج الفولاذ. فَبَنَوا «أفراناً في الساحات الخلفية» حيثما استطاعوا، وجمعوا كل ما تقتني الأسرة من أدوات معدنية وأدوات مطبخ لِصَهْرِها في المصانع التي أقاموها خلف بيوتهم.

كان عليهم تسليم فولاذهم المُنْصَهِر إلى الدولة لتحقيق هدف ماو بالتفوق في إنتاج الفولاذ على بريطانية العظمى، التي ما زالت رمزاً قوياً للهيمنة الاستعمارية والتصنيع الرأسمالي. وكانت النتيجة أن ذهبت ثروات الأُسَر الريفيَّة الصغيرة

http://www.ibtesama.com/vb

هباءً منثوراً. فقد كان الفولاذ الذي صنعوه في أفرانهم خلف بيوتهم مجرد كرات معدنية لا قيمة لها، لا تصلح لصنع أدوات بسيطة. وتقَهْقَرَ السواد الأعظم من سكان ريف الصين بعد سنوات من سياسة سوء إدارة الصناعة والزراعة. فصار الشعب الصيني سنة 1979م أفقر مما كان في سنة 1950م، ويَئِسَ المزارعون.

كانت مكونات نظام الغذاء الرئيسة في الصين أيام الفقر زهيدة ورتيبة. ولم يعد الغذاء يلعب دوراً منعشاً خلال ثلاثين سنة تلت 1949م، مثلما كان من قبل. وبقي المزارعون الصينيون، بناء على توجيهات الدولة، يركزون على محاصيل الحبوب التي كان النظام الشيوعي يقيس نجاحه به. كانت الخضراوات قليلة في معظم الأحيان؛ ولم يكن عند الصينيين في حزام الحبوب الشمالي سوى الملفوف، والبطاطا، واللفت. كان الغذاء مقنناً تقنيناً صارماً. أما العمال (الكادحون) فقد كان غذاؤهم أكثر من وقودهم بقليل، وكان يصل إليهم عن طريق مواقع عملهم، يُتَصَدَّق به عليهم بمذكرات صغيرة تُقَدَّم إلى مستودعات تابعة للحكومة. وكان تناول وجبة طعام في الخارج حدثاً نادراً حتى بعد بدء التحرر الاقتصادي. فطعام مطاعم الصين شرٌّ لا بُدَّ منه غير شهي للمسافرين. كانت المطاعم أماكن قذرة لاتعرف الترتيب، تديرها شركات صغيرة تملكها الدولة، تقدم طعاماً مكوِّناته رخيصة، لاتجد فيه متعة.

غير أن الأمور قد تغَيَّرَت. فصار الطعام من أعظم المباهج في حياة المدن في الصين. حيث تجد في معظم مدن العالم المهمة أطباقاً من مطابخ بلاد بعيدة. (إلا المدن الإيطالية، التي لا ترضى عن طعامها بديلاً [وحقّ لها ذلك – الناشر]). ويرشدك موظفو فنادق مدن الصين الكبيرة إلى الطعام الفرنسي، والإيطالي، والتايلندي، والمغربي، وعلى جعة إرلندة، وبتزا شيكاغو. فصارت مطاعم الهَمْبُرجر، والدجاج الأمريكي، والقهوة مرغوبة في كل مكان وخاصة في المدن الآسيوية.

وربما تجد في الصين وفرة من أنواع الطعام تضاهي ما في العالم كله، وهذا تغيير ليس طبيعياً من اهتمامات البلاد المتجددة. فقد عاد الطعام والأسرة

http://www.ibtesama.com/vb

ليحتلا موقع الصدارة في حياة الصين الاجتماعية والثقافية. وهناك من يُعِدُّ لوليمة، في كلِّ جمع، وكل طقس، وكل اجتماع عمل.

وتُشير آن فيك Ann Veeck من جامعة وِسْتِرْن متْشجن Western Michigan إلى أن كلمة رِنكو Renkou الصينية التي تعني «السكان» تُتَرْجَم حرفياً إلى «أفواه الشعب». لقد عاشت فيك Veeck في ننجنْج Nanjing، عاصمة مقاطعة جيانجسو Jiangsu، في منتصف التسعينيات، حيث دَرَسَت تَغَيُّر حياة مئات بائعي الطعام بعد الإصلاح الاقتصادي. وتقول فيك كان بائعو الطعام أول موجة من المقاولين المدينيين. كان الذين غامروا بدخول السوق الحرة في البداية، بعد سني الدعاية المضادة للرأسمالية، هم أولئك الذين ليس ثَمَّة ما يخسرونه. وقد أحجم معظم الصينيين عن البدء بأعمال تجارية، وإن كانت صغيرة. لقد شعروا أن رياح التَغيير تَتَقَلَّب كثيراً طيلة ثلاثين سنة من الحكم، فحاذروا أن تَسِمَهُم أي محاولة لفتح عمل خاص بالعداء للثورة أو الإجرام. وكان من أوائل الذين دخلوا السوق أولئك الذين لم يَجِدوا لأنفسهم مكاناً في النظام الذي تديره الدولة، وكان منهم أولئك الذين أُطلِقوا مؤخراً من سجنهم، ولم يكن لهم عمل آخر. وأدركت فيك أن لا عجب إذن أن لا يثق المتسوقون ابتداءً بِباعَة القطاع الخاص.

وتوجد اليوم أسواق لجميع أنواع الطعام، من أكشاك المزارعين والأسواق الكبيرة على مقربة من الجميع في ننجنج والمدن الأُخرى في الصين كلها. ووجدت فيك أن نصف سكان المدن يعيشون على بعد بضع مئات من الأمتار من الأسواق.

نودلز (شرائط المعكرونة) في الهواء

تبدو شوارع رودُنج Rudong في مقاطعة جيانجسو في التاسعة والنصف مساء أهدأ من شوارع مدن الصين الأكبر. فَرودُنج، التي يبلغ عدد سكانها حوالي 1ر5 مليون نسمة، هي من أصغر مدن الصين الكبيرة، وقد يدهشنا ذلك

http://www.ibtesama.com/vb

لأنهـا تقع على تقاطع بحر الجنوب الأصفر South Yellow Sea ومصب نهر يانجتسYangtze. ولا بد أن تنشـط في السـنين القليلـة القادمة، فقد صار للمدينـة ميناء جديد سـيجلب حركة ملاحة دوليـة. وإن رودُنج، مثل أي مدينة صينية فيها قدر محتمل من الصناعة، تستقبل موجة هجرة مَن تَرَكَ المزارع.

ويخرج بعض هؤلاء المهاجرين الجدد ليلاً إلى أكشـاك صغيرة يبيعون فيها الطعام للذين يعملون في ورديات متأخرة. وهناك باعة من زِنْجيانـج Xinjiang، المقاطعة المُسْـلِمَة الوَعِرة في أقصى شـمال غرب الصين. وتراهم أكثر شـبهاً بالكازخستانيين، جيرانهم في آسيا الوسطى، من شبههم الصينيين. وقد صارت رؤية المهاجرين الرجال من زِنْجيانـج مشهداً مألوفاً في مدن الصين، حيث تراهم يبيعون الكباب المبهَّر من لحم الضأن المشـوي على نار مفتوحة، مشـكوك على أعواد (أسياخ) من الخيزران. وثَمَّة آخرون يبيعون الزلابية أو الكعك المحلى.

غير أن المكان الأكثر ازدحاماً في الشارع الرئيس في رودُنج هو كشك بسيط يبيع - شـرائح المعكرونة - نودلز حيث يعمل رجل وابنه المراهق على حَلَّة كبيرة يتصاعد منها بخار حساء لحم البقر. يعد إعداد النودلز على شوارع الصين نوع من الاستعراض الفني، والذي يُعِدُّه في رودُنج يتقن فنين يجذبان الناس. فيأخذ عجينة سـميكة ويضربهـا بالتناوب على النضد، ثم يسـحبها إلى ارتفاع ذراعه ويثنيها ليُحَضِّر، دون اسـتخدام أي سكين، حزمةً سـميكة من النودلز الدقيقة. وإن أراد الزبون نودلز بنكهة ألذ، فيحمل العجينة، ويرفعها عالياً فوق رأسه بيد، ويقطـع باليد الأخرى، التي تحمل موسـى حادة، العجـين بضربات خاطفة إلى نودلز عريضة. وتتساقط النودلز في الحساء، حيث تنتفخ وتطفو على السطح.

لقد قَدِمَ الرجلُ إلى رودُنج قبل سنتين من قرية زراعية داخلية في المقاطعة. ويقول: إن معظم شـبان قريته قد هجروها، ويقدر أن سبعة من كل عشرة منهم قـد ذهبوا إلـى المدينة. ويقول: إنه عندمـا قَدِمَ المدينةَ لم يكـن يعرف صناعة

http://www.ibtesama.com/vb

النودلـــز، فراقب عمل الآخرين وتعلمها. ويتســـاءل إن كان ثمَّة من يصنع النودلز مثله في أمريكا، إن كان له أن يبحث عن عمل هناك.

ويزدحم الكشـــك بأهـــل الريف. فيصغي زوجان مـــع ابنتهما وعمرها اثنتي عشرة سنة، إلى قصة صانع النودلز ويومئون برؤوسهم. لقد جاؤوا هم أيضاً من مزرعـــة. كان الرجل يعمل في مصنع، ثم صار يصنع مع وزوجه توفو Tofu في البيت. وهي أكلة إقليمية عبارة عن قطع مرنة مســـطحة بحجم كيس الشاي، قد تؤكل كما هي، أو تطبخ في المرق، أو تقلى بالزيت. تقول المرأة الثرثارة المرحة إن عملهما جيد ومربح، بينما يومئ زوجها برأسه ويبتسم لقولها.

وتقـــول لقد بلغت ثروتهمـــا اليوم ما لم يكن لهما أن يحلما به في طفولتهما. لقـــد ذهبت الصين كلها حدوداً أبعد من أي شـــيء كان لهما توقُّعَه من قبل. وقد جاءهما عَرْضٌ لعقد جديد لتزويد مدرســـة بمؤن يوميـــة. وصار يعمل عندهما اليوم ستة عشر موظفاً، قَدِموا جميعُهم من عمق الصين. ينام بعضهم في غرفة ملحقة بسُدَّة صغيرة يستعملونها مصنعاً. ويبدأ يومهم في الخامسة صباحاً.

تقول المرأة: إذا أردتَ أن ترى كيف يعيشون، فاذهب إلى سوق الطعام المجاورة في الخامسة والنصف صباحاً واسأل عنها باسمها المختصر زياوبنج Xiaoping أي الزجاجـــة الصغيرة Little Bottle. وإن البناء المُعْتِم هو هيكل بناء بســـيط سقفه معدني بحجم سوبر ماركِت أمريكي كبير. وتقف فيه «الزجاجة الصغيرة» قرب المركز، ويتألف موقعها من عدة صناديق بلاســـتيكية كبيرة مليئة بقطع من توفو. وتراها تتكلم بينما تُلَبي هي وزوجها طلبات ثلاثة زبائن معاً، ويبيعان قبضة صغيرة من التوفو بيوانين اثنين، أي خمسة وعشرين سنتاً.

وتتـــرك كشـــكها لترافقك في جولة في الســـوق. وعلى الرغـــم من أننا في منتصف تشـــرين الثاني/ نوفمبر، غير أن تنوع المكونات ونضارتها تجعل السوق تظاهـــرة من أخضر لامع، وبرتقالي، وأحمر. وتجد تحت ســـقف ســـوق رودُنج

http://www.ibtesama.com/vb

أصنافاً كثيرة مثل أي ســوق في مدينة نيويورك. حيث تمتلئ أقســام من السوق بالســمك الملتوي ونتاج البحر، ودجاج يقرقر وماعز ذُبِحَــت لِتَوّها ومُدِّدَت على طاولات بيضاء. وليس ثمَّة رائحة نَتن. (وليس الحال هكذا في الصيف). وتَصِل معظــم المحاصيل واللحم يومياً ويفرغ في المســاء. وكم يأتي إليها من بعد مئات الكيلومتــرات عن رودُنــج؟ فتقول: «الزجاجة الصغيرة»؟ 99 بالمئة منها. وكم يأتي من بعد خمسين كيلومتر؟ خمسون بالمئة. ومن رودُنــج نفسها؟ ربما الثلث.

قارن ذلك بأي ســوبر ماركِت أمريكي أو أُوروبــي، حيث تأتيه بضاعته من جميــع بقــاع الأرض، فالفلفل من هولندا، والأزهار من التشــيلي، ولحم الضأن مــن نيوزيلندة، والفاكهة من متشجان، وكاليفورنيــا، وإسبانيا، وبناما. لقد فَنَّنَ باقي العالم إنتاجه وصار يأكل طعاماً مُثَلَّجاً. وعندما اســترجع مزارعوا الصين حــق الإنتاج كانوا ملتصقين بقطع صغيرة مــن الأرض. غير أن رقعهم الصغيرة كانت مليئة بمحاصيل عديدة جيدة تَشُــدُّ أنواعُها اهتمام زبائنهم المحليين. وأما المزارعــون الذين يعيشــون على قطع صغيرة جداً مــن الأرض – ومعظمهم كان كذلك – فكانت محاصيلهم الجيدة لاتَلْبَثُ أن تنفد.

مآدب مُتَنَقِّلَة

وهناك الطعام، وهو نظرة جديــدة إلى التاريخ في الصين اليوم. فإذا تَلَفَتَّ يُمْنَةً أو يُسْــرَةَ في أي شــارع في الصين اليوم، ترى أنَّ عودة المطابخ إليها تكفي لتشدَّ الناسَ إلى طريق رأسمالي. فكثرة أنواع الطعام يعني في الصين الشيوعية أكثر مما يعنيه في أي مكان آخر في العالم. ففي غياب انفتاح حق التعبيرالحقيقي في الصحافة، والأدب، والفنون، يبقى الطعام الملاذ الوحيد الذي يجد فيه صينيو البر الرئيس تعبيراً قوياً عــن ثقافتهم. وبخلاف الأعمال التي تقدم على الورق، أو القماش، أو الشاشة، فإن الحكومة لا تخشى أن يخفي الطهاة رسالة توجيهية في طبق جديد من الجمبري (القريدس) أو في قِدْرٍ يُطْهى فيه البط. إن الطعام في الصين هو الحرفة الأكثر توهجاً والأصعب محاكاة.

http://www.ibtesama.com/vb

أمـــا الآن، وبعد أن صار الناس يتنقلون، أصبحت مآدب الصين تتنقل أيضاً، فـإن المطاعم الإقليمية تنقل طعامها من منطقة إلـــى أخرى تلبي رغبات البلاد بأذواق جديدة. ويُجَنِّد مُنتجو الطعام الطهاةَ من جميع أطراف الصين. لقد جعل التنافـــسُ المدنَ الصينية من أفضل الأماكن التي تقـــدم الطعام في العالم. فولع النـــاس بالطعام يزداد، ويلهب الطلب الفـــوري المُلِح على الطعام الصيني الرائج. والمطاعـــم التي تلتقط الموجة تبلغ الذروة غالباً، فيزدحم أمامها الزبائن ســـنة أو ســـنتين ثم تَخْبو. وقد أدى طعام هانـجـزو Hangzhou اللذيذ - الغني باللحم الدَّسِم الطري ومخ العظام، ولحم البط المطبوخ على نار هادئة، وسمك الماء الحلو المقلـــي بالصلصـــة الحامضة - إلى جنون حقيقي انتشـــرت فيه المطاعم في كل مـــكان. فطعام هانجـــزو - حيث طعام الأقاليم في أوجـــه - نجده في المطاعم الكبيرة والغالية، بعضها له أدوار أرضية واسعة تضم أحواضاً للسمك تصلح لأن تكون متحفاً للمدينة، فيها مئات من أنواع الســـمك وصيد البحر. وقد اكتســـب طعام إقليم يونان Yunnan في جنوب الصين، خليط النكهات الاســـتوائية في جنوب شـــرق آســـيا، فلقي رواجاً جديداً. وقد أســـهم فانج ليجون Fang Li-jun أحد أشـــهر نجوم الفـــن الصيني المعاصر في الصـــين بالاتجاه إلى مطاعم يونان الحديثة Yunnan في بناء برجي أنيق في بكين الشـــرقية. حيث ترتدي المضيفات فيها الثياب التقليدية، ويمشين فوق أرض زجاجية عاكسة، وقد علقت على الجدران مجموعة من اللوحات لأشهر فناني البلاد.

ونجد في أحد المطاعم المنشورية في شنغهاي، المضيفة تغطي رأسها بخِمار حريـــري عُلِّق به ذيل حصان طويل. وتتعثر المضيفات بأذيال أثوابهن الفضفاضة الموشـــاة بالأصفر والذهبـــي للإمبراطورة العجوز سيكســـي Cixi، تعلوها ثياب ثقيلة للرأس تناســـبها، مكسوة بِخَرَز سلالة أُســـرة كنْج Qing، فالطعام هناك يأخذ الألباب. وإنك ترى الأزواج الشـــباب ينتظرون أكثر من ســـاعة ليجلســـوا إلى طاولة خشـــبية قُدَّت بخشـــونة وتحيط بها أجذال شجر للجلوس عليها بدل

http://www.ibtesama.com/vb

الكراسي. فَصُيِّرَ ملكيو مانشـو الذين كانوا سُبَّة جَذّابين. فإن أحد أكثر الرموز سلبية لفلاحي الصين الشيوعية الإصلاحيين، هي الإمبراطورة العجوز، الرفيقة المتآمرة المهووسة بالسلطة، التي بددت ثروة الصين وباعتها إلى الأجانب، تقدم الآن وجبات من عشرة أصناف للمراهقين الذين يحملون الهواتف الجوالة.

الكولونل ماو

يعكس مشهد المطاعم في المدن التحول المدهش الذي يخضع له ماو تسي تُنج إذ يأخذ دور الكولونيل ساندرِس Colonel Sanders. فادخل مطعماً ما في هُنان Hunan، تجد ماو ينظر مُحَدِّقاً بك من كل صَوب. لقد اعتاد الرأسماليون القدماء على وضع شخصياتهم السياسية العظيمة مثل باعة على رصيف. فقد أُطلِق اسم لينكولنLincoln على سيارات أمريكية فاخرة؛ ومراكز الإقراض يوم دفع الرواتب. كما تجود الملكة البريطانية بجلالتها واسمها فتعيرهما لبيع مظلات ومربيات. وإن أي قائد لديموقراطية غربية لابد له أن يُعّنى بحماية التجارة. وقد استمد ماو شهرته من مقارعة عبيد الرأسمالية الخانعين، وليس من استعراضهم. وما زالت صورته، بسبب هذا الدور، تُعرض في المواقع المدنية. وليس ثَمَّة شك في أن عظمة ماو تسيطر على ساحة تيانانمين Tiananmen في بجين، مثلاً. ومازالت نُصُب ماو التذكارية، كالمعروض في تشنجدو Chengdu، المدينة الكبرى في سيتشوان Sichuan تحرس الساحات العامة بين وقت وآخر. وليس ثمَّة من يخطئ التمييز بين ماو هذا وإصلاح السوق الحرة أو التجارة. وليس هناك من يعتقد أن ماو هذا سيقر بالحلف السري الذي أبرمه مزارعو زياوجانج Xiaogang.

ويبقى لماو في ذاكرة الصينيين الذين يعيشون أربعينيات عمرهم أو أكثر حضوراً لا يمكنهم الهروب منه. ويشكو الجيل الفتي في الصين اليوم من الجيل الأكبر تصَلُّبَه بسنوات العيش في ظل حكم ماو، حيث أدت إرادة الدولة الشرسة

http://www.ibtesama.com/vb

وأثرها النافذ الذي يَصْعُبُ تقديره إلى زعزعة ثقة الناس وإثارة هواجسهم في البقاء – وهذه قاعدة عامة برغم أن الاستثناءات كثيرة. ويبتعد أصحاب العمل الشباب عن توظيف من تجاوزوا الأربعين، فالجيل الأكبر مصاب بجنون الرِّيبَة. وهذا منعطف جديد يدعو إلى التشاؤم من الأفكار التي حَرَّضت الثورة الثقافية، التي تسمى الأربعة البالية، عندما حُضّ الناس على نبذ «الأفكار البالية»، و«الثقافة البالية»، و«التقاليد البالية»، و«العادات البالية».

وبرغم التكاليف النفسية لحكم ماو، فإن ماو مازال الأيقونة الأبقى في البلاد. فأي شخصية أفضل تأتي بها لبيع الحساء. تعد حديقة هنان في شنغهاي متحفاً كبيراً بهيجاً لماو. وتوجد هنا صورة للقائد السعيد يُشعل لفافة تبغ. وأخرى تمجِّد أيامَه قبل أن يصبح ممتلئ الخدين، عندما كان وسيماً كنجم نهار. وهنا يضطجع، وهناك يضحك لِطُرْفَة، أو ربما كانت له مَسَرَّاته الخاصة.

أما المطاعم، فتوحي الصور بأمر آخر: تذوقوا طعام ماو المفضل. ولابد في مطاعم هنان من تناول لحم الخنزير الدَّسم. فقد كان ماو يحبه كثيراً. وترحب تماثيل ماو في المطاعم الأخرى في هنان، بالقادمين للعشاء عند المدخل، كما تفعل الكولونيلات المصنوعة من زجاج ليفي في مطاعم كنتاكي KFC. ويلقى في مطاعم أخرى معاملة آندي وورهول Andy Warhol، على نحو مبالغ فيه وبألوان الفن الشعبي.

وتصبح صور القائد أكثر جرأة مع مرور الوقت، إذ تصبح الصورة بعيدة عن صاحبها ومضمون تاريخه مثل بعد صور القيصر عنه في قصر القياصرة. هل يجد الأنصار غرابة في أن يقوم الآن أكبر أعداء الرأسمالية بالدعاية للمطاعم الخاصة؟ ليس ثَمَّة غرابة أبداً. فماو من هنان، وأهلها فخورون به.

وماذا عن الصور التي تظهره أبله؟ ويأتي الجواب إنهم يحاولون أن يجعلوا مطاعمهم متميزة. ولا يعني ماو شيئاً في السوق إلا حيث يباع. فالعمل في الصين هو عمل.

http://www.ibtesama.com/vb

دَعْوَى شُيُوعِيَّة مُصْطَنَعَة

إنَّ إعادة تَصْنيف مَاوْ للرأسمالية يَطْرَح السؤال الآتي: أين ماضي الصين الأكثر راديكالية؟ فقد يتوقع المرء، في دُنيا لجان تَقَصِّي الحقائق ونُصُب ذكرى الإبادة الجماعية، أن تُوضَعَ أقسى سنوات الحكم الشيوعي تحت التَمْحيص الشديد. وقد أنْتَجَت مذكرات كُتَّاب الصين في المنفى أدباً، لعلَّه أكثرُ آداب أواخر القرن العشرين إثارة. وإن بعض الكتب المَحَليَّة، إن هي سُرِدَت بِلُغَة مُلَطَّفة، تَجْتاز الرَّقابة. وقد تضمنت رواية يُو هُوَا Yu Hua، لكي تعيش To Live، التي صَدَرَت سنة 1994م قِصَّةً عنيفة مُؤَثِّرَة عن مُقامرٍ سِكِّير ثَرِي خَسِرَ كلَّ ما عِنْدَه قبل الثورة ثم وَقَعَ أسيرَ التغييرات التي أَحْدَثَتْها الحرب وسِنِيّ الهندَسَة الاشتراكيَّة. ومازال الفِلم الذي يُمَثِّل القِصَّة، وقد أُنتج سنة 1994م، ممنوعاً في الصين.

ويروي شيوخُ الصين نِضالَهُم خلال القرن بشيءٍ مِنَ اللُّطف في وقت الفراغ وعند تناول بعض الشاي أو الجعة. فتَرَاهُم يَسعَدون عندما يجدون أُذُناً صاغية. فإذا بدأوا بالكلام، وتَحلَّق حَوْلَهُم الأصدقاء، يومئون برؤوسهم إمعاناً بإدراكهم مَصيرَ بَعْضِهِم بعضاً، والشعارات التي عاشوا في ظلِّها، والأصدقاء الذين أُحَبُّوهُم وفَقَدوهُم، والحماس الذي مَلَكَ عليهم أنْفُسَهُم. فَتَجِدهم يَتَحَسَّرون على ما فقدوا، يوم كانت أهمية عمال تنظيف الطرقات وصُنَّاع الأَدوات تعادل أَهميَّة الأطباء وأساتذة الجامعات، وربما أَهَم. يوم كانت المُلكية لا تعني لهم شيئاً حتى لم يكن ثمَّة جرائم، ويوم كان يُعادُ أصغرُ شيءٍ يُفْقَد. فَتَنْهال القصص والعواطف، لأنها لم تُسمع من قَبْل أو لأنها مشتركة ومفهومة حتى إنها لم تكن بحاجة لأن تُقال، على الأقل بين أولئك الذين عاشوا أَسوأ الأيام.

ولا يعرف طلاب الجامعة من تاريخ أهلهم سوى نَزْرٍ يَسيرٍ مُبْهَم. وقد يكون ذلك محض صدفة وقد يكون عن قَصْد. والحقيقة الوحيدة التي تُدهش أكثر عن تحول الصين هي أنها استطاعت أن تدفن الأحقاد والثارات الدموية التي ربما كانت سَتُهْلِكُها. ويتعامل الناس في كل يوم، في كل بلدة أو قرية، مع الذين

http://www.ibtesama.com/vb

أهانوهم أو عاملوهم أو عاملوا أُسَرَهُم بوحشية، أو مع أولاد الذين عاملوهم معاملة قاسية موجعة. غير أن الصينيين عامّة يتطلعون إلى المستقبل. ويتطلعون إلى ما يمكن أن تكون عليه بلادهم، وإلى ارتقائهم مع السَّعْد الجامح الذي يَبْتَسِم للصين. كان الماضي حَسَناً، وكان سيئاً، كان نظريَّة، وكان جنوناً، لم يُفْلِح، فتجاوزوه. فآمالهم حَيَّة.

رُبما يَوَدُّ الحزب الشيوعي لو يُلقي فَشَلَه في سَلَّة مُهْمَلات التاريخ. غير أنهم يذهبون، عوضاً عن ذلك، إلى سلة البيع. فثمَّة بقايا صناعات كاملة مما تبقى من حطام العهد الشيوعي الصيني الغابر تُعدُّ للبيع. فالفنادق الراقية، وأسواق السلع الأثرية، ومصائد السياح، تحوي كثيراً منها. وكثير منها حقيقي، كالأكوام العالية من مئات الكتب الحمراء الصغيرة، والمجلدات التي انْكَبَّ الصينيون عليها زمناً طويلاً في «الفحص الذاتي،» يحاولون تَذَكُّر، أو تَكَهُّن الطريقة المثلى لخدمة ماو والثورة.

فالكتب في كل مكان. وهناك في الأسواق كثير من تلك الكتب الحمراء الصغيرة، حتى إنك تستطيع بناء قصرٍ منها. وإن وراء كل كتاب أحدٌ، أو مؤسَّسة حكومية طرحته، ليُباع الكتابُ منها بجزء من عشرة سنتات أو عشرين سنتاً. وليس بِمُستَغرب أن يَطرَحَ أهل الريف هذه الجبال من الكتب، فيجمعها مهاجرو الريف الذين يديرون شبكات اتصالات بين القرى الصغيرة ليجدوا شيئاً من ماضي الصين يستطيعون بيعه في المدن.

وتوجد بالوفرة ذاتها كتب تعليمية مصورة، وهي أكثر تشويقاً، بتنوعها، من مجلدات ماو المنبوذة. إن هذه الكتب الصغيرة، بصفحاتها القليلة المقتضبة، لا تلائم الكتب الجريئة المصورة الجديدة السميكة التي تباع في أكشاك بيع الصحف. فالكتب القديمة تفوح منها رائحة العَفَن والعث حتى تجد قلة من المتسوقين يقدمون على تَصَفُّحِها. غير أنها تحظى بإعجاب الأجانب الذين

http://www.ibtesama.com/vb

يعرفون قيمة الأشـياء التي ترجع إلى عهد سـريع الزوال، من الأنواع التي تعود إلى أيام «طفرة الولادات» baby-boom.*

فإذا فتحت أي كتاب، كيفما اتّفق، دون تعيين صفحة ما، تجد درساً طريفاً. فيخبرك أحدها عن صبي فرنسـي برز في كوميونـة باريس (لجان ثورية تدير المقاطعات) يحارب كمقاومي الثورات. ودرس آخر يخبرك عن صبي صيني فلاح يتمتع بموهبة تقليد أصوات الطيور. وبعد أن أبادَ أُسرَتَه أَصحابُ الأرض الأشرار والإمبرياليـون اليابانيون، انضم إلى الشـيوعيين في قتالهـم من أجل الصين، مستعملاً صفراته ورعشـات صوته ليحذر القوات سراً من أي تحرك للأعداء. وفي كتاب آخر، نشـر سنة 1973م، وهي السنة السـابعة للثورة الثقافية، يقرأ الأطفال عـن يتيمة الثلج، وهي الطفلة التي تاهت فـي عاصفة ثلجية فأنقذها رجل من مليشـيات الجيش الأحمر أثناء الحرب ضد الوطنيين. تنشأ الفتاة في كوميونـة، وتكبر لتصبح من أطباء الصين الحفاة. وعندما يظهر الجندي صدفة في حياتها من جديد، وقد غدا شيخاً أعمى، يأتي دورها لِتُنقِذَه.

إن أكثر الكتب المصورة- التي تخلى أصحابها عنها أكثر - هي كتب «كُمِكْس» الحارس الأحمر الصغير، التي تتحدث عن معارك الأطفال ضد أصحاب الأرض، واسـعي المعرفة والثقافة، وسـواهم مـن أعداء الثورة. ربما لم يسـتطِع الأولاد لَعِب دور سـوبرمان في أيام الصين القديمة، وإنما اسـتطاعوا أن يكونوا ثوريين راديكاليين. وقد هَدَتْهُم كتب القصص المصورة، «كُمِكْس»، إلى سـبيل ذلك. وهم أقرب الآن إلى الدَّهماء.

أما الدعاية بالملصقات فهي أمر شائع آخر في الأسواق. حيث يزداد الإقبال العالمي على شـراء الملصقات السياسية الصينية، ويخزن بائعو التحف كمية منها

* إنها فترة تقع بين سنة 1940 وسنة 1960 في الولايات المتحدة الأمريكية، شهدت طفرة في الولادات، وتُسَمّى baby-boom. (الناشر).

http://www.ibtesama.com/vb

أيضاً. وقد لايشتريها الصينيون المحليون بَعْدُ، وإنما تجد الأجانب الذين يغوصون في الأكوام، يتفحَّصون كلَّ عامل بالحديد مُتَبَسِّم، سواء أكان رجلاً أم امرأة مُسْتَرجِلَة، أو مزارعاً يجدُّ في السير، وتجد صورة مهيبة لماو، فيجمع المشهد تناقضات الراديكالية، والعاطفة، والذوق الفني، والذوق الرديء.

وتجدهم يحاولون التمييز بين الملصقات الحقيقية الأصلية والصُّوَر المُسْتَنْسَخَة عنها. وبينما يعمل الصينيون على تنظيف المخازن التاريخية العليا مع ذكرياتهم منها تنشط المصانع المحلية أيضاً في عمل نسخ منها. فكل بائع يعرف أن أحد بيوت بيع القطع الأثرية بالمزاد - سوذِبي Sotheby - قد باع في أيار/مايو 2001م ملصق أيها الأمريكي عد إلى بلادك Yankee Go Home، الذي يرجع تاريخه إلى ثلاثين سنة خَلَت، بمبلغ قدره 575 دولاراً. وقد بيع في مزاد سوذِبي من بين 150 قطعة جمعت من مُقْتَنَيات خَلَّفَتْها الثورة الثقافية.

وتفيض الأسواق الآن بنسخ مُقَلَّدَة عن أشياء جديرة بأن تُذْكَر عن ماو، وكُلَّما ازدادت تلك الأشياء غرابة، زادت الرغبة فيها أكثر. ولعلك تتخَيَّل الحوائج الشخصية لكل من مستر بينَت Mr. Peanut، وإلفس Elvis، ومارلين Marilyn التي أُتيح لك أن تراها، وضَعْ ماو بدلاً عنها. وترى التماثيل النصفية الخزفية، والتماثيل الصغيرة، والأطباق، والكؤوس، وعلب القصدير تَموج في الأسواق، حسب تقديرات الباعة للرائج منها. وإذا تجَوَّلت في الأسواق مرَّةً في كل شهر تجد أصنافاً كاملة من مواد ماو تُعرَض على منضدات الباعة. قد تكون الميداليات الخزفية التي يبلغ طولها ثلاثة بوصات ضربة ناجحة في شهر ما. ثم تجدها معروضة بأطوال مختلفة في الشهر التالي.

ولحاجيات ماو الشخصية الحقيقية جمهور محلي يطلبها، ويستطيع الهواة جمع كميات هائلة منها. وقد نَشَرَت ميليسّا شريفت Melissa Schrift المتخصصة بعلم الأنثروبولجي في جامعة ماركويت Marquette في مِلووكي Milwaukee دراسةً عن تاريخ شارة ماو في سنة 2001م. كان وَضْعُ المجوهرات

http://www.ibtesama.com/vb

أو إضافة أي لمسة إلى اللباس السائد في ستينيات القرن العشرين يعد انتهاكاً للمحظورات السياسية الصارمة. وكانت شارة ماو استثناءً. فكانت تنتج بأعداد هائلة تتجاوز البليون، وتزيد أشكالها المتنوعة على عشرة آلاف، حتى أثقل ضرب الشارات الاقتصاد الصيني فاضطر الحزب إلى وقف تلك التجارة. وعندما بدأ الإصلاح الاقتصادي في عهد دينج زياو بنِج، جُمِعَت شارات ماو وصهرت لاستخلاص المعادن التي صنعت منها.

أما الآن وبعد أن أصبحت الصين أَغْنى، عاد الحنين إلى تلك الشارات يَنْتاب شيوخَ الصين وشُبّانها. فنشرت صحيفة الشَّعب اليومية، في آذار/ مارس 2000م، قصَّة مُزارع يقتني مجموعةً من ثلاثين ألف شارة. جمعها ولاءً للقائد. تقول شريفت Schrift «ثمَّة أنواع مُتَدَنِّيَة منها أعتقد أن الجيل الأصغر من الصينيين الذين يجمعون الشارات القديمة يقدرونها، أما نحن الغربيين فإني أظن أن لدينا الاحتكار نفسه للمواقف الساخرة من الإرث الثقافي الشعبي. أما هواة الجمع الأكبر سناً، فثمَّة خاصية مسهلة لجمع الصور من عهد ماو. إنها سبيلهم للتعامل مع شيء في الماضي كان يشكل أَذى لا يصدق، وهو ما تُفَضِّل الحكومة نسيانه. وسوف يمضي زمن طويل جداً قبل أن ينشأ متحف للثورة الثقافية في الصين».

كان صينيو ما وراء البحار، في هذه الأثناء، يُقَلِّبون النظر في فهم ماو سنين عديدة. كان شنغهاي تانج Shanghai Tang، مُصَمِّم أزياء من هونج كونج يبيع ملابس حريرية متقنة التفصيل على شاكلة لباس ماو، ألوانها صارخة، ويبيع ساعات تحمل على وجهها صورة ماو ملوحاً بيده. وفي منتصف عقد 1990م وقد وطَّدت فيفيان تام Vivian Tam عملَها، وهي مصممة أزياء في نيويورك، بقمصان قطنية T-shirts تحمل صورة ماو بضفيرة شعر مثل بنات المدارس. ولن يسمح بشيء مثل هذا في أسواق الصين، غير أن هواة جمع المواد الشباب يتبعون الذوق العالمي في السخرية، فيشترون شارات ماو الآن أيضاً. وتذكر

http://www.ibtesama.com/vb

شـريفة أن كثيراً من الصينيين كبار السن يسـتاؤون من أولئك الهواة، الذين ما يشترون أصناف ماو بغرض الاستثمار غالباً. وقد كان الجيل الأكبر من الصينيين قد أطلق المد الأحمر لأصناف ماو في الأسواق. وكانوا يرحِّبون بعائداتها.

ويستشـف المرء، من تحويل الزعيم ماو إلى سلعة تجارية، طموح الصين إلى الابتعاد عن القرن العشرين. وليس ذلك تعويضاً عن الوقت الضائع فحسب، وإنما تفادياً للأسـئلة الصعبة والاتهامات المضادة التي قد تأتي. لقد حُوِّل التاريخ إلى سلعة، فما إن تباع السـلعة حتى تساعد على تصفية الحسابات. إذا استطاعت الصين أن تصمد عشـرين أو ثلاثين سـنة أخـرى دون أن يعود منتصف القرن العشـرين ليخرج قطارها عن سكته، فتكون البلاد قد طوقت المُتَفَجِّر من التراث الوطني في الذاكرة البشـرية القريبة. فهل يكون أي رد فعل أصح من ذلك أكثر؟ فالأحقـاد التاريخية هي القوة الحاسـمة الأكبر فـي التاريخ الحديث، وتحرص الصين كل الحرص على أن لا تحمل حقداً ضد نفسـها. لقد أصبح السـوق هو الجواب الآن. الرئيس ماو يبيع الحساء.

http://www.ibtesama.com/vb

http://www.ibtesama.com/vb

الفصل السادس

خلال المرآة

كانت الصين دائماً البلد النائي والغريب في قاع العالم. لابد أنها كانت تبدو كذلك في بكين، في إلنوي، أيام طفولة أي امرئ يعيش اليوم في منتصف عمره. كانت الصين الشيوعية في ستينيات القرن العشرين وسبعينياته موضع شجب في مجلس الشيوخ الأمريكي، وكان يتولّى ذلك أشهر أبناء المدينة إفرت دِرْكْسِن Everett Dirksen، الجمهوري المحافظ، ذو الشعر الأشقر والحنجرة الذهبية الذي كان يدافع بقوة عن استراتيجيات الاحتواء الأمريكية أيام الحرب الباردة. غير أن الصين الراديكالية لم تكن وقتئذٍ تُشكل خطراً مباشراً على الحلم الأمريكي.

تقول الأسطورة المحلية إن بكين تقابل فوهة مفترضة في الأرض من بيجنج Beijing. أخذت المدينة في إلنوي اسمَها من عاصمة الصين في عشرينيات القرن التاسع عشر، مستعملة الأحرف الواردة على خرائط تلك المرحلة (الغريب في الأمر هو أن مؤسسي كانتون، إلنوي Canton, Illinois التي تبعد خمسة وعشرين ميلاً، ظنوا أن مدينتهم كانت نقيض سَمِيّتها الصينية التي تبعد حوالي 1.250 ميلاً عن بيجنج). كانت الأسماء الصينية شائعة بين الذين يضعون خارطة المدن الأمريكية في القرن التاسع عشر، بينما كان التجار الأمريكيون يثرون من التجارة مع الصين بواسطة السفن الشراعية السريعة، التي جلبت الحرير الأنيق، والخزف الرقيق، والشاي إلى البلاد الجديدة. فهناك اثنتان وثلاثون بلدة أمريكية سُمِّيَت كانتون، وست وثلاثون سميت تشاينا (الصين) China، وتشاينا جروف China Grove، وتشاينا هِلْ China Hill، وليس ثَمَّة أقل من أربع عشرة مدينة سُمِّيَت بكين. وبخلاف برلين ويورك، وأورليانز

http://www.ibtesama.com/vb

الأمريكيات الجديدة، التي كان لها ارتباطات حقيقية بِسَمِيّاتها الأُورُبية القديمة، لم يكن للمدن التي سُمِّيَت بأسماء صينية أي ارتباط بالصين.

كانت بكين، تقع مثل شنغهاي على نهر يشكل الطريق الرئيسة في ذلك الزمان. (يجدر الانتباه إلى أن البلدتين كانتا متساويتين في رِفْعَتَيْهِما في أوائل القرن التاسع عشر!) تقع جبهة بكِّين المائية في منتصف الطريق على نهر إِلِنوي، الذي يبدأ بعد أربعين ميلاً جنوب غربي شيكاغو ويشق طريقه إلى المسسبي Mississippi. وتعد البلدة قديمة بمقاييس المِدوِست (وسَط الغَرب) الأمريكي، وقد نظر أبرَهام لِنْكُلْن Abraham Lincoln في قضية في إحدى محاكمها المحلية. ومركز البلدة هو شارع رئيس مألوف تحف به مخازن من دورين، بنيت بناءً متيناً بأحجار الآجُر. أما مباني المصارف القديمة فقد بنيت من أعمدة يونانية الطراز تعلوها سواري للعلم الأمريكي، بينما تبدو مباني المصارف الأجد مثل معارض بيع السيارات. ولكنائسها العديدة أبراج جميلة، وقد سُمِّيَت مدارسها بأسماء رؤساء أمريكيين.

ولم يتغير عدد سكان بكين الذين لم يَزِد عددهم على 33.860 نسمة إلا قليلاً خلال عشرين سنة خَلَت، وليست قيم المساكن الممتدة على طول ممرات المدينة التي تحف بها الأشجار غالية بالمقاييس الأمريكية. فقد كانت قيمة البيت المتوسط في بكين سنة 2000م لايتجاوز 75.000 دولارً، وهذا أقل من نصف الرقم الوطني. ويبلغ متوسط دخل الأسرة في المنطقة 37.972 دولاراً، وهذا أقل من أي مكان آخر في الولايات المتحدة عامة، إذ يبلغ 43.527 دولاراً. غير أن المدينة تقدم فرص عمل تزيد 10 بالمئة عن المتوسط الوطني.

ويذهب سُبع عمال بكين إلى المصانع في الصباح. وتقع بيوريا، موطن كاتِرپلر صانعة معدات البناء والمناجم الجبارة، على مقربة من بكين، ولها أثر قوي على اقتصادها. فهناك خمسة وثلاثون مصنع آلات في الجوار القريب، ومصنعان للأدوات والقوالب. ويضمن العمل النقابي في البلدة بقاء أجور التصنيع مرتفعة

http://www.ibtesama.com/vb

نسبياً. حيث يكسب العاملون في الآلات 32 دولاراً في الساعة، فيكفل ذلك لهم مستوى جيداً للعيش بالمقاييس الأمريكية.

وتفخر بكين بحدائقها الواسـعة وبيئتها الصحية. وتصف القصص المنشورة علـى الصفحة الأولى فـي صحيفة ديلي بكين تايمـز Daily Pekin Times صعوبات تحكيم سـنوية لمسابقة ملكـة نبات مَرجولد Marigold، أو عن نجاح المهرجان العمالي المحلي، الذي يصلح لأن يكون عنواناً جيداً في صحيفة صينية. بينمـا تحمل الصحيفة اليومية فـي بيوريا Peoria أخبـاراً أكثر إثارة. تحمل الصحف الكبرى الصادرة في شِكاو، التي تبعد 165 ميلاً شمالاً، الأخبار الدولية والوطنية، ولكن صفحات الصحيفة لا تأتي على ذكر بكين فلا تذكر منها سـوى أخبـار الرياضة في البلـدة الصغيرة. لم يكن ارتباط تاريـخ بكين هذه بالصين أكثر من أمر انعكس انعكاسـاً طريفاً ومُلتَبسـاً في معظمه. حيث يظهر مسـرح بكين على بطاقة بريدية ترجع إلى سـنة 1928م بناءً له سقف من القرميد بُنيَ على الطراز الصيني ومظلّة شرقية مُبهمة تعلن عن مسرحية كلارا باو الفكاهية Clara Bow comedy. لم يعد ذلك البناء قائماً الآن. وظلَّ سـكان بكين حتى سنة 1981م يُسَمّون فِرَقهم الرياضية العامة في المدارس الثانوية بفرق «الشِنك» The Chinks، ثم استبدل الاسم بالتنين The Dragons

لقد عكس هذا التغيير حساسـية ثقافية جديدة بالتأكيد. وقد جاء ذلك في الوقتالمناسب. فلم تَعُد الصين في بكين إلِنوي طرفة أو مكاناً نائياً. وصار اقتصاد بكين، مثل سواد بقاع أمريكا، مُرْتَبِطاً ارتباطاً وثيقاً باقتصاد الصين، وليس ذلك بفتحة مُتَخَيَّلة، وإنما بطرق ملاحة دولية حقيقية، وأسواق مال، واتصالات سلكية ولاسلكية، وبعولمة الشهوة المكتسبة، فوق ذلك كلِّه. متاهَة ذُرَةٍ عالمية.

الذرة العالميّة المذهلة

وتحيط ببكين حقول البلاد الغنية، في ولاية مستوية تماماً، ومتموجة تموجاً يكفي لكسر الضوء، ويعطي في الصيف طيفاً لا نهائياً من الخضرة، كاللون الذي

http://www.ibtesama.com/vb

تراه على ورقة الدولار. وتُصَدِّر مَزارِعُ البلاد التي تزيد عن تسعمئة مزرعة في كل سنة، بضائع قيمتها أكثر من 120 مليون دولار من المنتجات الزراعية إلى جميع أرجاء العالم. وتعد الذرة وفول الصويا أغنى المحاصيل. وتُصَدِّرالخنازير أيضاً.

لقد بدأ إصلاح السوق في الصين بالمزارعين الذين استغلوا رغبة البلاد بغذاء أفضل مما يقدمه لها النظام الشيوعي، وإن ازدياد الرفاهية في الصين تعطي مزارعي العالم فرصة لإشباع جوع سكان الصين الذين يزداد استعدادهم لإنفاق ثروتهم الجديدة لملء موائدهم. وقد قدم مارك درابِنْستُت Mark Drabenstott، نائب رئيس بنك الاحتياط الفِدرالي في مركز مدينة كَنْسَس، ونانسي نوفاك Nancy Novack، اقتصادية في المركز، دراسة عن ريف أمريكا Study of Rural America، قيَّما فيها طلب الصين في تعليق في أيار/ مايو 2004م. فقال المسؤولان الفِدراليان: «كانت الصين عاملاً أساسياً في تحديد الاتجاه المؤدي إلى ارتفاع أسعار [السلع الزراعية الأمريكية]، فعند الصين أكثر من بليون فَم يجب عليها إطعامه، وإن المكاسب الاقتصادية القوية تركت ملايين مستهلكي الصين يطالبون بتحسين غذائهم. وكان ذلك، في معظم الحالات، يعني بروتيناً أكثر وأرُزاً أقل. كان ذلك التحول بشارة خير للمزارع الأمريكية، فقوتها تعتمد على إنتاج العَلَف واللحم».

ونقول بتعبير آخر: إن ما يطلبه مستهلك الصين هو الذي يستطيع مزارعو بكين تقديمه. وبينما نجد درابِنْستُت ونوفاك يُقِرّان أن أسعار المزارع سترتفع وتنخفض، وستزداد الصادرات وتنقص، غير أنهما يتوقعان أن يكون الاتجاه الذي تقوده الصين في المدى البعيد يسري نحو زيادة الطلب. فالبلد، كما يريانها، سوق نمو كلاسيكي للغذاء؛ وتعكس تنميتُه نُمو مجالات الاقتصاد الأخرى التي أسهمت خلال نصف القرن الماضي في تحويل الزراعة الأمريكية إلى مصدر عظيم القوة. وينسجم بحث كَنْسَس مع ما اكتشفته آن فيك Ann Veeck، وهي باحثة درست أنماط الاستهلاك في الصين بعد انتشار الإصلاحات الاقتصادية،

http://www.ibtesama.com/vb

في أسواق نانجنج Nanjing فقالت: عندما يرتفع دخل الأُسَر الصينية فسوف ينفقون قسطاً كبيراً منه في تحسين نوع الغذاء.

ثَمَّة اتجاهان آخران يجعلان الصينيين أكثر إقبالاً على شراء الغذاء. أحدهما الهجرة. فعندما يرحل الصينيون عن مزارعهم، لابد لهم من أن يشتروا غذاءً قد زَرَعَه غيرهم. وليس ثَمَّة ما يسعد القطاع الزراعي الأمريكي أكثر من تحقيق أهداف الصين في التحول إلى حياة المدن، إذ يُحَوِّل مئات ملايين الأُسَر التي تعيش على محصول أرضها إلى زبائن يشترون السلع من البقاليات.

أما الاتجاه الآخر، فهو انكماش مساحة الأراضي القابلة للزراعة في الصين بسبب الانتشار العشوائي للمراكز المدينية. فقد اختفى 17 مليون آراً من الأراضي الزراعية منذ منتصف تسعينيات القرن العشرين. ولايُخفي قادة الصين ذُعْرَهُم من تلك الخسارة. وقد بلغ بهم الخوف، الذي يرجع إلى تاريخ الصين في المجاعة وما رافقها، إلى ذروتها في سنة 2004م عندما أدى انخفاض محصول القمح في الصين إلى تحويل البلاد إلى مستورد للغذاء أول مرة في تاريخها. ولجأ الصينيون إلى استئجار مساحات شاسعة من أرض كازاخستان المجاورة، ولاوس، وقِطَع صغيرة من الأرض في كوبا لتضمن السيطرة على موارد غذائها. وإن المكاسب التي تحققها هذه الجهود لا تقارن بالخسارة الهائلة التي نتجت عن التحول في العمل وفي استخدام الأرض. غير أن خسارة الصين ستكون مكسباً لبقية العالم الزراعي. فقد توقع البنك الدولي أن تتضاعف واردات الأغذية في البلاد سنة 2002م.

وسوف يأتي معظم هذا الغذاء من إلِنوي. فقد صدَّرت ثلاث وسبعون مزرعة في الولاية غذاءً وحبوباً سنة 2003م أكثر مما تُصَدِّرُه أي ولاية أخرى، فجاءت إلِنوي الولاية الثانية في التصدير، إذ صدرت ماقيمته أكثر من 3.3 بليون دولار من المنتجات الزراعية إلى ما وراء البحار.

http://www.ibtesama.com/vb

غير أن تجارة الغذاء قلما تكون أمراً اقتصادياً فحسب، ولا بد لمزارعي بكين من أن يخوضوا في البرامج الجيوبولتكيَّة للصراع مع للأمم العظمى. فكانوا مع مزارعين من جميع أرجاء أمريكا، من الأشد دفاعاً عن دخول الصين منظمة التجارة العالمية سنة 2001م. فقد كانوا يأملون أن تتمكن مهارة المزارع الأمريكي من وضع المنتجات الزراعية الأمريكية في موقع منافس للإنتاج المحلي الصيني، الذي يحصد معظمه من بقع صغيرة جداً من الأرض يعمل فيها حشد عظيم من الناس وقلة من المعدات. ويبلغ متوسط مساحة المزارع في أمريكا حوالي 469 إيكراً [إيكر = نحو 4000 متراً مربعاً]، بينما لا يتجاوز متوسط مَزارع الصين 1.2 إيكراً. وإن مساحات معظم المزارع المحيطة بكين في إِلنوي أكبر، وتنعم بتربة سوداء عميقة وغنية لها ميزات النمو الخصب للبزور المهندَسة بيولوجياً والأسمدة المركبة التي يقدمها بائعو البزور في أمريكا. ويستطيع مُزارع أمريكي واحد يستعمل حصّادة / درّاسة قيمتها 200.000 $ أن يؤدي عمل عشرين ألف مزارع صيني يعملون في مَزارع خَصَّتهم بها حكومتهم.

وبينما تجد عدد المزارع الأمريكية يتراجع إلى 1.9 مليون فقط، تَبْقَى فُرَص العمل المُرتبطة بالزراعة مرتفعة تقدر بنحو21 مليون فرصة، وبذلك تكون الزراعة أكبر رب عمل في البلاد. غير أن 800 مليون مزارعاً في الصين يشكلون الجزء الأكبر من قوى العمل في الصين، ويتعارض هذا مع مطالب التجارة الأكثر تحرراً. وقد واجَهَ المزارعون الأمريكيون مُشْكِلات لم يتوقعوها، فانخفضت صادرات الزراعة انخفاضاً حاداً في السنة الأولى بعد أن دخلت الصين منظمة التجارة الدولية.

وقال رُن آر. وُورفيلد Warfield Ron R. رئيس مكتب الزراعة في إِلنوي لمجلة فوربس Forbes: «لقد بذلنا جهداً كبيراً لدخول الصين في منظمة التجارة العالمية، فهي سوق كبيرة محتملة، وتوقعنا أن تبذل جهداً صادقاً في التزامها بقوانين منظمة التجارة العالمية، غير أننا وجدنا أنفسنا في مواجهة عوائق تجارية مصطنعة».

http://www.ibtesama.com/vb

وتأتي العوائق التجارية الصينية وتذهب دون إنذار. فقلق الحكومة الصينية دائـم من الاضطراب خارج المدن، إذ لاتَفْتأ تُعيد التوازن بين الضرائب الزراعية المحليـة والإعانات بينما تحاول أن تتيح لمزارعيها الوصول إلى الأسـواق العالمية عندما تكون الأسعار جيدة، والحماية من قوى السوق عندما تكون غير مُرضية. وقد تنتج عوائق غير متوقعة عندما ترى الحكومة الصينية الحاجة إلى الحد من الواردات. وقد تصبح الشكوى من ملائمة المحاصيل الأجنبية أو تركيبها الجيني، الذي يحتمل أن يكون ملفقاً، أمراً عادياً. وتربك هذه الإجراءات المصدرين وتحولُ دون وضع خطـط عمل متينة لمحاصيلهم. ولم يكن المزارعون الأمريكيون سـنة 2002م واثقين من الموقف الصيني ومن ملاءمة مواصفات فول الصويا الأمريكي حتى التفتوا إلى أسواق أخرى، متفادين الصين.

وكانت الصين، في ذلك الوقت، تستعد للمنافسة في تصدير محاصيل عدة. وقد زادت صادراتها الزراعية في السنة الأولى التي تلت دخولها منظمة التجارة العالمية؛ فكان مقدار زيادة صادراتها الزراعية 1.5 بليون دولاراً وهو أربع أضعاف ما زاد في وارداتها. وقد نمت صادرات الصين من بعض الأصناف التي كان يأمل مزارعو أمريكا في بيع المزيد منها، ومن تلك الأصناف الذرة وفول الصويا.

لا تبين السـنة الأولى من اتفاق كامل القصة، فتجـارة أمريكا الزراعية مع الصـين مازالت تتطور. وكان المزارعون المحيطـون ببكين في إلنوي يأملون في أن تدفـع الاتفاقات التجارية الجديدة المبرمة بين الولايات المتحدة والصين التي وُقِّعَت سنة 2004م الصينَ إلى تخفض من قيودها على الاستيراد وتشتري نصف مليـون متر مكعب من الذرة الأمريكية فـي المدى القريب، وربما ملايين الأطنان الأخرى في السنوات التالية.

إن المزارعين الذين يزرعون الذرة يزرعون غالباً فول الصويا أيضاً، فيزرعونهما بالتناوب بينهما للوقاية من تفشي الحشرات. إن مراقبة سوق الصويا اليوم تعني مراقبـة المسـتهلك الصيني، الذي بدأت عاداته تتغير بعـد أن صار أَغْنى وأكثَر

http://www.ibtesama.com/vb

وَفْرَة. وقد وجد الباحثون في جامعة ولاية أَيَوا Iowa State University أن استهلاك الزيت النباتي في العشاء الصيني المتوسط زاد 440 بالمئة سنة 1999م عما كان في سنة 1979م. فكانت عبوة من زيت الصويا، قبل التحرر الاقتصادي، من أهم المواد التي يشتهيها الصينيون الذين يسمح لهم بتلقي طرود تَرِدُ إِلَيْهِم من أقاربهم في الخارج.

لقد وَلَّت تلك الأيام، غير أن الاستهلاك ما زال يزداد. لقد زرعت الصين فول الصويا على تربتها منذ خمسة آلاف سنة على الأقل، وقد ازدهرت زراعة فول الصويا في الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر بعد استيراد النبتة من الصين واليابان. وإنه لَيَصعب أن نُفَكِّر بطعام صيني دون صويا مثلما يصعب أن نفكر به دون أَرُز. فالصويا مادة أساسية في علف الحيوان، وزيت الطبخ، وتوفو tofu، ومواد مضافة، وصلصات، وغيرها. وبرغم ذلك، فما زال استهلاك البر الصيني الرئيس قليلاً نسبياً مقارنة بأترابهم الأغنى من بني جنسهم وراء البحار. فنظام الغذاء المتوسط في جمهورية الصين الشعبية يتضمن سبعة عشر باونداً [= 7.65 كيلوجراماً] من مشتقات الصويا، بينما يستهلك الصينيون في مضيق تايوان عشرة أضعاف ذلك. فإذا زاد استهلاك صينيو البر الرئيس حتى يبلغ نصف ما يستهلكه التايوانيون، فسوف تضطر الصين إلى استيراد سُدس ما تنتجه المزارع الأمريكية من فول الصويا.

وهكذا يرى كبار منتجي الصويا في العالم سوقاً عملاقة تَتَكَوَّن. فمنتجات الصويا التي ترسل إلى الصين اليوم تَصِلُ إليها في أساطيل تُرسَل من مزارع في نصف الكرة الغربي Western Hemisphere. حيث بلغت قيمة صادرات الولايات المتحدة سنة 2003م من فول الصويا إلى الصين 2.9 بليون دولاراً، وهذا أكثر من مجموع الشحنات إلى أي بلد آخر، وثلث صادرات الولايات المتحدة من فول الصويا. وكان ذلك بعد مضاعفة الشحنات في سنتين مُتَتَالِيَتَيْن. وكانت الأسعار خلالهما مرتفعة أيضاً، فقد قَلَّت المحاصيل الأمريكية في ذلك الموسم؛

http://www.ibtesama.com/vb

بسبب قِلَّة المطر وتفشي وباء حشرة المَنَّة التي تمتص نسغ النبات ويعيق نموه. فلم تعرف أمريكا موسماً تَدَنَّى البيع فيه إلى ذلك الحد منذ أوائل سبعينيات القرن العشرين.

كان الباعة الأجانب، فيما مضى، يتهافتون على البيع تعويضاً عن فول الصويا ودقيق القمح والذرة الذي لم يكن في المخزون الأمريكي. غير أن محاصيل الموسم الزراعي في سنتي 2003م و 2004م كانت شحيحة أيضاً في أمريكا الجنوبية. وزاد في أثر نقص المحاصيل سوءاً عدم توفر شبكة طرق ووسائط نقل في أمريكا اللاتينية لنقل المحاصيل إلى حيث يجب أن تصل في الوقت المناسب. ولقد اشتد الطلب على الحبوب والفول حتى نجد ستة آلاف شاحنة برازيلية تقصد الميناء، تحمل الحبوب للتصدير، تقف في رتل مزدحم طوله ستين ميلاً قد يستغرق عبوره شهراً.

ويرى البرازيليون في ازدياد طلب الصين فرصة، وتراهم مُصَمِّمين على منافسة مزارعي الولايات المتحدة في تجارة الحبوب مع الصين. وإن الروابط التجارية والسياسية مع الصين تعطي الحكومة البرازيلية اليسارية ثقلاً موازناً لنفوذ الولايات المتحدة، وتعمل الحكومتان جاهدتان على ترسيخ علاقاتهما. وقد كانت زيارة الصين في مقدمة رحلات الرئيس لويز إناشيو لولا دا سلفا President Luis Inacio Lula da Silva الكبيرة بعد أن تولى الحكم. وقد رافقه أربعمئة من رجال الأعمال، معظمهم من القطاع الزراعي. ويشترك البلدان الآن في الأقمار الصناعية، ومشاريع بنية تحتية، والتِكنولوجْيَة. وزادت صادرات البرازيل الزراعية ثلاثة أضعاف سنة 2003م حتى بلغت 1.2 بليون دولار، ثم تجاوزت ذلك الرقم في منتصف سنة 2004م.

وأدرك البرازيليون نمو صادراتهم السريع الذي بلغ عشرة أضعاف ما كانت عليه. وهذا ما يعطي الصين موطئ قدم سياسي واقتصادي كبير في أمريكا اللاتينية. وقد حسبت البرازيل لذلك دعم الصين في مساعدتها للحصول على مقعد دائم في مجلس الأمن في الأمم المتحدة.

http://www.ibtesama.com/vb

وقد قال الرئيس لولا Lula سنة 2004م: «أن الحكومة اتخذت في السنة التي مضت قراراً استراتيجياً بالاقتراب من الصين» وذكر أن الصين والبرازيل «تجمعهما اهتمامات مشتركة تتعلق بحاجاتهما الاجتماعية، وضرورات النمو، والفكر الاشتراكي في الأمم المتحدة وفي منظمة التجارة الدولية».

وأرسلت إلنوي بعثتها التجارية إلى الصين في الشهر الذي وصل فيه الرئيس البرازيلي إليها في طائرة مملوءة برجال الأعمال والقادة الحكوميين. وانطلقت بعثة إلنوي مع موسيقى صاخبة من مكتب حاكم الولاية رُدّ بلاجوجفتش Rod Blagojevich، وأعلن الحاكم: «إننا بقيادتنا لهذه البعثة التجارية إلى الصين، إنما نُسَهِّل الانسجام بين مهارات شركات إلنوي واتساع حاجات السوق الأجنبي، ويجب أن تعَزِّز هذه الرحلة العلاقات التي ستُوَفِّر فرص نمو هائلة... اليوم وغداً».

لقد شارك في البعثة خمس مؤسسات من الولاية فحسب.

يمتد حزام زراعة الذرة في الصين امتداداً واسعاً ولكن على نحو أقل وضوحاً، غير أنه قوي. وتُؤوي بكين مصنعَ أفنتاين رِنيُوبِل إنرجي Aventine Renewable Energy، ثاني أكبر مُنتِج للكحول الإثيلي (الإيثانول Ethanol) في البلاد، وهو وقود إضافي يُشْتَق من الذرة. ويُحَوَّل عُشْر محصول الذرة الأمريكية إلى وقود. وتنتشر جمعيات المزارعين التعاونية الذين يستثمرون في وحدات إثانول صغيرة، بالإضافة إلى أفنْتاين بكين، لملء مضخات البلاد والعالم بالوقود. وقد تجاوزت الصينُ اليابانَ كثاني أكبر مُستهلك للنِّفط في العالم، وإن ازدياد الطلب الصيني يجعل الإيثانول بديلاً مرغوباً به. فارتفعت أسعار الإثنول ارتفاعاً مقداره أربعين سنتاً للجالون في ربيع سنة 2004م، فأدى ذلك إلى ارتفاع أسعار الذرة الأمريكية، وعاد ذلك بفائدة على مزارعي بكين وصُنّاعها.

وتُنَشِّط حاجةُ المزارعين المحليين إلى اكتساح سوق الصين كلَّ شيءٍ في منطقة بكين. ويبذل قادة بكين المدنيون جهدهم مع مسؤولي الولاية والمسؤولين

http://www.ibtesama.com/vb

الفدراليين، مثلما تناضل البرازيل لِحَلِّ مشكلات بُنَيَتها التحتية، لتمويل بناء طرقات رئيسة تُمَكِّن المزارعين من إيصال سِلَعِهم إلى الموانئ الكبيرة، مثل شيكاغو، على نحو أسرع وأقل كلفة. ولما كان تمويل الولايات المتحدة لطرقاتها الرئيسة زهيداً لا يكاد يُغَطّي صيانة الطرقات القائمة، فإن مشروعات الطرق الجديدة تعد نصراً كبيراً. ونستطيع القول إن ما تَعِدُ به تجارة الصين مع المزارع الأمريكية يُعطي وسَطَ أمريكا طرقات أفضل.

وسيستفيد المزارعون الأمريكيون أيضاً إن ساعدت شَهِية الصين المنفتحة على رَفْع اقتصاديات آسيوية نامية أخرى في المدى البعيد. وسوف تزيد تلك البلدان أيضاً إنفاقها على الغذاء إن عاد انفِتاحُ شهِيَّة الصين على الموارد بفائدة على اقتصاديات جيرانها في جنوب شرق آسيا، غير أن السؤال لا يزال قائماً عن استطاعة تلك الاقتصاديات النمو بخطى سريعة خلال العقود التالية اعتماداً على قوة الطلب الصيني، أم ستؤدي قوة الصين الصناعية إلى فقدان تايلاند وماليزيا قدرتها الصناعية والعودة إلى اقتصاد يعتمد على المصادر الطبيعية فحسب؟ وللمرء أن يتساءل أيضاً: إن كانت قوى الإنتاج فِي الصين ستحول دون تقدم دول مثل فييتنام وإندونيسيا اعتماداً على اليد العاملة الرخيصة والموارد الطبيعية؟.

فإذا لم يكن في تثليث التجارة العالمية، وسياسة التعرفة وسواها من العَقَبات، والحال العالمي للحشرات وفيروسات المحاصيل ما يكفي لِلقَلَق، فإن مزارعي بكين يستطيعون إضافة الصحة المالية لمصارف الصين إلى قائمة الأمور التي يَجْدُرُ بِهِم مراقبتها. فالصينيون يعصرون 29 مليون طن من فول الصويا في السنة لِيَستَخْرِجوا منها زيت الطبخ، وإن الشركات التي تَعْصِر فولَ الصويا تُحَقِّق خسارةً كبيرة منذ زمن طويل. وعندما حاولت الحكومة الصينية، في أيار/مايو 2004م، أن تجد طريقة تُريح اقتصاد البلاد المزدهر، توَقَّفَت مصارف الحكومة الصينية عن إقراض شركات عصر الزيت. إزاء نقص السيولة، فلم تَستَطِع الشركات أن تُسَدِّد ثمن ما تستورده بسبب نَقْص سُيولَتِها المالية. وتُرِكَت

http://www.ibtesama.com/vb

السـفن المُحمّلة بالفول عاطلة في ميناء داليان Dalian في الشـمال الشرقي. ورأى مزارعو بكين أسعارَ فول الصويا القادمة المتداوَلَة في غرفة تجارة شيكاغو تهبط 8 بالمئة.

وحـين تصبح المفارقـات التاريخية أكثـر وضوحاً، في المـدى البعيد، فقد يسـتفيد المزارعون الأمريكيون من رحيل الصناعة الأمريكية إلى الصين. وليس ذلـك لأن طلب الصين للمنتجـات الزراعية قد ارتفع، وإنمـا لأن الآثار العالمية القويـة للاقتصاد الصيني قد سَـهَّلَت علـى المزارع الأمريكـي تمويل تجارته. ففائـض التجارة الصينيـة الطاغي مع الولايات المتحدة يخفض نسـب الفائدة التـي تفرضها المصارف الأمريكية على المقترضـين (تجد تفصيل هذا الموضوع فـي الفصل التالي). ويشـمل ذلك أصحابَ 1.9 مليون مزرعـة أمريكية، الذين انخفضـت معدلات الفوائد على قروضهم المصرفية انخفاضاً مقداره 2.5 بالمئة في سنتي 2001م و 2002م. وتساعدُ معدلات الفائدة المنخفضة المزارعينَ على تمكنهم من تسـديد قروضهم. وقد سـاعدت على رفع قيمة الأرض، وهي نعمة أخـرى للمزارعين، الذين زادت قيمة أملاكهم زيادة ملحوظة أثناء فترة انخفاض الفائـدة. وقد دعم ذلك قدرتهم على الاقتـراض. فكيفما نظرت إلى الأمر تجد الصينَ تَزرَعُ بذور ثَروة المزارعين.

المُكَوِّنات الأساسيَّة

ليس مزارعـو بكين وحدهم همم الذيـن يُركِّزون تفكيَرهم علـى الصين. فثمَّة عمال ومديرون في إكسِل فاونْدري أنْد ماشين Excel Foundry and Machine، وهو مصنع يقع على بُقْعَة مُنعَزلة من شـارع واجنسلرWagonseller لا يمكن الوصول إليه إلا بإرشـادات مفَصَّلة. ويصنع إكسِل قطع غيار لآلات تُستَعْمَل في الإنشاءات الثقيلة والمناجم. وليس في مخزن إكسِل تكنولوجية عالية في ظاهرها، وإنما هي صناعة أمريكية في أبسـط أشـكالها، تصنع قطعاً معدنية تدخل في

http://www.ibtesama.com/vb

آلات شـــركات أخرى وتسبكها. فمُعظم الآلات التي تدخل فيها قطع إكْسِل – من مكابس، وجرافات صناعية، وعربات نقل، ومضخات، ومعاصر مخروطية – تعيد تشكيل كتل كبيرة من التراب. وإن من أكبر أسواقها استبدال قطع آلات التعدين العملاقة، كتلك التي تصنعها كاتربللر Caterpillar في بيوريا Peoria.

وإن التَجَوُّل في المسبك الذي يقع على مساحة اثنين وعشرين ألف قدم مربع يُشْعِر المَرْءَ بضآلة غير مألوفة. فالأفران الأحد عشـــر تستطيع أن تسبك قطعاً يصل وزنها إلى خمســـة عشـــر طناً. وتَجِد على أرض المسبك اسطوانات جديدة من النحـــاس اللامع يبلغ حجمُها حجمَ بعض مراحل صاروخ ســـاترن Saturn ومخاريط من الفولاذ المســـبوك تبدو كقمرات فضائية. وهناك مكونات أساسية عرضُها ســـبعة أقدام، وأعمدة عملاقة، وتروس صغيـــرة، وبكرات من أجل دَلْو التعدين تستطيع أن ترفع بيتاً كاملاً. وتُصَدِّر الشركةُ ما تصنعه إلى جميع أرجاء العالم وتبيعُه من مخازنها الخاصة المنتشرة حول العالم.

يرأس دَوْ بارسُـــنز Doug Parsons، الرئيس الشاب لشركة إكْسِل، العمل الذي تملكه أســـرته. وبارسُـــنز رجل كُفء معتدل البنية. إنه يرتدي بدلة عندما يذهـــب للعمل، غير أنه يحتفظ بمكتبه البســـيط قرب مســـرح العمـــل، ويُحَيِّي معظم العمال بأســـمائهم. وقد بذل بارسُنز جهداً كبيراً ليبقي إكْسِل في الموضع اللائق بها في صناعة الســـباكة. ويجوب بارسُـــنز العالم بحثاً عن أفضل الآلات وممارسات العمل وطرائقه، ويعتقد أن الشركة لا تستطيع أن تبقى متقدمة مالم تَسْتَثْمِر في التكنولوجية.

ويقول بارسُـــنز: «إن أي قطعة من القطع التي نصنعها والتي يمكن تقليدها بسهولة في مســـابك المعادن في الصين، تُسَلَّم لمن يبيعها وراء البحار». تستطيع إكْسِل أن تحقق ربحاً أكبر من هذه السلع لو أنتجها آخرون، ثم تبيعها هي بهامش ربح أكبر. ويبدي بارسُـــنز اســـتعداداً للعمل وسيطاً لبعض القطع طالما ساعدت تلك الإستراتيجية إكْسِل على أن تحافظ على موقعها مصنعاً للقطع ذات القيمة

http://www.ibtesama.com/vb

الأعلى. وقد استطاعت الشركة، بقيادته، أن تعيد 20 بالمئة من طاقة الشركة الإنتاجية إلى الصين. ويؤدي إنتاج أجزاء السلع بعيداً عن الصين إلى تحرير الموهبة والآلات في مصنع إكْسِل ذاته. وتستطيع إكْسِل، عند ذلك، أن تصنع منتجات لا تُضاهيها إلا مُنتجات قِلّة من الشركات الأخرى، إن وُجِدَت. وهنا تَكْمُن هوامش الربح الأثمن.

وتتضمن المواد الأغلى سعراً، عند إكْسِل، قوالب التروس والمُسَنَّنات العملاقة والأسطوانات الكبيرة، صنعت من خليط معدني بهندسة عاليه. وتدخل هذه القطع في صنع آلات تقتلع الصخر والخامات وتطحنها في مناجم العالم، وينبغي أن تُصَنع على نحو يُمَكِّنها من تحمل أقْسى ظروف العمل. ويُمكن أن تتعرض شركات التعدين لخسارة عظمى بسبب أعطال الآلات التي تؤدي إلى وقف العمل فترات طويلة، لذلك كان على إكْسِل أن توفِّر قطعها عندما تطلبها شركات التعدين. إن هذه الحاجة المُلِحة ترفع قيمة قطع إكْسِل، التي قد تبلغ قيمة إحداها أكثر من 10.000 دولار.

ويدرك بارسُنز أن القطع ذات الاستعمال الخاص اليوم قد تصبح سلعاً عادية غداً. كما يدرك أنه إن أراد أن يحافظ على عمل قد يخسره لمسابك الصين الرخيصة والضخمة التي لا تحصى، عليه أن يبيع مزيداً من إنتاجه خارج حدود الصين. ولن يستطيع حماية بعض القطع التي سَيُقَلدها بعض منافسيه وراء البحار حتماً. ويقول: «لن أستطيع أن أتنبأ سبيلَ أداء عملنا في المستقبل، وإنما الهدف هو أن نبقى مُتقدمين على مُنافسينا على نحو يمكننا من أن يستمر عمل مصنعنا هنا ونحقق الربح».

وليست المشكلة التي تواجه بارسُنز الآن تعويض المنتجات التي ابتلعها منافسوه؛ وإنما إدارة نمو شركته. فزبائن إكْسِل الذين يعملون في التعدين يستهلكون آلاتهم، إذا رَفَعَت الصين الطلبَ العالمي على كل ما يُحفر ويُستخرج من الأرض تقريباً. وتحتاج إكْسِل إلى خمسة وعشرين عاملاً جديداً لملء شواغر

http://www.ibtesama.com/vb

فنية في مصانعها. وقد بحثت إدراة الموارد البشـرية بحثاً مسـتفيضاً بين قوى العمل المحلية، وقابلت عشرات المرشحين، ثم خرجت خالية الوِفاض. فَكَفَّت عن البحث بين العاطلين عن العمل وبدأت تسـعى إلى اسـتقطاب عمال يعملون في شركات أخرى.

وهكذا نجد في رغبة إكّسِـل تلبية طلب الصين لهجةً يشوبها الشؤم. وبرغم كل ما يقال في الولايات المتحدة والدول الصناعية الأخرى عن ضياع فرص عمل في الصناعة، فإن ملء الشواغر المُتاحة قد يكون غايةً صعبةً. فالعمال ذوو الخبرة الصناعية لا يجوبون الأسواق بحثاً عن عمل، وخريجو المدارس الثانوية والجامعات الجدد لا يرون في العمل في الصناعة، وبخاصة الصناعات الأساسية، مهنة جيدة يطمحون إليها. بينما يواجه منافسـو إكّسِل في الصين معضلة معاكسة. إذ ينبغي أن يُغَربلوا فائض العمال الراغبين في العمل، ومنهم فائض من خريجي الجامعات والمدارس الفنية الذين يدخلون سوق العمل بمهارات فائقة.

وربما يَقود إكّسِلَ بحثُها عن قوى عاملة إلى شيكاغو. فقد كان تطور الصين التي غدت مركزاً صناعياً منخفض الكلفة أحد الأسـباب التي جعلت شـيكاغو مكاناً مناسباً للبحث عن قوى عاملة عاطلة عن العمل. إذ فقدت المدينة وجوارها مئة ألف فرصة عمل صناعي في ثلاث سـنين كان آخرها سنة 2003م، ففقدت سنة 2003م فرصَ عملٍ فاقَ عَدَدُها أيَّ مركز مَديني أمريكي. وبرغم ذلك، فما زال للصناعة أهمية عظمى في منطقة شيكاغو، حيث يعمل 622.000 عامل في اثنين وثلاثين ألف مصنع. وبِرغمِ ضياع ذلك القدر الكبير من فرص العمل، تبقى منطقة شـيكاغو – ومناطق أُخرى في ولاية إنديانا – حاضرات صناعية رائدة في أمريكا تزيد مبيعاتها عن 59 بليون دولار من السلع المُصَنَّعة. وما زال للثروة الصناعية آثار مباشـرة وقوية في المدينة. فقد صـار حبس الرهن على البيوت لعدم استطاعة أصحابها تسديد أقساط قروضها مرآةً تعكس خسارة الصناعة. ويبين موقع Foreclosures.com، وهو موقع على شـبكة الإنترنت، وليس ما

http://www.ibtesama.com/vb

يُسبب الصِّعابَ فقدان فرص العمل الفورية في المصانع فحسب، وإنما تقويض قطاعات الخدمات والقطاعات المهنية التي تورِّد لتلك المصانع. فمدينة الأكتاف العريضة لم تعد تُعرف بعضلات عمالها الكادحين.

عندما تذهب المصانع المكسيكيَّة إلى الصين
يأتي المكسكيّون إلى أمريكا

ولو أن الذين يبحثون عن عُمَّال لشركة بارسُنز جاؤوا ونظروا، فربما وجدوا عمالاً هُجِّروا مَرَّة ومَرَّتين: مرة في شيكاغو، ومرة في المِكسيك. لقد ارتفعت هجرة المكسِكيِّين إلى شيكاغو سِراعاً خلال خمس عشرة سنة خَلَت حتى إن واحداً من ثلاثين من المقيمين في المنطقة – وعددهم يقرب من سبعمئة ألف – ينحدرون من أصل مكسِكي. وقد اشتدت الهجرة في السنين الأخيرة بعد أن صارت المكسيك تفقد فرص العمل الصناعي فيها لصالح الصين.

وبرغم الخوف من «صوت الامتصاص الهائل» (وهو تعبير لمرشح الرئاسة الأمريكي الدونكشوتي لسنة 1992م رُسّ برو Ross Perot) الذي توقعه كثير من الأمريكيين الذين يخشون أن تهرب الصناعة الأمريكية إلى المكسيك بعد إبرام اتفاقية التجارة الحرة في أمريكا الشمالية NAFTA سنة 1994م، فقد ثبت في النهاية أن الصناعيين الأمريكيين والمكسِكيِّين يتعرضون للخطر. إذ أفادت الحكومة المكسكيّة أن البلاد فقدت 218.000 فرصة عمل صناعي عندما أغلق خمسمئة مصنع من أصل ثلاثة آلاف وسبعمئة مصنع تجميع maquiladoras للتصدير فقط، بين سنة 2001م ونهاية سنة 2003م.

وإن مصانع التجميع المنتشرة على طول الحدود المكسِكية – الأمريكية، التي تشتهر بِتَعَسُّفِها في معاملة عمالها، تكاد تكون وحدات تجميع منخفضة الكلفة التي تنافس صناعة الصين مباشرة. وهم نسخ مبكّرة وصغيرة عن خطوط التجميع الكبرى والمنشآت الصناعية الضخمة التي تنطلق في جواندونج Guangdong وحول شنغهاي، إن هي قورنت بالنشاط.

http://www.ibtesama.com/vb

الصاخب للمصانع الصينية، التي يوظف مصنع منها ويؤوي ما يعادل 10 بالمئة من جميع عمال مصانع التجميع المكسيكية، فإن تلك المصانع تبدو قواعد أمامية هاجعة. غير إن إغلاق تلك المصانع لا يقصّ إلا بعض القصة، فقد طُرحت مئتا ألف فرصة عمل أخرى ممن بقي بالتدرّج. وتقول وزارة العمل المكسيكيّة إن أجور العمال في البلاد أقل مما كانت عليه سنة 1993م. وذكرت صحيفة واشنطن بوست أن العمال في مصانع المفروشات المكسيكيّة، التي تخضع لمنافسة قوية من نظرائها في الصين – يتقاضون نصف ما كانوا يتقاضونه قبل عقد مضى.

وزأرت الصين مع سقوط الصناعة المكسِكيَّة. إذ تعمل مصانع الشركات الدولية الكبرى في جوادَلَخارا Guadalajara، مركز صناعة الإلكترونيات المعدَّة للتصدير في المكسيك، فهي تُشَغِّل 60 بالمئة من طاقتها الإنتاجية، بعد أن انتقل إنتاج السلع المُنتَجَة بكميات كبيرة، نحو أجهزة الهاتف الجوال ومعدات شبكات الكومبيوتر إلى الصين. 20 وقد قيل إن عمالاً في مصنع لشركة سوني Sony في نوِفو لارِدو Nuevo Laredo أُجْبِروا على تقديم تنازلات لمجاراة أُجور عمال الصين. ويقول نِللي بِنيتِز Nelly Benitez وهو موظف سابق في المصنع، إن الشركة قد «بدأت تهدد بالانتقال إلى الصين عندما بدأت تخفيض الأجور والمزايا سنة 2001م. فقد انخفضت الأُجور الأسبوعية من ثمانمئة بيزو تقريباً إلى ستمئة بيزو». أي من 70 دولاراً إلى 52 دولار. وتحمل الصحف عناوين مشحونة نحو «الصين: عدو يجب قهره» وليس ثمَّة قهر. وتُبَيِّن بيانات وزارة التجارة الأمريكية عن فترة تقع بين سنة 2002م ونهاية سنة 2003م أن المكسيك فَقَدَت حصتها من السوق في ثلاث عشرة صناعة من صناعاتها التصديرية الأولى، ذهب جُلُّها إلى الصين.

إن أحد مخارج عمال المكسيك، وبخاصّة المهرة منهم، هو الذهاب شمالاً إلى الولايات المتحدة، حيث يستطيعون أن يجدوا عملاً في المصانع الأمريكية التي

http://www.ibtesama.com/vb

تسـعى إلى خَفْض نفقاتها كي تجاري منافسـة الصين. ويكسب عمال التجميع المكسيكيّين، وسطياً، أربعة أضعاف مـا يتقاضاه عمال الصين، ولايزيد هذا عن سُبع ما يتقاضاه عمال المصانع الأمريكية. وقد وجد أصحاب العمل في مصانع مثل مصانع شيكاغو أنهم يستطيعون تشغيل عمال مصانع مكسيكيّين غير منخرطين في نقابات بنصف الأجر الذي يتقاضاه العمال الرئيسين. فكان جزء من الصفقة أن يتخلّص أصحاب العمل من دفع مزايا إضافية، كالرعاية الصحية. ويجد خُمسُ عمال المكسيك عملاً في مصنع في شيكاغو.

وقد يصعب إدارة قوى عاملة من فئتين مختلفتين، ولم يضطر بارسُنز إلى أن يرجع في تنظيم سُلّم أجور عمّاله في بكين. وإذا استأجرت إكْسِل مكسيكياً مهاجراً في شيكاغو، فهي تَستأجِره لمهاراته ووفرة وجود أمثاله.

لقد جعلت وفرة القوى العاملة الصينية بارسُنز يَنْفض رأسه. وغرق بارسُنز في كرسِيِّه عندما علم أن شركة في شنغهاي أُنشئت منذ تسع سنوات (سنعود إلى الحديث عنها في فصل لاحق) صارت رائدة في سبك عجلات الألمنيوم للسيارات في العالم بعد بضع سنوات من تأسيسها، وتساءل: «أنىّ لهذه الشركة أن تجد عمالاً مهرة تحتاج إليهم كي تنمو بهذه السرعة؟»

وعندما قيل له إن شركة العجلات قد دخلت صناعة السيارات وإنها تنتج عشرات ألوف الشاحنات الصغيرة في السنة، يقوم بتجميعها خريجون جدد من المدارس الثانوية الفنية في الصين يستعملون أدوات يدوية، قال: «إنها صورة مُرعِبة».

كانت الصين تجول في فكر بارسُنز لأسباب أخرى. فقد ارتفعت أسعار النحاس والحديد، مثل النِّفْط، في سنتي 2003م و2004م ارتفاعاً مفاجئاً إثر الطلب الصيني، وقد أدّى ذلك إلى ارتفاع تكاليف إكْسِل. وكان عملاء إكْسِل في العالم، الذين يعملون في التعدين في ذلك الوقت يشترون المزيد من منتجات إكْسِل لإشباع تلك الشهية الصينية ذاتها لِلسِّلَع. وقد شهدت أعمال إكْسِل في أُستراليا،

http://www.ibtesama.com/vb

حيث تشهد المناجم طَفْرَة عظيمة، وانتعاشاً جيداً في الفترة الأخيرة. وتعد مجموعة ملبورن بي إتش بي بلِتُن Melbourne's BHP Billiton Group أكبر شركة تعدين منوع في العالم. وقد حَقَّقت سنة 4-2003م أعظم ربح تُحَقِّقُه شركةٌ في تاريخ أُستراليا، وكان سببه قوة طلب الصين للمواد الأولية*.

كان بارسُــنز يطمح إلى أن يلتَقِط بعض ثمرات طفرة الصين. فأنشأ شركة جديدة لصنع آلات اسـمها رابترز Raptors، تُكَسِّـر الصخر لأغراض البناء، وتتضمن صناعة الإسـمنت. أُقيم المصنع الجديد في منطقة مشـروعات بكين Pekin Enterprise Zone ويرمـز لهـا اختصاراً ب ي ز PEZ، بمسـاعدة أمـوال ضرائب الولاية. تعد منطقة بز PEZ صغيـرة جداً إذا قورنت بالمناطق الاقتصادية الخاصة المزدهرة في الصين، وبرغم ذلك، فقد قدمت حوافز كافية تسـاعدت بارسُـنز على إطلاق مشـروعه الجديد. سـوف يبيع بارسُنز آلاته الجديـدة ويقدم خدمات ما بعد البيع في الولايات المتحدة أولاً ثم يشـحذ هِمَّة العمل للمنافسـة في العالم. كان صعباً، قبل أن تُقْلِع الصين، أن ترى كسّـارات الحصى تحقّق عملاً نامياً، غير أن قناعة بارسُـنز باستطاعة آلاته الجديدة أن تلائم جنون طفرة البناء في الصين لا ريب فيها.

---

* قد تكون أُسترالية البلد الوحيد الأسْعَدُ بنمو الصين من الصين نفسها. وذلك لأن الصين ترتبط مع أُسترالية بصفقات ضخمة للموارد لسنين عديدة ولا يجاريها في ذلك أي بلد آخر، ومنها صفقات قيمتها عشـرات المليارات من الدولارات لشـراء الغاز الطبيعي الأُسترالي. وإن توقعات النمو في أُسـتراليا عالية جداً بسبب طلب الصين لمواردها. فعندما خاطب الرئيس الصيني هو جِنْتاو Hu Jintao البرلمانَ الاتحادي الأُسـترالي في كانبرَّاCanberra في تشـرين الأول/أكتوبر 2003م، قوبل بترحيب عظيم. كما أحاط القادة الأُستراليون هو Hu باهتمام شديد أثناء زيارته التي دامت ثلاثة أيام، وامتدحته الصحافة المحلية. بينما تَعَرّض الرئيس الأمريكي جورج بوش، الذي كان في أُسـترالية قبل يوم واحد فقط، لمضايقات وحَرَج في البرلمان الأُسترالي، ونَهَشَته الصحافة بشدة، ولم يُقَدّم له سوى غَداء شواء مع نجوم الرياضة ورجال أعمال محافظين. وقال أحد كبار المسؤولين السابقين في وزارة الدفاع الأُسترالية لجريدة نيويورك تايمز: «تظن الولايات المتحدة أننا نتناقض في موقفنا من نهوض الصين مثلما تتناقض هي؟» وأضاف: «تريد أُسترالية من واشنطن أن تُدرك أهمية الصين عندنا».

http://www.ibtesama.com/vb

غير أن إكسِل تقاوم التيار السائد، في عملها هذا، بعِناد. فقد بيّنَ بحث أُجري عن الصناعة في إلنوي سنة 2003م أن ثلاث عشرة شركة من كل عشرين شركة تواجه منافسة الصين. وقد أعلن 84 بالمئة من هذه الشركات أن منافسة الصين تؤذي مبيعاتهم بنسبة 17 بالمئة في تلك السنة. وكان متوقعاً أن ترتفع الخسائر إلى 26 بالمئة في سنة 2007م. وقال معظم الصُنّاع الذين شملهم البحث إنهم يرَون أن صناعيي الصين يستطيعون إنتاج منتجات منافسة بكلفة أقل. وعَلّلوا ذلك بسبب واحد هو أن الصينيين يستطيعون الحصول على دعم مالي بشروط أفضل كثيراً من الصناعيين في إلنوي. ويتضمن ذلك إعانات الحكومة ومساعدات أخرى مثل قروض المصارف الحكومية الصينية التي تقدّم بفائدة ضئيلة أو منخفضة وتكون غالباً مع أمل ضعيف في أن تسدد. أما صناعيو بكين، أو غيرها في أمريكا فإنهم يرون الحصول على شروط مماثلة أمراً مستحيلاً.

انخفاض الأسعار، سنة بعد سنة

فلنترك الزقاق الهادئ الذي تَستَقِرّ فيه إكسِل ولندخل في المنطقة التجارية إلى شريط من مجمعات التسويق (مول mall) في طرف البلدة حيث يَتَسَوّق الناس، عند الوصول إلى المجمع الكبيرطوول مارت بكين وهو بمثابة شاهد آخر يمثل نفوذ الصين الزاحف على البلدة.

على خلاف ما قد يبدوعليه فالمخزن معقل للعلامات التجارية الأمريكية. فألوانه وطنيةٌ، ووجهُه باسِمٌ حسن الفأل يرمز إلى بهجة الشركات الأمريكية الكبرى. وقد أعلنت وول مارت دعمَها لمئات من موظفيها الذين لبوا نداء الوطن وذهبوا إلى الحرب في العراق، فحافَظت على وظائفهم. وقد مُنحت وول مارت في تشرين الثاني/ نوفمبر 2003م في حفل توزيع جائزة المحاربين القدماء الأمريكيين السنوي التاسع، الذي بُثَّ بعدئذ على قناة التاريخ History Channel، جائزة

http://www.ibtesama.com/vb

الشركات لحُبِّ الوطن Corporate Patriotism Award. وقد قبل تُم كُفْلِن Tom Coughlin، نائب رئيس وول مـارت، الجائزة قائلاً: يَفْخَرُ أعضاء وول مـارت... بدعم بلادنا وخدمـة مجتمعاتنا.. فالمحاريـون القدماء جزء مهم من مجتمعنا، يمثل القيم التي تجعل بلدنا بلداً عظيماً. يشرّفنا استلام هذه الجائزة وسيسـتمر زملاؤنا بتكريم العسـكريين وأُسَـرِهِم». وإن ما لا تُباهي به المخازن اليوم هو رايات الشركة القديمة المشهورة التي تحث الزبائن على «شراء المنتجات الأمريكية» و «الولايات المتحدة الأمريكية وحدها ليس سواها».

وعندما تدخل مخزن بكين، تستقبلك امرأة في خريف العمر ترتدي قميص بولو POLO وول مارت الأزرق المألوف، وقد طبع اسـم الشركة وشعار «أسعار منخفضة دائماً» فوق جهة القلب. وتَمنحُك ابتسـامةً مُتْعَبة أُجبِرَت عليها. ربما كان وقـت عَمَلها قد قارب نهايته. أو ربما هي ممن كان يتمنى أن يَحْظى بتقاعد سعيد، غير أن راتب تقاعدها لا يكفيها مؤونة الشيخوخة.

ليس ما تدفعه وول مـارت لموظفيها مُجْزياً، كما هو حال كثيرين غيرها من باعـة التجزئة، غير أن صاحب العمل يطوق الجميع بالرعاية. حيث يضم مخزن بكين عمالاً كباراً وشـباباً جاؤوا إلى العمل مؤخراً. وتشـتهر الشركة بتسامحها مع أذواق العاملين الشـخصية خارج العمل، وإن بعض صغار البائعين يمشـطون شعرهم بطريقة متمردة ويُدَبِّسونَه، ويُزَينون ثقوباً متعددة تزييناً بسيطاً. فتجد بعض البائعين قد فقدوا أسنانهم، وبعضهم الآخر يعانون من سِمْنة مُفْرطَة. كما تُعرف الشركة بأنها توظف المُعاقين عقلياً. وتَلْقى في الممرات عُمّالاً قد لا تَراهُم يَنْتَمون إلى المكان، إما لنَباهَتِهِم غير المتوقعة، أو لِبُطْئِهِم الشديد، مِنْهُم عَصَبيّون غير صَبورين أو طاعنون في السِـن، وتَجِد وول مارت لِكُلٍّ منهم مكاناً مناسـباً يبلغ متوسط أجورهم 8 دولارات في الساعة (وهذا أدنى من عتبة الفقر لأسرة من أربعة أشـخاص مدّة عملها سَـنَة)، فكثير منهم لايَسْـتَمِرّون في عملهم في الشركة فترة طويلة. وإنَّ دَيْـدَنَ نِصْف من يَعْمَلُ في مخـازن الولايات المتحدة التجارية ترك العمل في سَنَةٍ مُعَيَّنَة.

http://www.ibtesama.com/vb

وتجد مُعْظَمَ الزبائن، وَقْتَ الظهيرة، الذين يملؤون الأقسام في مخزن بكين أُمَّهات تَصْحَبْنَ صِغارهُن، ومواطنين مُسِنّين يأتون أزواجاً. وتمتلئ عربات الأمّهات بحفاضات الأطفال، والمنظفات، وعلب الحليب، والمشروبات الغازية، وغيرها من الأصناف الغذائية. ولا يشتري كِبارُ السِن الكثير، وربما يزورون المخزن للمشي أكثر مما يقصدونه لشراء حاجات لهم.

وهذا ثاني مخزن لوول مارت في بكين. وقد افتُتِح الأول سنة 1985م وتَحَوَّل الآن إلى مقر لمخزن سِيَرْز Sears. وقد أجَّرَ وول مارت مَقَرَّه القديم بعد أن ضاق بالأصناف التي يبيعها. ويقع مخزن وول مارت الجديد في بكين على أرض مساحتها 203.000 قدماً مربعاً، وهو أحد مراكز المَوْجَة الأولى الألف الكبيرة التي تَنْوي وول مارت بناءها في الولايات المتحدة.

وبينما نرى مخازن الشركة تزداد اتساعاً وتمتص قدراً أكبر من مدخرات الأمريكيين المتوفرة، وحصةً أكبر من حسابات منافسيهم. وصارت وول مارت اليوم تشكل ركناً كبيراً من الاقتصاد المحلي حتى صار يقص الشريط الحريري في احتفالات افتتاح مخازنهم الجديدة «سفراء ومديرو غرفة تجارة منطقة بكين. «فلماذا كل هذا الهَرْج الاحتفالي؟ إن مخازن وول مارت الثلاثة التي تقع ضمن نصف قطر مداه أربعين دقيقة بالسيارة عن بكين تجعل الشركة من كبار أصحاب العمل في وسط إلِنُوي.

وتأتي أهمية وول مارت المحلية في بكين نتيجة مباشرة لقوة الشركة في العالم. فَوَجْهُ الشَبَه بين وول مارت والصين هو كِبَر حجمها المدهش. فشركة بيع التجزئة هذه قد صارت أكبر شركة في العالم. وقد عدّها تشارلز فِشْمَن Charles Fishman، في لمحة مختصرة كتبها عن وول مارت في عدد كانون الأول/ديسمبر 2003م من مجلة الأعمال فاست كومباني Fast Company أنها أكبر من إكزُن موبايل Exxon Mobile، وجنرال إلِكْتِرك General Electric، وجنرال موتُرز General Motors، وتتجاوز مبيعاتُها السنوية

http://www.ibtesama.com/vb

مبيعات منافساتها تارجت Target، وسِيَرز Sears، وكِيْ مارت Kmart، وجي سي بنِي JCPenney، وسِيْف وِيْ Safeway، وكروجرKroger، مجتمعة. فقد ضاهت مبيعات وول مارت سنة 2003م التي بلغت 260 بليون دولار الناتج المحلي الإجمالي لسويسرة، الذي سرعان ما يصبح دونها. وإن عدد من يشتري من وول مارت يومياً يبلغ 14 مليون شارياً ويبلغ هذه ضعفي عدد سكان سويسرة. وإن عدد العاملين في وول مارت 1.4مليون عامل – وهذه أكبر عدد لعاملين في شركات خاصة في العالم– يساوي خمس عدد سكان سويسرة. وتُخَطِّطُ الشركة لإقامة ألف مخزن جديد تُضيفُهُم إلى ثلاثة آلاف مخزن تملكهم اليوم، وستوظف ثمانمئة ألف موظف جديد. ولا بد للشركة من البحث عن أكثر من نصف مليون عامل في الولايات المتحدة كل سنة لتغطي أمرين، مواقع عمل شاغرة تنتج عن ترك عدد كبير من العاملين فيها عمَلَهم كلّ سنة، ولتأمين عاملين للمخازن الجديدة التي تفتحها.

ربما يكون نمو وول مارت قوةً اقتصاديةً مرتبطاً مع بروز الصين عملاقاً صناعياً. فلم تُحِط شركةٌ من شركات العالم بِقوةٍ لِقُدْرَةِ الصين الكامنة أكثر مما فعلت وول مارت، ولم تُحَفِّز شركةٌ أكثرَ منها الصناعيين الأمريكيين، والأُوروبيين، واليابانيين، في التحوّل إلى الصين. وقد ذكرت سلسلة مقالات نشرتها صحيفة لوس أنجِلِس تايمز Los Angeles Times عن الشركة في أواخر سنة 2003م أن يوم كانت 6 بالمئة فقط من سلَع المخازن الأمريكية تَرِدُ سنة 1995م من خارج أمريكا، كان كلُّ ما يباع في وول مارت قد «صُنِعَ في أمريكا». ويتفاوت تقدير كمية البضائع التي تَرِدُ إلى وول مارت من خارج الولايات المتحدة اليوم بين 50 و85 بالمئة.

كانت مصانع الصين هي المصدر الأهم والأسرع نمواً في ما يرد إلى الشركة. واشترت الشركة سنة 2003م بضائع قيمتها 15 بليون دولاراً من الصين. وتبلغ نسبة قيمة البضائع التي تشتريها الشركة من الصين بين 10 إلى 13 بالمئة

http://www.ibtesama.com/vb

من كل ما تستورده الولايات المتحدة من الصين. وقد كتب بيتر جدْمَن Peter Goodman وفلبّ بان Philip Pan في الواشنطن بوست Washington Post في شباط فبراير 2004م أن «أكثر من 80 بالمئة من ستةِ آلافٍ من المصانع المُوَرِّدة لمخازن وول مارت المنتشرة في العالم صينية.» وثمَّة 560 مفاوضاً للشركة منتشرون على الأرض لشراء السلع المطلوبة للمخازن. وقد ذكر جدْمَن وبان أن وول مارت، لو كانت دولة لاحتلت المرتبة الخامسة بين أسواق التصدير الصينية، متقدمة على ألمانيا وبريطانية العظمى. حيث تغطي تجارة وول مارت مع الصين 1,5 بالمئة تقريباً من مجموع الناتج المحلي الصيني.

سرعة وقوّة عالمِيَّتين

كَثُرَت النظرات إلى وول مارت على أنها شيطان لِتَهْجيرِها فُرَص عملٍ في صناعات أمريكية إلى ما وراء البحار. وليس يَسهُل فَصل دور آلاف الموردين إلى وول مارت في هجرة الصناعة خارج الولايات المتحدة عن الاتجاهات العالمية الأوسع التي تعيد ترتيب إجراء الصناعة في العالم وأين تُصْنَع. فإذا كان ثَمَّة دور فريد لوول مارت في ذلك الاتجاه، فإنها المهارة التي أدارت بها الشركة تلك النزعة وسرّعتها. ولذلك يجدر أن لا يُنظر إلى وول مارت ضمن إطار مجموعة مخازن وإنما هي خدمة لتقديم سلع إلى زبائنها بأخفض سعر ممكن، ويحقق ربحاً في آنٍ معاً.

فَطَوَّرَت الشركة، من أجل ذلك، أنظمة أوسع وأكثر تقدماً في التكنولوجية في العالم لإيجاد سلَع كلفتُها مُنخَفِضة تستطيع أن توصلها إلى مخازنها بأكفأ سبيل ممكن. وتملك وول مارت، على سبيل المثال، أكبر شبكة أقمار صناعية خاصة في العالم، توظفها لمراقبة مَسار السلع في أرجاء العالم وهي تأخُذ طريقَها إليها. وتطبق الشركة نظاماً يُحَدِّد الهوية بالتردد الراديَوي Radio Frequency Identification RFID يرصُد كل صندوق بضاعة تُباع إلى وول مارت منذ

http://www.ibtesama.com/vb

مناعتها في أرض المصنع الذي تُصنع فيه حتى يخرج الصندوق فارغاً من أحد مخـــازن وول مـــارت. ويُتيحُ نظام تحديد الهوية هذا لـــوول مارت إدارة مخزونها بدِقّة شـــديدة كأَنَّ المصانع الصينيَّة المُنتِجَة لبَضائعها تَقَع في الشارع ذاتِه الذي يَقَع فية مخزنها الذي تُباعُ فيه البضاعة. وقد واجهت المخازن الأصغر التي تبيع الثياب، والخردوات، والألعاب، وبخاصَّة تلك التي يملكها باعَةٌ من مجتمع محلي، صِعاباً في الاستمرار مع وجود وول مارت حتى الآن، ومع استطاعة الشركة على الوصول إلى مورِّدين لها في كل العالم تجعل منافستها أشد ضَراوَة.

إن قوَّة وول مارت الهائلة تجعلها وحدها قادرة على أن تُجبر الشـــركات على تغيير طرائق صنعها الأشياء. ويكون هذا التغيير، غالباً بنقل الإنتاج إلى الصين. ومـــن مفارقات شـــبكات التَوريد العالميـــة أن تظهر وكأنها تأخذ شـــكل المنظمة الصناعية التي هزمتها.

وقـــد لاحظت مِرل واينجرُد Merrill Weingrod، وهـي استشـــارية في برُفِدنْـــس Providence، في ولاية رُد آيلاند Rhode Island، تابعة لكورت سـالمون أسوشِـــيِتْس Kurt Salmon Associates أن تأمين المصادر الدولية كان نهجاً اتَّبَعَته بعض الصناعات الأمريكية الكبرى خلال خمســـين ســـنة خَلَت. وأن الشـــركات «كانـــت فيما مضى تَكبـــر بدَمْج إنتاجها عموديـــاً، بجمع تصنيع مجموعـــة كبيرة من المنتجات والأجزاء الأساســـية تحت ســـقف واحد. وعندما عـادت اليابان إلى الظهور قوةً صناعيةً بعد الحرب العالمية الثانية، اســـتطاعت الشـــركات الأولى التي رأَت أنها إذا ذهبت إلى المصانع اليابانية فإنها ســـتحصل على الســـلع بســـعر أرخص تمكنها من أن تتقدم على منافسيها». تقول واينـجرُد إن اليابـــان لم تَبقَ طويلاً مصدراً رخيص الكلفة، غير أنها أسســـت للاتجاه في دفـــع الشـــركات الأمريكية إلى التقليل من صناعتها وزيادة شـــراء ما يلزمها من أسـواق العالم. «فبدأت صناعة الأحذية بذلك منذ عشـــرات السنين». وعندما تحولت وول مارت إلى مصادر دولية في تسعينيات القرن العشرين، فإنها وسَّعت

http://www.ibtesama.com/vb

اتِّصالها اتِّساعاً شاملاً، حتى صارت الشركة تبدو مثل الشركات التي دمجت إنتاجها عمودياً فيما مضى. وتقول واينجرُد: إن الشركة لا تصنع شيئاً حقاً، وإنما تُقيم تحالفات مع مصنعين أجانب كبار تجعلهم أَسْرى لوول مارت. وتَتَمَتَّع الشركة بمعلومات «استخباراتية» وافرة عن أسواقها تُمَكِّنها من معرفة دقائق تكاليف المصنعين الذين يورِّدون لها سلعها. وتستطيع وول مارت إن تُجْبِر مورديها على فتح دفاترهم لها لتَطَّلِع على تفصيلات تكاليفهم بدِقَّة. فتُجْبِرهم بذلك على الإنتاج بأخفض كلفة ممكنة. فحضور الشركة في الصناعة الصينية ابتداءً، يجعلها الزبون المسيطر الذي يتحَكَّم بالمصانع التي تخدمه، ويعطي الشركة قوة لا تُضاهَى في تحديد الأَسعار. وستزداد قوَّتها طالما أبقت صانعيها أسرى لها. وتزيد قوة وول مارت في المنافسة مع أندادها كلما زادت قوّتها في تقرير الأسعار. وتزيد آلة الصناعة رخيصة الكلفة في الصين من ضخامة وول مارت الحاسمة فتُتيح للشركات بناء خطوط تجميع ضخمة تحقق اقتصادًا أضخم حجماً، وتؤدي إلى انخفاض أكبر في الأسعار.

ويخفض مُزَوِّدو وول مارت الصينيون أسعارهم أحياناً تخفيضاً مذهلاً يهزُّ السوق. وعندما تبيع وول مارت أجهزة دي في دي المحمولة لها شاشات إل سي دي LCD قياسها سبع إِنشات مصنوعة في الصين بأقل من 200 دولار، مثلاً، فإنها تساعد على تخفيض أسعار هذه الأجهزة الشائعة إلى النصف، وربما بأسعار بخسة، وتستطيع المصانع الصينية أن تبيع هذه الكميات الهائلة بطيب خاطر. قد قامت وول مارت في حملة استعدادها لتغطية مبيعاتها لعيد الشكر سنة 2002م، اختارت وول مارت شركة سِشْوان تْشَنْجهُنْج إِلِكْتِرِك Sichuan Changhong Electric، وهي من أكبر الشركات التي تصنع أجهزة التلفزيون في العالم، لتصنع لها أجهزة تحمل سمة آبِكْس دِجِتَل Apex Digital. تصنع تشنجهنج 15 مليون جهاز تلفزيون في السنة، تُصَدِّرُ مُعْظَمَها. ويذهب ثمانون بالمئة من الأجهزة المُصَدَّرة إلى الولايات المتحدة. وبيعت أجهزتها في وول مارت

http://www.ibtesama.com/vb

سنة 2002م بثمن أقل كثيراً من أجْهِزة مِثلها صَنَعَتْها شـركات أُخرى، فبِيْعَت أحياناً بثمن منافس بـ 100 دولار أو أقل. إن الأصناف التي باعتها الشركة بثمن منخفض أسهمت بـ 1.4 بليون دولاراً ربحاً، فضاعف بذلك أرباح تشنجهنج*.

وليس شعورُ المُوَرِّدين الأمريكيين بقُوَّة وول مارت أَقَلّ. فعندما تتعامل الشركات مع وول مارت فإنها تُواجِهُ مُفاوضاً عَنيداً يَشْتَرِط أن تُسَلَّم المُنتجات في وقتها المحدَّد وبالقيمة التي اتُّفِقَ عليها. وينبغي أَن تَتَوقَّع الشركاتُ أن تدفَعَها وول مارت إلى تخفيض أسعارها بعد زمن، عوضاً عن أن تَسْمَح للشركات رفعَ أسعارها مع مرور الوقت، إنَّ وول مارت تَتَوَقَّع تخفيضاً سنوياً. ويُقَدِّرُ معهد مَكِنْزي العالمي McKinsey Global Institute، وهو فرع بحوث تابع لمؤسسة مَكِنْزي الاستشارية للإدارة، أن شركة وول مارت ساهمت بـ 4% من زيادة الإنتاج الأمريكي بين سنة 1995م وسنة 1999م، وهذا عامل رئيس في الكفاءة الاقتصادية. غير أن التحول الكبير في وول مارت إلى الصين له دلالةٌ أُخرى. فمهما بَلَغَت كفاءَة مُصَنِّعي وول مارت الأمريكيين، فلن يستطيع معظمهم منافسة مصانع الصين، حيث تبلغ الأجور من قيمة البضائع جزءاً صغيراً مما تبلغه الأُجور في الولايات المتحدة.

يقول تشارلز فِشمَن Charles Fishman إن وول مارت أسطورية في إرغامِها مُزَوِّديها على إعادة تَشكيل أعمالهم، وبِفَرضها الثمن الذي تريد دَفْعَه. وليس ثمة ما يُجْبِرُ أي شركة على التعامل مع وول مارت، غير أَنَّ عَدَمَ التعامُل مع الشركة يعني إخراج مُنتَجاتها من المخازن التي يَقصدُها معظم الأمريكيين،

* لم تكن مقدرة وول مارت على التفاوض وحدها وراء انخفاض أسعار الأجهزة. فقد أفادَ الشركةَ أيضاً قدرةُ المصانع الصينية الهائلة، التي تستطيع إنتاج تسعة أضعاف عدد الأجهزة التي يستطيعُ مُستَهْلِكو الصين شراءَها. وأدَّى إغراقُ الأسواق الأمريكية بأجهزةٍ منخفضةٍ أسعارُها إلى إعلان نذير خطر في أمريكا، التي فرضت 450 مليون دولاراً عقوبات إغراق على بعض المصانع الصينية سنة 2004م.

http://www.ibtesama.com/vb

ويـــزداد إقبـــال العالم عليها. ويـــروي قصة مصنع أمريكـــي للمظلات طلب من وول مارت رفع الأســـعار بمقدار 5 بالمئة لتغطيـــة ارتفاع التكاليف. فأجابته وول مارت أنها تريد تخفيض الأســـعار بمقدار 5 بالمئة. فلم يســـتطع المصنع أن يلبي طلبها، فوجدت وول مارت شـــركةً صينيةً تستطيع ذلك. وبَقِيَت وول مارت تَتَمَتَّع بإمكاناتها الكامِنَة لِبيع ثياب ذات علاماتٍ تجارية، لم يَمَسَسْـــها سوء. أما الآن، وقد آنَ أَوَان إلغاء حصص تصدير الثيابِ والنســـيج، فسوف تُصَدِّر الصين ثياباً إلى الولايات المتحدة دون قَيْد، كما ترغب هي. وكان متوقعاً أن تُصَوِّب وول مارت صدامها المباشـــر، مُسْتَعْمِلَةً كُلَّ روابطها داخل البلاد، إلى بائعي الثياب بالتجزئة في العالم. وليس ثَمَّة شـــك في أن يشْـــهَدَ المســـتهلكون انخفاضَ أسعارِ الثياب بِتَوفيرِ وول مارت مالَ زبائنها.

وتُجْبِرُ شِـــدَّةُ المُنافَسَـــة المصانعَ الصينية الضَّغْطَ على عامِليها، حتى تقطع أنفاسَـــهم، وهم ذوي أُجورٍ مُنْخَفِضَة أصلاً، بزيادة ســـاعات عمَلِهم الأُســـبوعيَّة وإجبارهم على عمل إضافي. وتُواجه مصانع كثيرة في جوَنْدُنج Guangdong مشـــكلات في توظيف عمّال يُلَبُّـــون مُتَطَلَّبات برامجهم، ويتجَمَّع فـــي جوَنْدُنْج جمهـــرة كبيرة من المصانع التي تُصَدِّر معظـــم منتجاتها إلى وول مارت. وتنَبَّهت الحكومة المحلية إلى أن نقصاً في عدد العمال بلَغ مليونا شخص كي يعملون في نظـــم التجميع في المنطقة، ويدعو هذا للعجـــب. وينبغي على أصحاب العمل أن يبحثوا عنهم في عمق الريف الصيني حيث تَقِلُّ أخبار حال المصانع والفقر أعمق. ويوجد فريق من مفتشي المصانع يعمل لشركة وول مارت يجوب المصانع لِلتَحَقُّق من الالتزام بشروط العمل المحلية التي تتطلب أُجوراً دُنيا وعملاً إضافياً صارماً. غير أن قدرتها على ضبط الانتهاكات محدودة أمام براعة مُديري المصانع، الذين يلزّمون أعمالاً كثيرة لمُقاوِلِين من الباطِن لا يَطالهم التفتيش.

وهكذا يُوَفِّر كلُّ مُتَسَـــوِّق في بكين مالاً عندما يشتري من مخازن وول مارت – فيســـتفيد المُتَسَـــوِّقون من علاقة تاجر التجزئة بالصين. وتُسْهم هذه العلاقة

http://www.ibtesama.com/vb

أيضاً في قُدْرة وول مارت على إخراج مخازن أُخرى في المنطقة من السوق. فإذا شهدنا تَغَيُّراً في حال تجارة التجزئة ليشمل دكاكين بيع البضاعة المُسْتَعمَلة، ودكاكين بيع الكُتُب المُسْتَعْمَلَة، ومَشارب القَهْوَة، فسبب ذلك مافعلته وول مارت في بكين مثل ما فعلته في مناطق أُخرى كثيرة - إذ أجبرت مصالح تجارية محلية على التَكَيُّف مع ما حولها، أو أن تُغْلِق أبوابها.

وخلاصة القول هي إن بكين، إلنوي، لاتَختَلف عن مدن أمريكية كثيرة. وها هي الصين غير بعيدة.

الحلم بِعيد ميلاد بافاري

أُخْلِيَت متاجر وسط المدينة، بعد أن انتقل قلب سوق بكين إلى ظاهر المدينة. وحاول بعض التجار أن يجربوا قسط نجاحهم في مُجَمّعات التسويق (مول mall)، بينما تلاشى آخرون أمام المنافسة. ويَحِلُّ في المحلات القديمة التي تواجه الطريق اليوم خليطٌ من المكاتب المهنية، ومحلات التحف القديمة المبتذلة، وبضعة متاجر مختارة ما زالت مقصودة، وإن أحدها هو مخزن الهدايا المحلية بي رِبُند B'Ribondned ،Etc. وتُديره ألثيا جايزر Althea Geiser. وعندما تقيم بكين في كل سنة مهرجان عيد الميلاد في الشارع الرئيس تلبس الأشجار في المدينة شكل عيد أُوروبي قديم. وتأتي بعض الزينة من متجر جايزر الذي يهتم بعيد الميلاد اهتماماً كبيراً في كانون الأول/ ديسمبر من كل سنة.

تقول ألثيا: «إني أذهب إلى معارض الهدايا في شيكاغو كل سنة لشراء بضائعي، حيث أشتري أصنافاً تقليدية».

وسواء أكانت تلك الأصناف تقليدية أم لا، فإن جُلَّ ما تشتريه مستورد. وصارت أهم أصناف المحل أخيراً تأتي من الصين. فمكعبات الثلج البلاستيكيَّة التي تلتَصِق ببعضها وتُلَوّن لتظهر كرجال ثلج تطير من الرفوف، ومثلها كُرات مصنوعة من ريش طاووس. وتجد الإقبال كبير على شراء تماثيل الحكماء،

http://www.ibtesama.com/vb

وأغاني الميلاد، التي تُعطي مهرجانَ الشــارع الرئيــس مَظهَره الأُوروبي القديم. غير أن جايزر لا تشتري الزينة من أوروبا، فتقول، «إنها تكلف ضعف الثمن على أقــل تقدير، وإن قلة من زبائني لا يدفعون ذلك ويحاولون، إن أمكنهم، أن يُوَفِّروا بضعة دولارات لشراء شيء آخر».

وهكذا أصبحت شجرة الميلاد، الرمز الألماني لآمال العيد، مؤشراً لبزوغ نجم الورشــات الصينية. وتلمع الزينة على أغصان الأشــجار، وتبقى الشركات التي ابتكرت أعمال تجارة الميلاد في مهب الريح.

وإن صحَّ ذلك على شيء فإنة يصح على رُتِنْبُرغ أُب دِر تاوْبِر Rothenburg ob der Tauber، وقــد صَنَّفَــه دليل مِشْــلَن الأخضــر Michelin Green Guide بدرجــة ثلاثــة نجوم عــن ألمانيا. فالمدينــة نقطة من النقــاط المضيئة على أشــهر الطرق الســياحية في العالم، رُمَنْتِش شْتراسِــه Romantische Strasse أو الطريق الرومانســي، وهــو الطريق الريفي الــذي يتعرج عبر قرى بافاريــا القديمة كما تراها في البطاقات البريدية، ويبلغ في نهايته قلعة الجنية البيضاء الشهيرة للملك المجنون لدْفج Mad King Ludwig في نُويشفنجاو Neuschwangau.

وتبدو المدينة، من بعيد، كقرية ميلاد من خزف، بخطوط ســقوفها المزدحمة بزخارف بالجص الأبيض التي تشــتهر بها البيوت البافارية، وأبراج كاتدرائيتها الحجريــة، وبرج ســاعتها القديم. وعندما تعبر البوابة، تجــد المدينة متاهة من شوارع حجرية، ودكاكين، وبيوت عُمِّرت قروناً، وكنائس مفتوحة، وقاعات، ونُزُل. وكانــت رُتِنْبُرغ، ضمن هذه الجدران الحجرية القديمة، تَصْخَب بنشــاط تجاري في العصور الوسطى، وكانت تجمّعاتها [نقاباتها] الحِرَفيَّة قوية وغنية حتى كانت المدينــة تُدار كدَوْلــة حُرَّة غير خاضعة للملوك الألمان. وقد ســاعدها على ذلك موقِعها على قِمّة تَلّ إضافة إلى حِصْنها الكبير المنيع.

http://www.ibtesama.com/vb

وقد تبدو لك رُتِنبُرغ وكأنها لم تتغير خلال مئات السنين، غير أن مؤشرات مستقبلها وبشائره يمكن التنبؤ بهما، وبخاصة عندما تمدّ نظرك من كنيسة القديس جاكوب St. Jacob's Church نحو فندق لوتُس Lotus Hotel، وهو النُّزُل الوحيد في رُتِنبُرغ، حيث يقف بوذا حارساً فوق قنطرة مطعم ومشرب ذي طراز ألماني قديم rethskeller. وإن مطعم لوتُس هو أول مطعم محلي يقدم طعاماً محلياً حقيقياً، ويشتد الطلب عليه في هذه الأيام.

لقد أَلِفَت رُتِنبُرغ زيارة الأسيويين لها. إذ يَفِدُ إلى هذه البلدة التي يَسْكُنُها إثنا عشر ألف نسمة ويزورها عددٌ وفيرٌ من اليابانيين يبلغ ستمئة ألف زائر في السنة، يبيتون فيها ليلة واحدة، ويأتون إليها ليذوقوا الطعام الألماني الأصيل، ويستمتعون بالنقانق وكبيس الملفوف المُخَلَّل sauerkraut، ولحم العجل المُدَخَّن، والجعة والنبيذ الألمانيين. وقد سوَّقت هيئة سياحة البلدة في السنوات القليلة الماضية رُتِنبُرغ لسلطات السفر والوكالات الصينية. ويقود هذا الجهد مدير السياحة يوهان كمبتر Johann Kempter، وهو رجل أنيق جذاب في خمسينيات عمره ويُعرَف بخبرته العالمية كتنفيذي رئيس لشركة كبيرة.

يقول كمبتر: «لما كانت البلدة صغيرة وميزانيتها محدودة لم نكن نستطيع أن ندخل السوق الصينية الهائلة دون شركاء آخرين. فأقامت ألمانيا هيئة للسياحة الوطنية في بيجِنْج Beijing سنة 2000م، وهكذا فإننا نستطيع أن نتعاون مع هذا المكتب إلى جانب مكتب آخر في شنجهاي. وقد حققنا في السنوات الأخيرة تجارة السياحة في مدن مختلفة نحو هونج كونج، وجوَنْجزهو Guangzhuo، وزيان Xi'an» وقد حقق كمبتر بعض النجاح. ويقول: «نحن ما زلنا في البداية، وهذا ما فعلناه مع اليابانيين. وربما تكون نسبة ضئيلة جداً من الصينيين الذين يستطيعون تَحَمُّل إعباء السفر إلى أُوروبا، وإن جزءاً صغيراً جداً من الصينيين يُشَكِّل مجموعة كبيرة جداً».

لقد واجهت كمبتر تحديات كان أهمها تنظيم رحلات تريح المسافرين الصينيين. ويقول: «إنهم يحبون البقاء في مجموعاتهم الخاصة، وتناول طعامهم

http://www.ibtesama.com/vb

الخاص حقاً، لذلك فإننا نتخذ ترتيبات خاصة بهم». واللوتس، الذي تديره أسـرة من هونج كونـج، هو أحد الأماكن التي يجد فيها السائح الصيني الراحة. وهو أبعد ما يكون عن الفنادق الغالية الفخمة، وفيه مراوح صينية من الحرير فوق الأسرة.

سـوف تكتسـب رُتِنبُرغ مزيداً من النكهة الصينية في السِنين المُقبلة. وترى إحدى شـركات التسـويق الألمانية أن عدد السياح الآتين من الجمهورية الشعبية يكبر باضطراد – بزيادة مقدارها بين 10 و 15 بالمئة في السنة – وبذلك سوف يفوق عدد اليابانيين. (بـدأت برلين بتنظيم مواقع على الإنترنت باللغة الصينية استعداداً لذلك). وقد سـافر 20 مليون سائح صيني إلى الخارج سنة 2004م، وهذا يسـاوي عدد المسـافرين من اليابان إلى بقاع العالم. وسوف تحتل الصين، بنسـبة نمو عددالمسافرين الحالية، المرتبة الرابعة في عدد السكان الذين يجوبون العالم في سنة 2020م. ويستطيع خمسة وثمانون مليون صيني اليوم تَحَمُّل نفقات السـفر إلى ما وراء البحار، مما يجعل تجارة السياحة العالمية تجري سراعاً، فقد زار ألمانيا سنة 2003م عشرون ألف سائح، ولم يأتِ جميعهم إلى رُتِنبُرغ.

وتتضمن الأماكن التي لا غنى للسائح عن مشاهدتها في رُتِنبُرغ دكاكين عيد الميلاد. وتنتشـر هذه الدكاكين الآن في الأماكن السـياحية فـي أوروبا وأمريكا الشـمالية، مثل كولونيـال وِليمْزبِرْغ Colonial Williamsburg، وفرجينيا، وإدِنْبرَة، وإسْـكُتْلَندَة. وقد ظهرت تلك المتاجر في كل مدينة أو قرية أو دكان في مجَمَّع تسـويق، فـي الولايات المتحدة، يجذب المارَّة، إلـى جانب الإنترنت، حيث يستطيع المرء أن يجول في مواقع مزادات متاجر عيد الميلاد. وتتحول متاجر بيع الهدايا في أماكن مثل بكين، إلى متاجر عيد الميلاد عندما يحين أَوانُه. ويستطيع المـرء، في جميع هـذه الأماكن، أن يجد الزجاج الإيطالـي، ودُمى بقبَّعاتها تُغَنّي أَغانـي الميلاد من قصص دِكِنْز، وعلب حلوى صغيرة (بناتا Piñatas). وحيثما كانـت الدكاكين تبيع، فإنها تبيع جرعـة كبيرة من أصناف أعياد ميلاد جرمانية باردة.

http://www.ibtesama.com/vb

إن رُتِنْبُرغ هي المكان الذي انتشــرت منــه دكاكين عيد الميلاد. وقد كان أول عــرض لها في البلدة وأفضله، وما زال، هو عرض في Käthe Wohlfahrt's Christmas Shop. وهناك كثير من هذه الدكاكين، غير أن وولفارت Wohl-fahrt اليوم من أكبر أعمال التجارة في المدينة الصغيرة، تحقق مبيعاته 22 مليون دولار في السنة. وقد بُنِيَت الدكاكين مصَغَّرة مثل قرى الميلاد، التي تكرر أسواق الأعياد، على مدار الســنة، وتنطلق في جميع أرجاء البــلاد. والألمان مُتَعَصِّبون لجــودة ألعابِهِم، وإنها تُثبِتُ جودَتَهــا حقّاً. ففي الداخل أضواء صغيرة تتوهَّجُ ثمَّ تَخبــو فيها أقواس عملاقة معها تماثيــل صغيرة تمثِّل ملائكة، ونماذج لقطارات وســكك حديد، وكسارات بندُق. وتجد تماثيل لســانتا (بـابا نُويِل) بكل الأحجام معلَّقَة في كل مكان، وترى مهارة الحِرَفيين الألمان اليدويَّة معروضة بالكاملة.

ولم يمض نجاح ولفارت دون تحَدٍّ، وكذلك تعرضَت الزينة المصنوعة في ألمانيا ذات الأســعار المرتَفِعَة. فنشأ خصوم منافسون لمدن بافاريا ورُتِنبُرغ يبيعون زينة عيد الميلاد بأســعار تَقِلُّ كثيراً عن أسعارهم، باستيرادهم لهذه السِّلع ومعظمها من الصين. أما الشــاري الذي ينشــد التُّحَف الموروثة وقطع الخــزف المُزَخْرَفَة بالأســاليب التقليدية، ويشترط أن تكون مما صُنِع محليّاً – أو تلك التي تُحاكيها على الأقل.

ويقــول يوهان كمبــتر Johann Kempter الذي يبقــى على صلة دائمة بتجارة زينة الميلاد الأساسية في رُتِنبُرغ، «لقد تَبَيَّنَ أن الشركة في ولفارت كانت تذهب إلى شــرق آســية لِتُنتِج هناك سلعها فالزبائن ينشــدون الثمن الأدنى من دكاكينها». ويضيف قائلاً: «لا أظن أن رُتِنبُرغ هي ليســت ســوقاً في جزيرة، فلا نستطيع أن نقدِّم السِّلع الفاخرة بأســعار مُترفة فحسب. فزينة الميلاد وهداياه متنوِّعة ومختلفة جداً وهي تَبَع لمزاج التغيير في السوق. فإذا أنتجت سِلْعةً رائجة، فإنك لاتلبث أن تراها مُقَرْصَنَة في زمن قريب».

http://www.ibtesama.com/vb

وتأخذ بعض أنواع الزينة البخسة المستوردة طريقها وغطى موقعها المتوقع لها سِلعة غير متقنة الصنع، وسريعة العطب. ولعل ما يُقْلِق الصُنَّاع الألمان المحليين الذين يتمتعون بتاريخ عريق في صناعات الزينة اليدوية الراقية المتينة، أن الزينة المصنوعة في الصين لها مظهر أفضل دائماً.

ويتبيَّن من معاينة سريعة لسِلع زينة الميلاد في الدكاكين ومواقع شبكة الإنترنت لبيع زينة الميلاد الصينية كيف اقترب الصُنّاع الصينيون من أرقى منافسيهم الإوروبيين. وهم يعرفون أسواقهم معرفة وثيقة، فقد أحسنوا دراستها. وقد عايَنَتْ دويتشه فله Deutsche Welle، وهي محطة تلفزيونية حكومية ألمانية تبث الأخبار، حركة التجارة في ميناء هامبورگ، أكبر موانئ ألمانيا، وتبين لها أن الصين هي أكبر زبائن هذا الميناء، إذ تشغل سُدُس تجارته، ويزداد رقم أعمال تجارته مع الصين حقلين رقميَّيْن في كل سنة من سنوات المستقبل المنظور. ويَشْتَدُّ قَلَق صانعي الألعاب الألمان من المنافسة القادمة من الصين حتى أَجْبَرَهُم اتحادُ الصناعة الذي يجمعهم وحكومة الصين على دعم معايير تحدُّ من الاقتتال التجاري.

وتعد زيارة سيّاح الصين لدكاكين هدايا الميلاد في رُتِنْبُرغ نِعْمَةً ونِقْمَة في آنٍ معاً. إذ يأتي كثير منهم للاطلاع وإضافة الزيارة إلى ذكريات رحلتهم، غير أن عدداً منهم يأتي للبحث عما هو أكثر من اهتمام سائح وتمحيصه، ويأخذون كمية من كل صنف. فالسائح الذي يجول حاملاً أكياساً كبيرة من هذه السِّلَع هو موضع شَكٍّ وغير مُرَحَّبٍ به، فهم يبتاعون ما يبتاعونه نماذج يأخذونها إلى ورش أعمالِهِم ليُقَلِّدوها.

صارت الجِنِّيَّات بَخيلات

وكيف صُنِعَت زينة الميلاد الألمانية – الصينية هذه؟ تَفْتَح روح العيد نافذةً على السوق العالمية، عندما تُحَدِّق الصحافة العالمية في وسائل صناعة الألعاب والزينة. فقد أجرت اثنتان من صحف واشنطن العاصمة، واشنطن تايمز Washington Times

http://www.ibtesama.com/vb

المعروفــة بمراوغتها والتي تملكها كنيســة التوحيــدUnification Church، وواشــنطن بوستWashington Post، دراســة مُعَمَّقة عن تجارة العيد سنة 2003م. وحطّــا كلاهما في يِّيو Yiwu في إقليــم زِجْيانــج Zhejiang. وجالَت واشنطن تايمز في سوق فُتيان Futian في تلك بالبلدة، الذي يختلف عن سوق رُتبَّــرغ في تخصُّصه بمبيعات الجملة للتجار، وتذهب معظم مبيعاتهم إلى خارج الصــين. ويبيع ســبعة آلاف مخزن مواد عيد الميلاد على مِنَصّات ســوق فُتيان. (بينما لا نَجِد في مجمّعات التســويق Mall في سانت بول St. Paul،في ولاية مِنِســوتا Minnesota في أمريكا، وهوأكبر مجمَّع تسويق في الولايات المتحدة، ســوى ستمئة مخزن). ولا يَقْتَصر السوق على بيع بضائع الميلاد. وإنما يبيع زينة مناســبات دينية رائجة مثل صور المســيح، وصور هندوسية، ومجوهرات تحمل خطوطاً إســلامية، وصور دالاي لاما، المنوعة في أماكن أخرى من الصين، على ما ذكرته التايمز. وليس ثَمَّة شــك في أن الميلاد حدث تجاري مُهِم. فالأشــجار المصطنعــة طولها طول رجل قيمــة الواحدة منها 4 دولارت، والعلبة التي تحتوي على ســت مواد زينة وتعطي وميضاً قيمتها ســتة وثلاثون سنتاً. وتتم الصفقات بالســعر المناسب على قدر المســاومة. وقد صَدَّرَت مصانع زينة الميلاد الصينية، التي يبلغ عددها ثلاثة آلاف، من بضائعها ما تزيد قيمته على 900 مليون دولار في الشهور العشرة الأولى من سنة 2003م.

أما صحيفة واشنطن بوست فقد قَصَّت بتفصيل ما رأته في مصنع يِّيو Yiwu، فقالت: إن الســيد زهانج Zhang، صاحب شــركة شــويتو Shuitou Co. في البلدة، لا يعرف عن الميلاد أكثر من أن له علاقة بآلاف الرجال السِّــمان يرتدون لباساً أحمر، يراهم كلَّ يوم في المصنع.

وتقــول الصحيفة: إن مصنــعَ زهانج مصنعٌ صينيّ عــادي لصناعة الحلي الرخيصة، وشروط العمل فيه قاسية. حيث تجد العمال المهاجرين الذين يكسبون 100 دولاراً في الشــهر جاثمين أمام آلآت تَئِزُّ أزاً، وهي تُذيب الرقاقات وتحولها

http://www.ibtesama.com/vb

إلى قِطَع من بلاســتيك قابلة للصياغة، ويســحبون العتــلات بأيديهم ليخرجوا زينة شــجرات الميلاد». وتقطع نســاء حافيات القطع الزائدة من البلاستيك عن المواد بعد أن تخرج من القوالب، بينما يقوم الرجال بقطع استطالات البلاستيك بأيديهم ليحولوها إلى أشجار صناعية.

ولايُدرك السيد زهانج ولا أي من عُمّاله أي معنى دينياً للميلاد، وإنما يعرفون أن تجارة الميلاد تشــكل قِسْطاً من تجارة تصدير الألعاب التي يبلغ مقدارها 10 بلايين دولار من الألعاب والزينة التي تُشحنها الصين في كل سنة. 31 أما بائعو الزينة فــي رُتِنبُرغ، فإن مد الحلي الصينية الرخيصــة، وبعضها خردة لا يصلح للاســتعمال أكثــر من مرة واحدة، وبعضها الآخر صنع بِجــودَة عالية، ما هو إلا ستارة خلفية لكل ما يصنعونه.

لماذا يَجْدُرُ بألمانيا أن تَتَطَلَّعَ إلى الشَرْق كي تَجِدَ نَفْسَها؟

في الوقــت الذي يتعامل صناع اللعب والحرفيون الألمان مع هجوم البضاعة الصينية المنافســة، كان بروز الاقتصاد الصيني، عامَّة، نعمة مختلطة للاقتصاد الألماني، مازال حُلْوها أكثرَ من مُرِّها.

وتَبْقى تجارة ألمانيا مع الصين قريبة من التوازن، وتميل غالباً لصالح ألمانيا، علــى خلاف التجارة بين الولايات المتحدة والصين، التي مابَرِحَت تَتَكَفئُ لمصلحة الصــين ســنة بعد ســنة. وإن العامل الرئيس فــي ذلك الميل هــو أن الألمان هم الذين يصنعون الآلات التي تملأ عشــرات ألوف المصانــع الصينية التي أُقيمَت في العقد الأخير. والصينيون يحتاجــون إلى مخارط ضخمة للمعادن، ومعدات للقوليــة وتطريق المعادن، وخطوط إنتاج كاملة تديرها أجهزة كومبيوتر ومعدات إلكترونيــة. فإذا جُلْتَ في أي مصنع صيني ضخم من المصانع التي تصنع أجهزة إلكترونيــة، تجد آلآت ضخمــة تعمل أوتوماتيكياً تبلــغ قِيَمُها ملايين الدولارات تصنع مكونات الأجهزة الأساســية، تُزَوِّدُها شــركة ســيمنس Siemens، وهي مجموعة شركات الصناعات الإلكترونية والكهربائية الأولى في ألمانيا.

http://www.ibtesama.com/vb

وتلعب شركة سيمنس دوراً رئيساً في بناء كثير من الصناعات الكبرى التي تتطلّبها الصين كي تكون قاعدة صناعية كاملة. فالصناعات التي تُزوِّدُها سيمنس محدودة وتتضمَّن الميتالورجيا metallurgy (علم المعادن)، والصناعات البتروكيميائية، وتوليد الطاقة، وصناعة الزجاج، والإسمنت، ومعالجة المياه، والمعدات ذاتية الحركة، والمعدات الطبية، والاتصالات عن بُعد، والنقل، وإنتاج المواد الغذائية والمشروبات، والتعليب. وثَمَّة خمس وأربعون شركة تابعة لسيمنس تعمل في الصين، يعمل فيها ثلاثون ألف عامل، وقد باعَت معدات قيمتها 5 بلايين دولاراً سنة 2003م. وإن ما تبيعه سيمنس إلى الصين معدات غالية الثمن تحتاج الصين إليها كي تنافس جميع الدول الصناعية في العالم، وينطبق الأمر ذاته على كثير من الشركات الألمانية التي تشكل معظم حصة ألمانيا من التجارة الثنائية مع الصين.

لا يُتيح الألمان لأَي عقبة أن تُعيق سبيل تعاملهم مع الصين. وعندما يأتي قادة الصين إلى ألمانيا، فإنهم يزورون مصانع شركات كبرى مثل سيمنس Siemens ودايملر كرايسلر DaimlerChrysler وفُلْكس فاجن VW. وعندما يزور قادة ألمان الصين، فإنهم يُوَقِّعون اتِّفاقيّات تجارية. أما السياسة؟ وحقوق الانسان؟ وتايوان؟ والتبت؟ فهي مسائل يترك الألمانُ النزاعَ عليها مع الصين للولايات المتحدة.

ولو أن الجمود أصاب سوق الآلات الصناعية الأُوروبية، فسوف تبقى الصينُ سوقاً تستطيع ألمانيا أن تبيع فيه قدراً من معداتها الجديدة يكفي لاستمرار نمو الشركات الألمانية. ولِنَقُل، بتعبير آخر، إن الصين مكانٌ تستطيع ألمانيا أن تكسب فيه ما يحفظ لها نمطَ حياةٍ بَنَتهُ لمواطنيها في سِنِيِّ ازدهارها الرائعة التي عاشتها بعد الحرب العالمية الثانية. فقد نهضت البلاد من رماد الهزيمة النازِيَّة لِتَبني اقتصاداً يضمن لمواطنيها اليوم مُستوى من أعلى مستويات العَيْش في العالم. وقد أنشأ الألمان نظام رفاهٍ اجتماعيٍّ فَجاءَ من أعظم النُّظُم الاجتماعية رَغَداً في العالم، وهو عامل أساس يُبْقي مستوى عيش الألمان عالياً، ومُكَلِفاً

http://www.ibtesama.com/vb

أيضاً. أما الدولة الألمانيـــة وأرباب العمل الألمان، فيقع على عاتقهم حمل نفقات هذه المزايا السَــخِيَّة. ولقد نجحت الشركات الألمانية في الصين بالالتفاف على ثِقَل تكاليف أجور العمل المرتفعة، والنظام الاجتماعي المُكْلِف في الوطن.

إن شـــركة فُلْكس فاجن، على ســبيل المثال، هي إحدى جواهر تاج التجارة الألمانية مع الصين. فقد كانت أول من صنع سيارة أجنبية في الصين، وسيطرت سنين طويلة على صناعة السيارات هناك، تَتَحَكَّم بأكثرمن 50 بالمئة من السوق. وقد انخَفَضَت حصّتها الآن إلى 30 بالمئة من الســوق. وَنَمَت ســوقُ الســيارات فــي الصين نمواً عظيمـــاً، غير أن فُلْكس فاجن ما زالــت في وضع جيد. كانت أرباح الشــركة في الصين، في السنة الماضية، تشكل أرقامها القوية الوحيدة في جميع أســواق الشــركة العالمية. ولولا الصين لكانت أرقام الربح والخســارة في ميزانيات فُلْكس فاجن الســنوية أشبه ببحر من الحبر الأحمر [خسارة هائلة]. وتُضاعِــفُ فُلْكس فاجن رهانَها أيضاً، بإعلانها ســنة 2004م أنها ســتنفق 8 بلايين دولاراً لتُعَزِّز إنتاجها، فقد حَمِيَ وطيسُ التنافس في ســوق السيارات في الصــين. ولا يخلو الطرح الألماني من خَطَر. فعندما تبيع ألمانيا آلاتها إلى ســوق الصين، فإنها سترســل معها مهندســين ألمان ومُعَلّمين مختصين من الشــركات، ليُدَرِّبوا زبائِنَهُم الصينيين على استعمال المعدات. وهناك صينيون يديرون مصانع الشــركات الأجنبية الكبرى متعددة الجنســيات. وسوف يصنعون منتجات عالية الجودة للأسواق العالمية.

ويســتطيع المرء أن يرى، بجلاء، كيف تتميز مقاربة الألمان لو مشــى ليلاً في أي مدينــة صينيــة تجذب العاملين الأجانب، مثل بكين أو شــنغهاي. فإذا لَقيتَ أمريكيين أو بريطانيين في هذه المدن سَتَجِدهم مُنغمسين في ما تُوَفِّرُه لهم المزايا التي يتمتَّع بها كبار الموظفين المغتربين – جاتسبي في هوانجبو Gatsbys on the Huangpu – يتباهــون بأناقة كبار رجال الأعمــال الذين تُظهرهم مجلة فورتشُــن Fortune يرتدون الثِياب الأكثر أناقــة، المُفَصَّلَة لهم تفصيلاً خاصاً

http://www.ibtesama.com/vb

على أحجامهم أو بسيطة تَسمح للواحد منهم أن يَلُف كُمَّي قميصه المصنوع من قماش أُكسفُرْد المُنَقَّط. وثَمَّة فريق كبير من الألمان الذين يتصرفون على هذه الشاكلة، يضع كثير منهم نظارات شمسية ثمينة، وكأن الواحد منهم يتناول بِثقة طَبَقَ شفاينسهاكس Schweinshaxe البافاري، وفريق ألماني كبير آخر من ميكانيكيين ومديري خطوط إنتاج، رجال ضِخام الأجسام يُزَيِّن كلاً منهم شاريان كثيفان يغادرون مواقع عملهم بثياب العمل فيتوقفوا عند البقالات والدكاكين ليشتروا عبوات جعة من نوع تسنجتاو Tsingtao، وهو النوع الذي صَنَعَه أولاً أبناءُ وطنهم في مدينةكتجداو Qingdao، وهي مدينة الميناء الذي كان يسيطر عليه الألمان فيما مضى. وتحاول الشركات الأمريكية أن تدفع بأكبر عدد من الصينيين إلى إدارة مشروعاتهم في أسرع وقت ممكن، بينما يَميل الألمان إلى أن يبقى أمرُها تَحْتَ أيديهم.

وما فَتِئت الصناعات الصينية تُدخِلُ تَحسينات نوعية على جميع ما تصنع. وتظهر هذه التَّحسينات جلِيَّة في الصناعات الإلكترونية ومواد البناء، حيث انخفضت أسعار البضائع عالية الجودة سِراعاً عندما ازدادت الصناعات الصينية خبرةً واتساعاً. وينطبق الأمر أيضاً على منتجات ذات تكنولوجية منخفضة كاللعب، حيث تَتَمَتَّع المصانع الصينية بمزية مزدوجة هي الانخفاض الشديد لأجور اليد العاملة، وامتلاك أحدث المعدات في العالم لتصميم بضائعها وتكوينها وصقلها. وإن التحدي الرئيس لهيمنة الصين بهذه البضائع هو شَهيَّتها الشديدة لصناعتها، وهذا ما يرفع سعر المواد الأولية. وبرغم ارتفاع أسعار المواد الأولية بمقاييس موازية تقريباً في البلدين، فإن كلفة اليد العاملة الصينية تبقى زهيدة بمقاييس الأجور الألمانية، وهي، ليست صدفةً، أعلى أجور في العالم.

ليس في أوروبا حتى اليوم بائع تجزئة مسيطر مثل وول مارت الأمريكية (وليس هذا لأي فرع من فروع وول مارت الأُوروبية) يستطيع أن يُقْحِمَ البضائع الصينية في سوق التجزئة. وإنما يواجه الألمانُ عالما تدفعُ به الصين إلى العمل

http://www.ibtesama.com/vb

ببراعة ودأب أشــد، لاســتغلال الجهد والمال استغلالاً أَجْدَى. حتى وإن لم تُجْبِر المنافســةُ الشــركات الألمانية على نقل إنتاجها إلى الصين، فــإن الضغط عليها لمغادرة ألمانيا كبير. حيث تَتَّجه شــركات كثيرة إلى اقتصاد البلاد التي انْسَــلَخَت عن الشيوعية في أوروبا الشرقية، وبخاصة جمهورية تشيكيا وهنجاريا، لتنافس المتنافسين هناك، باستثمار أسواق الأَجر فيها منخفض، فَتَتَقَدَّم شيئاً فشيئاً على المصانع الصينية. وتلك أخبار تراها أوربا الشــرقية طيبةً تشحَذ هِمَّتَها في وجه الصناعيين الصينيين عندما يَتَطلع المنتجون الأُوروبيون والأمريكيون إلى الانتقال إلى خارج بلادهم [أُفْ شُورoffshore] وعندما تحاول شركاتُهم أن تحصل على موطئ قدم عالمي ببضائع أسعارها أقل.

يتقدم مال الشركات الذكي في ألمانيا على قرارات سياسية للقوى في عملها. وقد أشار استطلاع للرأي نشرته غرفتا الصناعة والتجارة الألمانيتان German Chambers of Industry and Commerce (DIHK) إلى أن الشركات الألمانية تخطو في اســتثمارها في الخارج خطىً سريعة غير مسبوقة في تاريخ البــلاد. ويعكس هذا التحــول الكبير ما يحدث في اقتصــاد دول كبيرة أخرى: فالشــركات الألمانية المتوســطة والأصغر التي بقيت حتى زمن متأخر متمسكة ببقائها في الوطن بدأت تَنْضَم إلى شــركات ألمانية متعددة الجنسيات في سعيها إلى أســواق جديدة تكاليفها أقل. وبَيَّن التقرير أن الشــركات الألمانية قد بدأت تخفف استثماراتها في موطنها لكي تَخطو تلك الخطوة. وقد أُجْبِر العمال الألمان مؤخراً، على العمل ســاعات أطول والاكتفاء بإجازات أقصر لمساعدة الصناعات الألمانية المحلية على منافســةٍ أفضل في عالم يميل إلى الكدِّ والعمل الجاد، وهو العالم الذي ســاعدت على تكوينه بدفع الصين إلى الســرعة التي تجري عليها. وقد قادت سيمنس الحملة عقوداً طويلة ضد أنظمة العمل القديمة مع النقابات الألمانية. وهددت الشــركة بنقل آلاف فرص العمل إلــى خارج ألمانيا ما لم يقبل

http://www.ibtesama.com/vb

عمالها بســاعات عمل أطول دون تكليف الشــركة أعبــاء إضافية، ونجحت في فرض تنازلهم. لقد شجَّع هذا الطرح المتشدد شركات ألمانية أصغر منها على أن تسير خطوات مثلها وعلى نقل الإنتاج إلى الخارج.

ربما تفرض قوانين العمل الألمانية الجديدة مشــكلة إضافية على دكاكين بيع بضائــع عيد الميلاد في رُتِنْبُرغ: فمعظم الســياحة الألمانية اليوم قد لاتجد المال والوقت الكافيين لزيارة البلدة البافارية.

حروب النُّودِل Noodle

تُعطينا مشكلة زينة عيد الميلاد في رُتِنْبُرغ مثالاً يبين لنا كيف تمكَّنَت الصين من صناعة مواد كانت تُجَسِّد جوهر البلد الذي أنتجها أصلاً. ولا تشمل المشكلة حِرَفِيي ألمانيــا وحدهم. فنافخو الزجــاج الإيطاليون، وصنــاع خيوط التطريز البلجيكيــون، والفنانون الروس الذين يطلون بالمينا علبــاً مجموعة أو متداخلة، وصنــاع الباتِــك batik (صبــاغ للقماش) في جاوا يســتطيعون دخول شــبكة الإنترنــت ليجدوا باعــة صينيين يعرضون أصنافاً تُضاهي مــا يصنعون. وتُتقِنُ شركة نَنجبوتبلكNingbo Topluck صناعة قُبَّعات رُعاة البَقَر. ويجد المرء على موقــع www.africaimports.com مُنَوَّعات من أقنعة إفريقية الطراز وتمثال ملكــة بِنِين Benin بين أصناف صُنِعَت في الصــين. وبينما يَجول عدد كبيــر من الصينيين بقاع الأرض، تراهم يرجعون إلــى بلادهم بملاحظات حُلوَة ومُرَّة في آن معاً لأن جميع التذكارات الأجنبية قد صُنِعَت في الصين.

لقد كان لليابانيين الملاحظات ذاتها قبل خمسين سنة. فقد أنتج اقتصادهم يومئــذ منافض الســجائر التذكارية، وكرات الثلــج، والتماثيل الخزفية الصغيرة كانت بطاقات تعريف ببلادهم قبل أن يرســلوا أجهزة باناسونيك Panasonic وسيارات تويوتــا Toyota . ولعلّ ما يبعث الفضول معرفــة ما يجول في ذهن السائح الياباني في ألمانيا عندما يرى عبارة «صنع في الصين» على زينة الميلاد

http://www.ibtesama.com/vb

«الألمانيـة». فالصيـن تَنْتَهك بعضَ المنتجـات «اليابانيـة»، ولايقتصر ذلك على كاميرات رَقَمِيَّة وأجهزة تلفزيون شـديدة الوضوح فحسب، بل مواد قليلة الكلفة ولاتحتاج إلى تكنولوجية عالية هي رموز أبسط للهوية اليابانية.

وإن أحـد هذه الأصنـاف التي تبعث الفضول هـي «معكرونة» (رامِن نودلز ramen noodles)، فـإذا أردت عينـة حقيقية من النودلـز اليابانية فإن خير مكان تقصده هو جزيرة هوكايدو Hokkaido، وهي جزيرة تقع شـمال هونشو Honshu «البر الرئيس» لليابان شـرقاً عبر بحر اليابان من سـيبريا الروسية. وتضم عاصمة الجزيرة سابورو Sapporo التي تضم 1.9 مليون نسمة، هي أكبر مدن هوكايدو. وقد اكتسبت شهرتها العالمية من مهرجان الثلج السنوي الذي يجري فيهـا، حيث يَفِدُ مليون زائر إلى المدينة ليروا نمـاذج هائلة من القلاع، والمعابد، وأبطـال أفـلام كرتون نحتوا من ثلج وجليد. ولسـابورو أهميـة عند اليابانيين لكنوزها الحارة: أوعية كبيرة تتصاعد منها أبخرة حسـاء النودلز هي هاجسهم. وقـد صار هذا الحسـاء يُحاكَى في ابتكار ياباني آخر، تقَـدَّم جاهزةً، وهي كتل شـعيرية مقلية تجدها حيثما ذهَبْتَ، فيباع منها 65 بليون عبوة في السنة، وهي أكثـر الأغذية رواجاً في العالم. وقد أَدخلَ أحدُ أصحاب المطاعم الصينية رامِن نودلز طازجة إلى سـابورو سـنة 1923م، غير أنها لم تَنْتَشِر في أكشاك المدينة قبل سنة 1946م، عندما كانت المدينة تعاني نقصاً في الغذاء بعد سني الحرب. وبهذا أصبحت سـابورو من سوابق حب اليابان للطعام الصيني، الذي صار منذ زمـن طبقاً وطنياً بعد أن اضيف إليه مرق ميزو miso [فول صويا مُخْتَمِر وأرز وشعير] ولمسات يابانية أُخرى.

ويتنافس اليوم أكثر من ألف دكان بيع رامِن نودلز فيما بينهم في سابورو، ولا تبعد دكان منها عن أُخرى أكثر من طول عصي الأكل اليابانية والصينية. وتشتد المنافسة في أكشاك زقاق رامِن وفي زقاق رامِن الجديد New Ramen Alley المتاخم له، فتملأ مَمَرّين ضيقين في قلب سوسـوكينو Susukino، وهي منطقة

http://www.ibtesama.com/vb

اللهو في سـابورو. ولو لم تعد الحركة الليلية كسابق عهدها في سوسوكينو، فقد أثّـر عقـد ونصف من الركود الاقتصـادي في اليابان على حيـاة الليل، وتكيّفت المطاعـم المحلية، والبارات، والنوادي الخاصـة، ومع ظروف التوظيف وميزانيات الترفيه التي ترصدها شركات اليابان. وتعاني صفوف رامِن نودلز الآن، في وقت متأخر من الليل، من أن عدداً أقل ممن يتقاضون رواتب من السُـكارى المُسـرفين في الشراب يتطلّعون إلى لقمة طيبة المذاق في طبق من رامِن نودلز الطازجة التي تصاعد أبخرتها. ولا يزال الباعة ينادون من يستطيعون اسْتِدْراجَه من الزبائن.

وبـدأ نجم رامِن نودلز يَصْعُد في أوقات أخرى من النهار، وفي أماكن أخرى من سـابورو واليابان. وقد جاء هذا الغذاء في هذه الأيام التي تعيشـها اليابان حيـث عادَ التَقْتير في الإنفـاق فضيلةً من جديد. ولما كان اليابانيون يلهثون وراء كل غذاء فاخر ونفيس يأتي من أُوروبا وأمريكا في ثمانينيات القرن العشـرين، فقد صارت النزعـة اليوم إلى رامِن نودلز الرخيصـة*. وتقول صحيفة جابان تايمـز Japan Times إن سـلاسـل مطاعم رامِن نودلز «بـدأت ترفع جودَتها وتَنَوُّعها، فتقدم لحم خنزير خاص وخضار زُرِعَت بأسْـمِدَة عضوية في مطاعم سادَ مظهرها الداخلي خشـب قاتم ونورٌ خافِت. وتبقى رامِن نودلز، وإن قُدِّمت معها أصناف أخرى، رفاهية يسـتطيع الجميع أن يَنْعَمَ بها، وصنفاً من الأصناف اليومية التي أثَّر فيها انخفاض الأسـعار في الاقتصاد الياباني أثراً ظاهراً طيلة

* تجـدر القول أن جيران الصين يعـدون الرواية الصينية للأحداث التاريخية لا تخلو في معظمها من مغالطة، أو ربما ما هو أسوأ، أنها صيغت صياغة تبرر العنف الصيني، حيث يحارب الكوريون محاولـةً صينيةً لإعـادة كتابة تاريخ مملكة كوجوريو الكوريـة Koguryo التي كانت تمتد أجزاء منها داخلا أرض الصين الآن. وتَدَّعي الرواية الصينية الجديدة أن سـلطة المملكة وامتدادها كانا أصغر بكثير مما كان يُعْتَقَد، ويرى المراقبون الكوريون في هذه الرواية سياسة تهدف إلى إضعاف أي مطلـب يطرحه الكوريون الإثنيون فـي مقبل الأيام. وإذا رأينا في احتمال هجوم الكوريين على الصين لاجتزاء أرض منها الآن فكرة سـخيفة وبعيدة الاحتمال، فإن الصينيين ينظرون إلى الأمر من منظار بعيد المدى.

http://www.ibtesama.com/vb

عشـــر ســـنين خَلَت أو أكثر. وقد انخرطت الدكاكين وَصُنَّاع النودلز الجاهزة في حرب أسعار طالَت مدَّتها، وسباق على حصص أكبر في السوق. فصارت معارك النودلز استعراضاً وطنياً، يُظهِرُ أشهر البائعين من أصحاب هذه الدكاكين «نجومَ بيع رامِن نودلز» في البلاد.

وانتقلت عَدوى حرب رامِن إلى الصين فانتشرت هناك، حيث تحاول شركات تابعـــة لكبار منتجي رامِن نودلـــز اليابانيين تعزيز ريادتهم لهـــا. فانتقلت عدوى النودلز الجاهزة إلى الصين خلال الســـنين العشـــر الماضيـــة. وكان باعة الآلات التي تصنع النودلز من أوائل الشركات اليابانية التي تختبر سوق الصين. و يوجد اليوم في الصين أكثر من ثلاثمئة شـــركة تنتج الرامِن الجاهزة. وللنودلز شـــعبية عظيمـــة لأنها لاتكلف كثيراً. فيبلغ ثمن عبوة كاملة يواناً واحداً، أي اثنى عشـــر ســـنتاً تقريباً، وهذا المبلغ هو خمس ثمنها في اليابان. ويحب المســـتهلك الصيني النودلـــز لأنها النســـخة اليابانية من صنف صيني، مُعَلَّبـــة بإتقان ومحضرة وفق شروط صحية نظيفة.

وتعمـــل الحكومة الصينية جاهدة لكي تأخذ صناعة النودلز الصينية حجماً مناسباً حتى تكون من الصادرات الكبيرة. واليابان سوق من أكبر أسواق تصدير الأغذية الصينية المعالجة التي تصل إلى الرفوف اليابانية بعشـــر كلفة البضاعة اليابانية. ويرهق ســـعر الغذاء في اليابان المقاييس الرســـمية لأسعار المستهلك، وعندما يوفر الصينيون بضائع ذات جودة عالية، فإنهم خفضوا أسعار الأصناف في البقالات إلى حَدٍّ لم تشهده اليابان منذ ستينيات القرن العشرين.

وهكذا راجت في اليابان النودلز التي نشـــأت فـــي الصين، وصارت النودلز رائجـــة في الصين عندما انتقل صانعو النودلز إليها من اليابان، بفضل مظهرها اليابانـــي، ثم ما لبث أن راجت أكثر لســـعرها الصينـــي. وبهذا يرمز طبق رامِن نودلـــز إلى صعوبة فصل الأذواق والثقافة اليابانية عن الصينية، وأكثر من ذلك، فصل الاقتصاد الياباني عن الصيني.

http://www.ibtesama.com/vb

وبينما تُنْشِئ الشــركات الصناعيــة اليابانية أعمالاً لها فــي الصين وتبيع معداتها الصناعية للشــركات الصينية، تســتطيع الصين اليــوم إنتاج ما تصنعه اليابــان، بجودة تضاهي تلك التي تفخر بها اليابــان، وتطرحها بكلفة منخفضة عن البضائع اليابانية انخفاضاً كبيراً. فميزان الصين التجاري مع اليابان يشــهد عجزاً، وهذه إحدى الدول الكبيرة القليلة التي يشكل فيها ميزان الصين التجاري عجزاً معها؛ بسبب هذا الثبات والمثابرة في تصدير المنتجات اليابانية إلى الصين. ولا عَجَــب أن نجد الصين الآن شــريكاً تجارياً رائداً لليابــان التجاري؛ وقد زاد التبادل التجاري بين البلدين على تجارة اليابان الثنائية مع الولايات المتحدة سنة 2003م. وإن معظــم ما تبيعه الصين لليابان هو بضائع صنعتها شــركات يابانية في مصانع جديدة لها في الصين لتصديرها إلى الأســواق اليابانية. وقد أَدْرَكَت شركاتٌ كبيرة تصنع أجهزة إلكترونية استهلاكية، نحو سونيSony، وباناسونك Panasonic، وتوشــيبا Toshiba منذ زمن بعيد أن المصانع الصينية تستطيع أن تَغْلِبَهم بأَســعارها وأن لا بد لهم من نقل إنتاجهم إلى الصين كي يســتطيعوا البقاء. (إن سوق أجهزة دي في دي DVD خير مثال على هذه النَزعة وسنتحدث عن ذلك بتفصيل في الفصل القادم).

إن صــورة اليابان الديمُغْرافية الخاصة هي ســبب آخر يدفع مُصَنِّعيها إلى نقل الإنتاج إلى الخارج. فشعب هذه الجزيرة يشيخون وينقص عددهم. وتستطيع المصانــع اليابانية أن تأخذ مكاناً أفضل في ســوق الصــين، التي تنمو بتصميم يوازي ما تفقده اليابان في المستقبل القريب. ويرى اليابانيون الآن رفاه مستقبلهم يتحقــق بارتباط وثيق بنمو الصين. وقد يبدو الأمر أكيداً إذا لم تعلق دول أخرى آمالاً مماثلة على الصين وتضع مخططات مشابهة.

وقد عَمِل جورج ستالك George Stalk، مدير مجموعة بوسطن الاستشارية the Boston Consulting Group وهــي مجموعــة استشــارية لــلإدارة الدولية، ســنينَ عديدة في اليابان، ولاحظ تحولاً جلياً في منتصف تســعينيات

http://www.ibtesama.com/vb

القرن العشـــرين عندما: «أدْرَكت الشركات اليابانية الكبرى أن الصين لا يستهان بها، وَيَجْدُرُ بهم نقلَ إنتاجهم إلى الصين قبل أن يَسْبِقَهُم منافسوهم إليها». ويقول ستالك: إن كبار مصدري اليابان، كالأُوروبيين، يرون في الصين مكاناً يستمر فيه نموهم برغم ركود أســواقهم في بلادهم. «ليس ثَمَّــة أرقام ثابتة عن ذلك، غير أننا نســتطيع تقدير النمو الهامشــي الذي تحققه الشركات اليابانية والأُوروبية من أعمالها في الصين قد يبلغ تســعين بالمئة. فالشركات اليابانية لم تستطع أن تحقــق انطلاقة عظيمة تريدها في أمريكا وأوروبا، بينما يمكنهم الحصول على حصة كبيرة في سوق الصين تعطيهم نمواً حقيقياً». فالسوق الصينية لها ميزاتها المثمرة، وإن الإنتاج لسوق صينية كبيرة له مزايا عالمية إضافية. إنه يتيح لسيارات اليابــان الكبيرة، وآلاتهــا، وصناعاتها الإلكترونية أن تعد العدّة لإقامة منشــآت إنتاج عملاقة تستطيع أن تحقق اقتصاداً ضخماً وقد حققته الصين في صناعة الجوارب، والأحذية، والثياب. وقد أُنفِقَ ثُلث الاســتثمار الياباني في الصين، في الســنين الأخيرة، في بناء منشــآت لصنع الآلات الكهربائية. فالمال المستثمر في صناعة الســيارات في الصين يزداد اليوم، فمعظم شــركات السيارات اليابانية الكبرى قد التزمت باستثمارات كبيرة في الصين.

لكن هذا الربح الذي يعتمد فيه الطرفان على بعضهما يُزعج البلدين. إذ إن إحدى التناقضات الحادَّة في الاقتصاد العالمي هي أنه كلما ازداد ارتباط شعوب مختلفة بعضهم من بعض، زاد فيهم الخوف، والكراهية، والغَطْرَســة، والوطنية. فبينمــا تقترب حياة الصينيين واليابانيين من بعضها، يدخل الشــعبان في دائرة لا تقــف عند حَدٍّ من التنافر والتقارب تفصــح عن أثر الإذلال الذي تعرضت له الصين في القرنين التاســع عشر والعشرين. وإن اليابان، وهي الأقل عسكرة بين القوى العظمى اليوم، تمارس سياســة خارجية تتجنــب النزاع مهما كلف الأمر، غير أنها تبقى أســيرة قسوتها ووحشيتها في ما مضى. ويمكن القول، بصراحة: إن الصين تكره اليابان.

http://www.ibtesama.com/vb

ويستكشف بيتر هِيْز جريس Peter Hayes Gries أستاذ العلوم السياسية في جامعة كلورادو University of Colorado، النزعة إلى الغلو في الوطنية ورهاب الأجانب xenophobia، التي تقرأها كل يوم في صحافة البر الرئيس، في كتابه الرائع وطنية الصين الجديدة China's New Nationalism. ويقول جريس: «عندما نستطيع الحديث عن شعور الحُبِّ والكُره الذي يكنّه كثير من الصينيين لأمريكا، فإننا، دون شك، لانستطيع الحديث عن شعور «الصداقة» الصينية الحَقَّة مع اليابان. فالصينيون كانوا يرون اليابانيين «شياطين» أثناء الحرب العالمية الثانية، ومازالوا يرونهم كذلك اليوم». ويقول إنه عندما يمكن أن يكون الأجانب الآخرون «شياطين أمريكيين» أو «شياطين غربيين» فإن كلمة شيطان، في الصين» عندما تُذكر مُنْفَرِدَة فإنها تعني الآن شخصاً يابانياً. ليس ثَمّة ثقافة في العالم لاتُلَوِّث لُغَتَها والإنسانية بنُعوت عِرقِيَّة. وإن اليابانيَّة مُلَوَّثة بها مثل كل لغة أخرى. غير أن الصينيين يتحدثون عن اليابانيين كما لو أنهم شياطين ولا يتركون مجالاً للإرادة الطيبة بين البلدين للمصافحة على أي شيء.

وتَتَجَلَّى الكراهية في سُبُل قد تفاجئ الغرباء المتدربين بالأساليب السياسية الصحيحة. تَحَدَّث مثلاً إلى مجموعة من طلاب الصحافة الصينيين عن مزايا العقل المُنْفَتِح. ثم زِد في حديثك عن ضبابية الأحكام المُسْبَقَة التي يُطلقها الإنسان وعن ضرورة الاستماع إلى جميع الأطراف. سوف تجد المجموعة تومي برؤوسها موافقة وتبتسم. وسوف يقولون لك: إن ذلك الطرح تَحَرُّري وإن طريقة التفكير تلك تُعجبهم. ثم يرفع أحد الطلاب المتحمسين يده ويسأل: «سيدي، أعتقد أنّنا نحن أيضاً يجب أن نُبقي عُقولَنا مُنْفَتِحَة. ذلك هو السبيل الوحيد الذي يُمكن أن يُعَلِّمَ الناس» ويضيف: «أنا أيضاً لدي عقل مُنْفَتِح إلا في مجال واحد. أنا أكره اليابانيين. «يأتي الانفعال دون تحريض، حتى وإن كانت اليابان بعيدة جداً عن الموضوع الذي المُتداوَل.

http://www.ibtesama.com/vb

ويُشير جريس إلى أن الصينيين عندما يتحدثون بأدب عن «الصداقة الصينية - اليابانية»، كما تفعل صحافة البلد عندما تُغَطّي علاقات البلدين، تجدُ عباراتهم تَفيضُ بِغَمْزٍ بما تَضمُرُه نُفوسُهم من أن موقع اليابان تابع للصين. ويقول جريس إن كراهية اليابانيين المنتشرة كانت أداة مهمة للدولة الصينية، التي تَجْهَر بمعارضة جيرانها. وبرغم أن موقع اليابان في شرق الصين، غير أنها تعد «غَرْبِيِّة» في مخيلة الصينيين لأنها كانت مَعْبَرَ الحداثة الغربيَّة إلى الصين. فَتَبَنّي اليابان المُبَكِّر للأساليب الغربية في التجارة والسياسة أتاح للصين أن تعرف نفسَها بأنها الشرق الحقيقي.

غير أن الصين تتطابق مع اليابان في اقتصاد أقام صناعاته سراعاً ونجح في تحديثه. وقد دُرِسَت نهضة اليابان الصناعية في الفترة التالية للحرب العالمية الثانية دراسةَ إعجابٍ مُسْتَفيضةٍ في قاعات الجامعات الصينية، كما تدرك وزارة المالية الصينية القوة الاستثمارية الهائلة للمصارف المتشابكة والشركات متعددة الجنسيات اليابانية. ويعرفون أن اليابانيين يجب أن يُسْتَعْمَلوا ضد أهم منافس اقتصادي لليابان في الصين، وهم الألمان، على نحوٍ يتيح للبلدين أن يفوزا بما يكفيهما*. ولا تفتأ قوى التصنيع والتصدير لدى الخصمين المتنافسين تستعد لصراع غير عادي، في سوق الصين، على تصنيع المعدات الصناعية، والسيارات، والكيميائيات. فعندما قام تجمع شركات ألمانية بتمويل بناء نموذج نظام سكة حديدية شديد السرعة وبنائه في شنغهاي أملاً في الحصول على مشاريع أكبر، أبْرَمَت وزارة السكك الحديدية في الصين، من فَوْرِها، عقداً قيمته 3.83 بليون دولار لبناء شبكة قطارات عبر البلاد مع مجموعة تضم ست مؤسسات يابانية وشركة صينية واحدة. وثَمَّة مثالٌ آخر يشمل فُلْكس فاجن، التي كانت الشركة الأجنبية المهيمنة على صناعة السيارات في الصين. وعندما سمحت الصين

* قاربت تجارة ألمانيا مع الصين 42 بليون دولار سنة 2004، بينما بلغت تجارة اليابان مع الصين 130 بليون دولار تقريباً.

http://www.ibtesama.com/vb

للشركات الأجنبية ببناء أول مصنع سيارات يملكونه بكامله في البلاد، وقد كانت تفرض من قبل مشاركة شركات السيارات الأجنبية شركات صينية حتى سنة 2003م، (وغالباً ما تكون شركات تملكها الحكومة) فإنها لم تذهب إلى الألمان، وإنما إلى شركة هوندا Honda اليابانية. زعمت هوندا أن مصنعها لن يصنع إلا سيارات يُصَدِّرُها إلى اليابان فحسب، لم يُصَدِّق هذا الزعم إلا قلة من منافسي هوندا، وأيقَنوا أن هوندا سوف تبيع سياراتها في سوق الصين.

يعتمد نجاح اليابان في فوزها بعقود وامتيازات رفيعة من الحكومة الصينية، وهذا ينبئ عن استعداد الصين العظيم لتقديم مصالحها التجارية على ما سواها، وأن تتصرف على نحوٍ يبدو مناقضاً لأكثر هموم البلد السياسية عِناداً. لئن كانت إعادة توحيد تايوان ركناً من أركان ديانة الصين السياسية، فإن كراهية اليابانيين هي الركن الآخر. وليست دعوة المستثمرين والصناعيين التايوانيين لدفع النمو الاقتصادي في البلاد، والسماح لليابانيين باختراق سوق الصين بأهم رمزين من رموز نجاحهم بعد الحرب، القطارات السريعة والسيارات العظيمة، إلا دليلين مُمَيِّزَيْن على استعداد الصين لفتح اقتصادها. ولم يسبق أن أقدم بلد ما، إلا الولايات المتحدة، على فتح اقتصاده أكثر. أما حال الصين مع اليابان، فقد كان الأمر يلامس الشعور القوي العام في الصين.

غير أن النزاع مابَرِحَ ينكأ الجرح القديم بين البلدين. فعندما فاز التجمع الياباني بعقد القطارات السريعة والسكك الحديدية، بدأت مجموعة 18 أيلول / سبتمبر، بجمع مليون توقيع مِمَّن يعارضون دخول التكنولوجية اليابانية في مشروع وطني عظيم على هذا القدر. وسَمَّت هذه الجماعة نفسها على ذلك التاريخ في سنة 1931م، عندما بدأ اليابانيون هجومهم المديد الضاري على الصين. ونجِد في الجهة الأخرى يابانيون متطرفون في دعواهم الوطنية، يظهرون بوضوح حلمهم لتحقيق المستحيل باسترجاع مجد اليابان الاستعماري، وما يُدَغدِغ خيالَهم منه. وهجم يابانيون متطرفون في نيسان/ أبريل 2004م بحافلة تحمل

http://www.ibtesama.com/vb

شـــعارات وطنية يابانية على القنصلية الصينية في أوزاكا Osaka. وقد حُرِّفَت وحشية الاستعمار الياباني في الكتب المدرسية المقررة. ويزور سياسيون وطنيون يابانيون، وبخاصة رئيس الوزراء جونِشـــيرو كُيزومي Junichiro Koizumi، بزيـــارات منتظمة لمَـــزار ياســـوكوني Yasukuni Shrine، وهو مـــكان عِبادَة للشِنْتوShinto يحوي مدافع، وبقايا كَميكازي Kamikaze [الطيران الانتحاري العســـكري الياباني]، وفيه تكريم 2.5 مليون من قتلى الحرب وذكرى أربعة عشـــر مجرم حرب. ويعد الصينيون المزارَ ذكرى ماضي اليابان الاستعماري المجرم.

فاليابان الواثقة المتغطرسة التي انقَضَّت على الصين واختَرَقَتها في النصف الأول من القرن العشـــرين لم تعُد ترى ذلك اليوم في أعلى مســـتوى المســـؤولين فيها. ويعرف اليابانيون أن مصلحتهم تقتضي ألا يسترسلوا في التَباهي بِقُواهم علناً. وعندما تنجح الشركات الأمريكية والأُوروبية في الصين، فإنها تذيع أخبار نجاحها على مساهميها. وقد كانت أعظم الأخبار لفلْكس فاجن وجنرال موتورز مؤخراً هي نجاح عملياتهم في الصين، ونشـــرت على الصفحات الأولى للصحف فـــي جميع أرجاء العالم. أما إذا بحثت فـــي الأخبار عن أرباح العمليات اليابانية فـــي الصـــين تجد ارقاماً عامة مثل أن ثمانية من أصل عشـــرة شـــركات يابانية فـــي الصين تحقق ربحاً هناك، ولا تتوافر معلومات دقيقة عن الشـــركات هناك. ولن تُعلن شـــركة من الشـــركات اليابانية العاملة في الصين أنها تربح الملايين أو المليارات نظـــراً لكراهية الصين لليابانيين. وإنها تحتفـــظ بأرقامها للتداول في غرف اجتماعات مجالس إدارة الشـــركات اليابانية أو في عشـــاء مُغلَق للمدراء التنفيذيين، حيث لابُدَّ أن يُقَدَّم فيه نودلز - المعكرونة.

http://www.ibtesama.com/vb

الفصل السابع

السعر الصيني

قد توجد أخبار كبيرة أحياناً من مواطن صغيرة. فقد ذكر المصرف الاحتياطي الفدرالي في شيكاغو Chicago federal Reserve Bank في عدد تشرين الثاني/ نوفمبر 2003 في نشرة له من أربع صفحات، شكاوى مصانع أمريكية تصنع قطع محركات ذاتية الدفع من أن «صانعي السيارات يطلبون من مُزَوِّديهم - السعر الصيني - لما يشترونه». وعلق مُحَلِّلو المصرف قائلين: إن كبار زبائن المُزَوِّدين الأمريكيين كانوا يطلبون منهم نَقْل مصانعهم إلى الصين، أو البحث عن مُصَنِّعين من الباطِن هناك.

فصار تعبير السعر الصيني يعني، منذ ذلك الحين، في عالم التجارة، أخفض سعر ممكن. صار السعر الصيني جزءاً من اعتقاد جديد ساد، هو أن الشركات تستطيع نَقل أي نوع من العمل تقريباً إلى الصين وتُحَقِّق بذلك وفراً كبيراً، وتَجْعَل كُلَّ عَمَلٍ يُنْقَلُ إليها يُنْجَز بتكلفة أرخص وربما أَفْضَل.

ولا بُدَّ لنا، لكي نَفْهَم هذا النَّمَط من التَفكير، من أن نَذْكُر أن القِسْمَ الأكبر من المُنتَجات التي تخرج من مصانع العالم تباع إلى مُصَنِّعين آخرين قِطَعاً لمنتجاتهم أو برامج معلوماتية. فكثير من السِّلَع العادية كالثلاجَات والكاميرات وأجهزة الهاتف الجوالة تحوي مئات القطع تُنْتِجُها مئات الشركات. أما المُنْتَجات الأكبر، كالسيارات، والطائرات التجارية، والأجسام الآلية (روبوت)، ففيها ألوف من القطع تنتجها ألوف الشركات وتُوَرِّدها. ولا تَصِلُ هذه القِطَع إلى مُسْتَعْمِليها إلا بعد أن يَجُوبَ مسؤولو الشراء عندهم أرجاءَ الأرض بحثاً عن أَفْضَل القِطَع وأَقَلِّ الأثمان. ويَتَحَكَّم السِّعر الصيني، من بين سلاسل الإمداد المنتشرة في بقاع

http://www.ibtesama.com/vb

الأرض، بعقول مسؤولي المشتريات في الشركات الكبيرة. فقد أصبحت الصين، بأسعارها البخسة في نظرهم، أشبه بإلدورادو El Dorado،* حيث أرخص سعر يعني الذهب. وقد كان للإلحاح الدائم على السعر الأدنى أكبر الأثر على طريقة صناعة الأشياء. ما يجعل التأثير كبيراً على الناس أيضاً.

كيف تُصْنَعُ البَطالة؟

عندما تُقارَن قوَّة الصين المُتَصاعِدَة مع ضَياع فرص العمل في العالم، نُدْرِكُ أَنَّ شيئاً لن يوقِفَ السعر الصيني من إخْواء مَصانِع العالم. يبدأ الخوف في الولايات المتحدة من بداية هيمنة قوة الصين الاقتصادية على أرض المصنع. وقد بَيَّن استطلاع للرأي أجري مؤخراً عن قوى العمل الصناعية الأمريكية أن ثلث العمال قَلِقون من احتمال ضياع فرص عَمَلهم، بانتقالها إلى خارج البلاد. وإنَّ خَوْفَهُم مُبَرَّر. وعلى الرغم من أَنَّ ثُمْنَ فُرَص العمل في الولايات المتحدة صناعية، غير أن عدد فرص العمل الصناعي التي ضاعت في الولايات المتحدة بين سنة 2000م وسنة 2003م وقتئذ، يزيد خمسين ضعفاً من احتمال فقد فرصة عمل في الاقتصاد كُلّه. وتراجَعَت فُرَص العمل الصناعي بِاطِّراد منذ ثمانينيات القرن العشرين، غير أن موجة ضياع فرص العمل الأخيرة يتجاوز مجموع عدد فرص العمل التي فقدت جميعها وإن جزءاً صغيراً من العاطلين عن العمل الجُدُد عملوا في قطاع الخدمات. في أثناء ذلك الوقت، وكان احتمال فقدان فرصة عمل صناعي تجاوزت جميع المقاييس السابقة، ولا يماثلها الانكماش الكبير الذي أصاب الشركات الكبرى في أوائل التسعينيات. حيث فَقَدَ في تلك الفترة أَربعمئة أَلف عاملٍ أَعمالَهُم في الصناعة، أي سُبْع عدد الذين أصابَهُم المصيرُ ذاته بين سنة 2000م وسنة 2003م.

* إلدورادو، مكان خُرافي أسطوري يَتَّصِف بالثراء وفُرَص العيش الرغيد. [الناشر]

http://www.ibtesama.com/vb

ومازال البرهان على تصاعد هــذا الاتجاه يزداد. فإحصاءات فرص العمل القَلِقــة في الولايات المتحدة عن البطالة في المــدى البعيد تُثبط الهِمَم، بقياس عدد الأشخاص الذين كانوا عاطلين عن العمل ستة أشهر أو أكثر. وقد تضاعفت البطالة الطويلة في ثلاث سنين بسبب الهبوط الصناعي الذي بدأ سنة 2000م. وقد تعاظمت بطالة طويلة بين أولئك الذين طردوا من أعمال صناعية، وهم أكثر مـن أي فئة أخــرى، فبلغت 260 بالمئة*. ولا تتضمن نســبة البطالة 2.7 مليون أمريكي كَفُّوا عن البحث عن عمل، أو 4.5 مليوناً يشــتغلون أعمالاً جزئية بأجر قليل ويرغبون في الحصول على أفضل منها.

ويســبب فقدان فرص العمل أذىً كبيراً للأســر الأمريكية. فعندما تختفي فرصــةُ عملٍ في أمريكا، فإنها نادراً ما تعود في الصناعة نفســها أو في المكان نفســه. حيث يضطر عمــال ولاية نورث كارولايْنــا North Carolina وولاية ساوث كارولينا South Carolina الذين فقدوا عَمَلَهم في صناعة المفروشات إلــى أن يقفوا منتظرين فرصة مع آلاف العمــال الآخرين الذين فقدوا أعمالهم في صناعات كبرى أخرى في المنطقة للحصول على فرصة عمل ما مُتاحة. وقد أجرت لجنةُ مراجَعَةِ الأمن الأمريكي الصيني U.S.- China Security Review Commission، وهي هيئة رقابية مُفَوَّضَة من الكونجرس بحثاً ميدانياً في ســاوث كارولاينا، وصفت فيه ســنواتٍ ثلاث عجاف سَــبَقَت سنة 2004م، عندما فُقِدَت ثُلُثُ فُرص العمل في صناعة الكومبيوتر والإلكترونيات في الولاية، وثُلث فُرَص العمل في صناعة النسيج، والآلات، وصناعة الأدوات، وخُمْس فرص العمل في الصناعات الكيميائية والمعدنية، وسُــبع فُــرَص العمل في الصناعات البلاســتيكية. فإذا نظرنا إلى الأَمر من زاويــة أخرى نجد أن الدولة قد فَقَدَت فرص عملٍ في قِطاع واسع من الأعمال في البلاد. وهكذا، فإن 85.000 فرصة عمل محلية قد فقدت إلى الأبد.

* بلغ عدد العاطلين عن العمل في الصناعة 102.311 في سنة 2000م. وبلغ العدد 367.323 في سنة 2003م.

http://www.ibtesama.com/vb

وقد فقدت نورث كارولاينا، وهي الولاية التي عانى فيها القطاع الصناعي أكثر مما عانى غيرها جمعاء، وفَقَدَت 160.000 فرصة عمل صناعي، أي الخمس. فتَشَتَّتَ مجتمعات كاملة. فَفَقَدَ 10.000 عامل في رُبّسون كاونتي Robeson County من أصل 18.000 من عمال مصانع تلك المنطقة أعمالهم خلال السنين العشر الماضية. وأدَّى بقاء نسبة البطالة عالية هكذا بِعِناد إلى انخفاض دَخْل ثُلُث سكان المنطقة وعددهم 123.000 إلى تحت خط الفقر الأمريكي، نتيجة مباشرة لضياع فرص العمل وفقدان 700 مليون دولار من الدخل الذي تلاشى معها. ويربط الناس المحليّون مصائرَهُم مباشرة بالصين. وقد قوبل إرْسْكِن بَوْلز Erskine Bowles، رئيس هيئة موظفي البيت الأبيض في عهد بِل كلِنتون Bill Clinton، بالتصفيق عندما تحدث أمام اجتماع سياسي لجمع التبرعات في رُبْسون كاونتي سنة 2004م عن ما يميز المصانع الصينية عن المحلية بقلة الكلفة – و القروض التي تحصل عليها من مصارف الدولة دون أن تضطر لتسديدها – فقال: «إن للصين مزية غير عادلة. إنهم لا يدفعون شيئاً... لبناء مبانيهم وشراء معداتهم. إننا لا نستطيع منافستهم في هذا المجال. إنهم يشحنون بضائع قيمتها ستة بلايين دولاراً في السنة بطرائق غير قانونية – حتى أُغْلِق ثلاثمئة مصنع نسيج نتيجة لواردات غير قانونية».

لقد ضُرِبَت نورث كارولاينا وساوث كارولاينا ضربات مؤلمة، كما أُصيبَت كل ولاية بضربات مثلها، ويقض مضاجع وزارات التجارة والتنمية الاقتصادية في الولايات منافسة الصين، ويشغلهم إعداد التقارير، وإعداد حلقات دراسية عن سُبُل مجابهة خطر مصانع الكلفة المنخفضة الصينية. وإذا أخذت صحيفة ما في بنسلفانيا، أو في أوهايو، أو أعالي ولاية نيويورك، أو أي مكان آخر في الولايات المتحدة، تقرأ قَصَص ملايين آخرين، لايستطيعون النهوض بأنفسهم بعد ضياع فرص عملهم في المصانع. أما في نيو هَمْبشَير Hampshire New، حيث اخْتَفَت خُمس فُرَص العَمل الصناعية في الولاية، نشرت الصحف قصصاً كقصة

http://www.ibtesama.com/vb

جورج جي ال سَتِيْتي George J.L. Staiti وهو عامل في ورشة صغيرة لجرش المعادن أُغلِقَت سنة 2003م. أرسل سَتِيْتي، ابن الثانية والستين، مئتي طلب توظيف مع سيرته الذاتية، باحثاً عن عمل في ورشات أُخرى. وقال لصحيفة ناشوا تِليجراف Nashua Telegraph «لم أجد صعوبة في الحصول على عمل من قبل قط» وتُصَنَّف نيو هَمْبشَير في المرتبة الرابعة عشرة بين الولايات الصناعية في الولايات المتحدة، ويشكو مسؤولون في الولاية من فقدان فرص العمل الذي أدّى إلى تآكل القاعدة الاقتصادية المحلية. وكانت الورشة التي يعمل بها سَتِيْتي، وليست هي من صناعات التكنولوجية العالية، أكثر تأثُّراً بين الصناعات بمنافسة الصين. فالصين هي الرائدة في العالم في شراء آلات الصناعات الأساسية، سواء أكانت لتصنيع معادن، أم لتشكيل البلاستيك، أم لإنتاج زجاج. وقد اشترت معدات وآلات قيمتها 6.5 بليون دولاراً سنة 2003م، بزيادة مقدارها 25 بالمئة عَمَّا اشترته في السنة التي سَبَقَتْها، وما فَتِئَت تشتري منها أكثر وأكثر.

وقد يكون الدولار الأخير الذي تجنيه الأعمال التي تَحْتَضِر هو قيمة بيع آلاتها لممثلين للشركات التي قَتَلَتْها. فقد تَعَرَّض سِمْسارٌ للبيع بالمزاد في شركة كِيْلِر دي كاست Keeler Die Cast Co. في جراند رابدْز Grand Rapids لما أصبح أمراً عادياً عند بيع معدات قديمة في المصانع الأمريكية، وقد يكون بعضها جديداً، لمن يدفع الثمن الأعلى. فتحَوَّل المزادُ، في كِيلِر، نِزاعاً بين سماسرة الخردة من مِتْشِجان وصناعيين من المِكْسيك، والهند، والصين.

قال رِتْشارد كِيْ Richard Kaye نائب رئيس تنفيذي في شركة هِلْكو كورب Hilco Corp.. للمزاد الصناعي لصحيفة ديترويت نيوز Detroit News في آب/أغسطس 2004م «لقد غَيَّرت الغَوْلَمَة عملَنا، ولا أظن أننا شهدنا مثل هذا النمو مِن قَبْل. وإننا نَتَوَقَّع نمواً أَعْظم في المستقبل». وهِلكو هي شركة بين اثْنَتي عشرة شركة سمسرة مزاد تعمل في بيع كلِّ ما في المصانع حتى قواعدها

http://www.ibtesama.com/vb

الإسمنتية، وقد صَفَّت منذ سنة 2000م خمسمئة مؤسسة صناعية، بَلَغَت قيمَتُها النهائيــة بِلْيونَي دولار. ولَعَلَّ السَـيِّئ في الأمر، كما يقول كِــيّ: أن كثيراً من زبائنه شــركات في صحة جيدة وإنما تريد أن تخـــرج من الصناعة (إلى التزود الخارجي out-sourcing) أو تنقــل إنتاجها. وقد قال عامــل من 120 عاملاً كانوا يعملون في كِيْلر لصحيفة ديترويت، إنه قد عَمِل في المصنع ســتاً وثلاثين سنة ويواجه الآن سوق عمل لا يدفع أكثر من 8 دولارات في الساعة، وهذا نصف راتبه السابق. وقال كِندِل شَنْجل Kendell Shangle، وهو بائع معادن خردة من مِتْشِجان كان يُزاود على معدات كِيلر، إنه يحضر مزادات ثلاث مرات في كل أســبوع: «إني في كل مرة أذهب إلى مزاد أَهزُّ رأسي وأُفكِّر، تُرى كم فرصة عمل ضاعت الآن؟»

إن غيــاب فُرَص العمل الصناعي ضربةٌ حقيقيةٌ لمناطق تعتمد اعتماداً كبيراً علــى مصانعها المحلية. فأعمال المصانع تدفع أكثر مــن الأعمال الخدمية التي تــزداد عدداً، وبخاصَّة عندما تضاف مزايا الرعايــة الصحية والتقاعد المكلفة. كانــت مراكز التصنيع القويــة، فيما مضى، مراكز للتعليــم الصناعي والتجديد أيضاً. وإن اقتصاد الخدمات الذي ينمو بسرعة هو تابع كبير للصناعات الوطنية التــي يخدمها. وقد تحَدَّث زهو مِــن Zhu Min، المدير العام لمصرف الصين، في المنتدى الاقتصادي العالمي في دافس Davos في سويسرة سنة 2004م عن هجرة فــرص العمل الصناعية والخدمية خارج الولايــات المتحدة وقال: «ينبغي علــى أمريكا أن تعيد النظر في وضعهــا. فالصناعة قد ذهبت، والخدمات على طريق الزوال. إن الولايات المتحدة بحاجة إلى دفع سلسلة التنمية».

وليس ثَمَّة شــك في أن تقييم زهو Zhu القــاتم للولايات المتحدة يبالغ في المشكلة، وإنما يرمي إلى شيء ما. فهجرة فرص العمل الصناعي والخدمي تكون مترابطــة معاً في الغالب. غير أن الذي لم يَقُله، أن ثَمَّة حقيقة هي أن الصناعة الأمريكية في تَسَرُّبها إنما تتسَرَّب معها الخبرة الصناعية والبنية التحتية اللازمة لصنع مُنتجات عالية القيمة التي يتحدث عنها.

http://www.ibtesama.com/vb

إن تتابع الأخبار يجعل تَسَرّب فرص العمل الأمريكية إلى الصين (وإلى الهند أيضاً، حيث تهاجر مراكز الدعوات والأعمال المعلوماتية) قنبلة سياسية في كل نقاش سياسي كبير في البلاد. وقد خاض لو دُبّس Lou Dobbs معلق الأخبار ذي الصيت الذائع على قناة سي إن إن CNN ومئات أُخرى من محطات الإذاعة الأمريكية، معارك يومية ضد شركات تنقل فرص العمل منها إلى أماكن أخرى. حيث يصف، هو وضيوفه هذا التحول بالخيانة. وقد نشر دُبّس على موقعه على الإنترنت قائمة تَضُمُّ ألف شركة تقريباً قال جمهوره: إنها تُحَوِّل فرص العمل إلى الخارج، وربما كان بيان دُبّس العاطفي تصدير أمريكا Exporting America أكبر هُجوم مُباشر يشنه شخص، يتبع مؤسسة، على الشركات الأمريكية الكبيرة منذ هجوم الرئيس دوايت آيزنهاور Dwight Eisenhower على مجمع الصناعات العسكرية. فالشركات الأمريكية، كمجموعات دينية تدرك الخطيئة بِعِظات مثيرة، لا تقتصر آلام العمال عندها بالتحذير، وإنما تصبح كتاباً دارِوِينياً أيضاً. وكتب جون مَكارثي John McCarthy، وهو مُحَلِّل في مركز أبحاث فُرِسْتِر في كامبرِدْج، بولاية مَسَتْشُسِتْس Forrester research of Cambridge Massachusetts، وهي مؤسسة تُلْهِبُ بحوثُها عن هجرة فرص العمل الأمريكية نقاشاً دولياً، يقول: «بينما تَتَّضِح رؤية الصحافة (في المصادر الخارجية) في ظهور التحول إلى الخارج (أُف شور offshore) كمعارض سياسي ثالث، فقد عززت زيادة مبادرات ذلك التَّحَوُّل».

لا يبدو مناسباً

ما الذي تخبئه الأيام لعامل المصنع الأمريكي؟ يتوقع سيل الإحصاءات المستمر التي تَعدُّها هيئات استشارية أمريكية كبرى ومؤسسات مالية أن المستقبل مظلم. فقد توقَّعت فورِسْتِر ريسِرْتْش Forester Research في أواخر سنة 2003م أن يفقد 830.000 أمريكي أعمالهم في نهاية سنة 2005م، إذا نقلت الشركات الأمريكية أعمالها إلى ما وراء البحار، وتوقعت أن ينقل عمل 3.3 مليون

http://www.ibtesama.com/vb

آخرين إلى ما وراء البحار في سنة 2015م. وتوقع جولدمان ساكس Goldman Sachs وهو مصرف الاستثمار الأول في العالم أن 6 ملايين فرصة عمل ستغادر الولايات المتحدة في سنة 2014م، فتَنْتَزِع 150 بليون دولار من أجور الأمريكيين. وتوقعت دراسة أجراها اقتصاديون في جامعة كاليفورنيا في بِركلي University of California at Berkeley أن تنتقل 14 مليون فرصة عمل خدمية أمريكية إلى ما وراء البحار خلال عقد واحد. 10 ويشكل هذا العدد 10 بالمئة من قوة العمل الأمريكية الآن. وقد رأى باحثو بِركلي أن الصين هي المكان الذي سيأخذ فرص العمل، ولن يأخذه من الولايات المتحدة فحسب، وإنما من بلدان نامية أخرى هي الآن أهداف تختارها الشركات العالمية في بحثها عن أجور منخفضة.

ورب قائل يقول: إن إحصاءات التوظيف القائمة لاتعكس صورة الصحة العامة للصناعة الأمريكية. ويجدر القول ابتداءً: إن حجم الصناعة مازال هائلاً. فالقطاع الصناعي الأمريكي اليوم فقط يعادل بالدولار حجم الاقتصاد الصيني كله. وبينما نشهد اختفاء فرص العمل الصناعي، فإننا نجد حجم البضائع التي تنتجها الصناعة الأمريكية تجنح إلى ارتفاع شديد. وإن مفتاح النمو هو ارتفاع الإنتاجية الصناعية، وهو تعبير يستعمل في وصف نسبة قيمة العناصر التي تدخل في صناعة شيء ما وقيمة السلع التي تنتج عن ذلك. فالآلات الأجود، وبرامج المعلومات، وسُبُل الإدارة المتقدمة وفنونها، تعني أن الشركات الأمريكية وسطياً ينتج فيها العامل اليوم أكثر مما كان ينتج منذ ربع قرن عندما كان عدد العاملين في الصناعة كبيراً. فقد نما معدل إنتاج الاقتصاد الأمريكي بين سنة 1977م وسنة 2002م في جميع قطاعاته بمعدل النصف، غير أن التصنيع تضاعف أو زاد. وإن ما يثير العَجَب أن ما صنعته الولايات المتحدة حقاً من بضائع في سنة 2003م كان أكثر مما صنعته سنة 2001م، برغم خسارة عدد عظيم من العمال أعمالَهم. فقد ارتفع الناتج ولو بزيادة نصف في المئة. فقد ارتفعت كفاءة الصناعيين الأمريكيين ومهاراتهم حتى غدا العمال في المصانع الأمريكية رواداً في العالم، بمقدار إنتاج العامل في الساعة، وبمقدار ما يُنْتَجُ في الساعة الواحدة.

http://www.ibtesama.com/vb

غير أن ما يَدُرّهُ الإنتاج من أرباح قد يكون له أثر استهلاك ذاتي. فقد أدى ضغط التنافس، ومنه ضغط يشكله المستهلك الأمريكي الذي يُصِر على سلع ثمنها أكثر انخفاضاً، وضغط آخر تمارسه الصناعات الأجنبية التي تهدد دائماً بعرض سلعها بثمن أدنى من كلفة الصناعة الأمريكية. لقد حمل ذلك المصنعين الأمريكيين على أن ينتجوا بكفاءة تتجاوز نمو الطلب على السلع المصنوعة في الولايات المتحدة. فكانت النتيجة انخفاض أسعار السلع المصنعة بينما ارتفعت أسعار بقية السلع الاقتصادية سراعاً. وتبين الجمعية الوطنية للصناعيين أن الأسعار في الاقتصاد عامة قد ارتفعت خلال عقد انتهي في منتصف سنة 2003م بمعدل 18 بالمئة، وانخفضت أسعار السلع المصنعة بمقدار 6 بالمئة. وقد بيَّن الباحثون في ألّيَنْس كابتال مَنَجْمنْت Alliance Capital Management أن نمو الإنتاج خارج الولايات المتحدة يجري سراعاً أيضاً، برغم أنه يبدأ، في بلدان كثيرة، من مستوى أدنى كثيراً ولم يرتفع بالسرعة التي يرتفع بها في الولايات المتحدة. وبرغم التطهير العالمي لموظفي المصانع الذي جرى بين سنة 1995م وسنة 2002م، فقد أنتجت مصانع العالم سلعاً زادت 30 بالمئة في تلك الفترة*. ولا يملك المرء إلا أن يتساءل، في ضوء هذه القفزة الهائلة، وضغط الصين المستمر للتكاليف، تُرى إلى أين ستأخذنا زيادات الإنتاج غداً؟

إن بلوغ طاقة إنتاج أكبر تجعلُ الصناعةَ القطاعَ الأبرع في الاقتصاد الأمريكي، وتُخْضِعُه لحركة دائمة يجني منها الزبدة، وأصبحت تجارة الإلكترونيات اليوم تتصدر السلع المصنعة، وهي تتضمن أجهزة الحاسب وأجهزة الاتصالات البعيدة، إلى جانب تجهيزات النقل. ولم يكن لهذه السوق وجود يذكر قبل ثلاثين سنة. وإذا لم يكن ثَمَّة شيء مُسْتَقِر في عالم تستطيع فيه صناعات عُظمى ومصنِّعون

* إن قياس الإنتاج الصناعي لا يعني بالضرورة حجماً أكبر، على الرغم من أن العالم يصنع أشياء أكثر دون شك. فقد نظرت أرقام ألّيَنْس كابتال مَنَجْمنْت إلى مجموع الإنتاج الصناعي قياساً بقيمة الشحنات من جميع المنتجين إلى جميع المشترين، ومنهم المصنعون الآخرون.

http://www.ibtesama.com/vb

أقويـــاء جُدد أن يبزغوا بعد ســـنوات قليلة، بينما تمـــوت صناعات نراها حيوية أو تعيد تَمَرْكُزها بســـرعة أشـــد، فأنَّى لِقُوّة صناعية لأي بلد أن تَتَصَدَّى لِتَحَدِّي الصين؟ وقد أكد كارلي فيورينا Carly Fiorina المســـؤول التنفيذي الأول في شـــركة هيولِت بـــاكارد Hewlett-Packard الذي تولى عمله بتفويض ليجعل الشـــركة منافســـاً عالمياً قوياً، أكد في مؤتمر صحفي سنة 2003م: «لم يعد ثمَّة فرصـــة عمل وقَفَها الله على أمريكا» وإن نحن نظرنـــا فـي أرباح الإنتاج الكبيرة فـــي الاقتصاد الأمريكي، وجدنا أن العامل الأكبر كان الاســـتثمار في تكنولوجيا المعلومـــات الجديدة. حيث جاء 60 بالمئة من التحسُّـــن من أعمـــال البرمجيات الأفضل، وأجهزة الحاسب (الكومبيوتر)، ووصلات الاتصالات البعيدة التي تدير وتنسق مواقع الإنتاج.

أما دول العالم الأخرى فســـوق تســـتطيع تحمُّل أعباء أكبـــر للحصول على التكنولوجيا، أكثر فأكثر، لتحسين مصانعها. لماذا؟ ثمَّة سبب كبير هو أن الصناعات عاليـــة الإنتاج تخفض أســـعار الإلكترونيات التي تمتاز أمريـــكا بأنها أفضل من يصنعها ويدفع بها إلى العالم. وكذلك تســـعى شـــركات التكنولوجية المتقدمة في أُوروبا، واليابان، وكورية الجنوبية التي تناضل جَميعُها من أجل السوق الصناعية العالمية. ويجد صناعيو العالم، مع مرور الوقت، مثل باعة التجزئة في العالم، أن ميدانهم أكثر كفاءة، وترابطاً، وصغراً. وتستطيع الصين اليوم أن تختار سلاحها، وتضرب جهة ما بأجور عمالها المنخفضة وتضرب أخرى بمصانع مُجَوَّدة تُنَشِّطُها التكنولوجيا المتاحة باستمرار*

* بعد تفجير فُقاعة الاســـتثمار التي اســـتولت على شركات الاتصالات عن بُعْد في أمريكا الشمالية ســـنة 2000، تمكنت الصين وبلدان آســـيوية أخرى من انتزاع معدات لبناء شبكة اتصالات عالية التطور بســـعر يعادل جزءاً بســـيطاً جداً من كلفتها الأصلية. وقد وجدت جِنِفر شِنْكِر Jennifer Scheneker، وهـــي محررة في نيويـــورك تايمز، أن 30 بليون دولار من البنية التحتية لشـــبكات اتصالات دولية عَن بُعْد تملكها شركات أمريكية قد بِيْعَت لمؤسسات أجنبية بـ 4 بليون دولار.

http://www.ibtesama.com/vb

وكلّما انْكَمَش العالم، فقَدَت الصناعات الوطنية دورَها. فإلى أي وطن يَنْتَمي المُصَنِّع هيولِت باكارد، عندما يُنْتِج مُعظم بضائعه خارج الولايات المتحدة؟ وماذا يعني أن تكون شركةُ سيارات أمريكية أو يابانية عندما تأتي 80 بالمئة من قطع سياراتها من مزودين خارجيين من وراء البحار؟ وماذا يعني أن تكون فنلندياً، أو سويدياً، أو أمريكياً عملاقاً في صناعة أجهزة الهاتف الجوال عندما تنقل صناعتك وتكنولوجيّتك إلى الصين كي تُلبّي حاجة المستهلكين الأجانب والسياسيين الذين تعتمد الأعمال عليهما الآن؟ فالماضي - ويجد مُستشارو الاستثمار أنفسَهُم مُضطرين إلى أن يقولوا إن الماضي لا يَضْمَن الأداء في المستقبل. إن قوة الصين الصناعية تتعلق بالمستقبل.

عَمَّ نَتَحدثُ عِندما نَذْكُر الصين؟

عندما يدور نقاش سياسي عن مكان الصين كاختيار لشركات العالم لتصنيع منخفض التكاليف، تجد الأمر مقبولاً من الجميع. غير أن إطار النقاش يشير في مضمونه إلى أن للمستهلك الأمريكي وللأعمال الأمريكية خيارات قوية في السوق؛ والواقع هو أن الصين، إذ تُوَرِّد سلعاً أكثر، غير مسبوقة في تنوّعها وأسعارها المتدنية، فهي تكبّل بذلك خيارات الأعمال الأمريكية. فحجم الصين لا يقتصر على تصنيع منخفض الكلفة فحسب؛ وإنما يفرضه بالقوة. فإن اختيار الأعمال والمستهلكين الصينيين لأنفسهم هو ما يُملي بازدياد عَمَل الاقتصاد الأمريكي. ويشعر المرء، في ضوء ذلك، أنه مجبر على أن يرى في النقاش السياسات الأمريكية عن التهديد الاقتصادي الصيني يغفل هذه الديناميكية كلَّها.

رمْيَةُ عشوائيةُ من أجْل البَقاء

ثَمَّة أمر يُوصَف به أثر انتزاع السعر الصيني المُشَوِّش، وإنما كيفَ يُفرض على الشركات والعمال؟ والجواب هو أن كل صناعة تقع فريسةً لضغط معين، وينبغي فحص كل حالة منفردة. وعندئذ يستطيع المرء أن يقدر ضغط الصين

http://www.ibtesama.com/vb

المُعانــد على الصناعة. غير أن هذا البحــث المُتَقَصّي ذاته يفرض بحثاً مُمحِّصاً في أمر آخر: كيف تَسَلَّقَت الصينُ سِراعاً السلّم الصناعي.

ولَعَلَّ رائد الصناعة الأمريكية هي مسابك المعادن فيها. فالمَسْبوكات هي إحدى الصناعــات المَمْجوجة التي قلَّما يَرِدُ ذكرُهــا في أحاديث الحفلات الاجتماعية. وليــس لأي مقدار من الهمس أن يُبالِغ في أهميَّتِها. فلولا ســبك المعادن لما كان للولايــات المتحدة أن تَفخَر بأي صناعة. وتقول إدارة معلومات الطاقة الأمريكية فــي وزارة الطاقــة إن 90 بالمئة من جميع الســلع المصنعة والمعدات الأساســية تســتعمل المعادن المســبوكة أو تُصْنَع من معدات تَسْــتَعْمِلُها. وإن صناعة ســبك المعــادن الأمريكية هي الأكبر في العالم، وتزيد مبيعاتها على 25 بليون دولار في السنة. وهناك ثلاثة آلاف مَسْبَك للمعادن مُنتَشِر عبر البلاد، يَتَجَمَّع مُعْظَمُها في الغرب الأوســط Midwest. ومعظمها أعمــال صغيرة لا يتجاوز عدد العاملين فيها مئة، ويزيد متوسط دخلهم عن جميع نظرائهم في أي مكان آخر في العالم. وقد تمتَّعَت صناعة ســبك المعادن مِن قَبْــلُ بفائض تجاري وَفيرٍ مع بقية العالم، غير أن المســبوكات المُسْــتَوْرَدَة ازدادت في الســوق الأمريكية في السنين السبع الأخيرة؛ حتى بَلَغَت حِصَّتُها 15 بالمئة من السوق.

وتنمو صادرات الصين بين 7 % و 10 % في السنة، وتعد الصينُ اليومَ الأولى في العالم في حَجْم ما تُنْتِج من مَسْبوكات. فكانَ أَثَرُ ذلك ضغطاً شديداً على المسابك الأمريكية، حيث أَغلق 140 مســبكاً أبوابَه سنة 2002م، وهي آخر سنة تجري فيها جمعية المسابك الأمريكية American Foundry Society إحصاءات.

إن روبرت شــومَن Robert Schuemann نائب رئيس وشريكٌ في شركة سجنكاســت Signicast Corporation، وهــي شــركة سَــبْكٍ خاصة تقع على أطــراف هارتْفُرْد Hartford، في ولاية وِسكُنْسِــن Wisconsin. وتبيع سجنكاست بضائعها إلى أكثر من ثلاثمئة مؤسسة صناعية، وتصنع سلعاً أساسِيَّةً كالقضبــان المعدنية البســيطة أو أجزاءً مُعَقَّدة للأجهــزة الطبية وتملأ منضدة

http://www.ibtesama.com/vb

في مدخل مكتب سجنكاست عَشراتُ المسنّنات والدعائم وقطع معدنية مسبوكة أخرى مُخْتَلِفَة أشكالُها قد لا يستطيع المرء العادي أن يُمَيِّزها. وإن اختصاصات الشركة تصميم قطع مُنفصلة وصَبّها حيث كانت قطع عديدة تُسْتَعمل من قَبْل. أما عند هارلي - دِيفدْسُن Harley -Davidson، فقد أخذت سجنكاست ثلاث عشرة قطعة كانت تُسْتَعْمَل من قَبْلُ لِوَصْل عجلة القيادة بهيكل الدراجة النارية واستعاضت عنها بقطعة صلبة واحدة أقوى وأَسْهَل في التَصْنيع.

وأما هارتْفُرْد التي كانت الشركة تعمل فيها منذ سنة 1991م، فهي إحدى بلدات وِسكُنْسِن الكثيرة متوسطة الحجم التي تشترك في طرقاتها جرارات [محاريث] زراعية وشاحنات نصف مَقْطورة تأخذ طريقها إلى أرصفة تحميل المصانع التي بقيت حتى سبعينيات القرن العشرين منافسة في الهجرة من الغرب الأوسط المديني إلى الريف ذي الاقتصاد الأوفر.

وتعيش سجنكاست Signicast، مثل كثير من الشركات، تحت سلطة سيف السعر الصيني.

يقول شومَن: «إن شركتنا تملك تكنولوجية صنع أجزاء الآلات المعدنية وإنتاجها بدقة متناهية، وإن أعمال ساينكاست القيِّمة ليس لها منافس صيني مباشر، وهذا مَبْلَغ عِلمي». وبرغم ذلك، فإن الشركة تعيش وتعمل ضمن مجموعة من الشركات تعتمد على حيوية بعضها كي تَبْقى حيَّة. ويرى شومَن الذي نسج لنفسه كياناً وسط تَجَمُّع مصانع وِسكُنْسِن التي حولت الولاية التي تنتج الألبان إلى ولاية من أهم الولايات الصناعية في أمريكا، يرى في الدور الذي تلعبه الشركات الأمريكية في بناء كتلة الصين الحرجة في التصنيع خطراً يُهَدِّد صناعته، ومجتمعه، وأسرته.

تبدو هارتْفُرْد، للوهلة الأولى، وهي مدينة يسكنها أحد عشر ألف نسمة، كما لو أنها أخت لمدينة بكين، في ولاية إِلنوي. ففي هارتْفُرْد شارع رئيس تقليدي

http://www.ibtesama.com/vb

وطرقات سَكَنِيّة ضيقة تَحُفُّ بها بيوت جميلة قديمة بُنِيَت قبل مئة سنة. غير أنها تظهر أَغْنى من بكين. فموقعها على طرف بحيرة وغابة اسمها كِتِل مُرِيْن Kettle Moraine. فبيوت هارتْفُرْد طليت بشكل على نَحوٍ نَضِرٍ أكثر من بيوت بكين، ووسط المدينة نابض بالحياة، وهو خليط مزدهر من نمط المخازن التي تبيع المفروشات، والأحذية، والثياب، وتتضمن أيضاً مخازن لبيع المجوهرات، وصالات العرض، والمطاعم التي تُطْعِم السِيَّاح والمُصطافين.

وقد أخذت المدينة شكلها في أوائل القرن التاسع عشر على أرض كانت تملكها قبيلة بوتَوَتُمِي Potawatomi من سكان أَمريكا الأصليين. وهناك في هارتْفُرْد مصنع لجلد الأيّل [الغزال] ومطحنة، وهما من أوائل الأعمال التي أقيمت فيها. وقد حَلَّ في المدينة مهاجرون من إيرلندة ووسط أوروبا خلال مئة سنة تَلَت. واكتسبت هارتْفُرْد بعض الشهرة الوطنية كموطن لشركة سيارات كِسِل Kissel، وهي واحدة من مئة شركة سيارات أمريكية كانت تصنع السيارات في مطلع القرن العشرين. صنعت كِسِل سيارات مكشوفة فاخرة roadster بين سنة 1906م وسنة 1931م. ويحتفظ متحف محلي بعدد من سيارات كِسِل تحت سقف واحد أكثر مما يحوي منها أيُّ مكان آخر. وبعد سِنِي الكساد الكبير، فقدت هارتْفُرْد موقعها الصناعي، وبقيت تحتفظ بِنَفَسِها الزراعي. حيث تشير شاخصات يدوية الصنع إلى طَرقات زراعية تؤدي إلى أكشاك مُتَداعِيَة تبيع مُنتجات الحقول التي في ظاهر البلدة، وإن صناعات هارتْفُرْد الآن، على خلاف مُصَنِّعي بكِّين، لم تنشأ هناك، وإنما لجأت إليها من مدن أُخرى في أمريكا.

وإن الموجة الأخيرة من التنمية الصناعية الأمريكية، من الناحية الجغرافية، تذهب عكس موجة الصين. إذ تحاول الصين نقل سكانها من الريف إلى مدن صناعية، حيث تتمركز قاعدتها الصناعية. وتنشئ الصين تجمعات هائلة من المصانع والعمال مثل ذلك النوع الذي كان سائداً في الساحة الصناعية الأمريكية، إلى حَدٍ ما.

http://www.ibtesama.com/vb

وبقيت مدن وسط الغرب ومدن شمال الشرق الأمريكي مهداً للمصانع الأكثر تقدماً في العالم حتى ستينيات القرن العشرين وسبعينياته. فمدينة ديترويت Detroit التي كانت في منتصف القرن مثالاً لمدينة أمريكية صناعية زاهرة وقوية، وقد اشتهرت أيام الحرب العالمية الثانية بأنها ترسانة الديموقراطية. وأعلن وُولتر رِوثر Walter Reuther القائد العمالي الذي قاد تنظيم مدينة السيارات للإنتاج الدفاعي، «فمثلما رَبِحَت إنجلترة معاركها على ساحات إيتون Eton، فقد رَبِحَت أمريكا معاركها على خطوط الإنتاج في ديترويت». وقد قدَّم كل مركز صناعي مديني كبير عمَالاً مَهَرةً، وسَهَّلَ الوصول إلى السكك الحديدية، وموجات المهاجرين – ومعظمهم من الأمريكيين الريفيين السود من الولايات الجنوبية – الذين كانوا مستعدين لأي عمل صناعي. وكان الممر المديني الممتد من جاري Gary في شمال شرق إنْديانا Indiana إلى شيكاغو، صعوداً إلى مِلْوُوكي Milwaukee في الشمال،حتى جيل مَضى، المركز الصناعي الأقوى في العالم.

وبدأت المدن الأمريكية، في ستينيات القرن العشرين، تفقد تَفَوُّقَها الصناعي. وقدمت المجتمعات الريفية وسكان الضواحي للصناعيين، في نزعة ما بَرِحَت قائمة حتى اليوم، حوافز ليتركوا مصانعهم المدينية القديمة في مبانٍ متعددة الأدوار، وينتقلوا إلى مجمعات شركات منبسطة على الأرض. وعرضت الولايات الجنوبية، التي كانت صناعاتها راكدةً أبداً، مغرياتها الخاصة للصناعيين بنُظُم مَحَلِّيَّة مُتَساهلة، وتخفيف من الضرائب، وتحرر من النقابات الصناعية، وعمالٍ مُسْتَعِدّين للعَمَل بأُجورٍ أقَل من أُجور الشماليين.

وتَلاشى المُصَنِّعون بشِدّة. وفَقَدَت مراكزُ صناعية عريقة، مثل بَفَلو Buffalo، وديترويت، وفِلَدِلْفيا Philadelphia، ثلاثة أرباع فرص العمل الصناعي فيها. ولم تَعُدْ مِلْوُوكي التي كانت موطن سجنكاست الأول قاعدة مفروضة بالقوة.

http://www.ibtesama.com/vb

كانت السنوات الخَوالي التي عاشَتْها المَدينة كانت على وجه الخصوص مَريرَة. إذ اضْطُرَّ كثير من أكبر أصحاب شركات القطاع الخاص وأقواها، مثل: جونسون كُنْترولْز Johnson Controls، ومِللر برُينج Miller Brewing، ودِلْكو Delco، وماستِرلُك Master lock إلى إغلاق مصانعهم. وفقدت المدينةُ نِصْفَ فُرَص عَمَلِها الصناعي تقريباً في التسعينيات.

وتجدر الإشارة إلى أن المصانع الجديدة المنبسطة على الأرض دون نظام محدد قد بُنِيَت لِتُساعد الشركات الأمريكية على منافسة المزاحمين من الخصوم الأجانب. وإن سجنكاست، التي شهدت إغلاقاً لمصانع كثيرة وانكماش الإنتاج الذي سَبَقَ التحدي الصيني، هي الآن من الشركات المزدهرة.

ويذكر شومَن «أن اليابانيين هم الذين أثاروا ذُعْرَ الشركات الأمريكية منذ سبعينيات القرن العشرين». وقد فقدت وِسكُنْسِن خمسين ألف فُرْصَة عَمَل صناعي في الثمانينيات. وارتَدَّت صناعة وسط الغرب الأوسط الأمريكي - في موطنها الجديد في الضواحي والريف - من ذلك التحدي مُنْتَقِمَة بتقصير وقت تصميم المنتجات وتسليمها وبتحسين جودَة البضائع الأمريكية تَحْسيناً عظيماً. ولم يُهاجم اليابانيون المُصَنّعين الأمريكيين في أسعارهم كثيراً، وإنما بتركيزهم على المنافسة في الجودة، التي أعطت منتجاتهم قيمةً جيدةً في المدى البعيد. فَتَعَلَّمَ المُصَنِّعون الأمريكيون، ما ينبغي لهم كي يتمكنوا من مضاهاة الصناعة اليابانية، وأن يَضْربوا، في كثير من الحالات، قُوَّةَ اليابانيين.

وما زال ذلك المثال يحدد مقاربة شومَن، الذي يوجه سجنكاست بعيداً عن بضائع منخفضة الكلفة إلى تلك التي يكون أداؤها جيداً مع الزمن. وقد جاء التجديد الأكبر لسجنكاست بمصنع جديد أنشأته سنة 1991م. فاستطاعت الشركة بفضله أن تكون منشأة مرنة تَتَكَيَّف مع أي ابتكار يطرحه مهندسوها لِخَفْض النَّفَقات وتسريع وصول المنتجات إلى الزبائن. وقد خفض المصنع ثُلُثَي أُجورَ القوى العاملة وانخفضت فترة الإنتاج وتسليم المُنْتَج من أشهر إلى أيام. وتنقل الأجسام الآلية (روبوت) كلَّ شيء من الصناديق في المستودعات إلى قطع

http://www.ibtesama.com/vb

بالغـة الدقة وصغيـرة الحجم. ويندر وجود العمال لينتاب المرءَ شـعورٌ أن الذي يُشَـغِّلُ المصنعَ أَشْـباحٌ ذَكِيَّة. ويعطي التَجَوُّلُ في المصنع درساً عن تَحَوُّل أعمال الأجهزة والأدوات إلى أعمال معلوماتية وبرامج كومبيوتر. ويصحُّ المثال ذاته على جميع أمريكا، وأوروبا، واليابان.

وقد كانت هجرة سجنكاسـت نموذجاً لهجرة شـركات كثيرة من شـركات الضواحي. ومازالت الشركة تحتفظ بمصنعها القديم الريف لِتَدَبُّر بعض أعمالها، غير أن ذلك المصنع بعيد كل البعد عن المصنع الشاسع الذي اتَّخَذته سجنكاست برحيلها. وتعُجُّ هارتْفُرْد اليوم بمنشـآت مشـابهة. وهناك مصانـع كبيرة جداً، بسيطة في ظاهرها، تنتشر خلسة بأُسْقُفِها المُنْخَفِضَة في حقول المدينة. وتبدو دلائـل رحياتها الصناعية العديدة، خارج طرق الولاية المتعَرِّجة عبر الريف، عند التقاطعات، على شـكل لوحات ضخمة تَتزاحَم عليها أسـماء عشرات الشركات وأسـهم تشـير إلى مواقعها. بينما تَخْتَبِئ المصانع وراء أكتاف الطرق العشـبية الضيقة وحقول الذرة.

ويرى شومَن أن الخطر الأكبر الذي يواجه الصناعة الأمريكية ليس فيما تتعرض له شركات منفردة في بقائها منافسة. ويَعْتَرِف مَسروراً أنَّ المنافسة هي التي صَنَعَت سجنكاسـت وأبقتها صامِدَة. وقد أظهرت سـجلات شـركته ضيقاً لسنوات عِدَّة. ويرى الخطر الأكبر يَكْمُن في تداعي بيئة العمل حول الشركات الجيدة. ويقول: «إن الشركات الأمريكية تحتاج إلى كتلة كبيرة من الزبائن، مثل حاجتنا إلى منافسين من حولنا للمحافظة على متانة القطاع الصناعي من أجلنا جميعاً».

ويَدَّعـي شـومَن أن الحكومة الصينية تُبْقي قيمة عملـة بلادها 40% دون قيمتها الحقيقية لو أنها تركتها للتعامل الحُر في الأسواق العالمية (وسوف نُعالج هذا الموضوع في فصل قادم). إن هذه النظرة تلقى صدىً لها عند كل مجموعة صناعيـة واتحادٍ صناعي وترخي ظلالاً مؤثرة على الصين. فالفارق الكبير حَمَلَ أكبر عملاء سجنكاسـت وعملاءهـا المحتملين إلى التَطَلُّع إلـى الصين، مكاناً

http://www.ibtesama.com/vb

يصنعون فيه بضائعهم أو مكاناً يشترون منه قِطَعاً. فالصين اليوم قاعدة للتصنيع والإمداد لبعض عمالقة الغرب الأوسط الأمريكي مثل كاتربللر، وجون دير John Deere، وكَمِنْز إنْجِن Cummins Engine، وألوف الشركات المتجمعة في الغرب الأوسط التي تشكل معظم صناعة السيارات الأمريكية.

ويقول شومَن إن زبائن شركته يرغبون في أن تَنْتَقِلَ شركتُه إلى الصين أيضاً. وقد عَرَضوا ضَمَان النَّفَقات إن فَعَلَت الشركةُ ذلك. غير أن الشركة لن تَنْتَقِل. ويخشى شومَن أن تَنْزَلِق تكنولوجية سجنكاست، دون أن يُمْكِنَ اجْتِنابُها، إلى البؤر الصناعية في جواندونج أو زِجْيانج، وأن يخفض الصينيون أسعار قطع سجنكاست تخفيضاً هائلاً.

ويقول: «لسنا بحاجة لأن نُجاري السِّعرَ الصيني دولاراً بدولار. وإذا بَقِينا ضِمن حدود عشرين بالمئة من سعرهم فإن زبائننا سيَبْقَون مَعَنا».

وقد صار الحفاظ عليهم أصعب. فقد كان للشركة عَمَلٌ حيوي مع مصانع أدوات-طاقة محلي، غير أن الزبون نقل الإنتاج إلى الصين ووجد سبلاً للحصول على بدائل مرتجلة لقطع ذات نوع عالٍ من التي يُصَمِّمُها مهندسو سجنكاست. «كانت قطعتنا قطعة واحدة قوية وجاءت قطعتهم الجديدة في قِطعَتَيْن رديئتين. سوْفَ تَتَكَسرُ قِطعتهم بسهولة، وإن كانت أرخص كثيراً». ويقول شومَن إن سبب فقدان شركته زبائنها هو أن تجار التجزئة الكبار الذين يشترون من شركة أدوات-الطاقة في وِسكُنْسِن أَصَرّوا على تخفيض سَنَوِيّ في الأسعار.

ومهما تكن جودة إدارة مصانع هارتْفُرْد الجديدة، فلا بد لها من خوض غمار عالم يخشاه شومَن. فتجمعات وِسكُنْسِن الصناعية المجاورة ما بَرِحوا يضعفون أمام نمو قوة الصين في أوسع مجموعة مُنَوَّعة من الصناعات التي تَتَّسِع. وتصنع شركة شومَن قطعاً لهارلي-دِيفِدْسُن. ومع استمرار استِنْزاف فُرَص العمل الصناعي من وِسكُنْسِن، اتجه شومان إلى منتدى 2003 الذي

http://www.ibtesama.com/vb

عقَـدَه مسـؤولو إدارة بوش الوزاريين وزيرة العمل إلِين تشـاو Elaine Chao، ووزير الخزانة جون سْـنُوْ John Snow، ووزير التجارة دونَلْد إيفنز Donald Evans في مصنع للدراجات النارية.

ربما كان حري برأي شومَن الراسخ في الإدارة التنفيذية أن يَحْمِلَ المسؤولين الأمريكيـين على أن يتوقعوا منه ضرباً سـهلاً. غير أنه جاء إلى الاجتماع حانقاً وأغار على سْـنُوْ سـائلاً: «ماذا عسـى وزارة الخزانة أن تفعل لِتُجْبِرَ الحكومة الصينية على قطع روابـط عملتها بالدولار؟» عندما ظهرت ملامح الخجل على الوزيـر، وتلعثم زملاؤه الـوزراء، بعد أن أذهلهم وابل الأسـئلة عن الصين، فقد شومَن أعصابَه بِخِلاف طَبْعِه. فمشى بعد الاجتماع مع سْنُوْ وسأله ثانية، مشيراً بإصبعه بعُنْف إلى صدر الرجل الرائع الذي كان من قبل مديراً تنفيذياً لشـركة سي إس إكس CSX، وهي من أكبر شركات السكك الحديديَّة في العالم.

يقـول شـومَن: «لا أعرف مـاذا أَلَمَّ بي،» معترفـاً أنَّه قد خَرَجَ عـن طَوْرِه. وقال: «لقد صِرْتُ على وَشَكِ أَنْ أُعْتَقَل».

صمامُ أمانٍ صينْي

هل يُجْبِر السعرُ الصينيُّ سجنكاست على نقل بعض أعمالها إلى الصين؟ ما زال الوقت مبكراً لمعرفة ذلك. غير أن شـركة أُخرى لِسَبْك المعادن في وِسكُنْسِن فعلت ذلك، وهي حالة تلقي لنا ضوءاً.

وتُبَيِّنُ البطاقات الشـخصية للمديرين التنفيذيين في شـركة مِلْوُوكي فالف Milwaukee Valve Company Ltd ومركزها في ووكسـي Wuxi، وهي مدينة عددُ سُكّانها 4 ملايين تَبْعُدُ ساعةً ونِصْف إلى شمال غربي شنغهاي، عنوان الشركة في «نهاية شارع جوَنْجروي Guangrui Road. «يوحي مَظْهَر المباني الصناعية الخارجي وأَسْقُفُها ذات الصَّفيح المُمَوَّج التي تشكل المصنع الصغير أن "نهاية الشارع» قد تبدو وصفاً مناسباً. فعلى طول الجانب الداخلي للجدار الذي

http://www.ibtesama.com/vb

يقَع خَلفَ باحة المصنع توجد كومة خَشَبٍ تُضرَم به نارُ فرن المصنع الكبير عندما ينقطــع تيار الكهربــاء المحلي. كان تيار الكهرباء ينقطع كثيراً في ســنة 2003م وسنة 2004م. وفي داخل إحدى الحظائر، يُعطي اللهَبُ البرتقالي الدفءَ ويُشِعُّ ضــوءاً خافتاً في مصنع يبــدو مختلفاً قليلاً عن مســابك مصبوبات-رملية في مَطْلَــع القرن الماضي. تُجَمَع علب الرمل يدوياً، وقد ملئ طلاؤها الأول بالنحاس المُنصَهِر، ونُضِّدَت واحدة بعد أخرى على أرض سوداء لِتَبْرُد.

وتبدو الطريقة بدائية – فقد كان الصينيون يسبكون المصبوبات طيلة ألفين وخمســمئة ســنة خَلَت – وإنما يُنْتِج العمال في ووكسي مصبوبات عالية الجودة مقارنــة بتلــك التي تُصْنَع في مصانــع راقية في الولايات المتحــد، وفي أوروبا، واليابان. وتملك شَرِكَةَ مِلْوُوكي فالف أسرةٌ ما زالت معظم صناعتها منتشرة في الولايات المتحدة. وقد دَخَلَت إدارتُها الصينَ قبل عشرين سنة، بُعيد بداية التَحَرُّر الاقتصادي. تشــكل الصِمامات التي تصنعها الشــركة أجزاءً مهمة في الأنابيب التي تُسْتَعْمَل في صناعات كثيرة. وقد أدى إنتاج صِمام سَيِّئٍ وَرَّدَتْه شركة صينية قبل ســنين إلى إنهاء علاقتها مع الصين. غير أن نِهايَةَ الشــارع هذه في مِلْوُوكي فالف تحولت إلى رأس قافلة رِحْلَة مُرْبِحة. وترى إدارة الشــركة أن ذلك الخطأ هو الذي حَوَّل المؤسسة الفرعية الصينية إلى «صناعة عالميَّة المستوى». فقد أعاد مُهَندســون من البلدين تصميم الصمام وغيروا مَجرى الإنتــاج. فَعَيَّنت مِلْوُوكي فالف منذئذ خمسة مهندسين صينيِّين مفتشين جوالين على جميع مصانعها في الصين لمراقبة جودة الإنتاج.

وتســتطيع أن تُدرِك أسباب سرعة ارتقاء الصين سُــلَّم التصنيع إذا طَبَّقْتَ تجربة المنحنى التعليمي لمصنع ووكسي Wuxi على كُلِّ الاقتصاد التصنيعي في الصــين. وليس ثَمَّة من يُهِمّــه أن يرى الصينيين يتقدَّمون مالم تكن كلفة النوعية العاليــة صفقةً رابحــة، وأن تبقى كذلك. وإنْ بَقِيَــت كلُّ العَوامِل الأُخرى، كثمن الطاقة والمواد الأولية متســاوية، فإن الصين ستتابع في شَدِّ أسعار البضائع التي تُصَنِّعُها إلى الأدنى، وإن كانت في مرحلة تتعلم فيها كيف تُنْتِجُها إنتاجاً أفضل.

http://www.ibtesama.com/vb

وثَمَّة رمز آخر لقوة منافسة الصين يبقى أمام مصنع الصِمامات. إنها شاحنة صغيرة قيمتها 2000 $، كأنها سيارة سيرك، لها نماذج كثيرة طريفة بغرابتها وقِدَم طرازِها، وتَبْقى قيادتها ممكنة، ومازالت مصانعُ الصين الحكومية تُنتِجها إلى يومنا هذا. وتتعرض الشاحنات الرخيصة في الولايات المتحدة للأعطال وتبقى في حاجة إلى قِطَع جديدة، وهذا ما يُرَبِكُ بَرامِجَ الإنتاج والتسليم فَيُعَرِّضُها إلى أعطال ويُحَمِّلها عبءَ مصاريف ميكانيكية يبلغ أقلُّها 50 دولاراً في الساعة. أما في الصين، فيستطيع الميكانيكيون أن يقدموا ذات العناية بهذه الشاحنات الرخيصة التي يقدمها عمال مصانع السيارات في إنْدَيَنَبلِس – بأقَل من دولار واحد في الساعة. وهكذا تستطيع مصانع الصين استِغْلالَ جميع أنواع الآلات التي انْقَضى عليها جيلٌ أو جيلان أو ثلاثة أجيال في الأنظمة الاقتصادية ذوات التكاليف الأعلى، فالصينيون يستطيعون تحمل نفقات تشغيلها وإصلاحها.

ولعل الأَهَمَّ من ذلك هو أن شركات الصين تعمل في بيئة يأتي مُعْظَم ما نحتاج إليه من خارج مصانعها، ويكون أرخص كثيراً من قيمته في أي اقتصاد صناعي متقدم. فتكاليف بناء الطرقات أقل ومباني المصانع تكلف ثُمْنَ كلفتها في الولايات المتحدة، بَلْ أَقَل من أجزاء كلفتها في أوروبا الغربية واليابان. أما ميزانية ترفيه الزبائن ومسؤولي الحكومة فإنها تذهب أبعد من ذلك. وإن كل آلة صناعية تُصْنَعُ في الصين تقريباً، إن كانت مكافئة، تستطيع أن تقطع مصروفات رأس المال إلى أجزاء صغيرة من مصروفات مثيلاتها العالمية. وتُبَيِّن أرقامٌ جَمَعَتها مجموعةُ بوسطُن كنسلتنج جروب Boston Consulting Group أن آلات القَوْلَبَة بالحَقْن molding- injection الصينية التي تستعمل في صناعة البلاستِك تبلغ ثُلُث قيمتها في الولايات المتحدة؛ وأن المكابس وآلات السَّبْك بالضغط تبلغ جزءاً من عشرين جزءٍ مِن قيمتها الأمريكية. وتَنْتَزِع الصين بذلك مزيداً من مُدَّخَرات كلفة التصنيع، وتجدُ شركاتُ العالم نَفْسَها مُجْبَرَةً على شرائها من الصين.

http://www.ibtesama.com/vb

ويقول أُدِد شِنْكَر Oded Schenkar، وهو أستاذ في كلية فِشِر للأعمال في جامعة أُهايو Fisher College of Business at Ohio State University «كان في البداية سعر الجملة، ثم تلاه سعر التجزئة، وجاء الآن السعر الصيني، وهو حقيقي جداً». ويقول شِنْكَر، يأتي كبارُ المُصَنِّعين إلى مُزَوِّديهم الأمريكيين ملوحين بالسعر الصيني في أيديهم ويعطونهم مهلة أخيرة بالسعر المطلوب، بما يخفي تهديداً بتحقيق السعر المطلوب.

وليس ثمَّة تنافس بين شركة مِلْوُوكي فالف سجنكاست على الزبائن ذاتهم، وإنما تعملان في بيئة صناعية واحدة. فشركة مِلْوُوكي فالف التي تصنع الصِمامات في ووكسي تضمن السعر الصيني. وليس لشركة سجنكاست ما تضمنه سوى منافسته.

أعد اللعبة، بليون مرة

إن من الأسباب التي تجعل كسر السعر الصيني عسيراً على مصنعين آخرين في العالم هو أن السعر قد أُنتِج في القِدْر الفريد لثقافة تجارة الصين الناشئة. وإن منافسة مُصَنِّعين من معظم بقاع الأرض الأخرى تَتَطَلَّب فهماً للديناميكية الخاصة للثقافة وللبيئة السياسية التي نشأت المنافسة عنها. وعلى الرغم من ذلك، فإن بنية الشركات في معظم أرجاء العالم مألوفة، وإن حقائب الخداع التي تستطيع الحكومات أن تُخْرِجَ منها ما يدعم صناعاتها الوطنية مملوءة باقتطاعات ضريبية معهودة وتطوير محلي، غير أن ذلك لا يقدم مفاجآت كثيرة.

فاللعبة في الصين أعقد من ذلك. إذ تَحكُم البلاد، أولاً وقبل كل شيء، كثافة سكان شديدة تُغَيِّرُ فيها قواعد أساسية، فتُجْبَرُ الشركاتُ على أن تعمل على هامش من الربح دقيق جداً، يبدو كأنَّهُ نَجاحٌ عظيم.

وتظهر مقدرة الصين، التي لا تضاهى، على تخفيض الأسعار في إحدى الأجهزة المُفَضَّلة في العالم كُلِّه، إنه جهاز دي في دي DVD المتواضع، الذي

http://www.ibtesama.com/vb

انتشــر انتشاراً يوحي وكأنه مُعّدٌّ لاســتعمال واحد ثم تِرْميهِ في القمامة. إذ تباع اليوم أجهزة دي فـي دي المصنوعة في الصين بثلاثين دولاراً في دكاكين بيع الأجهزة الإلكترونيــة التي كانت تبيع تلك الأجهزة من قَبْلُ بثلاثين ضعف هذا الثمن. وهي ســلعة مطلوبة في المحلات التي تبيع سلعها بأسعار مُخَفَّضَة. وأدى تخفيض ثمن هذه الأجهزة الشــديد في عيد ميلاد ســنة 2003م إلى تدافــع مجنون بعد عيد الشكر، حتى تَصَدَّرَت أنباءُ ذلك التدافع الأهوج في محلات البيع الأخبارَ المحليَّة. فتراكمت شحنات هائلة من أجهزة دي في دي لا تحمل علامة تجارية، وإنما تَفي بالغــرض، في محلات بيع غيــر متوقعة، كالبقــالات، والصيدليات، ومحلات بيع قطع غيار الســيارات. فكانت الأجهزة تُعرَض أمام صناديق الحساب عند مخارج هذه المحلات حيث يتوقع أن يُغري شراؤها الناسَ دون أن يفكروا في الأمر كثيراً، مثلما يتناولون الحلوى والصحف الصغيرة tabloids. ولو أننا افترضنا انخفاضاً قد يقع على قِيَم الســيارات بنســبة انخفاض قِيَم أجهزة دي في دي، لانْخَفَضَ ثمن ســيارة بورشــه Porsche 911 إلى 1.500 دولار. وقد هَوَت قِيَم أجهزة الكومبيوتر أيضاً. وإن انخفاضاً في ثمن أفضلَ أجهزة الكومبيوتر الشــخصية مِقْـدارُه 97 بالمئة يجعل قيمة الجهاز 75 دولاراً تقريباً. وتصنع الصين اليوم 60 بالمئة من أجهزة دي في دي المعروضة في أسواق العالم.

وعندما عُرِضَ الجهازُ أوَّلَ مَرَّة في الولايات المتحدة سنة 1997م، كان ثمنه 1000 دولار، وكان تصميمــه وَقوراً مثل ســيارة لِموزين ســوداء، طويلة وقوية بما يكفــي لحمل وزن جهاز تلفزيون ثقيل. كانــت الأجهزة تُصْنَع في أوروبا واليابان وتباع تحت اســم أرقى العلامات التجارية في العالم. إنها عشر شركات، أَهَمُّها فليبس Philips، وسوني Sony، وتوشيبا Toshiba، سيطرت على التكنولوجية عن طريق مجموعة دي في دي DVD Consortium. ودفع المنضمون الجدد إلى سوق هذه الصناعة رسماً للترخيص لهم قَدَّموه إلى المجموعة.

http://www.ibtesama.com/vb

وقد سُجِّلَ المُنْضَمُّون الجُدُد. فصارت أجهزة دي في دي أسرع جهاز إلكتروني استهلاكي انتشاراً وقبولاً في جميع الأزمنة، وصارت أجهزة دي في دي الخيار الأول في العالم لأجهزة الفيديو. وبدا النجاح في أَوَّل وهْلَة طلقةً بعيدةً. وبدا الأمرُ للمُتَحَمِّسين للسينما المنزلية تَطوُّراً، وطريقةً لمشاهدة أوْضَحَ للأفلام السينمائية في المنزل وأَسْهَلَ من متابعة شريط الفيديو. ولم يبدُ التطوير أولاً، في سنتي 1998 و1999، ضرورةً تَشُدُّ المستهلك، فقد كان قَبُولُه لها بطيئاً حتى قالت صحافة تجارة الأجهزة الإلكترونية: إن صانعي دي في دي في أزمة.

لقد كانت الأجهزة ثورية، على نَحْوٍ، خَفِيَ عن معظم المستهلكين. فمثلما كان أمر أجهزة سي دي CD من قَبْل، نقلت أجهزة دي في دي DVD فَحْوَى التَّرفيه من البَثّ التلفزيوني، والأفلام السينمائية، وأشرطة الفيديو، إلى صيغة رقمية digital. وصار مُمْكِناً لأول مرة، نسخ الأفلام نسخاً جيداً يستطيعه كل من يملك معدات رقمية يستعملها تجارياً. لقد حَقَّقَ التَحَوُّلُ إلى الصِّيَغ الرَّقَمِيَّة والسهولة النِّسْبِيَّة التي وفَّرَتْها أجهزةَ دي في دي DVD لِنَسْخ المضمون، نجاحاً عظيماً للصينيين. فكانت شركاتُ الصين هي التي دَفَعَت أجهزة دي في دي DVDإلى مُقَدمة الأجهزة الإلكترونية الاستهلاكية في العالم كُلِّه.

وثَمَّة زاوية أخرى عن قصة أجهزة دي في دي DVD يمكن أن نراها بعيدين عن المختبرات وغرف الإدارة العليا، اليابانية والهولندية، حيثُ وُلِدَت هذه التكنولوجية وأُطْلِقَت. ويقول الاقتصاديان الصينيان، لو فِنْج Lu Feng ومو لِنْج Mu Ling اللذان يؤرخان تاريخ صناعات الـ في سي دي VCD والـ دي في دي DVD الصينية، إن سيطرة الصينيين المباشرة على الـ دي في دي DVD ترجع إلى أوائل تسعينيات القرن العشرين. إذ صارت الأفلام المسجلة مسبقاً مُتَوَفِّرٌ مُعْظَمُها يومئذ على أشرطة فيديو من طراز VHS. غير أن الصينيين كانوا يبحثون عن طريقة تمكِّنهم من مشاهدة الأفلام في بيوتهم لا تعتمد على أشرطة الفيديو أو أجهزة الفيديو التي تعرضها. كان معدَّل دَخْل الفرد الصيني سنة

http://www.ibtesama.com/vb

1992م قريبــاً من 400 دولار، وكانت البنيــة الميكانيكية لأجهزة الفيديوVCR وتعويضات رســوم الملكية للترخيص التي يتقاضاهـــا المالكون الأجانب أصحاب براءة الاختراع تَنْأى بِتلك الأجهزة عن اســتطاعة أبناء البلد الفقراء، حتى أبناء أسر الطبقة الوسطى.

وبدأت تَظْهَر يومئذ تكنولوجية بديلة في مختبرات عمالقة الإلكترونيات في العالــم؛ وكانت تلك تكنولوجية فيديو في ســي دي VCD. فَبُنِيَ التَّصميم على أحد مقاييس سوق الجملة وهو الفيديو الرقمي، MPEG 1، الذي سبق تصميم MPEG 2 الأوضــح، الــذي كان أســـاس تكنولوجية الـ دي فـــي دي. لم يحقق تصميمMPEG 1 نجاحاً يُذْكَر في الولايات المتحدة أو في أسواق رُوَّاده فلبس، وسوني، ومَتْسُشِتا Matsushita وجابان فِتُر Japan Victor.

وبينما كان باحث صيني ومنظم أعمال اسمه جينج وَنْمنج Jiang Wanmeng يَحْضر مؤتَمَراً عن البث الإذاعي في لاســفيْجس لَمَعَت في ذِهْنه عَصْفَةُ أفكار. فقد رأى جينـج عرضاً لتكنولوجية استهلاكية مُبكرة تُحَوِّل الأفلام إلى تكنولوجية رقميـــة digital وتعرضهـــا على كومبيوتـــر. فالأجهزة الرقميـــة متوفرة للبث المحتـــرف، غير أنها أجهزة تحرير تبلغ قيمتها مئات ألوف الدولارات. رأى جينْـج سبيلاً إلى اســتعمال رقاقة chip جديدة، عَرَضَتْها شركة سي كيوب الأمريكية C-Cube، تُقدم إلى ســوق الصين التي لم تتشَكَّل بَعْدُ جهازَ عَرض أفلام زَهيد القيمَة.

كانــت التكنولوجية التي رآها جينـج تســتطيع، إضافة إلـــى تحويل الأفلام السينمائية إلى النظام الرقمي، أن تضغط ملفات الفيديو الناتجة ضَغْطاً يَضَعُها على قِرْصٍ مثلما تُنقل الأغاني من أشــرطة التسجيل الصوتي audio إلى سي دي. أسَّــسَ جينـج شــركةً تَدْعَم تطويرَ الرقاقة الجديدة وتُنفق في ذلك ملايين الدولارات، قَدَّمــت بعضَها حكومَةُ مُقاطعَتِه، لإنجــاز العمل. وأعدّ جينـج جهاز عَــرض يعتمد على قـــرص يُمْكِنُ وَصْلُه بجهاز تلفزيون، واســتعمل لذلك رقاقة

http://www.ibtesama.com/vb

كومبيوتر من إنتاج موتورولاMotorola ذاتها التي اسْــتُعْمِلَت مِن قَبْل في تشغيل كومبيوتر آبل ليزا Apple Lisa computer، ويُقَلِّد جَميع أعمال جهاز VCR. لم تكن أجهزة VCD تستطيع التسجيل، وكانت تعتمد على أقراص لا تستوعب فيلماً ســينمائياً كاملاً. فكان كل من يقتني معدات صحيحة يســتطيع أن يَنْسَخ نســخاً رَقَمِيَّة جَيِّدَة غَيْر مُكْلِفة من الأفلام على أقراص سي دي CD. وسرعان ما أعدَّ جينْج والشركةُ عَمَلَ ذلك بِعَيْنِه.

وحَصَلَت الصــينُ فَجأَةً على الأَجْهِــزَة Hardware والبرامج Software التي تحتاج إليها لصناعة جديدة. وسارَعَت الحكومة الصينية إلى دَعْم المُنْتَج. إذ رأت فــي صناعة VCD فرصة وطنية للقفز بالفيديو المنزلي الرقمي فوق بقية العالم، الذي لم يزل متَعلِّقاً بِأشرطة الفيديو.

وُلِدَ جِهازُ VCD في محاولة لِلتَهَرُّب من رسوم التَرخيص الضرورية للحصول على تكنولوجية VCR، ولم يتوقف عند إنتاج أقراص VCD سهلة النسخ. كانت الأفلام الممتازة المختارة من جميع أرجاء العالم متوفرة في الدكاكين وفي الشوارع بأقل من دولار واحدٍ للفِلْم، وسرعان ما أُغرقت السوق بالأفلام. ومع نُمُوِّ السوق، بَرَزَت شــركاتٌ جديدة تصنع مزيداً من الأجهزة. فقد طَوَّرَت الشركة الأمريكية ســي-كيوب C-Cube، التي طورت الرقاقة لجينْج، رقاقات أفضل سَهَّلَت صُنْعَ الأجهزة تســهيلاً عظيماً. 21 فكان في الصين، خلال ثلاث ســنوات فقط، أكثر من ثلاثمئة شــركة تصنع أجهزة VCD. وسرعان ما أدرك صانعو الإلكترونيات القِلَّة الكبار خارج الصين، الذين سيطروا على السوق مدَّة قصيرة، أنهم لم يعودوا قادرين على المنافسة، وأنَّهم قد خرجوا من صناعة أجهزة VCD. وفشلت كذلك مئات الشركات الصينية، ومع هذا العدد الكبير منهم الذي يتنافس على السوق، أصبح كَسْــرُ الأسعار اللئيم هو دَيْدَنهم السائد. وانخفض ثمن الأجهزة مع حلول ســنة 1998م، بعد سنتين من بدء تصنيعها، فانخفضت قيمة أجهزة VCD من 400 دولار إلــى 110، حســب ما قاله لوفنــج Lu Feng ومولنج Mu Ling، وشهدت المبيعات السنوية ارتفاعاً كبيراً اقتَرَبَ من 19 مليون جهاز.

http://www.ibtesama.com/vb

ويشـــير وِلْف كورِّجان Wilf Corrigan، وهو رائدٌ في الوســائل الرقمية، ويــرأس الآن LSI Logic، وهي الشــركة التي اشــتَرَت C-Cube أخيراً، إلى أن مبيعات الأجهزة حَلَّقَت بســهولة عندما انخفضت الأســعار إلى 200 دولار، بالرغم من أن هذا مبلغ كبير جداً في بلد لايكسب فيه مئات ملايين الناس ذلك القدر من المال في سنة. غير أن كثيراً ما كانت جماعات تَسْتَعْمِل الأجهزة، فتقدم للقرية مَخْرَجاً وحيداً من ســاعات من برامج سيئة مُخَدِّرَة للعقول تَبُثُّها محطات تلفزيــون حكومية. وقد بيــع 29 مليون جهاز من هذه الأجهزة ســنة 2001م. ونهضت الصين في ثلاث ســنوات مُتَســارعة بِجُنون، مــن بلد ليس فيه صناعة أفلام مُسَجَّلة مَحَليَّة إلى أكبر سوق في العالم للأجهزة، وللمضمون.

ويقول لو Lu ومو Mu إن الفارق الرئيس في ســوق الصين الذي فشل في أجهــزة VHS ونجاح ســوق أجهزة DVD كان أن صَمَّمَت الشــركاتُ الصينيةُ الأَجْهِــزَةَ المحليّة لتســتخدم اليد العاملــة الصينية الرخيصــة والوفيرة. فدفع ذلك أســعارُ الأجهزة والأقراص إلى الانخفــاض. ويقول الاقتِصاديون: إن مزيج التكنولوجية الصينية ويدها العاملة كان حالة نموذجية للخراب الإبداعي، جَعَلَت مُنْتَجاً ممتازاً أُحســن إعداده للســوق المحليَّة يطرد مُنافِسِينَ أَقَلَّ براعة. وتملك الصينُ وجنوبُ شــرق آســية اليوم، حيث تروج أجهــزة DVD، قاعدة مُحْكَمة قوامها ربع بليون جهاز.

أتاح ســوق VCD للصين تَفَوُّقاً في تكنولوجيــة أجهزة DVD، الذي كان رد المــاركات الأجنبية الكبيرة على VCD. فســارع مصنعــو الصين إلى أجهزة DVD باندفاع فاقَ اندفاعَهُم إلىVCD، وبِرُغْم ضَعف بدايتهم في سوق أجهزة الـ DVD، غير أنهم نالوا في النهاية حصَّة الأَسَــد في التصميم الجديد أيضاً. وتجدر الإشــارة إلــى أن أجهزة DVD التي تفوَّقت علــى أجهزة VCD تفوُّقاً كاملاً، هــي أَقَلُّ النَّوْعَيْن ثمناً الآن.

http://www.ibtesama.com/vb

وما كان لأي من الجهازين أن يُحرزَ النجاح ذاته لولم يُزوِّد السوقُ الصيني بإمْداد ثابت من أقراص الأفلام المُقرْصَنة [المسروقة] بثَمَنٍ بَخْس. فيُمكِنُك أن تَشْتري، في كل مكانٍ في الصين، إصدارات الأفلام الجديدة بخمس وتسعين سنتاً تقريباً. ويَلْقى المُسْتَهلك الصيني المساعَدَةَ لأن بَعْضاً من مئات صانعي أجهزة DVD في الصين يدفعون حقوق ترخيص اختراع التكنولوجية لأصحابها الأجانب، وهي التكنولوجية التي يُدْخِلونَها في تصميم أجهزتهم. وعلى الرغم من ذلك، فقد كانت الأساليبُ المارِقة التي أَغْرَقَ بها صانعو الأقْراص والأجهزة أسواقَهم الخاصة وخَفضوا ثمَنَها، في انعطافة غريبة، قُوى مُؤثِّرَة قويةً وراء انتشار أجهزة DVD في جميع أرجاء العالم. وربما يُقال إن أَجهزة DVD تَدين بنجاحِها إلى الثمن الصيني.

ويُشيرُ ازدِهار أجهزة VCD و DVD إلى قوة تَنافُسٍ أُخرى لِعَدَد سكان الصين الهائل الذي يفوق قدرَتَها على إرسال جَحافِل من العمّال ذوي الأجر المُنْخَفِض إلى مصانع جديدة. ويُتيحُ سوقُ الصين الكبير للصناعيين الاستعدادَ لِبَيْعٍ سريع لِكميّات هائلة من البضائع ويأتي ربحهم من خجم السوق وإن كان هامش الربح ضَيِّقاً. فالأسعار المُنْخَفِضَة وحدها تَجْعَل استراتيجيّات الحجم الكبير مُجْزِية. وبوجود وَفْرَة كبيرة من السلَع، مثل الأجهزة الإلكترونية الاستهلاكية، فإن ارتفاع ثمن الأجهزة في العالم يزيد كثيراً عن إمكانية جَمْهَرَة المستهلكين في الصين، وهكذا نَجِدُ الشركات الصينية تُحَقِّقُ سُبُلَها للبيع بِثَمَنٍ بَخْس.

ولا يستطيع الصمود في بيئة تَنافُس شَرِسٍ كهذه البيئة إلا من هو أقوى وأذكى. وقد اختفى أكثر الشركات الثلاثمئة التي تصنع أجهزة VCD، وأُغْلِقت مئات الشركات الصانعة لأجهزة DVD. وأجهز صناعيو الصين، في حَمْأة هذه العاصفة، على أكثر الاتجاهات توقعاً في صناعة إلكترونيات المُسْتَهْلِك. ويقول ولْف كورِّجان رئيس LSI Logic: لقد صَدَرَت التكنولوجية من اليابان بأسعار مُرتفعة في معظم السنين العشرين الأخيرة. ويقول: «قد تنطلق سلعة تكنولوجية

http://www.ibtesama.com/vb

جديدة ثمنها ألف دولار في اليابان، وقد تَسْتَغْرِق سنتين حتى ينخفض ثمنها دون ألف دولار وتشق طريقها إلى الولايات المتحدة وأوروبا، وقد تستغرق خمس سنين أو سبع حتى تُباع كميات كبيرة منها». كان يَصْنَع السلع الإلكترونية في الماضي شركاتٌ متكاملة عمودياً تسيطر على معظم أعمال التصنيع اللازمة لصناعة أجهزتهم. ويعني هذا أنهم كانوا يستطيعون تحديد جدول زمني للفترة التي يستغرِقُها بُلوغ منتجاتهم بيع كميات ضخمة منها في الأسواق الكبيرة.

إن الذي عَلَّمَتهُ أسواقُVCD وDVD الصينيينَ أنهم يستطيعون تجميعَ أَجْهِزَة من مُكَوِّنات تُوَرِّدُها شركات خارجية، معظمها أمريكية أو أوروبية. وتستطيع شركة مثل LSI أن تُزَوِّد مجموعات رقاقات الكومبيوتر، التي كانت حلولاً كاملة إلى حَدٍّ كبير، وتُسَمَّى تصميمات مرجعية. فاستطاع صُنَّاعُ الصين، بحصولهم على مجموعات الرقاقات، التركيزَ على ما يُتْقِنونه، بأن تُجَمِّع الآلات جحافل عمالهم ذوي الأجور البسيطة، وأن يدرسوا السوق المحلية وما يحتاجه المُسْتَهْلِك الصيني. وقدكانت الملامح الجديدة، فِيما مضى، تستغرق ثلاث سنين أو أربع كي تأخذ مكانها في الأجهزة الإلكترونية الاستهلاكية، بثمن أعلى، فقد أَجْبَرَ سوقُ الصين المُنافِس الصناعِيِّينَ على إقْحام ملامح أكثر في أجهزتهم سراعاً، وتخفيض أسعارهم في آنٍ مَعاً. وقد أَدْخِلَت ملامح أَجَدّ وأفضل في تصميم الأجهزة في موسم واحد بينما كان يتم ذلك خلال سِنين عِدَّة.

وتَكْمُنُ المُفارَقَةُ في أقراص الأفلام المسروقة ذات الثمن البخس، فَحَدَت بالمُصَنِّعين على صنع أجهزة أفضل. ويقول الاقتصاديان لوLu ومو Mu إن الأقراص المُقَرْصَنَة لا ينبغي أن يُلْتَزَمَ فيها بالجودة العالية، وإن أكثرها لا يَعْمَل جيداً أو لا يَعمَلُ أبداً. وعندما انتشرت الأجهزة التي تستطيع تصحيح الأخطاء في الأقراص الأدنى جودة، وَفَّرَ صانعو الرقاقات لمصنعي الأجهزة تكنولوجيةً أفضل لتخفيف العناء الذي تُسَبِّبُه أَقْراصٌ رَديئَةُ الصُّنْع.

http://www.ibtesama.com/vb

لقد حَسَّنَت الأجهزة المتطوِّرة ذات الكفاءة الأعلى سوق الأقراص. وأتاح ظهورُ أجهزة DVD «ذات إمكانات تقويم أعلى للأخطاء» لِنُسَخ الأفلام الهالكة التي لم يكن عَرْضُها مُمْكناً على أيِّ جهاز من الأجهزة السابقة أن تُعْرَض عَرْضاً واضِحاً. ويعد مُحاربو القَرْصَنَة الأَجْهِزَةَ الجديدةَ شَيْطانِيَّةً. أَضِفْ إلى ذلك أن الأجهزة الصينية قد مكَّنَتْهُم من قراءة بُنْيَةٍ رقمية مُتَعَدِّدَة. ولا يَقْتَصِر ذلك على VCD وDVD، بل تعدَّاهُما إلى ملَفّات الصور الفوتوجرافيَّة الرَقمِيَّة، وملفات MP3 الموسيقية، وأقراص karaoke «كَرَوْكِي» فصارت الأَجْهِزة الصينِيَّة وَفِيْرَةَ المَزَايا حتى تعَذَّرَت مُضاهاتُها على الأَجْهِزَة اليابانيَّة والأُوروبية التي يزيد ثمنها أضعافاً مضاعفةً.

كيف وصلت أجهزة DVD الصينية التي لا تحمل اسماً إلى أمريكا؟ بدأ تَكْديس أَكْوام من هذه الأجهزة منذ سَنَة على أرض الصيدليات الأمريكية drugstores، فقد تَشَكَّلت سوقٌ في قَنَواتٍ خلفية من الموزعين في ناحية من تلك المخازن. فكانت أسماءُ مُنْتجات مثل سامبو Sampo ومالاتاMalata وكونياConial و آر جِيّ تِك RJ Tech، التي لا تُعْرَف في أمريكا الشمالية وأُوروبا، تعلن للمُسْتَهلِك الرَّاغِب في شراء أجهِزة ثمنها بَخْس، وفيها إمكانات متَمَيِّزة، ورُبَّما يكون الأَهَم أنها تستطيع أن تَعْرض أقراصاً من كُلِّ أَصْقاع العالم. وكانت مَقْدِرَة الصين الفائقة في صناعة أجهزة DVD تُعْرَض في دكاكين المتفرقات في المناطق الأمريكية الصينية، وجنوب شرق آسيوية، وهندية مُجاوِرة تُقَدِّم خدماتها للسكان المحليين العرقيين جميعهم الذين يرغبون في مشاهدة أفلام أجنبية وآخرين يرغبون في نسخ أقراص DVD على أشرطة فيديو.

ثم فتحت أبواب طوفان داهم المخازن الأمريكية. فأُحْبِط مُشَرِّعون أُوروبيون من امتناع كثير من صانعي أجهزة DVD في الصين عن دفع بدل حقوق الترخيص لاتحاد دي في دي DVD Consortium، ومنعوا بيع أجهزة DVD الصينية في القارَّة. فَشَحَنَ المُصَنِّعون الصينيون فَيْضاً من أجهزتهم، ووضعوها بين أيدي

http://www.ibtesama.com/vb

المستهلكين الأمريكيين. فقيمة الجهاز الذي اقتحم المخازن الأمريكية كانت 30 دولاراً، فدغادر الصين وقيمته 20 دولاراً. ولما كانت كلفة مجموعة الرقاقات تراوح بين 7 دولارات و 10 دولارات، وكان بدل حقوق الترخيص، إن سُدِّدَ، يَبْلُغ المبلغَ ذاته تقريباً، فإن هامش الربح سَيَضِيْق ولا يَبْقَى منه إلا القليل. فما مَبْلَغ ما بَلَغَتْه شَراسَة الصين في كَسْرِ الأسعار؟ كان الربح الذي يُحَقِّقُه جهاز DVD المصدّر من جوَنجدُنج Guangdong، حيث يُصْنَع سبعة عشر جهازاً من كل عشرين جهاز صيني، قد انخفض إلى دولار واحد.

وتَمَّ الإنْقاذُ سراعاً. فقد أعلنت حكومة الصين، في كانون الأول/ ديسمبر 2003، أنها ستدعم مقاييس جديدة للأفلام الرقمية يمكنها أن تَتَحَسَّن على أجهزة DVD، سُمِّيَتEVD، أي enhanced versatile disk (قرصٌ مُعَزَّزٌ مُتَعَدِّدُ الاسْتِعْمال)، وقد طَوَّرَ هذه التكنولوجية اتحاد جديد من شَرِكات، وأكادِمِيِّين، وجَماعاتِ حكومية صينية. ويُعْطي جهاز EVD تركيزاً resolu- tion يزيد ستة أضعاف على تركيز DVD، ولا يقل ثورية عن تطورVCD إلى DVD. اسْتَهَلَّ EVD سَنَتَه الأُولى هبوطاً مُفاجِئاً. كان ثمن الجهاز باهظاً جداً لسوق الصين. ويَتَطَلَّب أجهزة عرض (تلفزيون) شديدة الوضوح.

وهكذا بَلَغَت سوق الإلكترونيات الاستهلاكية مُنْعَطَفاً كبيراً؛ فإذا دَعَم صناعيو الصين هذا المستوى الجديد وبدؤوا ينتجون كميات كبيرة من أجهزة EVD، فإن الصين - وليس سوني، ولا فيليبس ولا مايكروسوفت - سَتُحَدِّد المعايير للقادم الكبير التالي في جهاز الفيديو المنزلي. ويَقِفُ وراء نجاح EVD غير المضمون إغراء عدد هائل من طبقة مستهلكين مقتصدة غير أنها نَهِمَة، تَكفي قُروشُها القليلة لدفع صناعيي الصين نحو سعر صيني لا يُقْهَر. واجهت أجهزة EVD، بعد سنتها الأولى، مستقبلاً أكثر غموضاً من السنة الأولى لظهور أجهزة DVD. ولا بُدَّ لِمَن دَعَمَ تصميم أجهزة EVD من خَوْض غِمار معركة لقتال المعايير المنافسة على شِدَّة الوضوح على قرص طَوَّرَه من هم مَظَنَّة ذلك في

http://www.ibtesama.com/vb

اليابان وهولندا، ولاعب جديد هو العملاق الأمريكي مايكروسوفت. وبرغم دعم حكومة الصين، فقد لا يُتاحُ لمجموعة EVD قُوَّة تسويقية كافية لِضَرْب مُنافسيها الذين هم أكثر نُضْجاً. أما إذا أَصَرَّت مايكروسوفت، وسوني وأضرابُهما على الأسعار الأعلى لتكنولوجيتهم، فقد تجد EVD عدداً من المستهلكين في الصين بثمن أقل، ثم تغزو المال في جُيُوب العالم وعُيونِه.

ومهما يكن أمْرُ أجهزة EVD، فإن الصينيين هنا ليبقوا في عالم صناعة الإلكترونيات الاستهلاكية. وقد خُصِّص جناح كامل في معرض الإلكترونيات الاستهلاكية سنة 2004م لعشرات المصنعين الصينيين، كبارهم وصغارهم على حد سواء. واسْتَغَلَّت الشركات الصينية أكشاكاً، في أدوار العرض الرئيسة في مركز المؤتمرات في لاس فيجاس، إلى جانب عمالقة يابانيين وكوريين، مثل باناسونِك Panasonic، وتوشيباToshiba، وبايونيرPioneer، وسامسونج Samsung. وكانت آر سي إيّ تومسُن RCA Thomson تَستَضيف وجبة الغداء الصحفية اليومية، وهي شركة فرنسية كبيرة تصنع إلكترونيات المُسْتَهْلك، باعت سنة 2003م قريباً من 70 بالمئة من سوقها التلفزيوني لأحد كبار صانعي أجهزة التلفزيون في الصين هو، تي سي إل TCL. كانت أجهزة VCD البسيطة وأجهزة DVD نادرة في معرض 2004م، إذ جعلتها أسعارها الرخيصة سلعاً لاتَجلبُ اهتماماً. أما أجهزة DVD وأجهزة التلفزيون ذات الشاشة المُسَطَّحَة، فقد كانت منتشرة في كل مكان، تَعْرِضُها شَركاتٌ كثيرة لها شهرة واسعة، وشركاتٌ جديدةٌ في السوق غيرُ مَعْروفة. سَيُسَلِّمُ مُعْظَمُها إلى المستهلك من مصانع صينية. لم يكن للصين، قبل ثلاث سنوات، حُضُور يُذْكَر في معرض الإلكترونيات. وقد جاء الآن دَوْر بقية العالم ليناضل من أجل الاستمرار.

http://www.ibtesama.com/vb

الفصل الثامن

كيف يكون السِّباقُ إلى القَاعِ سِباقاً إِلى القِمَّة؟

تَمْتَلِئ شوارع الصين وطرقاتها الرئيسة بمتاحف مُتَنَقِّلَة لِكُلٍّ ما سَبَقَ أن جَرى على عَجَلات. ولو أَنَّك ذهبت مسافةً تَسْتَغْرِق أَرْبَع ساعات إلى شمال شنغهاي في حافلة تأخُذُك إلى رودُنج Rudong حيث تَجِد طريقاً من أحدث طُرُقات الصين، التي يَنْبَغي أن يَدفع سالِكُها مبلغاً من المال أجراً حتى يدخل فيها، وما زالت حركة المرور عليها خفيفة، وتقود إلى أرض ما زالت خارج شبكة الطرقات الرئيسة. وينتهي بك المطاف إلى طرقات رئيسة وَعِرَة ذات مَسارَين كانت تتقاطع منذ القِدَم متشابكة في الصين، تَمُرُّ أمام دكاكين خاصة صغيرة، لكل دكان منضدة منها واحدة، ظهَرَ ملايينٌ مِنْها بَعْدَ التَحَرُّر الاقتصادي. ويَبيعُ مُعْظَمُها طعاماً ساخناً، ومياهًا غازيَّة، ويَبيعُ كثيرٌ منها أكياس إسمنت، ومواسير خَزَفِيَّة لأعمال السِّباكة، وغيرها من مواد ثقيلة لأوسع حركة بناء ازدهاراً في العالم. وتُنْقَلُ المواد من هذه الدكاكين وإليها، وتَرَى على طول الطرقات شاحنات عسكرية قديمة كبيرة وشاحنات أُخرى ليست قديمة جداً وإنما تُنْتِجُها مصانع مازالت تَصْنَعُ شاحنات وفقاً لِلتَّصْميم السوفيتي. وتَجِدُ صناديقَها المُسَطَّحَة مَمْلوءَةً بِمَوادٍ تُكَدَّسُ عاليةً حتى تبدو للناظر إليها جبالاً مُتَحَرِّكَة. وتراها تَتَحَرَّك مُتَثاقِلَةً على الطرقات مُتَجَنِّبَةً المطبات بِحَذَر. بينما ترى شاحنات جديدة، أشبه بالنَّماذج الأُوروبية الحديثة التي تُنْتِجُها مرْسيدِس Mercedes أو فولفو Volvo تَتَجاوَزُ الأُولى بسرعتها. وتحتل الشاحنات الصغيرة معظم الطريق، وتكون غالباً شاحنات جُهِّزَت بخزانات نِفْط، أو أقفاص دجاج، أو نضد لمحاسبة الزبائن. وهناك حافلات مختلفة في أحجامها؛ من حافلات بدورين يعلوها مِتْراسٌ كبير من قماش للأمتعة، وحافلات صغيرة للنُّزهات القريبة. ودراجات نارية تحمل

http://www.ibtesama.com/vb

جميعهـا أسـماءً صينية، وقد نُقِلَت عن دراجات يابانية قديمة، تحمل شـحنات طائشة، وضِعَت فوق مقاعدها الخلفية التي صُنِعَت من «فينيل» أكوام من عِصِيٍّ، ووَرَق، وسلال، يتصاعد منها بخار الطعام، وعليها أمهات يحملن أطفالَهن وصرراً حول معاصِمِهِنّ. وإذا وَلَجْتَ السوق تجد الدراجات التي جُهِّزَت بمحركات، وعلى أكثرها غطاء من بلاسـتيك يحيط بالمقاعد لحمايتها من عوامل الطقس. وتجد على المسارات الأبطأ دراجات جِنرِكشة jinriksha [عربة ذات عجلتين يقودها شخص واحد أو اثنان] وشاحنات صغيرة ذات مقدِّمة تبرز كأنف آكل النمل على عجلات، وقـد تَرَبَّعَت مُحَرِّكاتها الصغيرة، بصريرهـا، فوق العجلات الأمامية، مُطْلِقَة حـرارة مُرتَفِعَة ودخاناً وضجيجاً، وتبعُدُ حُجْرَةُ السـائق عدة أقدام إلى الوراء. إن الصين في عَجَلَةٍ من أَمْرِها في هذه الأيام، وإن هذه العجلات اليدوية التـي هُجِّنَت لتُصْبِح عربات صغيرة تُجَرُّ باليد تعيق الحركة على الطرقات وتثير غضب السـائقين الذين يقودون مركبات تجري بسرعة تزيد عن ستة عشر كيلو متراً في الساعة.

أما السـيارات، ففي الصين أكثر من 120 شـركة تصنع سـيارات ركاب. إنه رقم يزيد عن شـركات صُنع السـيارات في أي بلد آخر، ويدل على صناعة ناشئة في الصين وتاريخ طويل لدولة سبَّاكين tinkerers يَصْنَعون المَرْكَبات. وقبل حلول الإنتاج الضخم الحقيقي مع نهاية القرن المُنْصَرِم، كان عدد صانعي السيارات في الولايات المتحدة يقارب عدد صانعي السيارات في الصين اليوم. وكانت شركة كِسِّل Kissel في هارتفورد، فـي ولاية وِسْكُنْسِـن Wisconsin، Hartford واحدة من تلك الشـركات. وإن عشـرات من هؤلاء المصنعين الصينيين ليسوا إلا شركات صغيرة تجمع السـيارات على غير نَهْج كما يُتاح لها. فَيَصْنَعُ بعضهم نماذج تعتمد على سـيارات سوفييتية قديمة، وسيارات أوروبية صغيرة تعود إلى أجيال سَلَفَت، وآخرون يلفقون سـيارات من أجزاء وتصميمات وضعها مصنعو سيارات مُخْتَلِفين حسب القطع التي يَتَيَسَّرُ لهم الحصول عليها في السوق على غير هُدى.

http://www.ibtesama.com/vb

ويقول مايكل جيّ. دَنMichael J. Dunne، الذي تساعد شركتُه القائمة في بانجوك، وهي أُوتوموتِف رِسُورْسِز آسية Automotive Resources Asia، شركات السيارات الغربية في ترويج تجارتهم في الصين: «إن كثيراً من المستهلكين الصينيين في نَهَم كبير للسيارات حتى تَجِدُهم لا يهتمون بشَكلها إن كان ثمنها مُناسباً. وثَمَّة طلب كبير الآن للجانب الأدنى من السوق، فالشركات الصينية المبتدئة تبني السيارات على عَجَلَةٍ مِن أَمْرِها دون الإتقان المطلوب، حتى يستطيع المشترون الذين ينشدون أيَّ وسيلة نقل أن يختاروها».

وثمَّة شركات صغيرة مزدهرة قليلة بين صانعي السيارات الكثر هؤلاء وهم أكبر حجماً، بدأ معظمهم بموارد ساهمت فيها الحكومات المحلية. وتلعب هذه الشركات المحلية دوراً كاملاً في كلفة السيارة الاقتصادية الصينية وفي شكلها التي تصنع للتصدير.

وإن خير مكان ترى فيه قوى تجميع السيارات في الصين هو مصنع وَنفِنج Wanfeng للسيارات. يبدأ العمل صباحاً هناك بِنَسَقٍ منتَظم من العاملين الذين يؤدون ألعاب الجمباز مع الموسيقى العسكرية بنظام بي إيّ [PA system Public Address] حيث العمال ذَوُو اللباس المُوَحَّد الأزرق، ومعظمهم شباب، يتجهون إلى شركة نشيطة طَيِّبَة السمعة. لقد أدخل اليابانيون التمارين الرياضية في ساحات المصانع وأغاني الشركة إلى العالم في سبعينيات القرن العشرين، يوم كان الاعتقاد أن تلك الأمة تتمَتَّع بأفضل إنتاج صناعي في العالم. أما اليوم، فإن اليابان تَتَعَثَّرُ إحباطاً، وإن العدد المتناقص من عُمَّالها الشباب تَنْقُصُهم اليوم دوافع الانْقِضاض على العمل. فاليابان التي ازدهرت في ماضي الأيام كانت خير مثال لمن سيقودون العالم في قابل الأيام، كما تعرف إدارة وانفنج جيداً، وهكذا يَبُزُّ الصناعي الصيني الآخرين. إذ تَرفَع الروح المعنوية لموظفيها باستمرار منتَظِم في معسكرات الشركة التي يديرها مدربو جيش التحرير الشعبي الأشِدّاء، الذين يُرَسِّخون فَضيلَتَين: الوطنية والعمل الدؤوب.

http://www.ibtesama.com/vb

وتأتـي النتائج مُعْجِبَةً. فقد بدأت وَنفِنج قبل تسـع سِـنين بِصُنع عجلات الدراجات الآلية يدوياً بالمِطْرقة في مرآب صيني؛ وبَلَغَت بعد بضع سِنين الصدارة فـي بيع إطارات عجلات الدراجات الآلية المصنوعـة من خليطة الألومنيوم في الصـين أولاً ثم في العالم. وما برِحَت الشـركة أن صـارت رأس بائعي إطارات عجلات السيارات من خليطة الألومنيوم في الوطن وفي العالم.

وربما حصلت وَنفِنج على بعض مساعدة في فترة صعودها: فشريط الفيديو الذي يوضح صعود الشركة السريع لا يتَطَرَّق إلى عقود الأعمال الأولى التي وَفَّرَت لها هذا النمو السـريع، ولا يتطرق إلى صِلات وانفِنج الداخلية المُحْتَمَلة بشركات حكومية تعمل في صناعة الدراجات النارية والسـيارات. وليس في النشرات التي تُصدرها وانفِنج ما يشـير إلى تمويل هذه الشـركة الخاصـة، على الرغم من أن قوانين المصارف الوطنية تمنع مصارف الدولة – جميعها، عملياً – من منح قروض للقطاع الخاص. وبرغم ذلك، فإننا نجد وَنفِنج اليوم مشاكسـة، ومُغامِرة، وقديرة. فقد أقامت الشركة، في سنتها الثامنة، أعمالها لصناعة السيارات في مصنع جديد كبير في امتداد صناعي خارج شـنغهاي؛ يُنْتِج الآن سنوياً ستين ألف مركبة رائعة في شَـكْلِها، تحوي كل أنواع الرفاهيـة الحديثة، كالمقاعد الجلدية، وأنظمة فيديو دي فـي دي كاملة صينية الصنع، تهدر عند قيادتها. وإذا غضضت الطرف قليلاً فإنك سترى هذه السيارة الجديدة كسيارة جيب شِروكيJeep Cherokee.

وبينما نجد مصنع وانفِنج إنه مجرد عن الجسـم الآلي. يُنَبِّئك عن ذلك أنك لا ترى فيه معلماً آلياً قط، وإنما ترى فيه مئات الشبان يعملون فيه بأجور زهيدة، وقـد تخرجوا حديثاً من مدارس تكنولوجية مزدهـرة، يديرون خطوط التجميع بـآلات لا تتجاوز كثيـراً الثقابـات الكهربائية الكبيـرة drills، ومفاتيح الربط wrenches، ومطارق مطاطية rubber mallets. أما المحركات والهياكل التي تُنقـل، في المصانـع الغربية والكورية واليابانية، من موقع إلى آخر على بسـاط مُتَحَرِّك، فإنها تُنقل باليد على شاحنة. لهذا يستطيع وَنفِنج أن يبيع هذه السيارة

http://www.ibtesama.com/vb

الجيب الفاخرة المصنوعة باليد في الشــرق الأوسط بمبلغ يتراوح بين 8.000 و 10.000 $. فالشــركة لا تنفق ملايين الدولارات على آلات بناء ســيارات، وإنما تستعمل لذلك عمالاً على كفاءة عالية، لا يكلفون أكثر من بضع مئات الدولارات في الشــهر، وهذا يعني أن أجر عمال الصين المُتَمَرِّســين السَــنَوي أَقَلّ من أجر العُمَّال الشهري المُبْتَدِئين في ديترويت.

عَرْضُ صَفقات مُنافسَة

إن شــركة وَنفِنج تنمو ســراعاً، غير أن بقاءها ليــس مضموناً أبداً، إذ تعد تجارة السيارات في الصين اليوم أكثر الأعمال منافسة في العالم، وتَتَفَجَّرُ مَقْدِرَة الصناعة مع زيادة الطلب. وقد اسْــتَثْمَر صانعو الســيارات الصينيون والأجانب حوالي 12 بليون دولار خلال العقد الماضي في بناء مصانع للسيارات، وإن نصف هذا المبلغ قد أُنْفِقَ منذ ســنة 2002م فقط. ويأتي ثُلُثُ نُمُو مَبيعات الســيارات فــي العالم اليوم من الصين، ربما تكون الصين أكبر صانعٍ للســيارات في خمس عشــرة سنة قادمة أو قبلها. وقد اشــترت الصين أكثر من مليوني سيارة جديدة ســنة 2003م، بينما نجد السوق الأمريكية الناضجة قد استقرت منذ زمن بعيد على 17 مليون سيارة في السنة. وإن نمو الصين في المدى البعيد سيكون هائلاً، برغم ما قد يصيبه من عثرات بين وقت وآخر. فالصينُ ماضيَةٌ في تجاوز ألمانيا التي تقع في المرتبة الثالثة في إنتاج السيارات قبل سنة 2010م، وسوف تتجاوز اليابــان في ســنة 2015م، ثم تصبــح مبيعاتها 4 ملايين في الســنة بعيداً عن السوق الأمريكية، التي ستتجاوزها في الوقت المناسب أيضاً. وإن السوق المحلية الكامنة، مثلها مثل كل شــيء آخر في الصين، يأخذُ بالألباب. فالطبقة الوسطى الصينية، التي يُتَوَقَّعُ أن تنفق بســخاء على الســيارات، سوف يزيد عدد أفرادها في وقت قريب عن مئة مليون.

http://www.ibtesama.com/vb

وإن أكثر السيارات انتشاراً في شنغهاي هي فولكسفاجن، إذ تبيع ثلاثين بالمئة من إنتاجها السنوي في الصين، وإن وجودها قوي جداً في هذه المنطقة حتى تجد زحمة السير أَشْبَه بِمَعرض لبيع سيارات فولكسفاجن. وحيث يوجد في مصانع الشركة في شنغهاي خطان رئيسان للإنتاج: واحد يصنع سيارات من طراز سانتاناSantana المتينة التي كانت أول سيارة غربية تنتج بكميات كبيرة في الصين في الفترة التي تَلَت عهد ماو. وهي مثل الأصدقاء القدامى، لا يزال يُعْتَمَد عليها وهي موضع ثقة، لايتخلّى عنها أصحابها بسهولة. وإن جميع قوافل سيارات الأجرة في شنغهاي، تقريباً، من سيارات سانتانا حمراء اللون، وهذه الظاهرة لا تدلّ على مدى تحمل هذه السيارة فحسب، وإنما تشير إلى نفوذ حكومة شنغهاي أيضاً، فهي شريك في مصنع السيارات. وما زال خط تجميع سيارات فولكسفاجن سانتانا يصنع السيارات بالطريقة التي كانت تصنع بها في ألمانيا سبعينيات القرن العشرين، بالاعتماد الكبير على اليد العاملة. وتمتلك فولكسفاجن خط إنتاج حديث جداً في الصين، ربما كان أفضل خط لدى الشركة، يُنْتِج سيارات باسات Passat الرائجة في الصين، إذ تعد في سوق الصين سيارة رفاهية مقارنة بالأصناف الفاخرة الأخرى في العالم، مثل: مرسِيدِسMercedes، و بي إم دبليو BMW. وسوف تُضاعِف فولكسفاجن عدد السيارات التي تصنعها في الصين سنة 2008م، حيث يُتوقع أن تبلُغ مبيعاتها هناك 1.6 مليون مركبة، وسوف يُعطي هذا الرقمُ الصينَ استمرارها في مَرْكَز الربح الأعلى في العالم.

ويرغم قوة فولكسفاجن كلّها، فإنها سوف تفقد حصتها في السوق الصينية بدخول شركات أخرى من الخارج، عندما يتعلم الصانعون المحليون المنافسة. وقد أصبحت جنرال موتورز General Motors، التي تحتل الموقع الأول في صناعة السيارات في العالم، الصانع الثاني للسيارات في الصين، إذ تبيع الآن عُشْرَ سيارات سوق الصين، وتعمل على مُضاعَفَة إنتاجها ومبيعاتها للوصول

http://www.ibtesama.com/vb

إلى 770.000 سيارة سنة 2006م. أما فورد Ford، فقد كانت من القادمين المتأخرين وبقيت على ذلك، تتقدم ببطء في سوق الصين، لتتأكد من أنها ستكسب المال هناك. وإذا كان للمال أن يتكلم فلا بد لخوف فورد أن يَتَبَدَّد، وبخاصة بعد أن صار لها مصنعان كبيران يعملان هناك، وصارت تُنْفِق أكثر من بليون دولار لتُدخلهما في الإنتاج سِراعاً. ويتساءل الداخلون في الصناعة عما إذا كانت الشركة قد دخلت بِحَذَرٍ شديد لِتُعَوِّض عن تأخرها في الدخول. وستضيف فولكسفاجن وكذلك جنرال موتورز طاقةً تصنيعية على طاقةِ إنتاجهما الحالي تتجاوز جميع مشاريع فورد الجديدة.

وتخطط هوندا Honda، وتويوتا Toyota، ونيسان Nissan للسيطرة على حصص كبيرة من سوق الصين أيضاً. وتجد فولكسفاجن وصانعو السيارات الأمريكية أنفسهم في مأزق مألوف. فبرغم احتقار الصينيين لليابانيين، فإنهم يضعون السيارات اليابانية في المقام الأول، ويبدون استعداداً لدفع قيمة أعلى من القيمة العادية، وانتظار دورهم على لوائح الانتظار ليحصلوا عليها. ويقوم منافسو اليابانيين، في هذه الأثناء، ببناء قدرات كبيرة حتى إنهم ربما يعومون الأسواق. وقد غدا التعويم أمراً واقعاً في سوق السيارات في الصين، وتُوالي أسعار السيارات هبوطها، بينما يجمع صانعو السيارات بُنْيَةً تحتية حولهم تُتيحُ لَهُم الحصول على قِطَع الغيار التي تُصْنَع محلياً بأسعار أقل.

قطَعٌ في الأَحْجِيَة

إن قلقاً اقتصاديّاً كبيراً خارج الصين ينمو من تجَمُّع المُصّنِّعين داخل الصين لخدمة مصانع السيارات الكبيرة. فهناك المجموعة الأولى، والثانية، والثالثة، من صنوف المُصَنِّعين الذين يصنعون آلاف القطع التي تدخل في صناعة السيارة التي لايَصْنَعها صانِعو السيارات أنفسهم. إن هذه الشركات هي قلب القطاعات الصناعية في العالم وروحها. وإن الدول التي ليس لها إلا دور صغير في صناعة

http://www.ibtesama.com/vb

السيارات الكاملة تصير أدوارها كبيرة عندما تعمل في قِطَع السيارات. فالمكسيك، وكندا لا تصنعان كثيراً من السيارات مقارنة بالولايات المتحدة أو اليابان أو ألمانيا، لكنهما تصنعان كثيراً من القِطَع. وتعد صناعة القِطَع في الولايات المتحدة من أكبر مُحرِّكات الاقتصاد الوطني. حيث يَبيع صُنَّاعُ قِطَع السيارات المحليين في الولايات المتحدة ما قيمته 750 بليون دولار من منتجاتهم حول العالم كل سنة. وتُغَطّي تجارة السيارات، عامَّةً، أكثر من تريليون دولار، أو عُشْر الناتج المحلي الإجمالي الأمريكي.

وتعمل صناعة السيارات، من صُنّاع القطع الصغيرة إلى صانعي السيارات الكبار، كنظام كوكبي غير مستقر، مثل حال القطاعات الصناعية الأخرى. فعندما تتحرك القطع والأجزاء تَكْتَسِب جاذبِيَّة وتَشُدُّ قِطَعاً أُخرى من العمل. وعندما يؤسس صانعو السيارات الكبار الإنتاج في الصين، فإنهم يَجرّون معهم الشركات التي تزودهم بالقطع. وعندما ينتقل المُزَوِّدون إلى الصين- وإن كان انتقالُهُم لصناعة قِطَع للسوق الأمريكية بكلفة أقل- فإن الشركات الكبيرة تنتقل أيضاً، وهي أكثر ثقة بأن البنية التحتية الصناعية التي تحتاج إليها للإنتاج الفعّال تتشكل في السوق الجديدة.

وإن الأعمال التي تشعر بشدَّة هذا الجذب إلى الصين غير قطع السيارات هي قليلة. وقد قال أنطونيو بِنِتّشي Antonio Benecchi لمجلة أوتوموتيف نيوز Automotive News بعد دراسة أجرتها شَركَتُه رولاند برجر ستراتيجي كونسَلْتَنْتس Roland Berger Strategy Consultants لحساب شركة أُورِجنَل إكْوِبمنت سَبلايَرْز Original Equipment Suppliers Association، وهي أكبر مجموعة في هذه الصناعة تَصْنَعُ القِطَع، «إن المُزَوِّدين يَشعرون بضغط متزايد لنقل الصناعة إلى الخارج». درس بِنِتّشي Benecchi سبعين شركة يبلغ رقم عملها مجتمعة 72 بليون دولار في السنة. فوجد صناعة السيارات في أمريكا الشمالية تنتقل إلى الخارج على موجات. فأكبر شَرِكَتَي قطع أمريكيتين

http://www.ibtesama.com/vb

هما فستيون Vesteon (وهي شـــركة مستقلة انْبَثَقَت عن شركة فورد Ford)، ودِلفــي Delphi (انْبَثَقَت عن جـــي إم GM)، عندهما عِدَّة مصانع في الصين ولديهما مُخططات طموحة للتَوَسُّـــع. وتعني الصين لهمـــا مبيعات تبلغ بليونات إضافيـــة من الدولارات. ويتوقع بعض مراقبي الصناعة أن يُبْقي عِملاقا صِناعة قطـــع الغيار القِطَعَ التي تُصْنَعُ في الصين للســـوق الصينيـــة وحدها، مثل باقي الصِّناعات الأخرى.

ولا تتجه جميع التَحَرُّكات إلى الصين. فكثير منها يتجه إلى المكسيك، وأوروبا الشـــرقية، ومناطق أُخرى من آســـية مُنخَفِضَة التكاليف. وليس ثمَّة شك في أن الانجذاب نحو الصين لاهوادة فيه، حيث الصين، بِخلاف الأسواق الأخرى، تقدم صناعة منخفضة التكاليف للتصدير إلى خارج البلاد- إلى الولايات المتحدة مثلاً - وضخامة ســـوقها المحليَّة الواعِدَة التي لا تُصَدَّق. وقد اشـــترت جنرال موتورز General Motors مـــن الصين ســـنة 2003م قطعاً للســـيارات قيمتها 200 مليون دولاراً، تَتَضَمَّن قِطَعاً صَنَعَتها شركاتٌ محلية وصناعيون من أنحاء الأرض يعمَلـــون في البلاد. ولا تتضمن القِطَع التي اشـــترتها جنرال موتورز من معاملها الصينية الخاصة. وتقول الشـــركة: إن ما تشـــتريه للتصدير من الصين سيرتفع 2000 بالمئة ليبلغ 4 بلايين دولاراً في السنوات الخمس التالية.

وإن أي تَحَـــرُّك يَتَحَرَّكُـــه صانعو الســـيارات الأمريكيون الكبـــار وأندادُهُم الأوروبـــيون، يُؤْتـــي أُكُلَهُ أرباحاً مُوَزَّعة عالمياً. فإنهـــم ما إن يدخلوا الصين حتى يتمَكَّنوا من تقييـــم البيئة الصناعية المحلية، ويتعرفـــون على أفضل الصناعيين الصينيين، ويتفاوضون علـــى المعلومات التي يجمعونها هناك عن كلفة مُزَوِّديهم. وتصبح المعرفة الداخلية في الصين، مثل حال وُول-مارت Wal-Mart، مِطْرَقَة قُـــوَّة، تلوح فـــوق رؤوس المزودين في كل بِقاعِ الأرض. فقـــد قالت جي ام GM، وفورد Ford لِشَبَكَة مُزَوِّديهم إنَّ عَلَيْهِم الاستعدادَ لخَفْض نفقاتهم خفضاً كبيراً في كُلِّ ســـنة. ويوضح هذا أن طلـــب تخفيض المزوِّدين أَســـعارَهم هو إخبارهم

http://www.ibtesama.com/vb

أن عليهم الاستعداد لمواجهة أفضل سعر يخرج من الصين، وإن كانوا يصنعون منتجاتهم في اليابان أو ألمانيا. تشتري جي إم GM قطعاً تزيد قيمتها عن 80 بليون دولار في السنة، وتُلزِم الآن مُزَوِّديها بمادة نافذة في عقودها معهم تُمهِلُهم ثلاثين يوماً لتقديم أفضل سعر يتوَفَّرُ للشركة في العالم، وإلا فإنها تُخاطر بإنهاء التعامل فوراً.

وليس ثمَّة شك في أن دِلْفي Delphi، أكبر صانع لقطع السيارات في العالم، تجدُ نَفسها مُندَفِعة باتجاه الصين. وقد تجاوَزَت تِجارتُها مع الصين عتبة بليون دولار سنة 2004م – في الوقت الذي كانت تُسَرِّحُ فيه عُمّالاً من مصانعها في الولايات المتحدة.

وتُساعد السوقُ العالميَّة لِلْقِطَع الصينية على نُشوءِ لاعبين عالميّين من شركات القِطَع الصينية المحلية، أكبرها مجموعة وَنْزيانج Wanxiang، التي تُوَظِّف واحداً وثلاثين ألف موظف، ويبلغ رقم أعمالها حوالي بِليوني دولار في السنة، معظمها مع عمالقة مثل دِلْفي Delphi وفستيون Vesteon. وتَجِدُ الشركات الصينية أيضاً عملاء راغبين في سوق قِطَع الغِيار الكبير التي تدخل في إصلاح السيارات.

وقد صَدَّرَت الصين، عامَّةً، قِطَعاً قيمتها 6.5 بليون دولار سنة 2003م، وهذا المبلغ هو أكثر من ضعف ما صَدَّرَته في السنة السابقة. وإن وَنْزينج Wanxiang تُخَطِّط أيضاً للتَّوَسُّع إلى الخارج، على ضوء تجربة دي في دي وسِواها مِمّا صُدِّرَ من منتجات صينية. فهي تملك أجزاء صغيرة من المصانع الأمريكية، يونفرسال أُوتوموتف إنْدَسْترز Universal Automotive Industries ورُكْفُرد باورترِيْن* Rockford Powertrain ولها أعمال جديدة في ألمانيا وأسْتراليا أيضاً غير أن إنشاء قاعدة صِناعية صِينِيّة لها مركز جاذب خاص

* كان نَصيبُ جي إم GM من مبيعات قِطَع الغيار الصينية إلى مُصَنِّعين أجانب 2.8 بليون دولار.

http://www.ibtesama.com/vb

بها لا يُرضي صانعي السيارات في العالم. وعندما يتوفَّر لِصانعي السيارات سلسلة إمداد عالميَّة، تُمَسِكُ بها شركات صينية قوية يرشدها شركاؤهم الأجانب في الإدارة والتكنولوجية، يَنْشَأ منافسون أقوياء لهم أيضاً. ويَنْطَبِقُ الأمرُ ذاتُه على صُنَّاع قطع السيارات العمالقة، الذين يعْتَمدون على شبكاتهم الخاصة من المُزَوِّدين. وليس ثمّة مناص من تسرب تكنولوجياتها وخبراتها إلى الشركات المحلية عن طُرُق لا يَسْتَطيعون التَحَكُّمَ بها. وإن شركة دِلْفي Delphi هي إحدى تلك الشركات التي تُغَذِّيها كوكبةٌ من مزودي القِطَع من مجموعات الصنف الثاني والثالث المحليين، على أن يرفعوا مستوى وحداتهم إلى مستوى دلفي العالي. يقول جِنْيَا تْشِن Jenya Chen رئيس شركة دِلفي، «لا بد أن يلتَزِمَ مُزَوِّدونا، من الصنف الثاني، بضوابط الإدارة، والجودة التي ترقى إلى مستوى دِلْفي: ومِنَ العَدل القولُ: إن دِلْفي تُدْخِل ثقافَةَ الجودَة إلى الصين».

ويظهر السوق في الصين معقداً بِخاصة عندما يَرى المرءُ كبار صانعي السيارات الكبار في العالم مُجْبَرين على أن يشاركوا شركات محلية، تكون ملكية مُعظَمِها للدولة، بُغْيَة القيام بأي عمل في البلاد. فقطاع السيارات هو أحَد تلك القطاعات التي ما تزال الحكومة الصينية قادرة على لَيِّ أذْرُع الأجانب بإجبارهم على الدُّخول في مشاريع مُشْتَرَكَة مع الدولة. غير أن شركات الحكومة لا يُعيقُها في علاقاتها شيء. فهي تستطيع أن تدخل في مشاريع مشتركة مُتَنَوِّعَة مع شركات أجنبية كثيرة. وقد سنّت الحكومة الصينية قوانيناً تجعل الملكيَّة الفكْريَّة التي يُدْخِلُها أحد شُركائها الأجانب في الاتِّفاق معها ملكاً للطرفين مناصَفَةً.. أما الشركات الغربية واليابانية التي لديها مخزون كبير من التقانة المسجلة كملكية خاصة، فتعد القانون صفقة رديئة. فيُعطي القانونُ الشركاءَ الصينيين حق توزيع تلك التكنولوجية خارج الشركة لمن يشاؤون. ويضع هذا التشريعُ الشركات الصينية في مَوْضِع فريد يُمَكِّنُهُم من جمع التكنولوجيا المتقَدِّمَة من عدة شركاء وإدخالها في مَرْكَباتِهِم.

http://www.ibtesama.com/vb

إن هـــدف الصين الجلـــي، في المدى البعيد، هو أن تَتَبَـوَّأَ مكاناً مَرموقاً فـ
صناعة السيارات الرائدة في العالم، وإن تَمَتُّعها بِحُرية الوصول إلى التكنولوجيـ
هو الهدف الســـريع. يقول البـروفِسُر أُودِد شِنْكَرOded Shenkar، الذي جَعَا
اخْتِصاصَه مُراقَبَة صانعي السيارات الآسيويين، بدءاً من الصعود العالمي للشركاد
اليابانية الكبيرة في ســبعينيات القرن العشـــرين: «إن تطوير ســيارة جديدة قـ
يكلف صانع السيارات الأمريكي أو الياباني بليوناً أو بليوني دولار».

ويقول شِـنْكَر: إن العبور السائب للملكية الفكرية في قطاع السيارات يعادا
إعانـة هائلة من الدولة. فقـد تَضطر ديترويت إلى بيع مِئات أُلوف الســيارات
كـي تُعَوِّض نَفَقَات تَطْوير نَمــوذَج معين، ثم يتَلَقَّفهـا المُصَنِّعون الصينيون الذيز
يُصادرون هذه النماذج فيســتَعيدون نقودهم من فَوْرِهم تقريباً. ويضيف شِنْكَر
«وإنــك إن انْقَضضتَ على نموذج شــركة أخرى، فلن يَسْـتَطيع الصانِعَ الأَصليُّ
التَغَلُّب عليك بالســعر». وإن المُنْقَضِّــين الصينيين الذين يصادرون نَماذج غيرهـ
ليســوا مضطرين للإنفاق على إعلان، حيث تَلْقى النمــاذج التي يُقَلِّدونها دَعما
إعلانياً قوياً. ويضيف شِنْكَر: «وثَمَّة وَفْرٌ آخر تتمتَّع به شركات الصين، فإنك إذا
كنت مقلداً، ليس عليك ســوى أن تقلد النمــوذج الناجح. والصينيون يميلون إلى
اقتباس السيارات المُجَرَّبَة فقط، التي أثبتت كفاءتها».

ويســاعد تحوُّلُ التكنولوجية إلى الصين مصانِعَ الســيارات المحلية، إذْ تَعْبُرُ
الخِبْرَة من الشــركات الأَجْنَبِيَّة المُتَقَدِّمَة إلى الشركات المحلية التي تَتَعَطَّش إليها
من قَنَواتٍ خَلْفِيَّة. فقد وجدت فولكسـفاجن قِطَعَها التي تملك براءات اختراعاتها
قد صُنِعَت واسْتُعْمِلَت في سيارات جديدة محلية منافسة. وصُعِقَت جي إم GM
في معرض السيارات الكبير الذي أُقيم في شنغهاي سنة 2003م عندما وَجَدَت
حافــلات صغيرة للعائلات أنتجتها أوَّل مــرَّة، قيمة الواحدة منها 9.000 دولار
يُنافِسُــها تَوْأَم حقيقي لها يُباعُ بــ 6.000 دولار في جناح أحد المصانع الصينية
الــذي يعرض إنتاجه في جناح قريب منها. فقد أنتجت المركبة الأرخص شـركة

http://www.ibtesama.com/vb

ـري Chery التي تشارك في ملكيتها شركة شنغهاي أُوتو Shanghai Auto، شريك الصيني الكبير لشركة جي إم في عمل مشترك. وقد سارعت شنغهاي أُوتو، فاظاً على سمعتها، إلى التخلي عن مصالحها في شِـري. أما الحكومة الصينية أصدرت حكمها، على عادتها عندما تتأثر شركات صينية بالنَّهج المُتحَرِّر لمُنافسيهم لأجانب، فحَكَمَت أن ليس لـ جي إم GM دليل يَدعم شكواها.

ويخشى شِنْكَر أن تُشَكِّلَ معظم النشاطات خطراً في المدى البعيد على صحة شركات السيارات العالمية، تحتَ سَمْعِ «رادار» الصناعة الأمريكية وبَصَرِه، والذين يضْبِطونها، والجمهور الأمريكي. ونَشَـرَت صَحيفة تْشاينا دِيْلي China Daily الحكوميـة، موضوعاً مُقْتَضَباً مُثيراً يُعلن أن 252 سـيارة اقتصادية صُنِعَت في الصين قد شَـحَنَتْها شـركة تْيانْجِن أُوتُموتِف زيالي Tianjin Automotive Xiali Co. إلى ميناء إِفرجليدز Everglades في فلوريدا، وهي أول سـيارات تُصَـدَّرُ من الصين إلى الولايات المتحدة. وقالت الصحيفة إن شـركة بوكا راتون Boca Raton قد خَطَّطَت لاسـتلام 25.000 سـيارة من سيارات زياليXiali في السنين الخَمْس القادمة. كانت السيارات الصغيرة من النوع ذاتِه الذي يَسودُ سـيارات الأُجرة الحمراء ذات المَطَبَّات في بكين، تستهْلِكُ الواحِدة منها جالوناً من الوقود في كُلِّ تسـعين كيلومتراً، وتَقِلُّ قيمتُها عن 6.000 $ في الصين. ولم تستطع هذه السـيارات أَنْ تأْخُذَ طريقاً إلى صالات العـرض الأمريكية. وقد شُحِنَت إلى مواقع الثروات المنخفضة، حيث تكون خِدْمة السيارات المضمونة بعد البيع رخيصةً. فكان فيما أشـارت الأخبار إليه أن شـبكة تجارية تُعِدُّ العِدَّة لبيع سيارات من أصْناف صينية في الولايات المتحدة.

ويقول شِـنْكَر: «وليس ثَمَّة من يَتَنَبَّه إلى الصـادرات الصينية. فَيَظُنُّ مُعْظَمُ الناس أَنَّهُم لايُصَدِّرون شيئاً بَعْد، لكِنَّهُم يفعلون».

ولا يَقْصِدُ شِـنْكَر في قوله هذا الأصنافَ الصينية فحسب، وإنما السيارات التي تَحمل أسـماء عالميـة وتصنع في الصين. فقد صَـدَّرَت فولكسفاجن قَبل

http://www.ibtesama.com/vb

سَنَة إلى أستراليا، بين ستين ألف سَيَّارة وسبعين ألف سيارة صُنِعَت في الصين. وهناك سيارات أُخْرى تَذهَبُ إلى الشرق الأوسط. فشركة هونداHonda، التي تصنع السيارات الأكثر رواجاً في الصين الآن، أقنعت حكومة الصين بأن تسمح لها ببناء مصنع في الصين تملكه هي كُلَّه – وهو الأول الذي يُتاحُ لشركة أجنبية – فَوَعَدَت الحكومةَ أن تُصَدِّرَ كُلَّ السيارات التي تُصْنَعُ في ذلك المصنع. وكَشَفَت تويوتا Toyota مؤخراً عن أن المحركات التي تُصْنَع في مَصْنَعِها في الصين سَتَدْخُل في سيارات تُصَدَّرُ إلى السوق الأمريكية.

ويقول شِنْكَر: إن غَضَّ الطَّرْف عن صادرات الصين يذكره بما فَعَلَتْه أمريكا عندما بدأت شركات اليابان تُظهِرُ وُجودَها في الخارج (أُفْ شور). «فَلَم يأْخُذْهُم أحد على مَحْمَل الجدّ. وقال صانعو السيارات الأمريكيون إن السيارات الأجنبيَّة الجديدة بِدْعَةٌ تأخُذُ ألبابَ الناس ثُمَّ لاتَلْبَثُ أن تَضْمَحِل». ويقول شِنْكَر: إن صادرات الصين المحدودة الآن ليست إلا رأس جبل جليد، فالصين تصنع سيارات أكثر من حاجتها، وربما تَصنَع في سنين قليلةٍ قادمة ملايين أُخرى من السيارات لا تَسْتَطيع بيعها في الصين». فالعالم كله يملك اليوم طاقة إنتاج تزيد عن استيعابه. والصينيون، كغيرِهِم، سَيَتَطَلَّعون إلى التصدير لبيع هذه السيارات الفائضة عن حاجتهم».

ولعل المفارقة التي وقعت هي أن زيادة الطلب في الصين قد دَفَعَت الأَسعار إلى الانخفاض في العالم. وثَمَّة حَرب أسعار في بلد ينمو فيه الطلب هندسياً، ويستثمر صانعو سيارات العالم فيه بليونات الدولارات. فقد كانت أسعار السيارات في الصين تنخفض، خلال السنين الأخيرة، انخفاضاً تراوحَ بين 10% و 20% في السنة، ويتوقع أن يَسْتَمِرّ على هذا الحال. فعندما تباطأ نمو المبيعات سنة 2004م، سارعت شركات السيارات الكبرى إلى خفض آلاف الدولارات من أَسعار سياراتهم. فسيارة بيوك Buick التي تَتَمَتَّع بِعودة جديدة إلى الحياة في الصين، حيث تعد، بِعامَّة، السيارة التي تقدم أفضل ما يُشْرى بقيمتها، خفضت 5.000 دولار من سعر سيارة رِيْجال سيدان Regal sedan. كما خفضت

http://www.ibtesama.com/vb

فولكسفاجن أسعارها بمعدل 11 %، وتَبِعتها هيونداي Hyundai بمعدل 10%. وتَتَّجِه أسعار السيارات في العالم إلى الانْكِماش– فقد كان ارتفاعها في السنين العشرين التي خَلَتْ أَبْطأ من المؤشرات العريضة للأسعار – وسَتُمارِسُ صادراتُ الصين ضغطاً أشَدّ في خَفْضِها.

إن قدرة السوق الصينية على تخفيضٍ شديدٍ لأسعار السيارات مشهداً مرعباً ومُشَوِّقاً في آنٍ معاً. فهو مُرْعِب لأن انكماشاً حاداً في أسعار السيارات قد يؤدي إلى انكماش الاقتصاد كله، لِما يؤدي إلى إخراج ملايين العاملين من عملهم. وهو مُشَوِّقٌ، نعم، فمن ذا الذي لا يَطْمَح إلى اقتناء سيارة جيدة بثلث كلفتها؟

وهناك بضع سيارات رخيصة جداً. وقد أظهرت وَنفنج Wanfeng، وهي الشركة التي تُصَدِّر نماذج مُسْتَنْسَخَة عن جيب شِروكي إلى الشرق الأَوْسَط، أنها تستطيعُ صِناعة سيارة فارهة للتصدير قيمتها $10.000 في الصين، على أن لا تُضطَر إلى مواجهة سوق ذات نُظُمٍ مُتَشَدِّدَة. ويصنَع الكوريون السيارة الأرخص سعراً في الولايات المتحدة اليوم، وهي كيا ريو KIA Rio التي تعرض للبيع دون إضافات بـ 9.665 $. ويشتري هذا المبلغ وسيلةَ نَقْلٍ أَساسِيَّة؛ تبلغ استطاعتها 103 «حصاناً» وتشعُرُ بالطريق فيها كالنجرو. وقد نَشَرَ أَحَد الذين بحثوا في هذه السيارة مراجعتَه لها، جاهِداً لِيقول قَوْلاً طَيِّباً: «إنك إن أبقيت دوران المحرك عالياً.. فَسَوفَ تستطيع ريوRio مُواكبة حركة المرور على الطرقات الرئيسة». إن سيارة التصدير الصينية الأولى قد لا تكون أفضل من ذلك. ويقول كفن سْمِث Kevin Smith رئيس تحرير موتور ترِنْد Motor Trend: «إن أول إنتاج للسيارات هنا سيمثل قاع السوق في السمات، والرفاهية، والجودة، ولن يَتَخَلَّفَ كثيراً في المنافسة». ويشير سمِث إلى أن الكوريين قد أمْضَوا عشر سنوات حتى يصلوا بسياراتهم إلى مستوىً نوعيٍّ يقْبَله الشاري الأمريكي. ويعتقد أن الصينيين ربما يصلون إلى النقطة ذاتها في نصف المدة.

http://www.ibtesama.com/vb

وكيف سيكون شكل أوائل السيارات الصينية التي ستصدَّر إلى السوق الأمريكية؟ لا يملك المطّلعون على خفايا أسواق السيارات إلا أن يَتَكَهَّنوا. فيعتقد مايكل دُنّ Michael Dunne من أُوتوموتِف رِسُورْسِز آسية Automotive Resources Asia أنها ستكون سيارة بسيطة دونَ زُخْرُف، منسوخة عن سيارة اقتصادية من دولة أُخرى. ويتوقع بول لينِرت Paul Lienert، وهو صحفي عريق من ديترويت مُخْتَصّ بشؤون السيارات، أن تكون قد حَصَلَت على رخصة أو «اقترضت» تكنولوجية، لكي تأتي مجهزة بمحرك لائق ذي أربعة أطوار، وجهاز راديو، وتكييف هواء، عليها مِسْحَة صينية في تصميمها الخارجي. ولو أنها سَتَلْتَزِم بأذواق المستهلك الصيني، فإن السيارة ستأتي بِلَمْسَةٍ من زخارف ذهبية لامعة.

فمن أين سَيَشْتَري المرءُ سيّارَةً صينيّة هنا؟ ولا بد للمُنافِس القادم من أن يَجِدَ بديلاً لشبكة السمسرة كي تبقى السيارات رخيصة، فالسمسرة تزيد من النفقات، وإن تطويرها يحتاج إلى وقت. فعندما دخلت سوبارو Subaru السوق الأمريكية، كانت تبيع السيارات عن طريق محطات وقود السيارات. فمخازن بپ بوي Pep Boy التي تبيع قطع السيارات في الولايات المتحدة تبيع دراجات نارية صينية الصنع ودراجات رياضية، بعضها نُسَخ باهِتَة ومُصَغَّرة عن دراجات نارية أمريكية الصنع. بينما يبدو بعضها الآخر كأنها خرجت الآن من صفحات كتاب كرتون مُصَوَّر ياباني. فقد تكون مخازن التجزئة قناة بديلة سهلة. وقد يكون كوستكو Costco وغيره من مخازن التجزئة الكبيرة احتمالاً قوياً. فكوستكو يعرض سيارات خدمة رياضيةSUV أمام أبواب المخزن، وقد تفاوضوا على أسعار دون مساومة مع سماسرة السيارات في جميع أرجاء البلاد. وصارت المخازنُ مستودعات للمنتجات الصناعية الصينية، تُشير بذلك إلى أن قنوات التوزيع صارت جاهزة للموجة الأولى من السيارات الصينية القادمة إلى أمريكا.

http://www.ibtesama.com/vb

الصينُ تُنادي

إن تجربة شــركة موتــورولا Motorola، عملاقة الاتصــالات الأمريكية، تُعطينا درساً آخر عَمّا يُغَيِّرُه حَجْمُ الصينِ مِن قَواعِد المُنافَسَة والاسْتِهلاك هناك وفي كلِّ مكانٍ آخر. ففي كل شــهر يُسَجِّل خَمْسَةُ ملايين مُشْتَرِك جديد طلباتهم في خِدمَة الهاتف الجوَّال في الصين. ويبلغ عدد مشتركي الصين ثلاثمئة مليوناً، يجعلون الصين أكبر ســوق للهاتف الجــوَّال في العالم (وســيأتي مئات ملايين المشتركين الجُدُد).

وهكــذا، فلا بُــدَّ لصانعي الهاتف في العالم مــن أن يأتوا إلى الصين، فهي تمنحهم فرصة النمو عندما تبلغ الأسواق الأوروبية والأمريكية الإشباعَ. فالصين ليست سوقاً لبيع المعدات فحســب، وإنما هي بيئة أكثر الأسواق تنافُساً، وَتَغَيُّراً فــي العالم. فيُقْبِل الصانعون الجدد من كُلِّ حَدَبٍ وصَوْب؛ وتظهَرُ أجهِزَةُ الهاتف الجديــدة كُلَّ يوم في مخــازن المدينة الكبيرة. حيث يُعــرَضُ فيها اليوم ثمانمئة نموذج يمكن الاختيارمنها. ويُغَيِّرُ الشــبابُ مِن أَهْلِ المدن أجهزَتَهم، وســطياً، كُلَّ ثمانية أشهر فقط؛ فيبيعونها لآخرين أو يعطونها لأحد أفراد أُسَرِهم. وإن أجهزة الهاتف الجوال مُنْتَشِــرة بين عُمّال البِنــاء المُهاجرين، فصارَت مَنظَراً مألوفاً في شنغهاي وبكين، وقد لا تُغَطّي أُجورُهُم السَنَوية نفقات هواتِفِهم.

لقد ابتَكَرَت موتورولاMotorola سوقَ أَجهِزة الهاتف الجوال في الصين. وتعود القِصَّة إلى عشــرين ســنة خلت أو نَحْوِها. كان روبرت جلفن Robert Galvin، المديــر التنفيذي الســابق، يعد الصين، بين أوائل الثمانينيــات ومُنْتَصَفِها، بَلَداً يَعِدُ بِســوق تُعَوِّضُ هَزيمَةَ موتورولا في اليابان في سِــنِيْن. وكان على الشركة ابتداءً أن تُطَــوِّرَ بنيةً تَحتية بعيدة المدى وشــديدة الأهمية والإتقــان. التَفَتَ جلفن إلى وزير الســكَك الحديدِيَّة أثناء جولة في البلاد، وفي احتفال كئيب، وســأله بجُرْأة إن كان يريــدُ أن يؤدِّي عَمَلَه وَزيــراً ويكتَفي بِذلــك، أم يُريدُ أن يُحَقِّــقَ مُجْتَمَعاً راقياً بين مُجتمعات العالم. فضَرَب جلفن بِقَوْلِه هذا على شريانٍ ثَخين لوطنيَّة اقتصادِيَّة.

http://www.ibtesama.com/vb

وإن وثائــق شــركة موتورولا التي تُــدَوِّن دُخولَها الصين عميقــةٌ ومفتوحةٌ. وتُبَـيِّنُ أن جلفن وفريقَه كانوا يَعرفون أَنَّ نَقل التكنولوجية إلى الصين سَـيَزْرَع بُذور مُنافســة صينية لا تُقْهَر. فَرَأَت موتورولا أن أفضل إستراتيجية لها هي أن تدخل إلى الصــين باكِراً. ولم يمض وقت طويل حتى نَفَذَت تقاريرُ موتورولا إلى قــادة الصين– الزاخرة بالعِبارات التبشــيرية ذاتها عن الجــودة الصناعية التي جعلت الشــركةَ نموذجاً للصناعيــين الأمريكيين – فصارت القيادة الصينية، من فَوْرَها، تردد تلك العبارات. فأدخَلَ جلفن أفضل تكنولوجية تملكها موتورولا إلى الصين. أما البرهان المطلوب اليوم فهو على حجم شبكة الاتصالات الجوالة في البلاد وكفاءتها، ووصول المكالمات الهاتفية إلى أجهزة الهاتف في الأبنية العالية، وإلــى مركبات في الأنفاق، وإلى القرى الصغيرة النائية – اتصالات تُحْبِطُ نظام اتصالات الهاتف المحمول في الولايات المتحدة وتَبَزُّه.

أما ما لَم لم يتوقَّعه أحد في شركة موتورولا فهو شِدَّة الازدحام الذي ستؤول إليه ســوق الصين. إذ تَقْتَتِلُ اليوم نوكيــا Nokia وموتورولا Motorola على نصيب كل منهما من ســوق أجهزة الهاتف في الصين. وبرزت الصناعة الألمانية، والكورية، والتايوانية على أشــدَّها. وتُنافِــسُ الصناعةُ الصينيةُ اليوم جميعَ هذه الصناعات الأَجنبيّة منافسة شَرِسَة.

ويقــول زيروي تيــان Zirui Tian، وهو باحث في كلية الأعمال الفرنســية INSEAD، «تَمُرُّ المنافســة في الصين في دورة، فيســتطيع الأجانب، ابتداءً، أن يصنعوا الســلَع بكلفة تَقِلُّ كثيراً عما يستطيعُه الصينيون. وعندما تُوَرِّد الشركات المحلية سِــلَعَتَها إلى شركات متعددة الجنســيات، تتسع شبكة الإمداد سِراعاً. ثم يبدأ المصنعون الصينيون في الحصول على مصادر قِطَعهم في الصين ويَخفضون أسعار منتجاتهم إلى حَدٍّ أدنى كثيراً من منتجات الشركات المتعددة الجنسيات».

وإن من أهم الشــركات التي تُزَوِّد موتورولا شــركةُ بايد BYD التي تصنع البطاريات، وتَقَع في شِــنْزِهن Shenzhen قرب هونج كونج. ولم تَمْض عشــر

http://www.ibtesama.com/vb

سنين حتى انبَثَقَت الشركة الخاصة من شركة غير مرئية افتراضاً إلى شركة تُسَيْطِرُ على 50 بالمئة من سوق بطاريات أجهزة الهاتف الجوّال في العالم. وكانت بطاريات أجهزة الهاتف، قبل بايد BYD، تُصْنَعُ في مصانع عالِيَة الآلية highly automated، كالتي تُشَغِّلُها سانيو Sanyo، وسوني Sony في اليابان. غير أن بايد BYD، مثل وَنفِنج، أَلْغَت الأجسام الآلية robot وآلات أُخرى من عملية التصنيع واستبدلتهم بجيش من العمال. وإن دَفْعَ أجور عمل صينيَّة، وليس آلات أمريكية، وألمانية، ويابانية تبلغ ملايين الدولارات، قد مَكَّن بايد BYD من كَسْرِ أسعار البطاريات. ولم تستطع الشركة تلبية الجودة التي تطلبها موتورولا ابتداءً، فأرسلت الشركة الأمريكية فريقاً من المهندسين للعمل مع العاملين الجُدُد، ففازت بايد BYD بعد ستة أشهر بشهادة Six Sigma، وهي علامة مُمَيَّزَة للجودة مُعْتَرَف بها دولياً (ابتكرتها موتورولا). وإن استبدال الصين الآلات بالبشر بغية تحقيق وَفْرٍ هائل في النفقات دون تضحية بالجودة يُغَيِّر طَبيعَةَ المُنافَسَة في السوق العالمية. وعندما رَضَخَت موتورولا ونوكيا لضغط مُنافِسيهما الصينيين لِخَفْضِ أسعارهما، لَجَأَتا إلى بايد BYD.

وإن إحدى التَحَدِّيات الكبيرة التي تواجِهُها موتورولا وغيرها من صناعيي العالم هي تَقَدُّم المُنافِسين الصينيين تَقَدُّماً عظيماً. فقد ساعدت القِطَعُ الصينيَّة عالية الجودة ومنخَفِضَة الثمن على أيجادِ منافسين جُدُد محليين وشَرِسين جِدّاً. إذ تحتكرُ شركات مَحَلِّيَّة صينيَّة نَحْو ننجبو بيْرْد Ningbo Bird، وننجنج بندا إلِكْتْرونِكْس Nanjing Panda Electronics، وهايِرHaier، وتي سي إلْ موبايْل TCL Mobile أكثر من 40 بالمئة من سوق أجهزة الهاتف في الصين. فتُنْتِجُ ننجبو بيْرْد Ningbo Bird عشرين مليون جهاز هاتف سنة 2004م وربما تَشُقُّ طريقها سراعاً إلى مَوْقِع بين صانعي أجهزة الهاتف الجوال العشرة الأوائل في العالم. لقد بَلَغَ مصنعو الصين قُوَّةً جَعَلَت سِيْمِنْس Siemens الألمانية تَنْضَم إلى ننجبو بيْرْد Ningbo Bird عندما وجدت تجارتها في الأجهزة

http://www.ibtesama.com/vb

الجوّالة تَتَعَثَّر، لكي تَسْتَطيعَ التصنيع بكلفة قليلة وكَسْب أَقْنِيَة توزيع متطورة. ولن تَسْتَطيع موتورولا الخروج من سوق الصين، فهي إن فَعَلَت، كما يقول جِمْ جرادُفل Jim Gradoville، نائب رئيس موتورولا لشـؤون العلاقات الحكومية في آسيا باسِفِك. فإن الشركات الصينية التي انبثقت عن تجربة قاسية في أسواقهم ربما تكون أشْـرَسَ سوقٍ في العالم وأهْزَلها. ولن تكونَ لِشَرِكَة مثل شَرِكَته فِكْرَةٌ عمن أوْقَعَ بِها. وهكذا بَقِيَت موتورولا. وتُخَطِّط موتورولا، وهي أكبر مُسْـتَثْمِر أجنبي في الصناعات الإلكترونية في الصين، كي تَزيد حِصَّتَها بمقدار ثلاثة أَضْعاف ما هي عليه لتُصْبِح أكثر من عشرة بلايين دولار سنة 2006م.

325.000 مُهَنْدس جَديد في كُلّ سَنَة

كيف تخفِضُ شَرِكَةٌ تكاليفَها وتَرفَعُ جُودَةَ إنتاجها في آنٍ معاً؟ إنها تُوَظِّفُ أَلْمَعَ مَن تَجِد مِن الناس، وأكْثَرَهم حَيَوِيَّة في الصين.

يقول مارك وول Mark Wall، رئيس شـركة جنرال موتورز للبلاستِك في الصـين الكبـرى: «انْظُر، إن الصينَ اليوم هي المكانُ الأفضـل في العالم لِيَصير صِناعِيّاً». وتَبيعُ شَرِكَتُه كُرَيَّات البلاستِك التي تُسْتَعْمَلُ في صناعة كُلِّ شيء، من أقراص دي فـي دي إلى مواد بناء. وسوف تبيع جنرال موتورز في سنتين في الصين مواداً مُطَوَّرة، تتضمن البلاستِك، قيمتها بِليون دولار. ويتحَدَّث وول Wall الذي قَدِمَ إلى الصين من شركة جنرال موتورز للبلاستِك GE Plastics في البرازيل، عن بَلَدٍ يَعْشَـق الصِّناعة، حيث يأتي المهندسون مُفعَمين بحماس شديد، ويُقْبِلون على العمل ساعات طويلة. فَيُهَلِّلُ طلاب الجامعة لدخولِهِم كليَّةً الهندسة والعلوم التطبيقيـة. ويَتَحَدَّثُ وول Wall، مثلما يتَحَدَّثُ كثير من المديرين التنفيذيين في الصناعـة الأمريكيَّـة في الصين، عن العمل في الصين بسـعادة غَمَرَت جهابذة الكومبيوتر عندما وجدوا الهدوء في وادي السِـلِكون Silicon Valley. ويقول وول: إنه يشعر بارتياح كما لو كان في وطنه، إنَّه يُحِبُّها.

http://www.ibtesama.com/vb

وتَعْقِدُ جنرال موتورز العَزْمَ على أن تَسْتَثمِرَ في هذا المناخ المُكَرَّس للتَّصنيع. وقد افتتحت مؤخراً مركزاً كبيراً للأبحاث الصناعية في شنغهاي؛ وسَتُوَظِّف في السنة المُقْبِلة ألفاً ومئتي شخص في مختبراتها في الصين. وَوَضَعت برامج مِنَح دراسية في الجامعات التكنولوجية الرائدة في الصين.

ولن يواجِه شركة جنرال موتورز نقصٌ في المُرَشَّحين الجَيِّدين للعمل. فالحكومة تُقَدِّمُ الموارد دافِقَةً لِتَكوين أَكبَر جَيْش من الصناعيين في العالم. ويوجد في الصين 17 مليون طالب في الجامعات والمعاهد المِهْنِيَّة (وقد زاد بمقدار ثلاثة أضعاف في خمس سنين)، يَدْرس معظمهم العلومَ والهندسة. وسوف يَتَخَرَّج من جامعات الصين 325.000 مهندس في هذه السنة، أي خمسة أضعاف عدد خريجي الولايات المتحدة، حيث تراجَعَ عدد المهندسين المتخرجين هناك منذ أوائل ثمانينيّات القرن العشرين. وربما يصعب تَصَوُّر شعورَ الأمريكيين أن تغور الهندسة تحت ذلك الحد. إذ يَعْدِلُ أربعون بالمئة من الطلاب الذين يدخلون كليات الهندسة عنها.

وتعتمد قدرة تَقَدُّم الصناعة الأمريكية على مُنافِسيها في العالم على الموارد والمنح الوطنية التي تُقَدِّمها الولايات المتحدة للإبداع. وليس ثَمَّة شك في أن ثقة الشركات الأمريكية الكبرى، نَحْو موتورولا Motorola، وجنرال موتورز General Motors، وإنتل Intel التي تستَثْمِر هي وغيرها من الشركات في مشاريع في الصين تبلُغ بِليونات من الدولارات، تعتمد على الثَرْوَة العقلية التي يَتَمَتَّعون بها في الوطن. وتبقى فَجْوَةُ الأبحاث كبيرةً بين الولايات المتحدة والصين. حيث قَدَّمَت واشنطن في كانون الأول/ديسمبر 3.7 بليون دولار لتمويل بحث تكنولوجي في بناء دارات إلكترونية من ذرات مفردة، وهذا مبلغ لا تستطيع الحكومة الصينية أن تضاهيه بسهولة ضمن بُنْيَةٍ تحتية علمية تحتاج إلى بليونات كثيرة من الدولارات (ومن السنين) لبنائها.

http://www.ibtesama.com/vb

أما عندما يتعلق الأمر بالتيار الرئيس للتمية والإبداع الصناعي التطبيقي، فإن الفارق بين الصينيين، والأمريكيين، وغيرهم من شـركات متعددة الجنسيات قد بـدأ يَنْكَمِشُ. فقد أَنْفَقَت الصين، في السـنة الماضية، 60 بليون دولار على الأبحـاث والتنمية. وإن الدولتين اللتين فاقَتَا الصـينَ في إنفاقها كانتا الولايات المتحدة واليابان، فقد أنفقت الولايات المتحدة 282 بليون دولار، وأنفَقَت اليابان 104 بليـون دولار. وتُجْبِـرُك الصين على إجراء بعض الحسـابات؛ إذ تَقَعُ أُجورُ المهندسين والعلماء في الصين بين سُدُس وعُشْر أُجور أمثالِهم الأمريكيين، وهذا يعني أن فجوة التمويل العريضة لا تؤدي بالضرورة إلى فجوات بِذات العَرض في القوى العامِلة أو في النتائج. فقد أنفقت الولايات المتحدة ما يَقْرُب من خمسـة أضعاف ما أنفقته الصين، غير أن ما حقَّقَته يَقِلُّ عن ضعف عدد الباحثين الذين أنتَجَتْهُم الصين (1.3 مليوناً مُقابِل 743.000).

ويشتدُّ تركز المختبرات الصينية تركيزاً عظيماً على طرف «د D» - أي تدريب الموظفين والمديرين الفَنيِّين. غير أن الشـركات الأجنبية تَحَرَّكَت سراعاً إلى دَمْج مُخْتَبَراتِها في الصين مع بحوثها التي تُجريها حَوْلَ العالم. وتمتلك موتورولا تسعة عشر مُخْتبَرَ بحوث في الصين تُطَوِّرُ تكنولوجيات للأسواق المحلية والعالمية. وقد طُوِّرَت أجهزة هاتف كثيرة مما أَنتَجَتْهُ الشركة هناك لسوق الصين.

ويقع أحـدث مراكز أبحاث موتورولا على بُعْد أَربعـين دقيقة من تشنجدو Chengdu عاصمة سِتْشْـوان Sichuan، وهي مقاطعة تقع في جنوب الصين الغربي. وتزيدُ مسـاحة سِتْشْـوان قليلاً على مسـاحة كاليفورنيا، غير أن عدد سُـكَّانها يزيد عن ثلاثة أَضعاف سُـكّان كاليفورنية. ويبلغ عدد سُكّان المقاطعة 107 ملايـين تقريباً، وفيها ثلاث وأربعون جامعـة، و1.2 مليون عالم ومهندس. ويحول نظام النقل المُبَعْثَر في سِتْشْـوان دون منافَسَـة تشنجدو محطّات توليد الطاقة الشرقية كمركز صناعي. غير أن المدينة تدعم ما تَتَمَتَّع به من وَفْرَة وغنى، والانْخِفاض النِسْـبي لأجور الأدمغَة المَخزونة فيها مع مَمَرِّ البحوث، في منطقة

http://www.ibtesama.com/vb

تكنولوجيـــة غربية عالية. وتعد موتورولا بناءهـــا – الذي تدعمه منطقة التنمية بسخاء – مركزاً عالمياً لهندسة البرامج. وتُوَظِّفُ الشركة اليوم أكثر من 150 من مُطَوِّري البرامج هناك ولديها خِطَّة لزيادة مئات غيرهم، مما يضَعُها في مواجَهَة عدد من أعظم مشروعات بُحوث العالم الكبرى التي تَنْعَم بِسَخاء تشنجدو، نحو، إنْتِل Intel، وإرِكْسُـــن Ericsson، ودي-لِنْك D-Link، وسيمِنْس Siemens، وأَلْكَتِل Alcatel، ومِتْسُـــوي أند كومبانـــي Mitsui & Company، وفُوجي للصناعات الثقيلة اليابانية Fuji Heavy Industries of Japan، وأكثر من مئتي شركة أُخرى في واحدة من مُقاطعات المنطقة المُتَخصصة بالتكنولوجية.

وقد أَسَّسَت الشركات الأجنبية، مراكز بحوث يَقع مجموعها بين مِئَتَي مركز بحـــوث وأربَعمِئَة مركز خاصٍّ بِها في الصين منذ ســـنة 1990م. وقالت صحيفة بيبلز دِيْلي People's Daily الصينية، إن معظم شركات العالم الكبرى متعدِّدة القوميّـــات قد أقامت مشـــاريع بُحـــوثٍ وتنمية في الصـــين. إذ تجذب الحوافز الضريبية هذا النوع من الاسْتِثمار إلى حَدٍّ ما. غير أن الحافز الأكبر هو الوصول إلى المستهلك الصيني.

فمـــا النتيجة المنتظَرَة من هذا الاســـتثمار في البُحـــوث والتطوير R & D فـــي الصين؟ النتيجة هي زيادة طاقة الإنتـــاج عن الحاجة. فإن العدد الكبير من العاملين في الصناعة الذين اكتسبوا الآن مهاراتهم في الصين يُهَدِّد بإغراق أسواق التكنولوجيـــة العالية ذات القيمة العالية في العالم، مثلما يُغَذِّي العدد الكبير من عمـــال الصين غَيْرِ المَهَرَة العالمَ بمزيد من الأحذيـــة، ومزيد من الأدوات، وقِطَع الأجهِزَة التي تَزيدُ عن حاجَتِه – أو على أقل تَقدير، أكثر مما يستطيع استيعابه دون خَفْض الأسعار. وقد وَظَّف المســـتثمرون الأجانب، أو تعهدوا باستثمار، 15 بليون دولار في بناء تســـعة عشر مصنعاً جديداً لأشباه الموصلات الكهربائية في الســـنوات الثلاث الماضية. وتســـتورد الصين 80 بالمئة من رقاقات chips شبه الموصلات التي تحتاجها وتَبْلُغ قيمتها 19 بليون دولار، واتَّخَذَتها الحكومةُ ذريعة

http://www.ibtesama.com/vb

كرامةٍ وكبرياءٍ وَطَنِيَّيْن لوَضْع حَدٍّ للاعتماد على الأجانب. ويتَّفِق مراقبو الصناعة على أن الصين ستستطيع منافسة كبار صانعي شبه الموصلات في العالم في عَشْرِسنين قادمة، وسوف تُمارِسُ ضغطاً شديداً لخَفْض أسعار الرقاقات قبل ذلك الأجل. وسأل موريس تشانج Morris Chang جمعاً صناعياً – وهو مؤسِّس شركة صناعة شبه الموصلات التايوانية Taiwan Semiconductor Manufacturing – وأكبر مسبك لشبه الموصلات في العالم، فقال: هل سيشهد سوق الرقاقات فترة ركود قادمة؟ وتابع قائلاً: «نَعَم، إني أرى ذلك». ومن سَيُسَبِّبُ ذلك الركود؟ إنها الصين، بفضل طاقة الإنتاج الهائلة التي تَبْنيها.

اقْتحامُ نَسيجٍ لَيِّن

وقد يكون السؤال الآتي هَلْ كان ثَمَّة تكنولوجية تجارية وراءَ تَحَدٍ يُوشِك أن تُظْهِرُه الصين، نظراً لِلسُّرعَة التي تسلقتها الصين في سُلَّم التَّصْنيع؟ ويَرى جال ديامَنْت Gal Dymant، وهو مُسْتَثْمِرٌ أمريكي – إسرائيلي في بكين، أن هناك شيئاً من هذا الأمر. وإن شركة من الشركات التي يعمل ديامَنْت معها اسمها، آسيا دايْركْت Asia Direct، تنشُرُ قواعد بيانات database publisher، وتُنْتِج دليلاً سنوياً هو دليل الصناعات المتقدِّمة في الصين China Hi-Tech Directory. وبمتابعة ديامَنْت للمعلومات المُتَغَيِّرة من سنة إلى أُخرى أَدْرَكَ التَحَوُّلات التي تَطْرأ على الصناعة الصينية.

ويقول: إن أول ما يُلاحِظُه المرءُ في الدليل زيادة حَجمِه سنة بعد أُخرى، وبِخاصَّة في الصناعات التي دَخَلَت إليها استثمارات أجنبية هائلة. وعَظُمَ حجم الدليل سنة 2003م في أقسام صناعة أجهزة الهاتف الجوال ومزوِّدي هذه الصناعة، وشبكات اتصال مَوْجات ذات ذَبْذَباتٍ كهرومغناطيسية واسعة، وفي الشركات التي تؤسس في المدن الواقعة خارج محطات توليد الطاقة في شرق الصين. وتزدهر صناعة الرقاقات المتكاملة وتجارتها أيضاً، إلى جانب المكاسب

http://www.ibtesama.com/vb

الصحية لأسواق البرامج وخدمات – المعلومات الصينية. وتَوَسَّعَت أقسام الدليل؛ فَكَبُرَ قِسم البَيوتِكْنولوجِيَّة، وأشباه الموصلات، وتطوير الإنترنت، فقد وَطَّدَت الشركات الصينية مواقِعَها في هذه الميادين مؤخراً، فصار كثيرٌ منها الآن شركاء لشركات عالمية تكنولوجيَّة الاتِّجاه.

وإذ يستعرض ديامَنْت واقع الاستثمار، فتَراه يجد المعدّات الطبيَّة من أكثر الميادين الواعدة في المستقبل. فَيَجْمَعُ بينَ عَدَدٍ من المُسْتَثْمِرين لبناء نُسْخَة صينية من جهازٍ من أكثر الأجهزة تَقَدُّماً وكلفة في العالم، هو جهاز تصوير بالرنين المغناطيسي MRI، مُعْجِزَة تكنولوجية يبلغ حجمها حَجْمَ غرفة وتبلغ قيمتها مليوني دولار، تلتقط صُوَراً مُفَصَّلة للنسيج الرّخو في جسم الإنسان. فيوضَع المريض داخِل أشعة مِغْناطيسيَّة ويُقْصَفُ بِمَوْجات إِشْعاعِيَّة. ولما كانت خلايا الجسم المتَنَوِّعة تَخْتَلِف في شكل استجابتها لهذه الموجات، فإن الأطباء يستطيعون رؤية الخلل في المواقع التي يلتقطها الرَّنين المغناطيسي. وإن أجهزة الرَّنين المغناطيسي – بالرغم من قيمتها الباهظة – لكنها توفر على المريض جراحة اسْتِقْصائية في بعض الأحوال، وتجِدُ في حالات أُخرى تَشْخيصاً لم يَكُن ممكناً من قَبْل.

ويقول ديامَنْت: «إن الموهبة كامنَة لاستعمالها في كُلِّ بناء. إننا نرى أننا نستطيع تطوير أجهزة الرنين المغناطيسي بمبلغ يعادل ستين بالمئة من مبلغ تصنيعها في الولايات المتحدة.

تلك هي دعوى كبيرة. فبالرغم من أن قَدَر سوق أجهزة الرنين المغناطيسي التي تبلغ أربعة بليون دولار في السنة أن تستمر في نُمُوِّها، وبالرغم من أن الجهاز يُطَوَّر للإفادة منه في مجالات أكثر، فإن تسويق جهاز الرنين المغناطيسي أَمر غير بسيط. إذ يتطلَّب تسويقه أفضل الخبرات العالمية في عدة حقول تكنولوجيَّة عالية. وسوف تشمل الصناعة الصينية خبرات علماء فيزيائيين يتمتَّعون بأحدث معرفة بالرنين النووي والموصلات الفائقة. وتَتَطَلَّب مبرمجين وفنيين يستطيعون

http://www.ibtesama.com/vb

التعاطي مع المجال المغناطيسي ثلاثي الأبعاد 3-D بدقّة. ويتطلّب خبراء في علم المواد بارعين في معرفة المواد المغناطيسية، وآخرين يُخطّطون ويديرون صناعة أحدث الدارات المتكاملة.

غير أن ديامَنْت لا يريد بناء جهاز فحسب، وإنما يَطمَحُ إلى جهاز يتحدّى أجهزةً تُنتِجُها شركات كُبرى نَحْو، فلبس Philips، وجنرَلْ إلكْترِك General Electric، وسيمنْسSiemens، وشركات أخرى تُضْفي أفضل تكنولوجية إلى أجهزة الرَّنين المغناطيسي التي تُنْتِجُها. إن صناعة جهاز رنين مغناطيسي وإن كان متخلفاً قليلاً سَيُحَرّض صناعة الصين ضد سوق كبيرة لأجهزة مُسْتَعْمَلَة تُزوِّد المستشفيات خارج دائرة البلدان الصناعيَّة المتقدمة بأجهزَة أسعارها مُنْخَفِضَة ولاتزال مفيدة جداً في أدائها. إن صناعة جديدة ستضطر إلى بناء أجهزَة سهلة الاستعمال مثل أفضل الأجهزَة وإنما تَقِلُّ قيمَتُها عنهم. ويقول ديامَنْت: «ويمكنُ تحقيق ذلك في الصين. فالخِبْرَة مُتَوَفِّرَة بكلفة تَقِلُّ كثيراً عن البلاد الأُخرى».

وهل ستدخُلُ رقاقات كومبيوتر صُنِعَت في الصين في أجهزة الرَّنين المِغْناطيسي المصْنوعَة في الصين؟ إنها إن لم تدخل تلك الرقاقات الآن فسوف تدخل في وقت غير بعيد. لقد رَكَّزَت مجلة فورتْشن Fortune في عدد خاص عن الصين صدر في تشرين الأول/ أكتوبر سنة 2004م على النجاح الذي حققته إنْتِل Intel في الاستيلاء على حصة من السوق ورفع أرباح البلاد التي تَحَقَّقَت باسْتِثْمارات واستراتيجيات تسويق جريئة. ربما كان نجاح الشركة مَضْموناً لولا أن سوق الكومبيوتر في الصين وسوق المُعالجات (مايكروبرسِسُر) فيها، برغم كبرها، ما زالت تنمو بسرعة تَجْعَلُ مُستَقْبَل إنْتِل في الصين يواجه تَحَدِّيات خطيرة من قادمين جُدُد، منهُم شركات صينية تَتَلَمَّسُ طريقها كي تَتَحدّى ريادة إنْتِل التكنولوجيَّة التي تبدو أنها لا تُقْهَر.

ويقول باحثون في أكاديميَّة العلوم الصينية، الذين يعملون مع BLX، وهي شركة تصمم رقاقات بَدَأَها علماء الأكاديمية. إنهم ابتكروا رقاقات اسمها جدسُن

http://www.ibtesama.com/vb

Godson 3 تُعادِلُ أَفْضَل رقاقات أنتجتها إِنْتِل منذ أربع سنين. ولكي تبلغ الرقاقات الصينية مستوى إنتل التكنولوجي، فقد انضمت BLX إلى أكبر منافسي إِنْتِل الأمريكيين، أدْفانْسْد مايكرو دِفايْسِزAdvanced Micro Devices، ولها تصاميمُها وخططها الخاصة لاحتلال موقع إِنْتِل في سوق الصين.

وقال الدكتور لي جوُجيLi Guojie للصحافة، وهو رئيس BLX، ومدير معهد تكنولوجية الكومبيوتر في أكاديميَّة العلوم الصينية: «إن الشراكة بين إيِّ إم ديAdvanced Micro Device (AMD) و BLX جاءت لمصلحة الطرفين. ويسعدنا أن نتعاون تعاوناً في العُمْق مع شركة عالمية مثل إِيِّ إم ديAMD التي تَلْتَزِمُ باكتشاف هذه السوق مع BLX، وليس ذلك من أجل سوق الصين فحَسْب، بَل لزيادة وضوح تصميم الصين وتكنولوجيتها في العالم.

ويُبَيِّنُ ذلك الترتيب الارتباطات الوثيقة بين أَذْرُع بُحوث الحكومة الصينية وجهودها لحيازة تكنولوجية متقدمة، يضرب الشركات الأجنبية بَعْضها بعضاً في السوق، فتتقدم الصين إلى أعلى مواقع صانعي الرقاقات.

وثمَّة عملية تشبهها قد تجعل الصين منافساً قوياً في الأجهزة الطبية المتقدمة. فالعالم مليء بشركات تكنولوجية تتنافس على تزويد قِطَع وبرامج لأجهزة الرَّنين المغناطيسي. وسوف يعملون جاهدين لاقتحام سوق الصين فيقدِّمون أفضل ما عندهم من تكنولوجية، لشركات نحو ديامَنْت Dymant التي تسعى لإنشاء صناعة صينية لأجهزة الرنين المغناطيسي.

خُذْ مُسَكِّناً للألم

إن الاحتمالات الكامنة والمتميزة في سوق أجهزة الرنين المغناطيسي المصنوعة في الصين تُبَشِّر بتَغَيُّرٍ مُقبِل في ممارسات الرعاية الصحيَّة الصينيَّة، برغم نَدْرَة نُظُم التأمين الصحي في مجتمع الصين، حيث تُقَدَّم العناية الصحيَّة مقابل دفع أجورها على الفور عند الحاجة إليها. وبرغم أن الطب الصيني التقليدي سيستمِرُّ

http://www.ibtesama.com/vb

أمداً بعيداً، فهو جزء أصيل من ثقافتها، فإننا نجد الحاجة إلى الطب الغربي تزداد. فصناعة الدواء في الصين كبيرة، بلغت مبيعاتها 7.5 بليون دولار سنة 2004م. وتُصَدِّر الصين أدويةً غربيَّة الابتكار قيمتها 3.5 بليون دولار، حيث تلقى رواجاً كبيراً في بلدان تَضْعُفُ فيها أنظمة الرقابة وتَعْظُمُ حاجَتُها إلى عقاقير بخْسَة الثَّمن.

إن شركات الصناعات الصيدلانية الأمريكية والأُوروبية الكبيرة – وهي من أكثر الشركات ربحاً في العالم – على علم بذلك. فهم لا يتاجرون في سوق الصين بسهولة، وإنما يدخلون السوق وهم يعلمون علم اليقين أنهم يواجهون بلداً غير مُكْتَرِث، في مُعْظَمِه باحترام حقوق ملكية الاختراعات وبراءاتها، وهي التي تكمن فيها أرباح الصناعات الصيدلانية.

إن الصناعة الصيدلانية، بِخِلافِ مُعظم الأعمال الأُخرى، كتاب مفتوح أمام قادمين جدد لأن المُكَوِّنات والعمليات الكيميائية لجميع الأدوية التي تباع في بلدان مُتَقَدِّمة في اقتصادها متوفرة في وثائق مصنفة لدى مؤسسات الضَّبْط المعنيَّة بها في تلك البلدان. وتستطيع شركات الصناعات الصيدلانية في بلدان أُخرى لا تطالها سلطة النُّظُم الفاعلة أن تُمَشِّط السجلات الحكومية بَحثاً عن صِيَغِ المنتجات التي تَسْتَطيع أن تُنْتِجَها. وإن فائدة هذه المعلومات هائلة. فقد كانت عائدات شركة بفايزر Pfizer، التي تصنع الفياجرا Viagra مثلاً، 45 بليون دولار سنة 2003م، وأَنْفَقَت 7.1 بليون دولار على الأبحاث والتطوير.

وقد كان كل دواء يباع في الصين، حتى وقت قريب، نسخةً عن دواء أجنبي، وهي حقيقة بَيَّنَتها ضآلة الأبحاث والتطوير الصيدلانية في الصين. ويقول الآن زانج Allan Zhang، وهو اقتصادي كبير في شركة برايس وُوتَرهاوس كوبرز Pricewaterhouse-coopers، لم يبلغ مجموع نفقات الأبحاث والتنمية في صناعة الأدوية في الصين سنة 1999م ما تُنْفِقُه شركة واحدة من الشركات الصيدلانية العالمية. وكتب زانج: «كان لهذه الإستراتيجية معنى لاقتصاد بلد نامٍ كالصين؛ فبينما كان تطوير دواء جديد يستغرق بين عشر سنين إلى خمس عشرة

http://www.ibtesama.com/vb

سنة في الشركات الغربية – وينفق عليه 250 مليون دولار وسطيّاً – إلى يومنا هذا، لايَسْتَغْرِق نسخ أدوية جديدة أكثر من ثلاث سنين إلى خمس سنين، يكلف النسخ بين 60.000 و 120.000 دولار».

ويَتَحَسَّنُ استعداد الصين لحماية شركات الأدوية الأجنبية من القَرْصَنَة، غير أن الهدف مازال غير مَرْئِي. فقد فَقَدَت شركة بفايزر حماية براءة اختراع الفياجرا في الصين عندما قَرَّرَت الحكومة أن طلب الشركة ترخيص براءة الاختراع لم يَصِف استعمال المكونات الأساسية للدواء وَصْفاً وافياً. وإن الدواء، كما جاء في القرار، لم يُلَبِّ «شرط الجدّة،» الذي عدّته شركة بفايزر شرطاً تعجيزياً، وما يعني، من حيث المبدأ، أن الأدوية التي نُسِخَت بنجاح في الصين قبل أن يسوِّقها مُنتجوها الأصليون ليس لها فرصة لحماية البراءة. وقد ترك القرار الباب مفتوحاً لمن يصنع الفياجرا من مواد مماثلة أرخص ثمناً، التي تباع كميات كبيرة منها في الصين، وفي كل مكان آخر. وقد ركَّزَت التَّغْطِية الصحفية المحلية لقرار الفياجرا هذا على أن كلفة تصنيع حَبَّة واحدة من الفياجرا يُواناً ثم تُباعُ بثمانية وتسعين يُواناً، وهذا ما يُثير اهتمام المُصَنِّعِين الصينيين الذين يَسْعَوْن إلى تضييق الهامش وربما يشجعون مزيداً من القراصنة على الاندفاع إلى السوق*

* مـا زال مُعْظَمُ الصيدليات الصينية، التي تصرف الأدوية الغربية، خاضعة لإشراف الحكومة، وهكذا تبدو. فالصيادلة، في ثياب المختبر البيضاء وكأنها أُنْقِذَت من باخرة مستشفى في الحرب العالمية الثانية، يصرفون الأدوية بموجب وصفات تمر عبر ثلاث طبقات أو أربع من بيروقراطيات الدكّان. وتبدو المخازن كأنها مستوصفات مستشفيات عتيقة، خالية من الإعلانات والعروض الخاصة التي تصرخ من الأرض، والجدران، والسقوف في مخازن بيع الأدوية الغربية. وتوجد الفياجرا على الرفوف المحروسة في مخازن الحكومة، ولا تُصْرَفُ إلا بوصفة طبية. وليس للزبائن الصينيين حاجة لتحدي نظام الصيدلية لشراء الدواء أو نسخة مُقَرْصَنَة منه، فَدَكاكينُ الجنس مُزدهرة في الصين، ولايفاجئ هذا أحداً برغم الحشمة الصينيَّة المتكلَّفة المزعومة. فالصين مصدر معظم زخارف الشهوات الجنسيَّة التي تباع في أرجاء العالم، وبخاصَّة البلاستيكية منها. وتعرض مخازنُ الجِنس في الصين تلك الزخارف دون حياء، فَتُعْرَضُ مُجَسَّمات الأعضاء الجنسية في واجهات الدكاكين التي تطل على شوارع مزدحمة. ويبيعون مواد مساعدة كيميائية، وعقاقير كثيرة تُشْبِه الفياجرا.

http://www.ibtesama.com/vb

وعلى الرغم من أن شركة بفايزر قد حاربت القرار، وإنما لا ترى كل الشركات نفعاً في إظهار الخلاف مع الحكومة الصينية في العَلَن. وصادف أن تَخَلَّت شركة الأدوية البريطانية العملاقة جلاكسوسـمِث كلاين GlaxoSmithKline، في زحْمة الاقتتال على الفياجرا، ببساطة عن حقوقها المسجلة لمادة رئيسة من مكوِّنات أحد أدوية السكري الناجحة جداً، أفنديا Avandia، عندما قوبلت جهودها الأُولى لإحقاق حقوق ملكيَّتها بتَحَدٍ في المحكمة من ثلاثة منافسين صينيين. ولم تُعَلِّق الشركة على أسباب اسْتِسْلامها، ويتساءل المرء إن كان ثَمَّة كلام جرى خلف المشهد، أقنع الشركة بأن نجاحها في سوق الصين في المدى البعيد يُلْزِمُها أن تشحذ موقعها السياسي قبل أن تشحذ مذكراتها القضائية. فمِفْتاح الأُمور في الصين هو أن تبقى في السوق. وتبدي شركات كثيرة استعدادها لتقديم تنازلات غير عادية لتحفظ مكاناً لها. والحكومة الصينية بعيدة كلَّ البُعد عن أن يأسرها حب النَّمَط الغربي في دفع النِزاعات إلى المحكمة، فَتَفْرض التفاوض على مشكلات كثيرة تُتْرَك عادة في بلدان أخرى ليَقتَحِمها المحامون. وتميل المفاوضات بثقلها نحو مصالح الأطراف الصينية، أو في حال بفايزر، كان الميل إلى جانب «داوود» البلد ضد «جوليات» الصيدلاني العملاق.

وثمَّة عامل آخر له أثره القوي، هو أن الحكومة الصينية هي المشتري الأكبر للعقاقير في البلاد، وإن خفض الأسعار يصبُّ في مصلحة موازنتها. وتُفْلِحُ إستراتيجيتها في الغالب؛ إذ إن كثيراً من العقاقير المهمّة تكون كلفتها في الصين أقل من أي مكان آخر في العالم.

والصينيون قُساةٌ وصارمون في تعاطيهم مع الشركات الصيدلانية العالمية، ولهذا سبب آخر وهو أن أكبر الشركات الصيدلانية هي أكثر الأعمال نجاحاً في التاريخ، وليس للصين رغبة في أن تبقى أمة تعمل شركاتها في قَرْصَنة الأدوية وتقليدها. فالبُحوث الطبيَّة وما يتعلَّق بها من بحوث التكنولوجية البيولوجيَّة biotechnology تقع في مقدِّمة أولويّاتها العلميَّة. وتُطَوِّرُ الصينُ حَشْداً كبيرا

http://www.ibtesama.com/vb

من الباحثين الذين يعملون في علوم الحياة. وتتباهى الصين بخمسين ألف عالم يعملون في بحوث التكنولوجية البيولوجيَّة، وتخَرِّج جامعاتها أربعة آلاف وخمسمئة باحث كلّ سنة. وتعمل الصين بدأب لجذب علماء من أبنائها تَدَرَّبوا وعملوا في بلاد أُخرى. وإن مَمَرَّ شِنْزِهين لِلتِّكنولوجية البيولوجيَّة Shenzhen biotech corridor هو أحد الشواهد على تشجيع الحكومة المحلية العلماءَ على الأعمال والمؤسسات الخاصَّة، وهناك في طول البلاد وعرضها جهود مماثلة لجذب العلماء الذين تَدَرَّبوا خارج الصين إلى الأكاديميات الصينية. وتقدِّم الصين للعلماء العائدين مراكز رفيعة ورواتب تتناسب مع ما كانوا يتقاضونه خارج البلاد.

وما زالت مختبرات الصين متخلفة عن مختبرات أمريكية وأوروبية ويابانية حَسَنَةِ التجهيز. فمناهج البحوث والتطوير R&D المتقدِّمة المُتَّبَعة في الشركات الصيدلانية المتعددة الجنسيات، ما زالت نادرة في الصين. 8 وربما يأتي العلاج سِراعاً من شركات أجنبية تقيم بُحوثاً في الصين. وقالت مجلة الأعمال الصيدلانية البريطانية سكريب Scrip إن افْتِتانَ الصين يَتَجاوز اسْتِطاعَة عُلَمائِها الذين تُوَفِّرهم الصين دون كلفة كبيرة، فتُسَمّيها المجلّة بِكِياسَة «حرية البحث في الصين». فهذه إرادة البلاد للمُضِيّ في ميادين تراها بلدان أُخرى، كالولايات المتحدة بِخاصَّة، بَغيضَةً أخلاقياً.

وتَتَصَدَّرُ القائمةَ بحوثٌ في الخلايا الجِذْعية في الجَنين البَشَري، تلك البحوث التي لاتُواجِه اعتراضاً دينياً كالتي يُثيرُها المحافظون في أمريكا لإحباط هذه البحوث في المختبرات الأمريكية. وتقول مجلة سكريب إن عَزْمَ الصين على هذا الاندفاع قد أنتج عدة شراكات بحوث رائدة بين مراكز طبية، وجامعات، وشركات متعددة الجنسيات، وهي كثيرة نذكر منها، الشركة العملاقة السويسرية روشRoche التي اشتركت مع المركز الوطني الصيني للجينات البشرية Genome في شنغهاي لاستقصاء مَرْضَيّ السُّكَّري diabetes والفِصام Schizophrenia، وشركة

http://www.ibtesama.com/vb

جلاكسوسميث كلاين التي تعمل مع مركز آخر للبحوث في شنغهاي على تطوير مُخْتَبَر مُتَقَدِّم للكيمياء التوحيدية *recombinatorial chemistry.

وإن وراء هذا التعاون الذي يُعلَن عن قَصْدٍ، مئات مختبرات التكنولوجية البيولوجيَّة في الصين (يُرَكِّز بَعْضُها عَمَلَه على الزراعة) ويزداد عَدَدُها كلّ سنة. وتنفِقُ الصين ما لا يَقِلّ عن 600 مليون دولار في كل سنة على بحوث التكنولوجية البيولوجيَّة، 9 يُصَوَّب مُعظمُها إلى سوق سريع النّمو. وتُقَدِّرُ شركة فُرُسْت آنْد سللفن Frost and Sullivan، وهي شركة بُحوث واستشارات في نيويورك ولها مكاتب في مختلف أصقاع العالم، أن ينمو سوق التكنولوجية البيولوجيَّة الصيني بمعدل 13.5 بالمئة في السنة فتبلغ مبيعاتها 8.8 بليون دولار. وسيأتي النمو عندما تنضج شركات الصين، وتختارُ شركاتٌ عالميةٌ أَدْمِغَةَ الصين بأسعار منافِسَة.

وقال جرِج لُسَيِّيَّرGreg Lucier، رئيس شركة إنفتروجن Invitrogen ومديرها التنفيذي، وهي شركة تبيع في كُلِّ سنة أدوات وتكنولوجيات لمختبرات بحوث التكنولوجيا البيولوجيَّة قيمتها بليون دولار، إن في الصين «جماعة من أكثر الجماعات العلمية تقدماً التي نَجِدُها خارج الولايات المتحدة وهي مُتَمَكِّنَة جداً من التكنولوجيا البيولوجيَّة الزراعية والعلاج الجيني».

ويلاحظ لُسَيِّيَّر أن الصين قد أوجدت لنفسِها موقِعاً بين ست دُوَلٍ رائدة في الفترة ما بين عامي 1998 و2004 رسخت الصين لنفسها موقعاً بين ستة بلدان معنية بيحوث الجينات البشرية Genome، واستمر علماؤها في تفكيك رموز المورثات وتوفيرها للبحوث في العالم كلّه. ويقول: إنَّ الصين هي التي عَرَّفَت العالم على مُوَرِّثات كاملة لِلرُز.

---

* لعل ميِّزة خرقاء تتمتَّع بها الصين في سياستها مع الشركات الصيدلانيَّة أن يوجد فيها عدد هائل من المرضى الذين لا يَلْقَوْن علاجاً، فتستطيع أن تُدْرِجَهُم فيمن تُجَرَّب العقاقير عليهم بتكاليف زهيدة. وإن من هؤلاء، ملايين المرضى الذين يُعانون من مرض الإيْدْز AIDS في الصين، وثلاثمئة مليون مُدَخِّن فيها.

http://www.ibtesama.com/vb

(الأَرُز)، وإن ذلك «تَطَوُّرٌ مُهِمٌّ جِدّاً». وإن نُمُوّ السكان في الصين وانكماش أراضيها التي يمكن زراعتها يُلِحّان عليها بعمل سريع في بحوث التكنولوجية البيولوجيَّة الزراعية، وفي الصين نسبةٌ عاليةٌ من أعلى نسب التركيز في العالم على المحاصيل الزراعية المُعدَّلَة جينياً التي تنمو في حقولها. وكانت الصين في مقدمة الذين تَبَنّوا أدوية المعالجة الجينية في الطب البشري؛ وكانت من أوائل الدول التي تبيع عقار جيندِسايِن Gendicine الذي يعالج بعض أنواعاً من السرطان. ويقول لُسَيِّر «إنهم يحتلون موقعاً متقدماً حَقّاً في العلاج الجيني كما نرى».

ويقول لُسَيِّر إن الإمكانية التجارية المُتَوَقَّعة للتكنولوجيا البيولوجيَّة الصينية قد بَدأَ ظُهورُها، غير أنَّه يُحَذِّر من طرق الصين في إنشاء الأعمال الكبيرة سِراعاً. ويقيس لُسَيِّر مستقبل البيع في الصين بما تبيعه شركته من الملايين السنويَّة من السِّلَع، وبيعاً تراكُمِيّاً يقدَّر بمئة مليون دولار يتوقَّعُه في سنة 2006م. وقد أدرَكَ لُسَيِّر تَطَوُّرَ الصين في خمس سنين فقط لكي تَلِجَ سوقاً قيمته بليون دولار لأجهزة الرنين المغناطيسي MRI ومُنتجات طبية متقدمة غيرها، بناءً على خبرته، وهو مدير تنفيذيّ مُحَنَّك في شركة جنرال إلِكْتْرِك General Electric، فيقول: «ثمَّة عدد كبير فيّاض يزداد سِراعاً من الناس الذين يطلبون رعاية صحية في الصين، وسوف يطلبون عقاقير باهظة الثمن تَأْتي نَتيجَة بُحوث تُنتجها التكنولوجيا البيولوجيَّة».

تحليقُ الخَيال

إن المُديرين التنفيذيين الأمريكيين والأوروبيين الذين يَصِلُ مِنهُم إلى شنغهاي وبكين جَمْهَرَةٌ في كل يوم بالطائرات النفاثة الكبيرة لاستِكشاف أَسْواقَ الصين التي تتَحَدّاهم، فيدخلون مطارات البلاد الجديدة النظيفة وهم يُدرِكون أن مُمارسة الأعمال قد تُكَلِّفهم فقدان هوامش الربح الكبيرة التي تُوَفِّرُها العقاقير الشائعة والأجهزة الطبية في أرجاء الدنيا. وربما لم يدركوا أن الطائرة التي وصلوا عليها، هي سلعة يُقَدِّرُها الصينيون حَقَّ قَدْرِها.

http://www.ibtesama.com/vb

وإن الصناعات التي تتنافس الأُمَم عليها تنافساً ضارياً قليلةٌ، كَصناعات الطَّيران. فالتَنافُسُ الحادُّ بَيْنَ شـركة صناعة الطائرات الأمريكية بُوينج Boeing والشـركة الأُوروبـية إيْرَبَصْ Airbus تَنافُس جَلِيّ، غير أنَّ التنافس بين مجموعات عالمية كثيرة من شركات صناعة الطائرات الأصغر وشركات صنع القِطَع والأجزاء التي تدخل في صناعتها تَنافُس حادّ أيضاً ولَهُ تَنَوُّع جغرافيٌّ. فالشـركات البرازيلية، والروسـية، والكندية، والألمانية، تَتَنافَسُ على سـوقٍ تنمـو لطائرات ركاب نفّاثة أصغر. وتَتَطَلَّب صناعة الطائرات المدنية دَعْمَ الحكومات المالي والسياسي دعماً أقْصَى. إذ تَحْصَلُ شركة بُوينج التي تعد شركة صناعية ذات أَهَميَّة إستراتيجية عُظمى في الولايات المتحدة على إعانات تبْلُغ بلايين الدولارات من أموال الدفاع الحكومية. (وهي الشركة التي كانت تعد شركةً لا تقهر، فهي تُناضل اليوم لِتُنافِسَ في مَيْدانَي عَمَلِها، المدني والعسـكري. فقـد انخفضت القوى العاملة في بُوينج من 238.600 سنة 1998م إلى 157.54 سنة 2003م). وتتقاسم ملكية إيْرَبَصْ Airbus عـدَّة شـركات لها صالات قويـة بالحكومات في بريطانية، وفرنسـا، وألمانيا، وإسبانية، فصارت الشـركة رائدة في صناعة الطائرات في العالم وقد دَعَمَتْها إعانات حكوميَّة غير قليلة ومعاملة مُفَضَّلَة من شركات الطيران الأُوروبية التي تملكها الحكومات.

وتَجِدُ اليوم فوائد كثيرة من ذلك السخاء طريقاً إلى الصين، فالصين مازالت أكبر سوقٍ بِكْرٍ في العالم للطائرات. وبرغم أن الصين تصنع طائرات حربيَّة منذ أمَدٍ بعيد، ومن تلك الطائرات مقاتلات خفيفة تلبي حاجات التصدير العسكرية إلـى جانـب الصواريخ، غير أن الصـين لم تصنع حتى يومنا هـذا طائرة ركاب تجارية عريضة الجسـم وفق مقاييس عالمية. وإن توقّعات نموّ الصين في السفر الجوّي عظيمة. وترى شـركة إيْرَبَصْ في توقُّعاتها أن سـوق الصين سوف تنمو خمسـة أضعاف مع حلول سنة 2022م، وأنها ستحتاج إلى ألف وثلاثمئة طائرة، علـى أقل تقدير، تَتَّسِـع كل واحدة منهـا لمئة راكب أو أكثر، كـي تُلَبّي الحاجة.

http://www.ibtesama.com/vb

وهذا التقدير سيجعل الأجواء الصينية سوقاً قيمته 140بليون دولاراً، وسَيَبْذُل صانعو الطائرات في العالم كل ما في استطاعتهم للوصول إليه. غير أن السوق الأمريكية سوف تكون أكبر.

وتتمتع بُوينج بتاريخ طويل في البلاد بمقاييس اقتصاد الصين الجديد. والسفر الجوي، شأنه شأن الاتصال عن بُعْد، عمل يعتمد في نُمُوِّه على زيادة الاتصال بين نقاط مُتَعدِّدَة. وقد تَنَبَّهَت بُوينج في وقت مُبَكِّر أن اقتحامها سوق الصين سيعطيها موطئ قدم في سوق يُقَدَّر له أن يتَفَجَّر. وقد آتت الجهود أُكُلَها في بيع الطائرات. فلشركة بُوينج اليوم حصَّةٌ تُقَدَّر بـ 65 بالمئة من سوق الصين. ولَعِبَت بُوينج دوراً مُهِمّاً في تطوير صناعة الطائرات في الصين، فساعدت شركات الصين لكي تصنع قِطَعاً رئيسة من طائراتها وتَتَزَوَّد بها منهُم. وتُبَيِّنُ تقارير الشركة أن أكثر من ثلاثة آلاف طائرة بُوينج في أرجاء مختلفة من العالم تُدْخِلُ قطعاً رئيسة ومجموعات من مصانع صينية. وستبلغ قيمة ما تشتريه بُوينج من قِطَعٍ من الصين سنة 2010م بليوناً وثلاثمئة مليون دولار.

وقال ديفيد وانج David Wang، رئيس شركة بُوينج في الصين، للصحافة الصينية سنة 2004م: «إن الشراكة الصناعية بين بُوينج والصين حقيقية ومتدفقة. وإننا نركّز جهدنا على أن تكون هذه البرامج قادرة على إضافة قيمة لشركائنا الصينيين قدر المستطاع وبالسرعة الممكنة». وتعد ملاحظات وانج استعراضاً علنياً لمقدار استعداد بُوينج لنقل التكنولوجية إلى الصين بأسْرَع وقت ممكن.

وإن رغبة بُوينج في إقامة صناعة مَحَلِيَّة وإدخال تكنولوجية أجنبية في الصين هو جزء مهم من الصفقات التي تُبرمُها شركات صناعة الطائرات بُغْيَة الوصول إلى سوق الصين. وتلعب شركة إيْرْبَص والشركات الرئيسة الأخرى التي تبيع في سوق الطائرات الصينية أدوارها على أحسن وجه يستطيعونه. وتَتَوَخَّى الصين التَعَقُّل في تنويع المصادر التي تشتري منها الطائرات، بما يعطيها قوة

http://www.ibtesama.com/vb

للحصول على أفضل الشــروط في الأســعار والتحويلات الفنية من كل شــركة. وقد ذكر تقرير صدر سنة 1999م عن مكتب الصناعة والأمن في وزارة التجارة الأمريكية أنه «بالرغــم من الفرص الكبيرة المُتاحة في قطاع الطيران الصيني.. فإن شركات صناعة الطائرات الأمريكية، ممثلة بالدرجة الأولى بشركة بُوينج... وعدد من صانعي القِطَع، تبدي استعدادها لتقديم تنازلات مهمة لمخططي الدولة في الصين في اتفاقيات للإنتاج المُشْتَرَك مقابل زيادة فُرصها للوصول إلى السوق». ويمضي التقرير في توثيق الشكاوى من أن شركات صناعة الطائرات القائمة في الولايات المتحدة «قد وافقت على شــروط صارمة كي تصل إلى ســوق جمهورية الصين الشعبية بموافقتها على اتفاقيات إنتاج مشترك ونقل تكنولوجيات». ويذكر التقريــر ملاحظات أحد المديرين التنفيذيين في شــركة ألآيَد سجنال Allied Signal (وهي الآن جزء من شركة هَنيوِل Honeywell) مُبَيِّناً الأمل في أن نَقْلَ تكنولوجية الشــركة سَيَشْــتَري لها مَوْطِئَ قَدَم في سوق الصين، ويسمي الحركة «اعترافاً من الإدارة العليا بأن هناك ســوقاً كامنة لمستقبل الطيران في الصين، ولا بــد لنا أن نكون هناك». وإن دخول الصين في منظمة التجارة العالمية، مثلما هو حال جميع الصناعات، لا يجيز النقل القسري للتكنولوجية، غير أنه يُسْتَبْعَدُ إعاقة شــركات الطيران العالقة في خضــم معركة عالمية من مقايضة جواهرها بمصالحهم.

وتســتطيع حكومة الصين الآن، نتيجة لتَشَــدُّدِها، أن تعلن الصينَ مركزاً رئيساً لقطــع الطائرات والطائــرات الكاملة. وتقوم هيئة صناعة الطيــران الصينية، وهي شــركة طيران تملكها الدولــة، بصناعة طائرة مَحَليَّة صَمَّمَتْها حديثــاً، بِدَعْم بُوينج التكنولوجي. وتتوقع الشركة أن تُنْتِجَ أول طائرة صينية كبيرة سنة 2018م. وقال ليو جاوْزهو Liu Gaozhuo، رئيس الشــركة، لصحيفة شاينا دِيْلي China Daily: «إن قطــاع الطيران الصيني لن يكون كامــلاً دون تطوير صناعة الطيران المدني الخاصة به، ولن تســتطيع الصين أن ترفع نفسها كقوة طيران إن لم تُطَوِّر طائرة

http://www.ibtesama.com/vb

كبيرةً بِنَفْسِها». وتحَدَّث ليو Liu عن فشل جهود سَبَقَت لِصُنْع طائرة بِأيْدٍ صينيَّة، إذ لم يكن للصين حقوق الملكية الفكريّة (براءة اختراع) كي تصنع كثيراً من المُكَوِّنات اللازمة لِرَفع طائرة في الجَوّ. وقال: إن طائرة الصين الكبيرة الجديدة سوف تُصْنَعُ ببراءات اختراع تملكها الصين. ولم يُبَيِّن كم من تلك الملكية سوف يُكْتَسَبُ بِمُداهَنَة شركات أَجْنَبِيَّة كشرط لِمُمارسَتِها دوراً في سوق الصين.

وإن ضغط الدول بما تملك من قوَّة لِسوقها كي تكسب فوائد تجارية أَمْرٌ طبيعي. وإن لَوْمَ الصين لابتزاز تنازلات من شركات تَلْهَث وراء اللعِب في ساحَتِها هو مِثْلُ لَوْمِها للمطالبة بتنفيذ ما اتُّفِقَ عليه مع مُلْتَمِسي شراكتها طائعين مُخْتارين. ولئن اغتصبت الصين التكنولوجية التي لا تحق لها، فيصعب الادِّعاء أن ضحايا شراكتها، على الأقل في ميدان الطيران، قد توقعوا غير ذلك. فقد اختارت ذلك شركات نحو بُوينج وإِيْرْبَص راضِيَتين بِخيارِهما. وإن مشاركتهما في سوق طيران الصين الكبير النامي يَمْنَحهما فرصةً بيع مئات الطائرات خارج أسواقهم الناضجة. وربما لم يكن لأحدهما أن يزدهر لولا الصين.

وبينما تجري مساومات مع الصين، تنشئُ شركات صنع الطائرات الكبرى صناعة الطيران التي ستواجههم في آخر المطاف. وتقول الشركة الصينية التي تملكها الحكومة، إن الطائرة المَحَلِّيَّة الصينية التي تصنعها، عمل ناجح لأن تكلفة صنعها تَقِلُّ ملايين عن منافسيها. وإذا تجاوزت طائرة الصين الكبيرة المنافِسَة وتَمَلَّكَت سوقاً بين شركات طيران الصين، مثلما وجدت إِيْرْبَص من قبل سوقاً لها بين شركات الطيران الأُوروبية، فسيحتاج صانعو الطائرات في العالم إلى إستراتيجية جديدة تُمَكِّنهم من البقاء. وسيطلبون عندئذ من حكوماتهم الدَّعم، مهما تكن المناورات الصينية التي تعود لِتَتَمَكَّن منهم.

http://www.ibtesama.com/vb

http://www.ibtesama.com/vb

الفصل التاسع

أُمَّةُ القَراصِنَة

بعض الأخبار الحديثة:

- هنـاك مَصْنَع للجَعَة قرب مدينة تيانجين Tianjin السـاحلية يُقَلِّدُ زُوراً ما تُنتجُه هاينِكنHeineken وبَدْوايْـزرBudweiser من الجعة. وتُباع الجعة المُقَلَّدَة فـي المطاعم وفي «أماكن أُخرى للتسـلية». فَتُعَبَّأ الجَعَـة المُقَلَّدَة في الصين في قوارير نوعها رَدِيء، وقد تَعَرَّضَ المُسْـتَهْلِكون كثيراً للأذى بانفجار هذه القوارير.
- سَـطا قراصِنَةُ الغذاء في الصين على كوكا كولا Coca-Cola، وسـتاربَكْس Starbucks، وهجن داس Haagen-Dazs فَزَوَّروا منتجات مُقَلَّدَة منها مع أنواع كثيرة أُخرى من الجُبْن الأجنبي.
- قُلِّدَت أَنواع من شامبو تُنْتِجُه شركة برُكْتِر أَنْد جامْبِل Procter & Gamble نحو هِـدْ أند شـولْدِرْز Head & Shoulders ورِجُويْسRejoice في لانْزْهو Lanzhou في إقليم جـانزو Gansu، في جنوب منغوليا الداخلية Inner Mongolia.
- تُزَوِّر شركة في شِنْزِهن Shenzhen بطاقات من شبكة سيسكو Cisco ثري كوم 3Com.
- أنشـأ مُزَوِّرون في مقاطعة سِتْشـوان Sichuan سـجناً كاذباً يصنعون فيه أَرْبَعين نوعاً من السجائر بأسماء مُزَيَّفَة. وقالت الشرطة: إنها لم يَتَبَيَّن لها إن كان العمال قد استأجرهم المُزَوِّرون أم خَطَفوهم. ويقال: إن الصين تنتج 100 بليون سجارة مزيفة بأسماء تجارية مختلفة في السنة. وقد وُجِدَت أَصنافٌ

http://www.ibtesama.com/vb

مُزَيَّفَة في سوق لندن تحوي كميات زائدة من النكوتين وأول أُكسيد الكربون، يزيد مقدارهـــا عن ثُلُث الأصل، ويزيد مِقدار القَطِرانُ فيها عن ثلاثة أرباع الأصناف الأصلية. وتحوي السجائر أحياناً على مُكَوِّناتٍ غَريبة كالبلاسْتِك أو الرَّمْل.

- صادر مسؤولون في كينيَا شحنات كبيرة من إطارات وبطاريات مُزَيَّفَة مَصْنوعة في الصين.

- صـــودرت ألوفَ القِطَع المُـــزَوَّرَة المصنوعة في الصين من مجموعة تجاريَّة في إبس Apex في شـــمال كارولاينا، تُقَلِّد تُومِـــي بَهاماTommy Bahama، وبولـــو Polo، ورالف لُرِيْـــن Ralph Lauren، و تُومِي هلفجر Tommy Hilfiger، وإِرْمِـــس Hermes، ولاكوســـت Lacost، وهوجو بُوسّ Hugo Boss، وإمبوريو أرْمانيEmporio Armani من الثياب والبضائع الأخرى التي تحمل اســـم مُصَمِّميها، قيمتها مليون دولار. وقال مُتَحَدِّث باســـم شركة أُكْســـفورْد إِنْدَسْـــتريز Oxford Industries، الشركة الأم لـ تُومِي هلفجر: «إننا نراقب دائماً كُلَّ بائِع مُريب في سوق السِلَع الرخيصة أو المستعملة (سوق البراغيث)، ويعمل، تحت ستار تجارة مشروعة».

- وعندمـــا انضم فريق نايِنْتِنْدو Nintendo الذي يتحرَّى القَرْصَنَة إلى أجهزة الأمن في الصين في غارة ســـنة 2004م على مصنع للإلكترونيات في جنوب الصين، وجدوا عشـــرة آلاف خرطوشـــة فِلْم مزيَّفَة لأجهزة جيم بوي Game Boy. وكانت الغنيمة صغيرة جداً مقارنة بِحَجم القرصنة التي تواجهها شركة الألعـــاب اليابانية في الصين، حيث صُمِّمَت أفلام أجهزة جيم بوي على نمط لا يُتيـــح مجالاً للنســـخ والقَرْصَنة، فكانت القرصنة تجري على قدم وســـاق. تقول نايِنْتِنْدو إنها خسرت 720 مليون دولار من مبيعاتها سنة 2003م نتيجة القرصنة، برغم أن فِرَقَها المُكَرَّسَة لهذا الغرض صادرت أربعة ملايين خرطوشة فِلم مُزَيَّفَة. فتَتَعَرَّض حصة الشركة من السوق المشروعة للضغط، ولا تستطيع أن تتخلى عن قدر كبير من ألعابها التي يرغب فيها القراصِنَة كثيراً.

http://www.ibtesama.com/vb

• بالرغــم من الإعلان عن حملات وطنية لمطاردة مزيِّفي النظَّارات في الصين، فــإن نصف النظارات والعدســات التي تبــاع في شــارع رينمين Renmin Road في جوانجزهو Guangzhou مُزَيَّفة، و هذا الشارع من أكبر أسواق النظارات في الصين. فقيمة إطارات النظارات المُقَرْصَنة التي تُقَلِّد جوتشــي Gucci، وفرزاتشــيVersace، تتراوح بــين 0.80$ و 2.50$. وتجد هناك إطارات عليها اســم لوي فتون Louis Vuitton، برغم أنه لا يصنع أصنافاً من ذلك النوع. وعندما فَحَصَ مســؤولو جوانجزهو، المَعْنِيّين بالإشراف على الجودة، العدســات في أســواق الجملة وجدوا أن 80 بالمئة منها دون مستوى الجودة المطلوبة، وتُعَرِّضُ عَيْنَ مُسْتَعْملها للخطر.

• تَلومُ شــركة فورد موتور Ford Motor مُزَيِّفي قِطَع الســيارات على خسارة 2$ بليون من مبيعاتها في السنة. وقد اشتركت الشركة في إغارَةٍ على مصنع صيني يصنع بطانة المكابح، فوجدت سبعة آلاف مجموعة مُزَيَّفة منها. وحَقَّقَت شــركة جي إم GM ســنة 2004م في أربعمئة مخطط للقَرْصَنة، منها خطَّة ذكرناها في الفصل الثامن عن ســرقة مواصفات ســيارة كاملة، زعم قرصانٌ صيني بناءها. وتقدر وزارة التجارة الأمريكية أن شركات السيارات تستطيع أن تستأجر 210.000 موظفاً جديداً إن هي تَخَلَّصَت من القَرْصَنَة وتجارتِها.

• نجحت شــركة سنجنتا Syngenta السويسرية، الرائدة في إنتاج كيميائيات الزراعة، في مقاضاة قراصِنَة صينيين لِقَرْصَنَتِهِم مبيد حشرات متطور تحمِلُ هي براءته، هو ثيامِثوكْسام Thiamethoxam. وبَيَّنَت الصحافة السويسرية حُزْنَها لِظَنِّها أن تلك المُقاضاة لن تُنْتِج شَيْئاً يُذْكَر.

• اعْتُقِــلَ أمريكيان في شــنغهاي، في تموز/يوليــو 2004، عندهما 210.000 قرص دي في ديDVD مُزَيَّف.

http://www.ibtesama.com/vb

• عندما طرحت شـــركة كرييتف تِكْنولُجِيزCreative Technologies، وهي شركة في سنغافورة تصنع الإلكترونيات الاستهلاكيَّة وقِطَع الكومبيوتر، جهازاً صغيراً مبتكراً MP3 مَســجلاً ببراءة، سَمَّتْهُ موفو Mu Vo ما لبثَ مُديرون في الشركة أثناء جولتهم في أســواق شنغهاي أن ضَبَطوا نسخاً مُقَرْصَنة من صنع أربعين شـــركة مختلفة. وقال سِمْ وونج هو Sim Wong Hoo، رئيس شـــركة كرييتف تِكْنولُجِيز، أمام اجتماع لاتحاد الصناعات في سنغافورة، إننا لانلبَـث أن نقضي على قَرْصَنة في الصين حتى نَجِدَ أخرى تُقَرْصِن منتجاتنا. وقال: «إنَّك لا تستطيع أن تُقاضيهم كلَّهُم. وكيف نَستَطيع أن نقاتلهم؟» ولجأت كرييتف تِكْنولُجِيز إلى اعتماد مصانع صينية لإنتاج نُسَخ رخيصة من بضائعها لِكي تُباع في ســوق الصين، فَتُباع بســعر أقل من أصناف تُنْتِجُها الشركة هي أكثر إتقاناً تَبيعُها في أَصْقاع أُخْرى من العالم.

• وثمَّة حالة لها دلالات واســعة عن اســتثمارات للصـــين بلغت عِدَّة بلايين من الدولارات موجَّهة إلى احتلال موقع عالمي رائد في صناعة رقاقات الكومبيوتر. فقد ادَّعَت شركة تايوان سِميكُندَكْتَر مانوفاكتشورنج-Taiwan Semicon-ductor Manufacturing Co. ،Ltd.، أو TSMC، وهي من الشـــركات العالميــة التي تصنع الرقاقــات، أمام محكمة فِدْراليَّـــة أمريكية على قرصان جديد ناشـــئ في بر الصين الرئيس هو شـــركة سِـــميكُندَكْتَر مانوفاكتشورِنج إنْتِرناشُـــنال Semiconductor Manufacturing International Corp، أو SMIC. وما لبثت شـــركة بر الصين الرئيس أن ارتَبَطَت بمنافسين أجانب في زمن قصير حتى قال المُحَلِّل جولدمان ساكسGoldman Sachs، ســـوف تكون الشـــركة ثالث مصدر للرقاقات في العالم في زمن قريب. ونالَت شركة SMIC بعض العَوْن من شركائها التكنولوجيين الألمان واليابانيين. غير أن منافســـي SMIC التايوانيين يقولون: إن شـــركة البر الصيني الرئيس قد قامت بحملة تَجَسُّـــسٍ طويلةٍ وأغارَت على شركات أُخرى. وإن المذكرات التي

http://www.ibtesama.com/vb

كتبها مديرو الشركة الجديدة SMIC وأرسلوها إلى جواسيسهم في TSMC من أجل القضية القضائية تُفَصِّل عمليات الملكيَّة المُتَعدِّدَة التي أرادت الشركة الجديدة أن تسرقها. وانتهت المذكرة بالقول: «إننا نعتذر عن طول القائمة، وإنما نحن في حاجة إلى موادٍ كثيرة حتى نستطيع إنشاء العمل الجديد». ويقال: إن شركة SMIC أغارت على TSMC من أجل 140 من العاملين الرئيسين، منهم رئيس قسم الأبحاث والتطوير R & D ومدير في قسم نقل التكنولوجية.

- لقد بيعت في الصين مئات ألوف النسخ المُقَرْصَنَة من كتب هاري بوتر Harry Potter التي ألَّفها جِيّ كِيّ رولنج J.K. Rowling، وكان نجاحها عظيماً. فقد أنتج قراصنة مجلدات لهم أصلية من قصص بتر وباعوها تحت اسم رولنج.

- كَسَرَ مسؤولون في أربع مقاطعات شرقيَّة في الصين حَلَقَةَ المُفَتِّشين الطبيين وبائعي المواد الصيدلانية المُزَيَّفَة وصادروا أربعين ألف صندوق من لقاحات داء الكَلَب المُزَوَّرَة مصنوعة من محلول ملح فقط. وقد بِيْعَت اللقاحات المُزَيَّفَة لعيادات ريفية في مناطق من الصين حيث ما يزال الكَلَب خَطَراً مُتَرَبِّصاً.

- عندما لجأت ياماها Yamaha إلى قضاء الصين لِمُقاضاة مصانع صينية تبيع نسخاً غير مرخصة من دراجاتها النارية (التي فاق عَدَدُها دراجات ياماها الأصلية كثيراً)، وقد ساعد ممثلَ الشركة اليابانية على إثبات قضيته إدخالُ ثلاثة دراجات ياماها حقيقية إلى قاعة المحكمة لمقارنتها بالمُقَرْصَنَة. وقرَّت المحكمة لياماها 190.000$ فقط تعويضاً لها عن القرصَنَة. وتقول وزارة الاقتصاد والتجارة والصناعة اليابانية: إن 11 مليون دراجة نارية أُنتجت في الصين سنة 2002م، كان تِسْع ملايين دراجة منها مُقَرْصَنة، وكانت القرصَنَة هي سبب تراجع مبيعات ياماها في الصين.

http://www.ibtesama.com/vb

- أصـــدرت محكمةٌ في بكين حكماً ضد شــركة تويوتا Toyota بعد أن ادَّعت تويوتا على شــركة جيلي Geely، وهي من شــركات صنع السيارات الصينية الكبيرة الخاصة. وكان ادِّعاء تويوتا عليها لاستعمالها شعار تويوتا واسمها على إحدى ســياراتها التي تصنعها. وكان تعليلُ المحكمةِ حكمَها أن الصين لا تعرف شعار تويوتا، برغم أنَّه من أشهر شعارات الشركات المعروفة في العالم.
- داهم مسؤولون في شِنْزِهن مجموعة تصنع إلِكْترونيّات لها أربعة مصانع وتصنع أجهزة دي في دي مُزَيَّفَة وُضِعَت عليها أســماء توشيباToshiba وبناسونِك Panasonic، وســوني Sony، وفلبس Philips، وسانيو Sanyo، وغيرها. وقــد فازَت هذه المجموعة، قبــل مُداهَمَتِها، بجائزة الدولــة تقديراً لها لأنها «شركة خاصة مستقيمة».
- أعلنــت حكومــة الصين المركزيــة خطةً لمحاربة بيــع لقاح إنفلونــزا الطيور المُزَيَّف.
- إن تســعين بالمئــة مــن منتجــات مايكروســوفت Microsoft فــي الصين مقرصنة.

إن الصــين أرض مصانع العالم، وهي مركــز العالم لتجارة البضائع المُقَرْصَنة المُزَيَّفَة التي تغلُّ 250 بليون دولار في الســنة. وتُقَدَّرُ حصَّةُ الصين من تجارة القَرْصَنة والتزييف بين 19$ بليوناً و80$ بليوناً. إن حصة الصين من التجارة العالميــة تُثْبِت أنها تَتَّجه إلــى الارتِفاع، وبارتفاعها تَرْتَفِــع البضائع المُقَرْصَنة في العالم. وتقول شــركة كَرَّاتــو إنترناشُــنال Carratu International، وهي شــركة بريطانية رائدة فــي تَقَصِّي أعمال الشــركات، تُرَكِّز عمَلَها على تجاوزحقــوق الملكية الفكريَّة وبراءات الاختــراع: إن 9 بالمئة من تجارة العالم اليوم هي تجارة المُزَيَّف والمُقَرصَن، ومع زيادة حضور الصين في أسواق العالم، فسوف تتضاعف هذه التجارة أكثر من ضعفين قبل نهاية هذا العقد.

http://www.ibtesama.com/vb

السَّرِقَة جهاراً نَهاراً

تُرى هل تَكْتَرِثُ الصينُ رسمياً بما تفْعَل؟ إنك لن تستطيع معرفة ذلك من مُراجَعَة ما يُعْلَن؛ فإن كان لنا أن نحكم على التزام الصين بالقضاء على القَرْصَنة التجارية بالقوانين المعلنة في سِجِلات البلاد رأينا حكومة الصين صارمة في وقفتها تجاه انتهاك الحرمات مثل بلاد أخرى في العالم. وقد أبدَت الصين في السنوات القليلة الماضية اسْتِعْراضاً كبيراً لوقفتها الصارمة في مواجهة القرصَنَة وتزييف دي في دي وأقراص سي دي، والثياب. وكانت الصحف والبرامج التلفزيونية الإخبارية تنقل قصصاً عن مداهمة الحكومة لأعمال قرصنة ضخمة. فصودرت مئات ألوف أقراص دي في دي وأجهزة نسخ هنا، وحُجِزَ مخزن لأقراص سي دي هناك، وأوقفت شاحنات محمَّلة بحقائب يدويَّة مُزَيَّفة. ولم يكن في الصين قبل جيل واحد نُظُمٌ لحماية الملكية الفكريَّة، وتاريخ طويل لثقافة تُبيح النَّسْخ والاستعارة*، فإن مُداهمة القَرْصَنة قد تعد مؤشراً على نِيَّة عند الحكومة لفرض نُظُمها الخاصة.

غير أن وَفْرَة البضائع المُقَرْصَنَة في الشارع وفي الأسواق لم تَتراجَع. فما زالت أحدث أزياء ميلانو تأْخُذُ طريقها في مواسمها إلى أزقة الصين، وما زالت أفلام هوليود تظهر لتُباع على ظهر دراجات في الأسبوع الذي تعرض فيه أول مرة في أمريكا. والمداهمات التي تشنها الحكومة تبْعَثُ الحيرة. فلماذا يُعتقل بعضُ قراصنة الملكية الفكريَّة في مكان ما في يوم ما، ثم تجد القراصنة يَسْرَحون ويَمْرَحون في مكان قريب؟ إن أهداف المداهمات المُعْلَنَة غامضة دائماً،

---

* إن الثقافة الصينية، التي تُقَدِّر الخضوع والاحترام للأعمال الفريدة، قد نُحِّيَت جانباً من أجل قرصَنة الإنتاج الأدبي، والفني، والمنتجات التجارية. وإن جولة للنظر حول العالم تكفي لأن نرى الصينيين أقل تميزاً لهذا الأمر. وإن نُظُم حماية الملكية الفكريَّة الصارمة تشريع حديث نسبياً، ولم تشرَّع لمجرد أن بعض الثقافات أقل استعداداً للقرصنة والتزييف من غيرها، وإنما لأن بعضها أكثر استعداداً لمراقبة الدافع المنتشر بين مجتمعاتها لتأمين بيئة توجِدُ مزيداً من الفرص للمستهلك، وتُحقِّق من ثَمَّ نُمُوّاً اقتصادياً.

http://www.ibtesama.com/vb

وإن الصينيين الذين يقرؤون عنها تراهم يَرْتابون في أَخْذِها على ظاهِرِها. فهل جاءت نتيجة حروب السيادة بين اقطاعات الحكومة الغارقة في القَرْصَنة؟ وهل بالغت المصانع التي تَعَرَّضَت لمُداهمات في ضَغْطِها على تَحَمُّل الحزب لتدخُل الغرب العنيف وعَرْبَدَته؟ هَلْ قَرْصَنوا فِلماً تدعمه الحكومة الصينية؟* أم كان استعراضاً لحسن النيَّة أمام مجموعة تجارية أجنبية جاءت إلى الصين ثانيةً للتعبير عن قَلَقِها من قَرْصَنة الملكية الفكرية؟

وليس يَهمُّ، في نهاية الأمر، من الذي يُقاد مَغْلولَ اليَدين بالأَصْفاد ويُعْرَض على أخبار المساء، فَكُلُّ مَن عِنْدَه في الصين ما يبيع أو يشتري يعلم أن قليلاً ما يُغَيِّر الإدمان الوطني على البضائع المُقَرْصَنَة. وليس ثَمَّة من يتوقع أن تَتَشَدَّدَ الحكومة الصينية باتخاذ إجراءات صارمة لوَقْف القَرْصَنة. فالعقوبة القُصْوى الشائعة للقرصنة هي مصادرة ما توَفَّر من تلك البضاعة. ولا شيء أكثر.

وإن اعتماد اقتصاد الصين على قراصنتة اعتماداً عظيماً حقيقة كُبْرى لا يُمكن تجاهلها. فهم يوفِّرون للناس بضائع أسعارها مُحْتَمَلة. وكثيراً ما تكون البضائع المُقَرْصَنة أدوية وأجهزة طبية، وبعض الأطعمة، وكتب مدرسية، وثياب، بضائع مُقَرْصَنة أساسية غيرها.

وهكذا، فإن أي إجراء صارم تتخذه الحكومة، سيصيب المستهلك الصيني الفقير. ويخدم القراصنةُ الصينَ باغتصاب التكنولوجية الأجنبية التي تحتاج الصين إليها كثيراً لِتُلَبّي أهدافها الصناعية. ويُعطي القراصِنةُ الصينَ باستمرار مزيداً من الشركات المنافِسَة للشركات العالمية فيوفرون لها السُّبُل التي تُمَكِّنُها من مقارعة منافسين أجانب أقوياء مُجْبَرين على دفع بَدَل الحقوق الملكيَّة كاملة للتكنولوجية المُسْتَعملة لمالكيها. ويحرم قراصِنَة الصين، في محيط جيوبلتيّ

* يَصْعُبُ أن تَجِدَ الأفلام التي تدعمها حكومة الصين دعماً قوياً في صناديق البضائع المُقَرْصَنة. كان فيلم البطل Hero سنة 2003 أحد العناوين التي لم يجرؤ أحد على قرصَنَتِها، غير أن نسخة مرخَّصة رسمياً بيع منها كميات كبيرة في أقسام دي في دي في المخازن الكبرى والمكتبات.

http://www.ibtesama.com/vb

أوسع، اقتصادات العالم المتقدمة، وبخاصة اقتصاد أمريكا واليابان، ما يستطيعون بـه بَيْعَ الصين التَّصاميم القَيِّمَة، والسلع ذات العلامات التجارية، والتكنولوجيا المتقدمة، والمنتجات الترفيهية التي تغزو العالم والتي يلِحُّ الصينيون على اقتنائها وإنما لا يستطيعون إنتاجها بأنفسهم.

ويَشْتكي المسؤولون الصينيون، عند تَحَدِّيهم، من أن القرصنة تُلْقي عليهم عِبئاً ثقيلاً يَصْعُبُ عليهم ضَبْطه. ويقولون إن مهمَّة الصين الأولى تتركّز على إطعام أبنائها وتشجيع التنمية الاقتصادية، وهم مُحِقُّون في شكواهُم. فليس في القَرْصَنَة ما يُقْلِق الحكومة بما يدفعها إلى تَصَرُّف صارِم. فإذا وقع بائعو دي في دي عَرَضاً على سوق ناشطة للأقراص التي تدعم استقلال التيبت، أو فضائل الفرقة الدينية المحظورة فالون جنج Falun Gong، أو قبول تايوان في الأمم المتحدة، فإن هذه الأقراص سَتَخْتَفي حتماً بين عشية وضحاها، وستأخُذ تلك القوانين المحاربة للقرصَنَة طريقها إلى التنفيذ.

وإن للجهات الرسمية الصينية مصالح كثيرة في بقاء القرصنة أكثر من زوالها، ففي الصين تشريعات محلية لاحصر لها، ولكلٍ منها نظام خاص لتطبيقها. وقد شهد دانيِّيل سي. كِيّ. تشو Daniel C.K. Chow، في نيسان/ أبريل سنة 2004م، أمام لجنة شؤون الحكومة في الكونغرس الأمريكي، وهو أستاذ في كلية مورِتْزْ Moritz للقانون في جامعة ولاية أُهايو ومن أشهر خبراء القانون في تطبيق حماية الملكية الفكرية في الصين، فقال: «ليس لِمُشْكِلَة هذا حَجْمُها وهذه أَبْعادُها أن تكون لولا تَدَخُّلٌ مباشر أو غير مباشر من الحكومة وقد تكون حكومة الصين الوطنية في بكين صادقة في إقرارها بأهمية حماية حقوق الملكية الفكرية، غير أن السلطات الوطنية هيئاتٌ سياسية وقانونية؛ بينما يُنَفِّذُ النظامَ والقانونَ على الأرض سلطاتٌ مَحَلِيَّة. وهنا تكونُ الحكومات المحليَّة مَعْنيَّة مباشرة أو على نحوٍ غَيْر مُباشر بِدَعْم تجارة البضائع المقرصَنَة».

ويقول تشو: إن التزييف يَخلق فُرَصَ عَمَل ويدعم اقتصادات مَحَلِيَّة كاملة. فالأسواق الكبيرة في أرجاء البلاد، يجمع بَعْضُها أَلفَ بائِع أو أكثر في مكان

http://www.ibtesama.com/vb

واحد، وتديرها سلطات محلية، فهي تَلعَب دوراً مُزْدَوجاً للمنظم والمستثمر في مُعْظَم الأحوال، فدورٌ هوجَمْعُ رسوم الترخيص، ودَوْرٌ آخرة هو جباية الأجرة.

وَعيُ العلامات التِّجاريَّة

وبقي المشهد الرئيس لقرصنة التصميمات في بكين، سنين عديدة، صف طويل من 147 دكاناً، بدائية في هيئتها، في طريق اسمه زقاق الحرير. فقد افْتُتِحَ السوق سنة 1984م فصارَ من أهم ما يقصده السياح في المدينة، يأتي إليه عشرة آلاف زائر في اليوم. 5 فالرجال الأوروبيون الشرقيون هنا يرتدون سراويل عمل رَثَّة وسترات من الجلد باليَة، يتدافعون داخل الدكاكين بأكياس قمامة كبيرة يُكَدِّسون فيها أكواماً مُقَلَّدَة من جوارب إسبري Esprit، وسراويل كلفن كلاين Calvin Klein، وقمصان لاكوست Lacoste، كي يبيعوها في مكان آخر. وتجد مضيفات شركات الطيران الكبرى يتمشَّين فيها بِلِباسِهِن النظامي المُوَحَّد وهُنَّ مُستَعِدَّات للمغادرة في رحلات بعد الظهر، يسحبن وراءهن حقائب سفر، فيملأنها بالساعات، والحقائب اليدوية، والنظارات الشمسية، والأقلام، وولّاعات المُدَخِّنين، وكَنْزات نُسِجت من صوف كشمير، وربطات عنق من حرير، وسترات جلدية، كل شيء هنا يشبه تماماً بضاعة أصلية تباع في متاجر العالم، فَيَجِدْنَ في زقاق الحرير مخزن جملة «لحفلات الهدايا» في موانئ أوطانِهِنّ.*

* إن أحد معايير إغْراء السلع المقرصنة في زقاق الحرير هي زيارات المسؤولين الذين ينبغي أن يكونوا في أي مكان آخر غيره. فقد أُمْسِكَت تشارلِن بارشِفْسْكي Charlene Barshefsky، المفاوضة التجارية الشَّرِسَة في إدارة الرئيس كلينتون عند عودتها من رحلة إلى الصين في تموز/يوليو 1998 تُدْخِلُ معها إلى الولايات المتحدة أربعين قطعة لعب من حيوانات بيني بِيْبي Beanie Baby المَحْشُوَّة المزيَّفة، اشترتها من زقاق الحرير لابنتها. والأرجح هو أن هذه اللعب كانت نُسَخاً للسوق السوداء من زقاق الحرير يوم كانت منتجات بِيني بِيْبي رائجة جداً. وكان الانتشار الواسع للبضائع المزيفة في الصين مشكلة كبيرة، مما حمل شركة تاي إنك Ty Inc، التي تصنع اللعب، على حشد دعم جمارك الولايات المتحدة لمنع الأمريكيين من العودة إلى البلاد بأكثر من قطعة واحدة من ألعاب بِيني بِيْبي المُقَرْصَنة. ولم تكن بارشِفْسْكي تعلم بالأمر على ما يبدو. وقد أحْدَثَ وزير خارجية إيطالية فرانكو فراتِّيني Franco Frattini مُشكلةً عندما اشترى ساعة رولكس Rolex مقرصَنَة في بكين في شهر آب/أغسطس سنة 2004.

http://www.ibtesama.com/vb

بالرغم من هذه التجارة الناشطة بالبضائع المزيَّفة، فإنك تجد اقتصاد بكين المتنوع لا يعتمد على صناعات القرصنة مثل اعتماد مدن أخرى عليها. ويوضح تشو Chow قائلاً: إن يُوُو Yiwu، وهي مدينة في مقاطعة زِجيانج Zhejiang مركزٌ لتجارة زينة الأعياد، وتعرف بأنها مركز للقرصنة التجارية. ويقول: إن مئتي ألف زبون يزورون في كلّ يوم ثلاثة وثلاثين ألف متجر يبيع مئة ألف صنف مُختَلِف في يُوُو. وإن أكثر من 90 بالمئة من المنتجات الاستهلاكية التي تباع في يُوُو هي بضائع مُقَرْصَنَة: «إن معظم الأعمال القائمة على البضائع المُقَرْصَنَة تفاوِضُ الحكومات المحليَّة على مقدار ثابت من الضرائب تَؤَدِّيها إليها... فَحَوَّلَت أعمالُ القَرْصَنَة يُوُو من بلدة زراعية فقيرة إلى نموذج اقتصادي تصبو المُدُن الأخرى إلى محاكاته». فاتخاذ إجراءات صارمة بِحَقّ المخالفين سيُنهي اقتصاد المنطقة». لأن كلفة الإجراءات المحَلِيَّة الصارمة قد تكون بالغة القسوة، وتلَقى القرصنة مَحَليًّا دفاعاً قوياً».

وتوجد مجموعة كبيرة من المصانع متمركزة في جوانجدُنج Guangdong قد مَوَّلَتْها وأنشأتها أموال أجنبية، وحيث تَجِدُ المصانع التي يملكها صينيون مجهزة بأفضل الآلات الصناعية في العالم لِتُنْتِج بضائع للتصدير، وقد أفادت من هذه المِيِّزات البضائعُ المُقَرْصَنة في جودتها. فالمُصَنِّعون يصنعون هناك نسخاً مُقَرْصَنة من ساعات رولِكس Rolex تستطيع أن تَخْدَع صانعي الساعات السْويسريين، والقِطَع الكهربائية المزيَّفة تستطيع أن تمر دون أن يدْرِكَ أحدٌ زَيْفَها ضِمْن صناديق قطع لصانعي أجهزة مراقبة الآليات والمجسمات العالمية. كالثياب، وتَجِد البضائع مُعْظَمها من بعض الأصناف الكبيرة من المنتجات المُقَرْصَنة التي تظهر في سوق الصين تبدو كالأصل، فتحمل علامة الصانع، وكأنها تحمل براءة التسجيل، والعلامة التجارية، وحقوق الملكية الفكرية، وكلها مقَرْصَنَة.

وعندما تَجول في شارع هوَي هاي Huai Hai في شنغهاي تَجِد كثيراً من الماركات الدَّوْلِيَّة التي تملأ مَجَلات الأزياء. وعندما تقترب من أكشاك خارج

http://www.ibtesama.com/vb

المحلات تُسَمَّى زينجينج جفت Xiangyang Gift وفاشن ماركت Fashion Market، تجد هناك رجال (عسكر) اقتصاد القَرْصَنة يعمَلون. فتراهُم يُنادون المارَّة يسألونهم إن كانوا يريدون ساعات شهيرة، أو حقائب، أو أفلام دي في دي، ثم يهمسون، أفلام جِنْس. فإذا طَرَدْتَهُم لِتُبْعِدَهُم عنك يقْتَرِب مِنْكَ المَزيد ويعيدون عليك الأسئلة ذاتها. وتوجد أكشاك بيع الصحف والمجلات الأوروبية خارج السوق، مُكَرَّسة للساعات الأنيقة. ويحاول باعة الساعات داخل السوق، أن يجدوا الساعات التي يشير إليها المُتَسَوِّقون على صفحات المجلات والتي توجَدُ عادة عند الباعة في الصندوق الأمامي. أما إذا رَغِبَ الشاري في ساعات أفضل فتَجِدهم يُرشدونه إلى أَزِقَّة خلفية يمرّون فيها بين المُخْبِرين والحرس الذين يراقبون السوق، فيصعد أدراجاً خَلْفِيَّة إلى غرف كأنها مساكن فقراء، غير أنها غرف عَرْضٍ لأَصْناف كاملة من الساعات المُقَرْصَنة.

اتَّخِذ لك كرسياً تجلس عليه، وسيبدأ سكان هذه الغُرَف عَمَلَهُم، فَيُخْرِجون حقائب من تحت الأَسِرَّة، ويرفعون أزراراً مخادعة في خزائنهم ليخرجوا منها مزيداً من الصناديق، يفيضُ كُلٌّ منها بالنماذج المُقَلَّدة. وتأتي الساعات المزيفة في ثلاث فئات، تتفاوت في جودتها بين فئة من فولاذ غير متقن الصُّنع، وفئة راقية جميلة. فتجد ساعة كرونوجراف المُعَقَّدَة قد زُيِّفت تزييفاً مُتْقَناً، حتى تجد نفسَك بحاجَة إلى دليل الاستعمال الأصلي لكي تعرف عشرات الأُمور التي تؤدِّيها، ومنها، منَبِّه للوقت، وساعة توقيت منقَسِمة split-time stopwatch، ومنازل القمر.

ولا يسَعُ المرء إلا أن يُعْجَبَ بما يرى. ويجول في البال أن الأُلوف من أنواع هذه الساعات المُخْتَلِفَة والمُتَبَدِّلة تُصْنَعُ في مكان ما في الصين في مصانع فيها أدوات وعُدَدٌ دقيقة وخبراء مَهَرَة يعملون لقلب هندسة الكريستال، والوجوه، وأجهزة دقيقة تعمل داخل الساعات – نابض الدقائق، ومُسَنَّنات، وآلية الربط الذاتي. أضف إلى ذلك كل أنواع ساعات لونجينْزLongine، ورولِكْس Rolex، وإبِل Ebel، وسوَتْشSwatche، وبتك فلِپ Patek Philippe، وأنواع كثيرة

http://www.ibtesama.com/vb

غيرها من الماركات الأخرى، وأعباء إدارة شـــركة ساعات بما يضمن لها أن تبقى قائمة حيث تتَطَلَّب مهارات لا تَخْتَلِفُ كثيراً عن تلك اللازمة لبناء قلوب صناعية، وزرع قرنية العيون، وقِطَع تَضْبط بإحكام الأقمارَ الصناعية.

ماذا يعرف ألمَعُ تلامذة الصين عن القَرْصَنَة؟

ليس الألمعيّون حِكراً على بَلَدٍ دون غيره. وإنما يَكْمُن الاختلاف بين الأمم في الضغــوط التي يَرْزَحُ الناسُ تحتها وحوافِزُهم التي يبذلونها في توجيه طاقاتِهِم. وإذا كان ثَمَّـــة من يُقِرُّ أن هناك مقداراً مُتســـاوياً مـــن الألمعيَّة في كُلِّ مكان، فإنَّ وجود عَدَدٍ كبير منهم في الصين لا يفاجئ أحداً. وعندما يخضع طلاب المدارس الثانويـــة في الصين إلى امتحان لدخـــول الجامعات، للحصول على عدد محْدود من الأماكن مقارنة بعدد ســـكان الصين، فإن الطلاب الذيـــن يُقْبَلون في أفضل كليات الصين هم ألَمَعِيُّون، ومثابرون، وطموحون.

وتراهُم يعيشون في الجامعة في مساكن ضَيِّقَة، لا تختلف كثيراً عن مساكن تســكنُها نساءٌ مهاجرات يَعْمَلْن في شِنْزهِن Shenzhen. يُحْشَرُ كل ستة طلاب منهُم في غرفة لايَتَوَفَّرُ فيها ما يحفَظ خاصيَّة أحدٍ منهم، وربما يكون فيها طاولة واحدة كبيرة يجلســـون إليها جميعهم يعلوها مصباح نيون يَهْتَزُّ ضَوْؤُه، ولا يَفْشَل إلا القليـــل القليل من طلاب جامعات الصين فـــي إثبات كَدِّهم واجتهادهم الذي أوصَلَهُم إلى كَنْزِ التعليم العالي.

إن جامعة تسنجـــهواTsinghua في بكين هي الجامعة الرائدة في العلوم والهندســـة في الصين*. ويســـاعد الكدُّ والكفاح اللذان يتجشَّمهما الطلاب في

* وثَمَّة جامعات منافسة. مثلما يتنافس معهد مَسَتْشُسِتْس للتكنولوجية (MIT) Massachusetts Institute of Technology إلى التنافس مع كَل تِك Cal Tech وجامعة مِتشِـجن University of Michigan، فإن تسنجهوا Tsinghua تتنافس مع جامعة نانجنـجNanjing University وجامعة فودَن في شنغهاي Shanghai's Fudan University. أما المُبَرِّزون في امتحان العلوم في الصين فمصيرُهُم إلى تسنجهوا.

http://www.ibtesama.com/vb

سبيل دخول الجامعة والبقاء فيها على توثيق الصلة والروابط بينهم فترات طويلة بعد التخرج. وإن منتدى مقاولي تسنجهوا Tsinghua Entrepreneur Forum هو أحد سبل روابط الطلاب القدامى ببعضهم. يعقد المنتدى اجتماعات شهرية في فندق بكين، حيث يقصدها خريجو تسنجهوا الذين يتمتعون بشجاعة تكفي لبدء أعمـال تكنولوجية خاصَّة، ويثابرون بين القصص والإستراتيجيات والاتصال. وقد يكون بعضهم من الخريجين الجُدُد، وبعضهم قادمون من عمل حكومي أو من شركات كبيرة صينية أو أجنبية، وآخرون قد عادوا من دراساتهم المتقدمة في الخارج.

إن الصين اليومَ أرضُ البدايات، ويتوقُ خريجو تسنجهوا Tsinghua إلى اقتناص اللحظة الذهبية كما كان مقاولو وادي السيلِكون Silicon Valley يتوقون إلى اقتناص فرَصِهم في التسعينيات. ويُتْقِن خريجو تسنجهوا الإنجليزية، ويقرؤون صحافة العالم بالاتصال السريع بالإنترنت، ويرتادون المكتبات الكبيرة الزاخرة بكتب الأعمال والاقتصاد وكتب لمؤلفين مثل دِيْل كارنجي Dale Carnegie وزِج زِجلر Zig Zagler، وأساتذة المالية الغربيين، وروّاد الجودة، ومؤلفي كُتُب سِيَر رأسماليين أعلام. ويعرف خريجو تسنجهوا التواريخ المهمَّة الاتفاقات من سيرة حياة هنري فورد Henry Ford ومايكل دِلّ Michael Dell، إذ يقرؤون عنهم بشوق مثل المدراء الأمريكيين فَيَنْكَبُّون على كتاب فن الحرب The Art of War في مصنع سيارات جيب بكين Beijing Jeep.

إن الفرص غير المحدودة التي تُتاح لهم من كُلِّ حَدْبٍ وصَوْب تجعل المرءَ يَتَوَقَّع أن تَتَدَفَّقَ الأفكار الإبداعية من خريجي أفضل جامعات الصين في العلوم والتكنولوجية. فقد كان وادي السيلِكون المكان الذي كانت الطلبات فيه تقضي على خيارات أقل كثيراً من ألوف الأحلام الكبيرة التي يصعب تحقيقها، بِرغم وَفْرة الإبداع. أما إذا تجولت في الغرفة وتَقَصَّيت من يتَصَدَّون للأعمال المبدعة ومخططاتهم، فإنك ستجد المفاجأة. سوف تَجِدُ قِلَّة منهم يُغامرون بخوض ميادين

http://www.ibtesama.com/vb

إبداعية، كتعليب أدوية عصرية تحوي كيميائيات من أدوية صينية تقليدية، بينما تجدُ آخرين ممن لهم علاقات مع الجيش يعملون على تكنولوجيات عسكرية وأمنية.

وثمَّة مجموعة من ثمانين في المنتدى، وهذا رقم مُسْتَغْرَب، يعمل نِصفُهُم تقريباً على تطوير خدمات تَتِمّ بأجهزة الهاتف الجوال. ويعمل بعضهم على تطوير ألعاب تتِمّ على أجهزة الهاتف. وقد بلغت مبيعات الشركات التي تبيع وسائل رسائل التسلية على الهاتف الجوال 460 مليون دولار سنة 2004م. ولا يستعمل الصينيون أجهزة الهاتف الجوال للاتصالات الصوتية بقدر ما يفيدون منها في خدمات أُخرى؛ كالرسالة القصيرة أو SMS. ويتبادل الصينيون مئاتِ بلايين الرسائل القصيرة فيما بينهم في كل سنة. ويفضل الشباب ممن هم دون الخامسة والعشرين من العُمر الرسائل الهاتفية على الاتصال المُباشر، وربما يكون السبب عند أكثرهم رخص الرسائل. وثَمَّة أسباب اجتماعية، فالنميمة أسهل نقلاً في الرسائل الهاتفية الصامتة، وكذلك نقل خبر مزعج. ولعل الذين يتعاملون مع الصين يدركون أن قليلين من الصينيين يتَّصلون معهم في أمور أعمالهم عبر الهاتف، وإنما يرسلون لهم رسالة نَصِّيَة.

غير أن إرسال الرسائل إلى الأصدقاء ليس إلا البداية. إذ تُرْسِل شركاتٌ وبعض الخدمات نشرات يومية إلى هواتف الناس فيها نكات، وأخبار عن مشاهير من الناس، ورسائل، وقصص مؤثرة، أو دروس في اللغة الإنجليزية. إن السوق كبيرة، غير أن تَرَكُّز المصلحة في لقاءات تسنجهوا يبدو مُحَيِّراً للوهلة الأولى مقارنة بصناعات الصين الكبرى، ومشروعات البناء، والعقارات، أو مبيعات التجزئة، فإن تسلية الهاتف الجوال لاتُشَكِّل حجماً كبيراً.

فلماذا تَجذُب رسائل الهاتف الجوال وما يلحقها من تسلية كل هذه المواهب؟ لعلَّ السبب الرئيس هو أن أولئك الألمعيين الذين يضطلعون بالعبء يعرفون أنه عمل عَصِيٌّ على أن تُسْرق فيه أفكارُهم الرائدة ومخططاتهم. إنه يفرق رسائلَ الهاتف والتسلية عن غيرها من أُمور التنمية الإبداعية في الصين، حيث

http://www.ibtesama.com/vb

المَضْمون والتصميمــات التي تقدم نَفْحَةً من فرصة تصبح رائجة تُقَلَّد وتُباعُ في وَمْضَة عين.

ويجب أن تُباع الرســائل الهاتفية وخدمات التسلية من خلال شركات تكون البائــع الرئيس لخدمات الهاتف الجوال. وإن شــركة تملك لعبة عظيمة لأجهزة الهاتــف الجوال تبيعها عبر الهاتف، وتقتســم عائداتها مع شــركة الهاتف. وقد تكلف اللعبة ســبعين أوثمانين سنتاً فقط، وتُباعُ بأكثر من مليون ضعف في سوق الصين الكبيرة. ولما كان الناس لا يستطيعون أن يلعبوا ولا أن يُجَدِّدوا ألعابهم إلا عن طريق خدمات الهاتف، فإن المال ســيذهب حتماً إلى الذين طَوَّروا البرنامج وإلــى مالِكيه أصحاب الحق. ويملك أولئك الألمعيــون، نحو مجموعة تسنجهوا، صُنوف أفكار عظيمة لجميع الأعمال، ويعرفون مكمَن قطاف ثمار مواهبهم وأنها ستلقى حماية ولا تُسْرَق.

فــإذا قارَنَّــا ذلك مع أســواق أُخرى مُزْدَهِــرَة في الصين كالأزيــاء، وبرامج الكومبيوتر، والأفلام، والموســيقا، وقِطَع غيار الآلات والســيارات، وأطعمة ذات علامات تجارية، نجد أن جميع أنواع الحماية القانونية القياسية كحقوق التأليف والنشــر، وبراءة تســجيل اختراعات، وعلامات تجارية موجودة كلّها في القوانين المُبْرَمة، غير أنها غائبة عن واقع حياتهم، وبذلك يصبح كل ما يستحق الحماية في سوق الصين هدفاً لِلمُزَيِّفين والقَراصنَة. وليس خافياً أن الصين قد انتزعت نفسها مما كانت فيه إلى اقتصاد الســوق عندما استجمع شعبُها شجاعتَه وقوَّتَه والتفَّ على مُعْظَم نُظُم الحكومة الصينية. وقد أمْضَت الصينُ أكثر أيام القرن العشرين في الالتفاف على هذه المجموعة من النُّظُم أو تلك. وكان بلوغ الشــيوعيين قبضةَ الحكم رداً على نُظُم الصين القديمة والقوى الأجنبية. وقد عاقَبَ إيمانُ ماو Mao بالثورة المســتمرة الصينيين الذين كان فهمهم لتوقّعــات الحكومة والمجتمع راكداً مُتَحَجِّراً. فالكُنْفوشــيّون، والديمُقْراطيون، والفاشــيون، والماركسيون السوفيت، ومعلمو المدارس الذين التصقوا بدروسهم، ومالِكوا الأرض، والفلاحون، وأصحاب

http://www.ibtesama.com/vb

الأعمـــال، وعُمّال المصانع، وكل من عاش حقْبَةً بعد أُخرى حيث اتِّباعُ نُظُم الأمس يُحَقِّقُ مأســاة لِغَدٍ آت. لقد تعلم الناسُ في الصين مع مَرِّ الأيام أن الأنظمة تنشُرُ الكوارث، وأن إيجاد سُبُلٍ تَلْتَفُّ عليها يُوَفِّرُ الأمل والكرامة.

إنه مشــهدٌ طبيعيٌّ أَنْ يَرى الغرباءُ الأَســواقَ المركزية في مدن الصين أَوْكاراً للصوصٍ؛ حيث يشــتري الناس الثياب، والموســيقا، والأفلام، والأجهزة، وبرامج الكومبيوتر المختلفة، وحيث تُقَرْصَنُ جميع منتجات العالم المُمَيَّزَة وتباع بشكل لم يُسْبَق بيعاً غير شرعي.

نَوافذ تُفْتَح في كُلِّ مَكان

لو أنَّك تَجَوَّلتَ في كلِّ أرجاء الصين، حيث يَسْتَعْمِلُ الناسُ أجهزة الكومبيوتر، تَرى الصِّعاب التي تواجــه جماعة تسنجهوا. وتباع أجهزة الكومبيوتر وبرامجها في مدن الصــين الكبيرة، في مراكز بَيْعٍ كبيرة Mall حديثة ذات أدوار مُتَعدِّدَة. وإن مركــز باي ناو هُوي في بكــين Bai Nao Hui، الذي يُكْتَبُ باي ناو-Buy-Now، مــن أكبر تلك المراكز التجارية. ويتألف من بناءين، كل منهما مدينة قائمة بذاتها، يربطهما جسر للمشــاة، فيهما مئات الدكاكين والأكشاك، ويمكن اعتبار معظمها جزءاً من سوق الكومبيوتر الشخصي. إن دخول المكان مثل المشي داخل جهاز كومبيوتر شديد الاستطاعة. فهناك أكشاك كاملة لا تبيع إلا ألواح دارات، أو مشَــغِّلات مخازن الذاكرة، أو شاشــات، وقد رُصَّت مُنتجَاتهم داخل علب من زجاج على طول المَمَرَّات. فإذا رَقَيْتَ مُستوىً أعلى وَجَدْتَ من يبيع أجهِزَةً كاملة. وتَجِدُ هناك عشــرات العلامات التجارية لأجهزة كومبيوتر محمول تُعْرَضُ على مِنَصّات، وقد غُلِّف مُعْظَمُها بالســلوفان، وتُركَت أجهــزة أخرى مَفْتوحَةً تَعرض أفلام دي في دي. ويَحْمِلُ بَعْضُها علامات مشهورة نَحْو، سوني Sony، وآي بي إم IBM، ودِلّ Dell، ويحملُ كثيرٌ منها علامات تجاريَّة نَكراتٍ غير معروفة خارج الصين أو تايوان. وتَجِدُ هناك فارقاً مهماً.

http://www.ibtesama.com/vb

فإذا اشــتريت جهاز كومبيوتر جديدً في طوكيو، أو لندن، أو نيويورك تَجدُ معه نظام تشغيل، يكون عادة مايكروســوفت وِنْدوزMicrosoft Windows، وتَجِدُ مجموعةً من البرامج تُمَكِّنُك من أن تبدأ بطباعة وثائقك ومعالجة أرقامك. ويُؤَدِّي صانعو أجهزة الكومبيوتر في تلك الأسواق بدَلَ حقوق ملكيَّة تلك البرامج ويضيفـون تلك البــدلات على قيمة الجهاز التــي يدفعها من يَشْــتَري. أما إذا اشــتريت جهــاز كومبيوتر قد صُنِعَ مَحَلياً من ســوق بكين باي نــاو، فإنَّه يأتي دون نِظام تَشْــغيل مُرَخَّص، ولن تكون البرامج المرفقة الأخرى مُرَخَّصَةً. ويعتقد البائعون في الصين وكذلك من يشتري، أن تلك المُرفقات المُرَخَّصة باهظة الثمن. ويرجعُ هذا الاعتقادُ إلى ما يجري على لسان المُسْتَهْلِك في الصين من أن كلَّ ما يُمكِن إعادة إنتاجه يكون باهظاً إذا بيع بمبلَغ يزيد عن كلفة الجهاز الذي يُنْسَــخُ عليه. فالنسخة الأصلية من وِنْدوز Windows تأتي على أقراص مُتْقَنَة الصُّنع تَصْعُــبُ قَرْصَنَتُها، وَتَتَطَلَّب تســجيلاً لها قَبْلَ تَشْــغيلها عن طريق الإنترنت لكي تَعْمَل. فتضيف هذه المَيِّزات مبلغاً يتراوح بين 40$ و 60$ إلى قيمة الكومبيوتر. ولا يَسْــتَغْرِقُ الأمرُ في الصــين إلا بضع دقائق من وقت البائع لتحميل نُسْــخَةٍ مُقَرْصَنَــة من ويندوز على جهاز كومبيوتر جديد بمبلغ زهيد، فَيَسْتَسْــخِف من يريد شراء جهاز جديد بتَسْديد الثمن الصحيح الرسمي.

وإن الأدوار العليا من باي ناوBuy Now تُعجِبُ أكثَر. إذ تَجِدُ فيها مخزناً بعد مخزن، وقد حُشِــرَت على رفوفها المرتفعة من الأرض إلى السقف عُلَب البرامج. ويأتي مُعظمها في علب مُسْتَطيلة تُباع فيها أقراص دي في دي، لكل منها غلاف مطبوع يُحاكي غلاف النســخة الأصليَّة المرخصة. وتُغَلَّب بعض العناوين الرائجة فــي أنماط مختلفة، يُبَيِّنُ بعضها محاولة صنع علبة تَظْهَر كأنها العلب الأصليَّة. وتَفْضَح العُلَبُ الأُخرى زَيْفَ ما تَحْويه وتَفْضَحُ قَرْصَنَتَها.

ولعل أهم ما في هذا المركز هو أَدوب كْرِيتف ســويت Adobe Creative Suite، وهــي مجموعة برامج جرافِكْس تتضمّــن كل ما تحتاج الأعمال إليه من

http://www.ibtesama.com/vb

تصميم، وعرض، وتحرير للنَّشرات والعروض. تباع المجموعة في الولايات المتحدة بـ 750$ تقريباً. وبرغم أن أدوبِ كْرِيتف سويت من أكثر البرامج رواجاً في العالم التي تستعمل في إعادة إنتاج الوثائق والصور وإخراجها إخراجاً حسناً، فإنه يُباع في الصين في علبة يوحي غلافها بأن صِغاراً قد عَبَثوا في صنعه، فَقَصُّوا ولَصَقوا دون اكتراث بإتقانه.

وإن فُرَص عمل البرنامج بنجاح ممتازة. فكثيراً ما تعمل البرامج المُقَرْصَنة التي تباع في أكشاك البيع غير الشرعي في الصين أفضل من النسخ الأصليَّة، فالباعة يُكلِّفون أنْفُسَهُم عَناءَ تَحْديث برامجهم عن نُسَخ أصلية محدَّثة مَسْروقة، وتلك عملية يضجَر منها الذين يشترون النسخ الشرعية إذ ينبغي أن يُجْروا هذا الأمر هُم. ويتمتع برنامج ويندوز إكْس بي Windows XP المُزَيَّف، على سبيل المثال، بدرجات أعلى من الأمان والثبات عند جمهور تسنجهوا من ذلك البرنامج الشرعي الذي تنتجه مايكروسوفت.

وتَجِدُ في مركز البيع mall هذا، كُلَّ برنامج مُقَرْصَنٍ رائج، وكل لعبة كومبيوتر بي سي PC قد أُنتِجَت ثُمَّ اختفى كثيرٌ منها عن رفوف الباعة خارج الصين. أما أُولئك الصينيون من مُحِبي الألعاب الذين تستهويهم كرة القدم الأمريكية، فيَجِدون نُسَخاً من فنون إلِكترونيَّة لمباريات جون مادِن John Madden الرائجة من مُعظَم المواسم الخمسة التي خَلَت. وثَمَّة أساليب لسباق افتراضي لكُلّ نوع من المركبات على طرقات رقَميَّة، أو أجواء رقَميَّة، أو عوالم بديلة لا تُحْصى.

وإن من الحقائق التي تَجُرُّها هذه المتاجر إلى البيوت هي أن عالم البرامج وَلودٌ بوَفْرَة مُدْهِشَة، وتَجِدُ عشرات البرامج الفاشِلَة مُقابِل كُلِّ عَمَلٍ ناجِح منها. وعندما تَتَدَهوَرُ أسعارها إلى دولارين أو دولار واحد، وهو متوسِّط ثمن علبة من هذه الأقراص التي تباع في باي ناو، – فإن المنتجات الكاسِدَة تَجِدُ من يطلبها. تُرى، كَمْ سَتَشْتَدُّ شَهْوَةُ الناس للاختبار إذا تحول أكبر باعة البرامج على شَبَكَة الإنترنت في أمريكا، وأوروبا، واليابان إلى مخازن دولار. إن سوق البرامج في

http://www.ibtesama.com/vb

الصين، كما هو سوقها للموسيقا المسجلة على أقراص سي دي وأفلام دي في دي، هو مخزن كبير من مخازن الدولار.

وانظُر كيف تستطيع شراء ما يلزم مكتبك أو مصنعك في مكان مثل هذا حيث يمكنك ملء العربة التي تجمع فيها ما تشتري مما يلزم مكتبك من معظم البضائع التي تحتاج إليها لإدارة عمل في مستوىً عالمي بِثَمَنٍ بَخْس. سوف يَحْمِل كلُّ جهاز كومبيوتر نسخةً كاملةً من مايكروسوفت أوفس Microsoft Office، وبرامج تصميم، ومجموعات برامج تبلغ قيمة أمثالها في بلاد أُخرى ألوف الدولارات. وسيكون لكل جهاز برامج مُتَقَدِّمة لإنشاء مواقع على الإنترنت Web sites وإطلاقها، وتحضير صفائح «سبِرد شيت spreadsheets»، وإدارة مبيعات إلكترونية على مواقع على الشبكة، ومعالجة صُوَر فوتوجرافية، وتعديل أفلام الفيديو على طرائق هوليوود، وتوزيع الموسيقا، وإن اقتضت حاجة العمل، تصميم آلات صناعية، وتشغيل خطوط إنتاج، أو محاكاة اختبارات عقاقير.

انظُر إلى ذلك كُلِّه، ثم انظر إليها عندما تَدْخُل مكاتب صينية، حيث تَجِدُ أجهزة كومبيوتر لا تحمل علامات تجارية، فيها مخازن ذاكرة تحمِلُ برامج تبلُغ قِيَمُها ألُوف الدولارات لم تكلِّف من يشتريها هنا إلا مبلغاً زهيداً. وربما كان أكثر ما يلفت الانتباه أن أجهزة الكومبيوتر تستطيع دخول المواقع على شبكة الإنترنت حيث توجد جميع البرامج التي يرغب فيها الباحث، وقد حُوِّرَت جميعها واخْتُرِقَت فلا تَتَطَلَّب تسجيلاً لها قبل استعمالها، فهي جاهزة لمن يَسْتَعْمِلُها دون مُقابِل. وبذلك لايحتاج سوق البرامج الصيني إلى بائعي باي ناو Buy Now أبداً، وإنما يسجلون البرامج المتوفِّرة دون مقابل.

فما حجم سوق البرامج المُقَرْصَنة في الصين؟ يستعمل الصينيون أكثر من تسعة مجموعات برامج مُقَرْصَنة مقابل مجموعة واحدة من البرامج الشرعيَّة. وتحدد مجموعة اتِّحاد البرامج التجارية The Business Software Alliance، وهي مجموعة منتجي البرامج الأمريكية، خسارة مبيعات البرامج التي تُسَبِّبها

http://www.ibtesama.com/vb

القَرْصَنَــةُ الصينية في العالم بـ 3.82 بليون دولار في الســنة*. فإذا قارناه بما جنته مايكروســوفت في الســنة المالية 2004م الذي بلغ 8.16 بليون دولار، فإن المبلغ قد لا يبدو ســيئاً. غير أن الرقم قد لايمثــل حقيقة المبلغ وربما يكون أقل منه كثيراً. فقد اشــترى الصينيُّون عشــرة ملايين جهاز كومبيوتر شخصي سنة 2004م. وإذا افترضنــا أن تســعين بالمئة من هذه الأجهــزة تحوي مجموعة من نُسَــخ مُقَرْصَنَة من وينــدوز، وبرنامج أُفِس، ومجموعتــين أو ثلاثة من البرامج المستعملة في تطبيقات شــائعة منها، أدوبِ فوتوشوب Adobe Photoshop لمعالجة الصور، وأكْروبات Acrobat لإعداد الوثائق، أو ربما ماكروميديا فلاش Macromedia Flash للرســوم الموجودة على شبكة الإنترنت، وبعض الألعاب وبرامج لنســخ أقراص دي في دي وعرضها، فإن مقدار خسارة المبيعات يتجاوز عشــرة بلايين دولاراً في السنة. ولتقدير المبيعات في العقود المُقبِلة – فإن معدَّل نمو مبيعات أجهزة الكومبيوتر الشــخصي قد تجاوز 10% في الســنة – تزيد الخسارة المتراكمة عن 150 بليون دولار و ربما بَلَغَ ضعف ذلك.

غير أن هذه الحسابات النظريَّة مُضْحِكة ولاَ تخلو من سُخْف يَرْفُضُهُ العقل. فلو أن القَرْصَنــة في الصين قد أمكــن حَجْرُها، بقُدْرَةِ قادرٍ، فلا يُتَوَقَّع أن يَنْدَفِع ملايين المستهلكين الصينيين إلى المخازن الشرعيَّة لشراء برامج تبلغ قِيمَتُها مِئات الدولارات أو أُلوفها. فلا يملك ســواد النّاس الأعظم أن ينفِقَ كلٌّ منهم 1000 دولار على برامج الكومبيوتر. ويُدرك الصينيون هذه المغالطة البعيدة عن المنطق السليم التي تكمن في صُلب جَدَلهم عن ارتفاع قيمة البرامج الذي يُبيح غَضَّ النَّظَر عن القَرْصَنَة.

* إن نســبة القرصنة العالمية للبرامج تبلغ 39 بالمئة، أي أن أربعين بالمئة من البرامج المســتعملة على أجهزة الكومبيوتر تأتي من قنوات ضبابية لا تعود بنَفْع على صانعيها. ويَبْلُغ مقدار قَرْصَنَة البرامج في الولايات المتَّحِدَة ذاتها 23 بالمئة. فالبرامج غير الشَّــرعيَّة تُشَــغِّلُ عــدداً غير قليل من أجهزة الكومبيوتر. ويقول اتِّحاد البرامج التجارية The Business Software Alliance إن القرصنة فــي الولايات المتحدة إذا قيســت بالمبالغ اللازمة لشــراء تلك البرامج المقرصنــة، تُكلف صناعة البرامج 6.5 بليون دولار في السنة.

http://www.ibtesama.com/vb

ويَرْجِــعُ هذا الأَمر إلى تَعادُل القُوَّة الشــرائية. فبالنظــر إلى قيمة برنامج مايكروســوفت أُفِس برفِشِــنَل Microsoft Office Professional البالغة 500$، ينظر الاقتصاد الصيني إلى هذا المبلغ وإلى ما يمكن أن يشتري من سِلَعٍ وخدمات أُخرى. ويذهب الجدل الصيني من هذا المبلغ المرتفع، فالبرامج الأجنبية تقع خارج دائرتهم وبذلك يندر شــراؤها بالقيمة الشــرعية. وقد بَثَّ لي ووكِيَنْــج Li Wuqiang، أحــد رجال وزارة العلوم والتكنولوجية الصينية، شَــكْواهُ مجلَّةَ نيوزويك Newsweek فقال: «إن قيمة منتجات مايكروســوفت باهظة جداً في غياب المنافســة». وتَساءَلَ الصيني، من ذا الذي يُصيبُه أذىً من قرصَنَة منتجات مايكروســوفت من أولئك الذين لايملكون شراءها؟ فإن لم يكُن ثمَّة ربح تُحَقِّقه، فليس هناك ما تَخْسَرُه، أليس كذلك؟ إن هذا الجَدَل يحْمِلُ في طَيَّاته قُوَّةً مُقْنِعَةً أَجْبَرَت شركات إنتاج البرامج العالمية على أن تأخُذَ في اعْتِبارِها احتمال خَفْضِ أســعار منتجاتها في سوق الصين. ولطالما أعلنت مايكروسوفت عدم استعدادها لذلــك، غير أنها أَبْرَمَت صفقات كبيرة لتزويــد أكبر صانعي أجهزة الكومبيوتر الشــخصِيَّة في الصين بِنِسَخ شرعيَّة من ويندوز، الذين يُسَيْطِرون معاعلى 60 بالمئة من السوق المحلية.

ولن تفيد مايكروســوفت من جميع مبيعات الصانعين. فالشــركات مشغولة بحرب أســعار ضارية خَفَضت قيمة أجهزة الكومبيوتر الشــخصية المجهزة بما يلــزم لها إلــى 350$. غير أن هذه الأجهزة قــد بِيْعَت عارِيَةً مــن نُظُم ويندوز Windows التــي تُشَــغِّلُها. فكان على من يشــتري جهــازاً أن يحصل هو على برامجه. وقد بدأت تَشِــيْعُ مُؤَخَّراً في الصين نســخة محلية من لِنُكْس Linux، وهو نظام مفتوح المصدر، زهيد القيمة. وتُدْرِكُ مايكروسوفت، أن هذا النظام إذا شاع استعماله، فسوف تكون له قاعدة هائلة تتحدى هَيْمَنَةَ ويندوز في العالم.

وهكذا نجحت حكومةُ الصين، بإرغامها مايكروسوفت، أن تفتح الرمز السري لتشغيل برامجها، أو تَخْسَرَ أعمالها مع الحكومة لنظام مفتوح المَصْدَر. فرضَخَت

http://www.ibtesama.com/vb

مايكروسوفت لشروط الصين ولضغط بلدان أخرى لِلْبَوْح بمَزيد من أسرارها، فَعَرَضَت رُخَصاً مجانية لِستين حكومة ومنظمة دولية، فَسَلَّمَت مُخَطَّطات دُرَّة تاجها، برامج أوفيس.

وإذا كان في رَدِّ مايكروسوفت على القَرْصَنَة وعلى برامج نظام مفتوح المَصْدَر، المتاحة في بُلْدانٍ أُخْرى، ما يشير إلى شيء ما فإنه يشير إلى أن الشركة قد أخذت في حُسْبانها خَفْضَ ثمن ويندوز في الصين. ويُقِرُّ مُديرو مايكروسوفت في مجالسهم المُغْلَقَة أن النسخ المُقَرْصَنَة في الصين من برامجها كان لها بَرَكة عادت عليهم بِنَفْع. فَفَتَحَت الشركةُ قنوات تُوَزِّع لها برامج مايكروسوفت مجاناً، برغم أنها بَقِيَت تحتفظ بموقِع متقدم. وأَخَذَت الشركةُ على نَفْسِها عَهداً أن تُنفِقَ 750 مليون دولار في الصين لتدريب مُطَوِّري برامج وأجهزة كومبيوتر. وسوف يُقْتَطَع جزء من ذلك المبلغ فَيُحْسَبُ من قيمة برامج تقدمها الشركةُ جزءاً من البرامج التي تُوَزِّعها. فأعْطَت هذه الجهودُ الشَرِكَةَ قُوَّةَ دِفاعٍ في وَجْهِ برامج نظام مفتوح المَصْدَر.

ويُحِبُّ مُسْتَعْمِلو البرامج أن يُظْهِروا نَصيبَهُم من سُمْعَة مايكروسوفت، بما يضع الشركة، في نَظَرِهِم، في المَوْقِع الأخلاقي ذاتِه لِعُصْبة مُسْتَعْمِلي البرامج في الصين. فعندما يَقْصِدُ طالبٌ كشْكاً يَبيع برامجاً في باي ناو Buy Now، يَتَفَحَّص نسخةً من وَنْ نُوت OneNote، وهو برنامجٌ جديد من تطبيقات مايكروسوفت أُفِس يُسْتَعمَل في ترتيب ملاحظات وتَداولها وفي أعمال عَبَثٍ ذكي intelligent doodles، فَيَقْلِبُ العلبة ويدرُس ما عليها من معلومات باللغة الإنجليزية. وعندما يُسأل بواسطة المترجم لماذا لا يشتريها بالثمن المُخَفَّض المعروض ويُجَرِّبها في بيته؟ يُجيب بِلُكْنَة، غير أنها إنجليزية أمريكية اصطلاحِيَّة، إنه يُريدُ أن يَرى كَيْفَ يَعْمَل البرنامج مع أعمال أُفس أُخْرى. (ويَتَبَيَّنُ أنَّه كان طالباً في جامعة جنوب كاليفورنية فقضى هناك زَمَناً). ويقول: إنه يَقْتَني جميع هذه البرامج وسيشتري هذا أيضاً، حيث يَقِلُّ ثَمَنه في الصين كثيراً عن ثَمَنِه في أمريكا.

http://www.ibtesama.com/vb

وسُـئِلَ الطالبُ إن كان يُزعِجُه أن يَشْـتَري بَرامِجَ مُقَرْصَنَة؟ فَهَزَّ كتفيه غير مُبالٍ بالأمر وقال: «إن مايكروسـوفت تأخذ برامج أيضاً،» وعدَّدَ مجموعة برامج يحفظهـا كثيرٌ من العارفين بالكومبيوتر في الصـين عن ظهر قلب فقال: «لقد أخذوا ويندوز من آبلApple، وأخذوا إنترنت إكسبلورر Internet Explorer من نِتْسْكِيب Netscape، وبكت بي سي PocketPC من بالم Palm».

وإذا طَرَحْت وجهَةَ نَظَر مايكروسوفت فسَتَجِدُ الشاري يقاطِعُك بِرأيه قائلاً: إن برامج أُفِس الشرعيَّة باهظة الثمن.

عندما يتعلَّق حوار مخزن البرامج بمسؤول في التجارة الأمريكية يتحدث عن جذور المشكلة، تَجِدُهُ يهزُّ رَأْسَه مُتَجَهِّمَ الوجه ويقول: «ليس في سياستنا التجارية أَوْلَوِيَّـة تَتَقَدَّم على القتال لحماية الملكيـة الفكرية الأمريكية. إنَّه جهد مُهِمٌّ جداً يُعادِلُ حَرْبَنَا على أَسْلِحَة الدَّمار الشامل. إننا نُرَكِّز اهتمامنا عليه».

إن مِقْـدارَ الالتزام يمَثِّلُ مِقْدارَ التحدي. وتـرى الصينيّين في تفاوضهم مع الأمريكيين يسـارعون إلى القول إنَّهُم عندما يحاولون التَّقَدُّم في مسـألة حماية الملكية الفكرية يَجدون الولايات المتحدة ومعظم دول العالم الأخرى تتراجع. فقد بدأت مشاركة ملف الموسيقا على الإنترنت مع نابستر Napster واستمرت دون مقاطعة. أما الآن، فقد أصبح نسخ أقراص السي دي والـ دي في دي ومقايضتها أمراً شـائعاً بين المراهقين وطـلاب الجامعة الأمريكيين. وقد سـهلت التغطية التي أَوْلَتْها الصحافةُ الصينية لمعارك مايكروسـوفت القضائية تشبيه ممارسات الشـركة بممارسـات مسـتخدمي البرمجيات الصينيين. فالمعركة الطويلة التي شُنَّت ضد مايكروسوفت تركت سؤالاً قائماً إن كانت للحكومة الأمريكية، ولمدَّعي عام الولاية، وللشـركات القوية حجة لمايكروسـوفت أنها كانت تلجأ بكل تصميم إلى مط القوانين وثني الاتفاقيات.

وقد يكون الصينيون محقين. فيندر أن تتردَّد مايكروسـوفت، وهي من أكبر ثمرات الرأسـمالية الأمريكية، في اسـتخدام قوة السـوق لكسـب المزايا، حتى

http://www.ibtesama.com/vb

في مماحكة القانون. وليس ثمَّة شك في أن الولايات المتحدة وسواها من دول الاقتصاد المتقدم لديها محاكم تُحْضِرُ المخالفين إليها، وغالباً ما يكون ذلك. وكان لأنصار نابستر Napster أكبر خطة قرصنة وقحة في تاريخ الولايات المتحدة، فقدَّموا تبريراً مبالغاً فيه وأحمق لتلك الخدمة، غير أنهم اضطروا إلى إنهاء ذلك النَّهج إلى الموسيقا المجانية، لتعود خدمة مأجورة.

وعند الحديث عن حماية الحقوق الفكرية، فلا بد للمسؤولين من الولايات المتحدة ومن بلدان أخرى لديها ملكيات تستحق الحماية، أن ينظروا إلى أن مهمتهم ضرب من سلطة سياسية عالمية وليست مسألة قانونية. غير أن الصين الآن تكسب من تدفق بضائع مقرصنة حُرّة أكثر مما تخسر، ولا تأبَه بالعنف الاقتصادي الذي تثيره اقتصادات أخرى.

وَيُشَكِّل تحدي المصدر المفتوح في الصين وسواها من البلدان النامية نقيصة جديدة لمسألة حصول الدول ذوات الأجور المنخفضة، وبخاصة الصين، على مزايا تمنحها منافسة لشركات تكنولوجية متقدمة في بلدان مُرتفعة الأجور. وتستطيع مايكروسوفت أن تقول في الأسواق الأغنى، إن برامجها في النهاية تكلف مستعمليها أقل من المصدر المفتوح. وعندما يقال: إن المصدر المفتوح أقل كلفة، بسبب الطريقة السهبة التي يُخدم ويُطَوَّر بها، فإن تطبيقه، وضبطه، وخدمته مع الزمن قد تتجاوز نظام ويندوز Windows الذي يدعمه مطورون أقوياء في مايكروسوفت، وفي مجموعة كبيرة جداً من الشركات ومختصّين في تكنولوجيا المعلوماتIT الذين يَعونَه جيداً.

أما في الصين، حيث أجور المبرمجين ومفككي الشيفرة زهيدة، فإن كلفة تقليد نظام يعتمد على لينُكس Linux وصيانته لا يجعله أغلى من ويندوز مع الزمن. إن استطاعة أُجور القوى العاملة الزهيدة في الصين تُمَكِّنُها من كَسْرِ احتكار البرامج المُسَيْطِرَة حَقّاً. فإن تَمَكَّنَت الشركات الصينية من أَن تؤكد استطاعتها على تَرْك البرامج الأمريكية والأُوروبية، فإن هذه الشركات الأمريكية

http://www.ibtesama.com/vb

والأُوروبية ستَجِدُ نفسها مُضْطَرَّة إلى إيجاد سَبيل تدافع به عن مدَّخَرات مثلها. وكما أدركت شـــركات الصين أن موتـــورولا Motorola في حاجة إلى من يورد لها من الصين قطعاً لأجهزة الهاتف الجوال التي تنتجها تســتطيع بها أن تنافس في ســـوق الصين وأسواق العالم، فإن هذه الشركات الصينية سوف تعرض على شركات عالمية أُخرى مصادرها الجديدة لأنظمة التشغيل والبرامج.

سَلْبُ المُنافسين قُدْرَتَهُم التنافُسيَّة

إن للقرصنة أثر ســـلبي على اقتصاد العالم. فالقَرْصَنَة تســـرق قِسْـــطاً من المبيعات التي كان لها أن تكون بيعاً مشروعاً. وإن القرصنة نذيرشؤم لِعالَم يَسْعى جهده لكي يجد سبلاً ينافس بها الصين، فالقرصنة تعَزِّزُ مَوْقِعَ منافسين صينيين مـــا كان لهـــم أن يبرزوا لو لم تكن لهم سُـــبُل عظيمة تُمَكِّنُهم من ســـرقاتهم. إن غلاء البرامج الفاحش الذي يفوق قدرة المســـتهلك في الصين يجعلهم يستبيحون قرصنتها. أليست الشاحنة، والمخرطة، وآلات قوالب الحقن باهظة الثمن أيضاً؟ فليس في الصين من يرى أن تغزو شـــركات الصين مستودعات الشاحنات وآلات الخراطـــة وقوالب الحقن الألمانية، واليابانيـــة، والأمريكية، برغم أن تلك الآلات لاتؤثر على نجاح أي شركة تُمارس القرصنة أثر البرامج التي تنتجها.

إن شركة إس إي بي، آ. جي SAP AG شركة ألمانية عملاقة تطور البرامج وتزود الشـــركات الكبيـــرة والصغيرة بنُظُم تحتـــاج إليها في التنســـيق، والبيع، والمحاســـبة، وأُمور أُخرى. وهي من أنجح بائعـــي البرامج في الصين. وكثيراً ما تصَمِّمُ النُّظُمَ الغالية التي تبتكرها مُفَصَّلةً لأعمال خاصَّة جداً لا يمكن نقلها من شركة إلى أخرى، وبرغم ذلك، فإنها لا تنجو من القرصنة.

فقد قال كلاوس تِزمِّر Klaus Zimmer، رئيس فرع الشـــركة في الصين لرويترز Reuters: إن شـــركة صينية كبيرة دفعت لـــ SAP قيمة 250 رخصة برامج، ثم تَبَيَّن فيما بعد أنها تُشَغِّل 3.000 نسخة. ولو أننا افترضنا أن الشركة

http://www.ibtesama.com/vb

قد دفعت قيمة الترخيص بناءً على عدد البرامج التي تنوي استعمالها، فإن كلفة برامجها – قبل أن تضبط – تبلغ 0.083 من قيمتها الحقيقية لو أنها سُددت كاملة. وقد تبلغ قيمة البرامج المُصَمَّمَة لتلبية حاجات منظمة كبيرة كهذه ملايين الدولارات. وإن تجنُّب دَفْعِها يوَفِّرُ لها ملايين، ناهيك عن برامج ويندوز التي تُشَغِّلُها SAP إضافة إلى برامجها، وهي برامج مُقَرْصَنَة هنا أيضاً. لقد نُهِبَت أرباح SAP في هذه الصفقة.

وينبغي حساب كلفة الميزة التنافسية التي استغلها المُغتصِب ضد الشركات التي كان يحاول ضرب منتجاتها في السوق. ويقول أندرو ميرثا Andrew Mertha أُستاذ العلوم السياسية في جامعة واشنطن في سانت لويس St. Louis: «ينظر كثيرٌ من خبراء الملكية الفكرية إلى المشكلات مع الصين من زاوية قانونية فحسب، ولايُعيرون الجانبَ الاقتصادي اهتماماً». لقد أمضى مارثا في تسعينيات القرن العشرين في الصين يعمل مع مسؤولين في الوكالات الحكومية الصينية المسؤولة عن حماية براءات الاختراع، وحقوق التأليف، والعلامات التجارية. «لا يعد الناسُ في تكنولوجيا المعلومات إغراءَ البرامج الرخيصة الذي لايقاوم وإن الثمن الرخيص هو ما يحتاج إليه الناس للمنافسة. وعند حساب الخسارة على أنها خسارة صانعي البرامج فحسب، فقد غَفِلَ الناس عن أن يَرَوا كيف تُسْرَق الصناعة الأمريكية».

ويقول مارثا: عندما تُنفِق شركاتُ البرامج الغربية بعض الموارد في رصد مجرى بيع منتجاتها، فإننا لا نجد أحداً يَضْبطُ السُّبُل التي تُتيح للصناعات الصينية التي تستعمل برامج مجانية تقريباً أن تُحَقِّق مصالحها. ويضيف قائلاً: إن الأمر يتضَمَّن رأسمال اجتماعي أيضاً. إن أهمية الارتباط ضمن شبكة اجتماعية – جوَنكسي Guanxi – في الصين الحديثة يضمُّها ارتباطٌ وثيق عن تجربة البلاد المؤلة مع القوانين. ويشير مارثا إلى أن جوَنكسي قد ضعفت خلال فترة حكم ماو، عندما دفع التطرف الإيديولوجي للثورة المستمرة الصينيين

http://www.ibtesama.com/vb

إلى قطع العلاقات التقليدية. ويقول: «إنها ليست صدفة أن نرى جوَنكسي قد عادت تزأر بعد الثورة الثقافية. فعندما فشلت الدولة في ضبط النظام، التفت الناس إلى نظام الشبكة الذي يستطيع أن يُحَقِّق نوعاً من السيطرة الاجتماعية التي تُمَكِّن الناس من أن يثق بعضهم ببعض وينتظر أن يحفِّز الناس، ضمن ذلك النظام، مصالح شبكتهم». فإذا كان ثَمَّة اثنان كُلِّفا بشراء برامج لاستعمالها في عمل ما، فَقَرَّر أَحَدُهُما أن يعْمَل وفْقَ القانون، فينفق مئات الدولارات ثمن نسخة من ويندوز أو أوفيس أصليَّتين، بينما اشترى الثاني الشيءَ نَفْسَه بدولارين اثنين. فسوف يُنظَرُ إلى الأوَّل بين أترابه وزملائه غبياً، وسيرتفع موقع الثاني في أعينهم لاتخاذه القرار الصحيح. ولن يثِقَ أحدٌ بعدها بنباهة الأول وصَحَّة قراره.

ولعلك، إن تَفَحَّصْتَ أجهزة كومبيوتر معظم خريجي تسنجهوا Tsinghua فسوف تجدها مَحْشُوَّة ببرامج متفوقة طورتها شركات عالميّة رائدة في التكنولوجية. وإن جلْتَ في إحدى المنشآت الجديدة التي تعمل ليل نهار لِتُنْجَزَ منتجاً ليست سرقته سهلة، وسألت إن كانت البرامج المستعملة في إنتاج السلعة الجديدة مُرَخَّصَة، تطالعك ابتسامات العارف وإجابة غامضة: «فلا يخفى أن الناس الذين يعملون هنا لَحَّاظون جداً».

ما أَجْمَلَ الاسْتعْمار المَعْكوس

إن فشل الصين في ضبط الملكية الفكرية هي في الحقيقة تشكل إعانة مالية عالمية ضخمة تقدر بمئات البلايين من الدولارات لأعمالها ولشعبها. وإذا نظرنا إلى الموضوع من زاوية أخرى نجد أن لخطط الصين في القرصَنَة أثر في العالم كلِّه مثل أثر جيوش الاستعمار القديم، تغزو عمق اقتصاد ضحاياها، وتصادر أعظم وأهم مواردها، وبذلك تضعف قدرة الضحية على المواجهة. وإذ تنمو الصين لتصبح قوة عظمى، نجد الثروة التي دخلت إليها من قرصنة الملكية الفكرية تدفع البلاد قُدماً.

http://www.ibtesama.com/vb

فهل تُلام الصين على سلوك يسلب بلدان العالم الثروةَ التي جمعها طيلة أجيال عديدة؟ قد يَصِحُّ ذلك، وربما يحتاج العالم إلى أن يعيد النظر في ذاته. فالصين تتصرف كما تتصرف دول أُخرى عندما تهبُّ رياحُها، وتُتاح لها فرصة لزيادة ثروتها وقوتها. فقرصنة الملكية الفكرية لم تكلف الصين شيئاً يُذكَر، وعادت عليها بفوائد جَمَّة.

لقد أعطت مئات بلايين الدولارات من الاستثمار الأجنبي التي تدَفَّقَت على الصين أفضل تكنولوجية في العالم سَهَّلَت عمل قراصِنَة الصين. وقد ساهم العالم، باستثماره في بنْيَة البلاد التَصْنيعيَّة التحتية، بتقديم الخبرة، والآلات، والبرامج التي تحتاج إليها الصين لإنتاج مصنوعات وسِلَع عالميّة في جودتها، وإن العالم يساهم بذلك في تكوين أكبر مُجَمَّع لِقَرْصَنَة التَصْنيع، وأَفضله، وأَعْقَده، وأَنْجَحه.

وبينما يخاطر المستثمرون الأجانب بنجاحهم في الصين، فإنّهم، بذلك، يدفعون الصين إلى موقع يُمَكِّنُها من أن تكون واضعةً للقواعد. وعندما تضاهي الصين أكبر الأسواق العالمية وتصبح من أوائل المصَنِّعين والمُنتِجين في العالم في زمن غير بعيد،، فسوف يكون لها أسماء تجارية تملكها، وتملك صناعة التسلية entertainment industry، وتكنولوجيا تضع معايير عالمية. إن بلداً مازال يعيش ذكرى ذُلّ الاستعمار المَرير، لن يشعر بذنب أو ندم على قلب الطاولات بِقَرْصَنَة مُمْتَلكات الأجانب.

http://www.ibtesama.com/vb

http://www.ibtesama.com/vb

الفصل العاشر

الاقتصاد الصيني - الأمريكي

قد يَسْـهُلُ على المــرء أن يقدّر آثار امتداد الصين العالمي فيتَفَحَّص ســاعة سويســرية مزيفة على معصمه، أو يَسْـتَمْتِع بجهاز دي في دي صيني جديد في بَيْتِــه. وليس ثَمَّة شــك فــي أن أولئك الذين فقدوا أو ربما ســيفقدون أعمالهم أمام المصانع الصينية يشــعرون بشِدَّة خطر حضور الصين. غير أنَّ الصين تَمَسُّ الأمريكيــين وبقية العالم، في مجالات أخرى في كلِّ يوم. فإذا أخِذت هذه القوى جميعها، فإنها تُبَيِّن -أن وراء مصير صناعة أو أخرى، وأن وراء موضوعات العمل أو القرصنة، أو ارتفاع ســعر النِّفْط الذي وقع مؤخراً، والذي كان لشــدَّة الطلب الصينــي له بعض الأثر فــي ارتفاعه- ارتباط اقتصاد أمريــكا والعالم بالصين ارتباطاً لا ســبيل إلى الخلاص منه. وبالرغم من وصف هذه الآثار الكبرى التي لها وجود شــامل يبدأ ببعض التجريد، فإنه لا يلبثُ عند إدراكه أن يَتَّضِح وضوح التغيير في جيب المرء.

الأخبار الطيبة أولاً

وإذا دَخَلْتَ متجراً يبيع بالتجزئة، واســتَعْرَضْتَ الأســعار المثبتة على السِّلع وأســماءَها التجارية، يَتَبَيَّن لك أن الصين توفر على المســتهلك مبالغ ضخمة من المال. فكم هي ياتُرى؟ أجرى «جاري كلايد هُفباوَر» Gary Clyde Hufbau-er، أحــد اقتصاديــي النخبة الأولى فــي معهد الاقتصاد الدولي في واشــنطن Institute for International Economics in Washington، حساباً تقديرياً مُعْتَمِداً على أرقام تجارة الصين مع الولايات المتحدة سنة 2003م فبيَّنَت حساباته مقدار ما تُوَفِّر الصين على المستهلك الأمريكي.

http://www.ibtesama.com/vb

ويقـــول هُفباوَر: «لم يكن معظم أصحاب الأعمال الأمريكيين، واليابانيين في ماضـــي الأيام، يرغبون في نقل صناعاتهـــم إلى مواقع جديدة ما لم يضمنوا من ذلك الانتقال توفير مقدار عشرة أو عشرين بالمئة».

فكيف إذا وجَدَ أحدهم أن 170 بليون دولار من البضائع المصنعة التي تأتي مـــن الصين إلى أمريكا كانت تأتي من قَبْل مـــن مكان آخر، أدرك مِقْدار التوفير الحاصِل - بسبب فرق الأسعار - غير أن التوفير الذي ينتج مباشرة من مصانع الصـــين ليس إلا البداية. فبضائع الصين لها أثر يخفض أســـعار صناعات بقية العالم ويقزِّم التوفير الـــذي تقدمه البضائع الصينية وحدها. ويقول هُفباوَر: إن ســـلعاً قيمتها 500 بليون دولار تأتي من بلدان تنافس الصين في انخفاض أجور العاملين فيهـــا، و450 بليون دولار أُخرى من شـــركات أمريكية ويابانية مرتفعة الأجور تنافس المنتجين الصينيين. ويقول: إن ذلك يبلغ ترِليون دولار من الســـلع الإضافية التي تنخفض أســـعارها بسبب المنافسة الصينية. ومهما تكن تقديرات أثر الأســـعار المنخفضة محافظة فإنها تثير الاهتمـــام. فإذا كان توفير الولايات المتحـــدة من مبلغ يقـــارب ترِليون دولار من التجارة غير الصينية ســـيتراوح بين 3 و 5 بالمئـــة، بـــدل 20 بالمئة التي تســـتطيع البضائع الصينيـــة أن توفرها، فإن المنزل الأمريكي المتوسط يتمتع بوَفْرٍ إضافي 500 - 600 ابتداءً، حسب ما يرى هُفباوَر، وإن الذين ينفقون أكثر يحصلون على إعانة صينية أكبر.

وفر المســـتهلكون الأمريكان حوالي 150 بليـــون دولار للصناعات الصينية، ولا يبعد هذا الرقم الولايات المتحدة عن عجزها التجاري مع الصين، ولعل أحد السبُل التي يمَكِّنُنا من وضع الأرقام في مواقعها النسبية هي أن نقارن مبلغ 500 دولار لـــكل بيـــت بالدعاية الصاخبة التي رافقت خفض الضريبة ســـنة 2003م الـــذي اقترحتـــه إدارة بوش وأقـــره الكونغرس الأمريكي، فأُقِـــرَّ التخفيض أولاً ليساعد على ضخ إنفاق المستهلك في الاقتصاد الأمريكي وفي إخراج البلاد من خندقها الاقتصادي. يقول الرئيس بوش عند توقيعه، سنة 2003م، قانون فرص

http://www.ibtesama.com/vb

العمـــل والإعفاء الضريبي The Job and Growth Tax Relief Reconciliation Act of 2003: «إن القانون قد وُضع ليقدم إعفاء ضريبياً أساســياً لحوالـــي 136 مليون من دافعي الضرائب الأمريكيين فَيُعَزِّز اســتعادة الاقتصاد عافيَتَه». فإن كل أُسْرَة أمريكية مكَوَّنة من أربعة أشخاص تكسب 75.000 دولار في الســنة، ويعــادل الوفر الذي تقدمه الصين حوالي نصـــف المبلغ الذي توفره التخفيضات الضريبية التي تبلغ ألفاً ومئة دولار على الأقل*

السعْرُ مُناسبٌ

إن الضغط الذي يمارســـه المصنعون الصينيون يتَّضِحَ الآن من ارتفاع أسعار المـــواد الأولية. فعندما كانت أســـعار المواد الأوليَّة ترتفـــع فيما مضى، كان فارقُ الســـعر يحمِله المُسْتَهلك بِشِرائه السِـــلعة المصنَّعة التي حَمَلَت فارق السِّعر. وقد تغَيَّرَت هذه الحركة بســـبب ضغط المنافســـة على المصنعين الصينيين والضغط الصادر منهم. وقد انخفضت قيمة الســـيارات في معظم الأســـواق، بينما كانت طفـــرة اقتصـــاد الصين تُســـاهِم في رفع قيمة الفـــولاذ، والنحـــاس، والألمنيوم، والنيكل، والبلاســـتِك، وغيرها من الســـلع الصناعية ســـنة 2003م و 2004م. وكان من أسباب ذلك أن كانت المصانع الصينية تَقْذِف بِقِطَع السيارات الرخيصة في الأســـواق. وعندما صعد ثمن القطن ســـنة 2003م إلى أعلى ســـعر بَلَغَه في سبع ســـنين، انخفضت قيمة الملابس في المخازن الأمريكية في تلك السنة. لقد انخفضت أســـعار معظم السِّـــلَع الصينية في الولايات المتحدة بين سنة 1998م وســـنة 2004م. ويقـــول دبليو مايكل كوكْـــس W. Michael Cox الاقتصادي

* تُعطى الوفرة الناتجة عن خفض الضرائب أو الحســـم على قيمة الســـلع، مالاً للمستهلك ينفقه أو يوفره كما يشـــاء. غير أن الاقتصاد بشـــكله الأوسع يعد الحسم وخفض الضرائب أُموراً مختلفة. فخفض الضرائب ســـنة 2003، الذي ادعى السياسيون الأمريكيون أنه «أعاد» 130 بليون دولار إلـــى الأمريكيين، وزع النقد في الحقيقة من مزيد من الدين الفيدرالي الذي يتراكم على المواطن، الذي عاد بدوره وأنفق أكثر من 150 بليون دولار على البضائع الصينية.

http://www.ibtesama.com/vb

الأول في المصرف الفدرالي الاحتياطي في دالاس Reserve Bank of Dal-las Federal: «إن معظم البضائع التي انخفضت أسعارها جاءت من الصين،» مستشهداً بأرقام جمعها المصرف في تقريره السنوي سنة 2003م. وإن أجهزة الكومبيوتر الشخصية هي أوضح مثال، فقد كان مقدار انخفاض أسعارها 28%، وبلغ انخفاض أسعار أجهزة التلفزيون نحو 12%، والكاميرات والألعاب نحو 8%، وانخفضت قيمة الأجهزة الإلكترونية الأُخرى، والثياب بمختلف أنواعها، والأحذية، وأدوات المائدة.

كان هذا الانخفاض مُثيراً بذاته، غير أن ارتفاع كلفة المعيشة في الولايات المتحدة الذي بلغ 16 بالمئة في الفترة ذاتها، جعل انخفاض أسعار السِلَع الواردة من الصين مريحاً جداً.

وستستمر الصين في توريد مزيد من سلَعِها إلى الأمريكيين في الأيام المقبلة، إذ إن معظم ما تستورده الولايات المتحدة ما زال يَرِدُ إليها من بلدان ترتفع فيها الأُجور نسبياً. وتزيد، في هذه الأثناء، واردات الولايات المتحدة من دول تنخفض فيها أجور العمل،، وبخاصة من بلدان مُدْقِعَة الفَقْر. فقد ارتفعت السِلَع الواردة إلى الولايات المتحدة خلال ربع قرن مضى من خمس وثمانين دولة يكسب الناس فيها نصف عشر ما يكسبه الأمريكيون أو أقَلّ. (تشمل قائمة الدول بلداناً فيها نقاط اضطراب، نحو، هايتيHaiti، والكونغو Congo، ونيبالNepal، وبلدان واعدة كالهند وإندونيسيا. أما عندما يتعلق الأمر بالتجارة مع الولايات المتحدة، ومعظم دول العالم، فإن الصين هي اللاعب الأكبر بين كل البلاد ذات أجور قوى عاملة منخفضة معاً. وقد استوردت الولايات المتحدة سنة 1981م سِلعاً وخدمات قيمتها 319 بليون دولار (باحتساب قيمة دولار سنة 2000م)، وهو مبلغ يعادل 6% من مجمل الناتج المحلي للبلاد. وقد استوردت الولايات المتحدة سنة 2001م بِضاعة بَلَغَت قيمتها 1.44 ترِليون دولار، ويعادل هذا المبلغ 14% من مجموع الناتج المحلي، وارتفعت السِلع الواردة، في تلك الفترة، من بلاد

http://www.ibtesama.com/vb

منخفضة الدَّخل من 4% من مجمـــوع البضاعة الواردة (12.8بليون دولار) إلى أكثـــر من 10% (144 بليون دولار). وتتوقع البلاد ذات الدخل المنخفض، وعلى رأسهم الصين، أن تبلغ صادرتها إلى الولايات المتحدة 24% من كل ما يأتي إليها سنة 2011م من خارج البلاد.

لا يَكونُ السعْرُ مُناسباً دَوْماً

هل الأســـعار التي يدفعها الأمريكيون بدل البضاعة الصينية أرخص أسعار يستطيعون الحصول عليها؟ يُفتَرض أن تكون كذلك، ولكنها ليست هكذا بالضرورة. ويعتمد ذلك على ما يباع، وما إذا كانت تلك الصناعة تستطيع الضغط للحصول على دعم الحكومة وحمايتها.

ويقــول كوكس Cox، الذي يرى لزاماً على السياســـة الاقتصادية أن تهْدف أولاً إلـــى تأمين أفضل صفقة للمســـتهلك: «ينتهي الأمر بالسياســـيين عادة إلى تمثيـــل مصالح المُوَرِّدين الذين يمولون حملاتهم الانتخابية». ويرى كوكس أن هذا الخلل قد يُجَرِّدَ المســـتهلكَ البائس ممن يرعى مصالحه. فجماعات الصناعيين تحاول تشـــكيل جماعة ضغط لكسب تأييد صُنَّاع القرار، فلصناعاتهم دور كبير في السياســـة التجارية، وإن مصالح أي مســـتهلك فرد لصناعة ما لن تزيد أكثر من بضعة دولارات في السنة.

فعندما حظرت إدارة بوش الحصة المسموح باستيرادها من الصدارات الصينية في تشرين الثاني/ نوفمبر سنة 2003م لحماية الصناعة الأمريكية ربما تكون قد أنقذت هذه الصناعة الأمريكية من خسارة ملايين الدولارات، بينما تكون حصة من يشـــتري من هذه البضاعة الواردة لا تتجاوز عشـــرة دولارات أو عشرين دولاراً في الســـنة. ويقول كوكس: إن الصانع يســـتطيع أن يرسل أنواعاً من مختلف الناس كي يعرضوا قضيته في واشنطن، ولن يقوم مستهلك واحد بتلك المهمة، لكي يوفر بضعة دولارات في أي مادة مُستَهلكة معروضة للنقاش. وهكذا، فإن المجموعة الأكبر التي تملك البلايين الاستهلاكية الكثيرة هي المجموعة الأضعف صوتاً.

http://www.ibtesama.com/vb

وإنهـا لمفارقة غريبة أن يكـون أولئك الذين هم في أشـد حاجة إلى الوفر الـذي تحقِّقه لهـم بضائع الصين، هم أنفسـهم الذين فقـدوا أعمالهم بعد أن صَرَفَهُـم أربابُ عَمَلِهِم لضغط تكاليفهم ورفع إنتاجهم لمواجهة السـعر الصيني، أو أنهم كانوا يعملون في أعمال لم تعد تسـتطيع المنافسـة مهما كانت الظروف. ويقـول كوكس: «إن وول مارت Wal-Mart هي أفضـل حَدَث للفقراء». ويرى أن المستهلك عندما يكون ملكاً، فإن الممارسات التي تدعوها مجموعات الأعمال الأمريكية «إغراقاً» يُحْدِثُهُ مصنعوا الصين يَجْدُرُ بها أن تُسَمّى نِعْمَة، فيقول: «لا تسَمُّوها إغراقاً، بل سَمّوها كَنْزاً»*.

إن الأولويَّة التي يراها كوكس هي مصالح المستهلك، وعلى الرغم من أن معظم الاقتصاديـين الأمريكيين يشـاركونه رأيه هذا، غير أنهـا تصْعُب أن تكون حقيقة مقبولة في كل العالم. فالبلدان التي تواجِهُ صناعتُها منافسةً صينية يجب أن تَتَّخِذَ خيارات صَعْبَة فتوازن بين المصالح المتنافسـة للتجار والمستهلكين. واختيار جانب المستهلك يتطلب الثقة بمخاض اقتصادي يجعل الصينَ المنافسَ الأكبر اليوم. وتكون الثقة قد نفذت بحق. ويعَلِّمُنا الاقتصاديون أن التزام الدول بفوضى السـوق الحرّة يُعطيها أعظم فرص الازدهار. ويبقى معظم العالم غير قانعٍ برأسمالية - مركزية المستهلك. وتَهْتَمُّ أوروبا، واليابان، والعالم النامي في سياساتهم الاقتصادية بحماية صناعاتهم، وعُمّالِهِم، أو كِلَيْهِما مَعاً، قبل الاهتمام بمصالح المستهلك.

الرَّوابِطُ المُقَيِّدَة

لايقتَصِرُ تحدي المنافسـة الصينية على أنها فَخٌّ نُصِبَ للمستهلكين والعمال الأمريكيين ضد بعضهم فحسـب، بل للمسـتثمرين منهم أيضاً. ويقدم لو دُبّس

* إن ما يسـميه الأمريكيون «إغراقاً» في أحاديثهم العادية لاينسـجم مع تعريف الاقتصاديين لتلك الممارسة إلا نادراً، وهي بيع السِلَع بسعر أقل مما يُكَلِّفُه صُنْعُها، بالرغم من أن المنتجين الصينيين يستطيعون، لأسباب مختلفة قد أشرنا إليها من قَبْل، صناعة سِلَعٍ بسعر أقل من كلفة المواد الأولية عند مُصَنِّعين في مكان آخر.

http://www.ibtesama.com/vb

Lou Dobbs، وهـو مُعَلِّـق مالي ذو أثـر كبير في محطَّة سـي إن إن CNN - الذي تحَدَّثنا في الفصل السابع عن موقفه الصاخب من الشركات التي تُهَجِّرُ فُرَصَ العَمَل إلى ما وراء البحار في سبيل خَفْضِ النَفَقاتِ - خيرَ مثال على هذه الورطات. فيعد الشـركات التي تتخلى عـن العمال الأمريكيين أنها ترتكبُ خطأً كبيراً، غير أنه يوصي بالاسـتثمار في أسهم الشركات التي قَلَّصَت فرص العمل الأمريكية ودخلت في مغامرات تجارية كبيرة في الصين والهند.

وتتسـحب هذه الورطة على الاقتصاد كُلِّه، فتوقِعُه فـي حَيْصَ بَيْص. فَلِكُلِّ واحِـدٍ مصالـح مُتَنَوِّعَة تتضارب مـع مصالح الآخرين. فنجد عمـالاً، تضُمُّهم نقابات يفقـدون أعمالهم، لهم دَوْرٌ في شـركات يرتبط نجاحُهـا بقدرتها على تحقيق أعمالها في الصين. ويقوم رِهانُ الصين على استثمارات تديرها صناديق التقاعد. وقد هَمَّت حكومات عددٍ من الولايات الأمريكية بِسَـنِّ تشريعات تحظر إرسال عقود ولاياتها إلى شركات وراء البحار، غير أن موظفي الولايات، المنتفعين من خطط التقاعد الكبيرة، يملكون حصصاً في الاستثمارات الكبرى في العالم. وإن مجموعات الاستثمار هذه مُجْبَرَة على رفع عائدات مستثمريها إلى أعلاها، ضمن حدود خَطَرِ اسـتثمارٍ مَقْبول، يمكن أن يوَفِّر لهم أفضل مسـتقبل ممكن. فقد التزموا بالنظريات السائدة في إدارة محافظ الأوراق المالية التي تملي على كبار المسـتثمرين توزيع اسـتثماراتهم حول العالم، ويكون عدم اسـتثمارهم في الصين ضرب من الحُمْق، إذ تعد بعض فرص الاستثمار «نَسْلاً من عَقيم».

وهكـذا، فإننا نَجِدُ أكبـر صناديق التقاعد الأمريكية تَسْـتَثْمِر أموالها في وول مـارت Wal-Mart، وموتورولا Motorola، وجـي إيّ GE، وفلبس Philips، وأُلـوف الشـركات الأخرى التي تسـتثمر بلايـين الدولارات فـي الصين. وإن مؤسسـات الاستثمار العملاقة هذه تجوب الصين الآن بحثاً عن شركات تستثمر فيها اسـتثماراً مباشراً. وتَتدافع صناديق التقاعد الجامعية، والمستشفيات، وفي بعض الحالات تتدافع بلاد كلُّها نحو الاستثمارات ذاتها.

http://www.ibtesama.com/vb

عَنِ المال

سيجد المستثمرون الذين يحاوِلون اجْتِنابَ أخذ حصصٍ اقتصاديَّة في الصين أنفسهم كَمَن يحاول اجْتِنابَ التَّماس بالاقتصاد الأمريكي، أو الياباني، أو اقتصاد الدول المصدرة للنِّفْط أوبك OPEC، فذلك أمرٌ لا مناص منه.

والسبب في ذلك هو أن سعر العملة الصينية مثبت بالدولار الأمريكي. فماذا يعني ذلك؟ فقد حَدَّدَت الصين قيمة عملتها بحوالي 8.3 يوان مقابل دولار واحد منذ سنة 1997م، وما زالت على ذلك إلى سَلْخِ سنة 2004م، عند تدوين هذا الكتاب. وهذه طريقة قديمة غير أنها مُجدية في شؤون العملة. كانت عملات العالم الرئيسة كلها تثبت أسعار صرفها مقابل بعضها بعضاً قبل أن يُحَرِّر رِتْشارد نِكْسون Richard Nixon الدولار في أوائل سبعينيات القرن العشرين فقد كان مركزُ النِّظام الذهب والدولار. وكانت الدول تأخذ الدولارات التي تجنيها من التجارة وتقايضها في الولايات المتحدة بالذهب الذي يباع بسعر ثابت. وكان محظوراً على الأمريكيين يومئذ اقتناء كميات من سبائك الذهب، وكانت مخازن الذهب الأمريكي الكبيرة تحتفظ بها حكومة الولايات المتحدة حصراً، وكانت تبيعه وتشتريه بسعر رسمي يحدده نظام النقد الدولي القديم.

أما اليوم، فعندما يرتفع سعر صرف الدولار أو ينخفض أمام عملات العالم الأخرى، يتحرك معها اليوان الصيني. فالصين هي الدولة التجارية الكبيرة الوحيدة التي تربط عملتها بالدولار. وتتخذ الصين هذا القرار حتى يكون تحويل اليوان إلى عملات أُخرى مرتبطاً بسعر الصرف الرسمي وعن طريق مصرف تديره الدولة.

وأما البلاد الأخرى، وبخاصة بلاد آسيوية مثل كورية الجنوبية، واليابان، فإنها تعتمد اعتماداً عظيماً على صادراتها في نمُوِّ اقتصادها، وتتدخَّل لذلك بضراوة في أسواق العملات العالمية. وتتحرك عندما تحقِّق أسعار عملاتها ارتفاعاً أمام

http://www.ibtesama.com/vb

الدولار يُلْحِقُ ضرراً بقدرتها على التصدير. فتؤثر في أسواق العملات باستعمال قوة احتياطها الهائل من العملات الأجنبية، فتخوض في بيع العملات وشرائها للتَمُّر على تجار العملات العالمية ومضايقتهم. غير أنهم لايتجاوزون التمر على أسعار الصرف ومضايقتها دون أن يتمكّنوا من السيطرة عليها أو التحكم بها.

فلماذا تكون الصين اللاعب الكبير الوحيد الذي يحافظ على سعر صرف ثابت؟ يقول هُفباوَر Hufbauer: إن الصين تعد العملات الأجنبية، وبخاصة الدولار، عملات «مُفرِطة في قيمتها». فيلعب الدولار في الصين الدورَ الذي كان يلعبه الذهب في الولايات المتحدة وبلاد أخرى كانت مرتبطة به. ويحفظ المصرف المركزي الصيني بجميع مبالغ الدولار الموجودة في البلاد تقريباً. ويزداد تجميع الدولارات في حساب الحكومة من اكتساب الاقتصاد الصيني دولاراته من تصدير منتجاته بالدولار وتحويل هذه الدولارات في الداخل إلى اليوان، وكذلك عندما يجلب المستثمرون الأجانب أموالهم إلى الصين لإقامة مشروعاتهم أو شراء عقارات. فقد تجاوز احتياطي الصين من العملات الأجنبية في النصف الأول من سنة 2004م مبلغاً مقداره 460 بليون دولار، وهذا مبلغ مذهل. فهو يضع حساب الدولار التراكمي في الصين معادلاً لثلث الناتج المحلي الإجمالي فيها (وإذا نظرنا إليه من زاوية أخرى فإنه يعادل مجموع قيمة أعمال البيع والشراء التي تمت سنة 2004م في البرازيل، التي تحتل المرتبة الخامسة عشرة في اقتصاد العالم. وتستطيع الصين، نظرياً، أن تتقدم في يوم ما وتستعمل ما عندها من سيولة نقدية لتشتري كل ما اشتراه البرازيليون في سنة. ويقول هُفباوَر Hafbauer: إن الصين تقدم لتجارها ومواطنيها حافزاً لتسليم دولاراتهم إلى مصارف الحكومة، كي تستمر في السيطرة على عملتها، والحيلولة دون ظهور سوق سوداء كبيرة. فتدفع الحكومة بدلاً عن قيمة الدولار أعلى من قيمته في السوق، وتعطي عملة صينية مقابل الأوراق الخضراء أكثر مما قد يحصل عليه الشاري في السوق الحرة لو لم يكن اليوان خاضعاً للسيطرة.

http://www.ibtesama.com/vb

تذمرت بعض الشركات والبلدان من سياسات الصين فترة طويلة. فلم يكن اقتصادها مزدهراً أو كبيراً ابتداءاً بما يثير قلقاً. وعندما ضربت الأزمة المالية الآسيوية في أواخر تسعينيات القرن العشرين، وتداعت عملات كورية، وإندونيسيا، وتايلاند، التزمت الصين، التي كانت تستطيع أن تخفض قيمة عملتها، بمستوى سعر الدولار وامتُدحت لتحقيقها الاستقرار لوضع مُتَفَجِّر. واستمرت الصين في تقدمها الصاخب في الوقت الذي احتاج الاقتصاد المقلق إلى عدة سنوات لينهض من عثرته، حيث جعل اليوان ثابت السعر من صادراتها صفقات لا يستطيع العالم مقاومتها وجذب الاستثمار الأجنبي الذي دفع البلاد إلى الأمام.

أما اليوم، فإن مُعظم العالم يرى الصين تثبت سعر القطع الأجنبي عندها بسعر أقل كثيراً مما يمكن أن يبلغه لو سمح لليوان بالتداول الحر في أسواق عملات العالم. ويعد الصناعيون الأمريكيون من أشرس نقاد سياسية الصين النقدية، ويتقدمهم أصحاب مصانع الفولاذ، وسباكو الفولاذ، وصناع قوالب البلاستيك، وصانعو الآلات. وتقول نقاباتهم ملتزمة رأيهم، إن الصين تخفض قيمة عملتها 40% دون سعر صرفه مقابل الدولار عمداً، وهي نسبة مبالغ بها*

غير أن الصناعيين الأمريكيين الذين ينقلون إنتاجهم إلى الصين يُدركون، غالباً، الوفرة التي تدعم ذلك الادعاء. فلابد أَنَّ لِسَعر الصَرف أثراً أكبر من أثر السّلع التي تصنعها الصين؛ ويمتد أثره على وسائل الإنتاج أيضاً. (فإذا كان للعملة أثر ضاغط هكذا لجهة دون أخرى فإن المصانع التي يكلف إنشاؤها مليون دولار في الصين يجب أن تكلف 1.4 مليون دولار في مكان آخر). ويزعم

* إن تقدير قيمة العملة الصينية هو فنٌّ بِقَدْرِ ما هو عِلم، لو سمح بحرية تداول اليوان. ويُقَدِّر اقتصاديو المعهد الدولي للاقتصاد the Institute for International Economics أن قيمة اليوان تَقِلُّ 15 إلى 25 بالمئة عن قيمته مقابل الدولار.

http://www.ibtesama.com/vb

الصناعيون الأمريكيون إن ســلَّة الصفقات الصينيــة العالمية التي لا يدعمها إلا تلاعب الحكومة الصينية بالعملة، مُصطنعة وغير عادلة.

ويستشهد المشَرِّعون الأمريكيون في استجابتهم للشكوى، بميثاق صندوق النقد الدولــي، ليزعموا أن قيود الصين على العملة وتلاعبها بها غير قانوني. إن معظم هذه الاتهامات خداع، وإن قِلَّة فقط يتوقعون أن تقضي محكمة دولية بأُمور تتعلق بسياسة الصين النقدية. وسواء أكان تَصَرُّف الصين مشروعاً أم غير مشروع، فإنه أَمْرٌ يخضع للنظرة التي يُنْظَرُ بها إلى قواعد صندوق النقد الدولي.

ويقــول جِفْري إيْ. فرانــكِل Jeffrey A. Frankel، الاقتصادي الذي كان عضواً في المجلس المستشارين الاقتصاديين Council of Economist Ad-visers في إدارة الرئيس بِل كلينتون Bill Clinton، ويعمل الآن في كلية كِنِدي للحُكْــم في جامعة هارفرد Harvard's Kennedy School of Govern-ment، ليس لشــرعية سياسات الصين النقدية أثر كبير، في الواقع، حيث ليس ثَمَّة حكومة واحدة، ولا حكومة الولايات المتحدة،

تستطيع أن تفعل شيئاً لتغير الطرائق التي تتبعها دولة كبيرة في إدارة شؤون عملتها. ويُشير فرانكيل إلى أنه «عندما يَتَّهِمُ المُشَرِّعون الأمريكيون الصينَ، أو أي بلد آخر، بِتَلاعُب غير مشروع بعملته فإنهم يلجؤون إلى قوانين أمريكية غامضة في عباراتها، عوضاً عن أن يحتكموا إلى أي اتفاقية متعددة الجوانب».

وعندما دُعِيَت الصين إلى المشــاركة في جلســة غير رســمية لِمُمَثِّلي الدول الصناعية الســبع G-7 في تشرين الأول/ أكتوبر سنة 2004م، كان ثمن دعوتها الاســتماع إلى الطلبات المُلِحَّة للمســؤولين الماليين الأجانب، الذين ضاقوا ذرعاً بطرائق تثبيت العملة الصينية. في اجتماع الدول الســبع، ووافقت الصين، على

http://www.ibtesama.com/vb

عادتها، على التغيير في نهاية المطاف، غير أنها لم تقدم وعداً بما ستفعل ومتى ستفعله*. وإنما أوضح الصينيون أنهم مصممون على متابعة المسار الذي يرون أنه يخدم مصلحتهم الخاصة، ومصلحة الآخرين. وقال لي روُغو Li Ruogu نائب حاكم مصرف الصين المركزي لجمع من المصرفيين من واشنطن خلال اجتماع الدول الصناعية السبع: «إننا نحاول أن نوجِدَ الظروف الناسبة لِسِعْر صَرْف يَعْتَمِد على السوق، وإذا ضغطتم على الصين للتغْيير، فقد يؤذي ذلك الولايات المتحدة. إنكم تدمرون دجاجة تبيض ذهباً».

إن نُظُمَ أسواق العملات سريعة الزوال، وإن أخبارها سريعة التغيُّر. وستبقى بعض وجوه إستراتيجية النقد الصينية مهمة لرفاه بقية دول العالم، في المدى البعيد، مهما جرى من حَثٍّ للحكومة الصينية الآن. إن هذه الحقائق المُعَمِّرة ترتبط بأهداف وطيدة يُسْتَبْعَدُ نَقْضُها في وقت قريب؛ فلا بد للصين من أن تتطوَّر لترفع عن شعبها الفقر ويعتمد ذلك على عملة تضع اقتصاد البلد كله في أسعار تمكِّنه من التعامل المرضي أو الرابح. ولا يُتَوَقَّع أن تتصرَّف الصين تصَرُّفاً راديكالياً وسريعاً مُفاجئاً. إذ يُدْرِك قادة الصين أن ذلك التصرف لا يهدد نمو اقتصاد الصين فحسب، وإنما يُزَعْزِع اقْتِصادَ العالم كُلِّه.

بَهْرَة الدولار

ليست الصين البلد الوحيد الذي يعتمد على اليوان المُخَفَّض. فقد طَوَّرت الولايات المتحدة ثروة جيوبولِتِيكِيَّة واقتصادية، ويالها من سُخْرِيَة، أنتجت حالة

* إنها كارثة أَنْ يعرف العالم الوقتَ الذي ينوي فيه بلد ما أن يُغَيِّر في نُظُم عملته. ويصعب علينا أن نعرف ما الذي يتوقعه أعضاء مجموعة السبعة عندما يطلبون من الصين تحديد جدول زمني وتحديد أسعار لعملتها، إذ إن أي إعلان تُعلِن عنه الصين قبل اتخاذ إجراءات حقيقية سيجعل العالم يتَصَرَّف وكأن التغيير قد حدث فوراً. إن كثيراً من الاستثمارات التي وُظِّفت في الصين في سنتي 2003م و2004م كان فيها عنصر تَكَهُّن برفع قيمة اليوان مقابل الدولار. وقد سارع المستثمرون الأجانب إلى شراء أملاك وتأسيس مصانعهم عندما كانت أسعار الصين خاضعة لضغط تثبيت العملة، على أمل ارتفاع سريع في سعر اليوان بعد التكيف، عندما تزيد قيمة استثماراتهم في الصين بالدولار..

http://www.ibtesama.com/vb

إدمان غريب لنظام العملة الصينية، جعل معظم العالم يعتمد على اليوان المثبت أيضاً. إن هذا الاعتماد المتبادل والمعقد نما من حجم جهود الصين وأسلوبها في إبقاء عملتها حيث تريدها أن تكون.

وتخضع العملات الوطنية، في أسواق المال الدولية، مثل أي سلعة أخرى، لصعودٍ وهبوطٍ حسب الأسس الضمنية للاقتصاديات التي تمثلها، وللازدهار الاقتصادي والأزمات الناتجة عن اتجاهات تجار المال المضاربين في العالم. وقد جرت العادة أن ترتفع قيمة عملة بلد ما عندما يرتفع الطلب العالمي على منتجات ذلك البلد. فعملة البلد، مثل أي سلعة أخرى، محدودة الإمداد، وعندما يريد مشترون من أنحاء العالم بعض تلك العملة – لشراء منتجات يبيعها ذلك البلد – فلا بد لهم من دخول مزايدة مع دول أخرى تريد الشراء. وعندما يشتدّ الطلب يضطر الشارون إلى مقايضة مزيد من عملتهم مقابل مبلغ أقل من العملة التي يشترون. فإذا ظهرت رغبة مفاجأة في العالم في المعاطف الصوفية النرويجيَّة دون سواها، فسيسارعون إلى سوق العملة لشراء الكرونر النرويجي.

تلك هي الطريقة التي يفترض أن تجري عليها الأمور. ويبدو الطلب العالمي على البضائع الصينية، من وجهة النظر الأمريكية، أكبر من الطلب الصيني على منتجات العالم، وهذه ليست هي القضية، كما ذكرنا سابقاً. فصادرات الصين تعادل، على نحو أو آخر، قيمة وارداتها. والواقع هو أن قيمة واردات الصين سنة 2004م كانت أكبر من صادراتها. ويبدو أن العملة الصينية ستواجه ضغطاً بسيطاً نحو الارتفاع نتيجة الطلب، غير أن بعض المواطنين كانوا يدخلون أموالاً أجنبية إلى الصين للحصول على مدّخرات محلية، وينعكس هذا في زيادة احتياطي الصين الهائل من الدولارات الأمريكية.

فلو أنفقت الصين دولاراتها ببساطة، فإنها قد تغرق السوق العالمية بالعملة الأمريكية وينخفض بذلك سعر الدولار سراعاً. غير أن الصين ليست حمقاء وغير مهتمة بدفع الدولار إلى الهبوط بالتأكيد.. لذلك فإنها تقرضها للولايات المتحدة بشرائها سندات أمريكية عوضاً عن أن تبيع دولاراتها.

http://www.ibtesama.com/vb

إن المنطق هنا معقد؛ حيث تشتري الصين كثيراً من سوق السندات الأمريكية، فإنها في الواقع لا ترفع سعر العملة الأمريكية فحسب، وإنما ترفع الدَّيْنَ الأمريكي كُلَّه. ولما كان أي تغيير في ريع سند الدّيْن يتحرك عادة عكس أي تغيير في قيمته، فإن شـــراء الصين لهذا القدر الهائل من سندات الخزينة الأمريكية وسواها من أنواع الدين العام والخاص يؤدي إلى خفض أسعار الفائدة الأمريكية.

وللصين مصلحة كبيرة في سوق السندات التي تصدرها فاني ماي Fannie Mae وفريدي ماك Freddie Mac، وهما الشـــركتان اللتان تشـــتريان الرهن العقاري من المصارف والمؤسســـات الاقتصادية ثم تبيعها في مجموعات سندات مالية كبيرة. وهكذا فإن اســـتثمارات تبلغ بلايين الدولارات تملكها الصين تشـــقُّ طريقها، بطرق غير مباشرة، إلى سوق العقارات الأمريكية، ويزيد هذا في حصة دفعات رهن العقارات التي تصب في خزائن الحكومة الصينية.

وتلقي الصين ســـتاراً من الســـرية على قيمة محافظها المالية، وعلى بنيتها، وتجارتها، غير أن السوق المالية في نيويورك (وّول ستريت) تفترض عادة أن البلد يملك قدراً كبيراً من ســـندات الدين الأمريكيـــة الممتازة، فيؤدي ذلك إلى تداخل ثرواتها الوطنية بازدياد مع الأســـهم الأمريكية باهظة الثمن – وكثير منها تملكه الشـــركات التي تحصد الثروات في الصين ذاتها. وهكذا تســـتفيد الصين، على نحو غير مباشر، من الشركات الأمريكية التي تحقق أرباحاً في الصين.

وطالما بقيت الصين مُقْرِضاً شرساً، فإن الأمريكيين – سواء أكانوا يقترضون لمشترياتهم الخاصة أم يأخذون دور دافعي الضرائب – فإنهم يستطيعون اقتراض المال بفوائـــد منخفضة. ويعود معظم الازدهار الأخير في أســـعار العقارات في أمريكا، وبخاصة في أســـواق الشـــاطئ الشرقي والشـــاطئ الغربي إلى معدلات الفائدة المنخفضة هذه. ويســـاعد انخفاض الفوائد الأمريكية في إبقاء معدّلات الفائدة منخفضاً في جميع أرجاء العالم، ويصبُّ هذا في مصلحة المقترضين في كل مكان.

http://www.ibtesama.com/vb

ويشمل ذلك الصين. فأسعار الفائدة المنخفضة في الولايات المتحدة تنبئ بطريقة المصارف الصينية في الإقراض، وقد حثت الأسعار المنخفضة الصينيةُ التنميةَ الصناعية السريعة الفضفاضة حثّاً خطيراً- فأدى ذلك إلى طاقة زائدة عن الحاجة في كل ما تنتجه صناعاتها، كما أدى إلى سوق عقارية تجذب المضاربين جذباً عظيماً.

وهكذا تلفُّ آثار تثبيت العملة الصينية العالمَ وتعود ثانية. ولا تشهد أمريكا تغييرات الأسعار التي تفرضها تقلبات اليوان بسبب التثبيت، غير أن الدول الأخرى تشهد تلك التغييرات. فبينما يرتفع اليورو مقابل الدولار، على سبيل المثال، تصبح البضائع الصينية أرخص للأُوروبيين، ويصبح الاستثمار الأُوروبي في الصين ممكناً. ويؤدي الطلب الصيني المرتفع إلى رفع أسعار المواد الأولية، ويشعرالأمريكيون الذين يشترون هذه المواد الأولية بالألم كما شعر الصينيون. أما إذا انخفض اليورو مقابل خليط الدولار - اليوان، فإن الأوروبيين سيقعون في ضيق أشد.

إن تثبيت العملة الصينية يلامس كل شيءٍ.

بيض من ذهب في عش الوقواق

إن الحديث عن المصارف الصينية التي تبيض ذهباً حديث بالغ الأهمية. فقد أصبح الأمريكيون والصينيون يعتمد كلاهما على عادات الآخر التي تثير الجدل. ويحتاج الصينيون إلى عملة مخفضة السعر للإبقاء على آلة التصدير لديهم ولخلق فرص عمل. غير أن الحفاظ على سعر منخفض لليوان يعني أن المستهلك الصيني سيبقى عالقاً بعملة لو لم يكن حالها هكذا لاشترت له مزيداً من السلع في الأسواق العالمية. ويعاني مدخرو الصين المجتهدون كثيراً لأن ودائعهم المصرفية مرتبطة بحسابات تعود عليهم بفوائد تحددها الحكومة، بينما نجد الحكومة، تستفيد من هذا الحال بتحريك أموال المدخرين لتحافظ على تثبيت سعر عملتها.

http://www.ibtesama.com/vb

وتُكسب عائدات التصدير الكبيرة الصينَ أقلَّ مما ينبغي إن هي اسْتُثْمِرَت في ضمانات الدَّيْن الأمريكية التي تقدم عائدات متواضعة، في الوقت الذي يمكن للاستثمار في الاقتصاد الصيني أن يعطي عشرة أضعاف العائد (بالرغم من كِبَرِ المجازفة). من ذلك المنظار. وإن أهل الصين، الذين يكسبون، وسطياً، واحداً من أربعين مما يكسبه الأمريكيون، يدعمون دعماً غير مباشر شراء الأمريكيين النَّهِم، الذين يحصلون على مزيد من السلع، بينما يُحرم مُستهلكو الصين من شراء بضائع من الخارج.

وإن الوجه الآخر لهذه العلاقة الخاصة هو أن الصين تُقْرِض أمريكا كلَّ المال الذي تحتاجه لإنفاقها المجنون. وليست الصين وحدها التي تلعب هذا الدور. فاليابان أيضاً مُقرضٌ كبير للولايات المتحدة. وإن معظم من بقي من دول العالم يلعب دوراً أيضاً. فيملك الأجانب اليوم 40 بالمئة من جميع سندات الخزينة الأمريكية. إذ يزيد مجموع الدين الأمريكي للأجانب عن 2.2 تريليون دولار. وتنمو حصة الصين نمواً أكثر من سواها. ففي سنة 2004م صارت حصة الصين في أسواق السندات الأمريكية، التي كانت 480 بليون دولار، أي أقل بقليل من ربع مجموع المبلغ، أصبحت ضعف ما كانت عليه قبل سنتين.

وتساعد هذه المبالغ الكبيرة في ملء فجوات عميقة. فالساحة المالية الأمريكية تَملؤها ديون قياسية متنوِّعة، يُمَوَّل كثير منها بقروض من الصين واليابان. وقد نما الدين الأمريكي بمقدار 1.7 بليون دولار في اليوم سنة 2004م، فوصل إلى 7.5 تريليون دولار. وكان الأمريكيون مجتمعين، سنة 2004م، يدينون بحوالي 9.5 تريليون دولار في الرهن، وقروض سيارات، وبطاقات ائتمان، وديون شخصية أخرى، أي حوالي 84.454 دولار لكل أسرة. ولم يبلغ دين الأسرة الأمريكية ذلك المبلغ من قَبْل. فقد عدّ كثير من الأمريكيين المال الرخيص فرصة للخروج والإنفاق أكثر، بدل استغلال نسبة الفائدة المنخفضة لتدبير الموارد المالية وتخفيف أعباء الدين. وهذا ما يروق للمصدرين أكثر من أي شيء آخر. ورأت

http://www.ibtesama.com/vb

الحكومة الأمريكية ذلك ملائماً لها أيضاً. فبدل استغلال فترة الفائدة المنخفضة لتسديد الدين القومي وإبقاء الميزانية السنوية متعادلة، كما فعلت إدارة كلينتون، فقد حددت إدارة بوش موازنات قياسية، وخفضت الضرائب، وأدخلت الميزانية في عجز قياسي كبير قد يستحيل معه تسديد الدين الوطني. ويمول ذلك الإسراف شعبُ الصين.

وتنعكس عادات الإسراف الأمريكي في تعاظم العجز التجاري أيضاً. إذ يشتري المستهلك الأمريكي خُمْس الناتج المحلي الإجمالي العالمي، تُسدد قيمة كمية مُتزايدة منه بالدين. (مولت آسية سنة 2003م أكثر من نصف العجز التجاري الأمريكي إضافة إلى عجز ميزانية الحكومة). ويُبَيِّن جفري فرانكِل Jeffrey Frankel أن العجز التجاري الأمريكي يَتَّفِق رقمياً مع إجمالي الفائض في جميع بلدان العالم التجارية التي لديها فائض.

وتنجذب بلدان أخرى إلى العلاقة المفرقة، بالرغم من أنها تكون أضعف من أن تقاومها غالباً. فالصين وسواها من البلدان التي تولد الفائض تصل في النهاية إلى الحد الأقصى لكمية السندات الأمريكية التي تستطيع شراءها. ويعد الاتحاد الأُوروبي أحد الأمكنة التي يأتون إليها لشراء المزيد. ولما كان اليورو غير خاضع للتعامل بسعر تحويل ثابت مقابل الدولار، ومن ثم مقابل اليوان، فإن شراء سندات أُوروبية يرفع سعر اليورو مقابل اليوان والدولار. فيجعل هذا البضائعَ الصينية أقلَّ كلفة للمستهلك الأُوروبي. أما أصحاب المشاريع التجارية من الأُوروبيين، فيشْتَدّ تنافسهم مع أصحاب المشاريع التجارية في الصين. وربما تكون ألمانيا، في المدى القريب، أشَدّ تأثراً. فالصين، كما يقول هُفباوَر Hufbauer، تتقدم بسرعة وقوة في ثلاث صناعات ألمانية أساسية – الكيميائيات، والماكينات الصناعية، والسيارات.

http://www.ibtesama.com/vb

أن تملك عملتك وتأكلها أيضاً

تستطيع الشركات الذكية أن تلعب على دائرة الدين الأمريكي، والإقراض الصيني، واليوان ذي السعر المُخَفّض، من جميع الأطراف. إن باترِك لو Patrick Lo هو المدير التنفيذي وشريك في شركة نتجيرNetgear، التي تصنع معدات الشبكات، ويقع مَقَرّها في وادي السيليكون، وقد قاربت مبيعاتها سنة 2003م حدود 300 مليون دولار. ضبط لوLo الصناعة والتسويق في شركته بما يحقق أكبر قدر من الفائدة من الأدوار الموازية للدول ضمن الاعتماد المتبادل.

ويقول لو: «إن مهمة نتجير هي ربط كل من على الأرض في مجموعة واسعة، وكنا نعرف، منذ اليوم الأول، أن توجهنا يجب أن يكون عالمياً. فلا يمكن أن يكون لديك منتَج مصمَّم في الولايات المتحدة، ومصنوع في الولايات المتحدة، ويسوَّق خارج الولايات المتحدة، وتتوقع أن يكون منتجاً عالمياً. إن ذلك مستحيل. «تستغل نتجير الفوائد الفريدة التي تقدمها مختلف زوايا عالم صناعة التكنولوجية.

كيف يكون ذلك؟ يبدأ الجواب بوصف أكثر منتجات نتجير وضوحاً، وهي علب فضية صغيرة، حجم معظمها بحجم كتاب بغلاف ورقي، تحتل مكانها قرب ملايين أجهزة الكومبيوتر الشخصية في العالم. تأتي بأشكال متنوعة- المهايئة، والمدخل، والموجّه (الراوتر)، ونقاط الاتصال، وتحتاج لإنشاء شبكات سلكية ولا سلكية في البيوت والمكاتب الصغيرة. اكتسبت نتجير لنفسها مكاناً في سوق معدات الشبكات المزدحم بأن عرضت منتجات جميلة الشكل وسهلة التركيب، وهذا عامل مهم، طالما كان التغيير في صناعة الشبكات يتحرك بخطى سريعة جداً. إنها مقاييس جديدة، ومنتجات، ومنافسون غير معروفين من قبل، وموجات من المعدات الجديدة، صنع معظمها في الصين، تشق طريقها طوال الوقت إلى الأسواق، والبيانات المصورة (الكاتالوجات)، ومواقع البيع على الإنترنت. فتقدّم

http://www.ibtesama.com/vb

نتجــيـر منتجاً جديداً كل أســبوع، ويكون ذلك ردّاً علــى آخر نموذج قدمه أحد المنافسين، أو اختراعاً سيستنسخ خلال بضعة أسابيع.

لقد نظَّم لو شركة نتجير، في هذه المعركة المستمرة لنقل المنتجات الجديدة إلى السوق بأسعار مغامرة، لكي ترفع الاعتماد المالي الخاص المتبادل بين الولايات المتحدة والصين.

ويقول لو الذي تُصَمِّم منتجاتُه في كاليفورنية وتُسَــوِّق فيها، «إن الأمريكيين أكثر استعداداً للإنفاق من أي شعب آخر في العالم اليوم». حيث تستطيع الشركة أن تبقى قريبة من الأذواق والحاجات الأمريكية. بدأت نتجير، التي أسِّسَت سنة 1996م، حياتها بالعمل مع مصنِّع تايواني صَنَّع علب نتجير وســاعد في تصميم التكنولوجية داخلها.

غير أن التصنيع في تايوان أصبح باهظ الكلفة، فطلبت نتجير من مُصَنِّعها في تايوان أن يغير مهمته، فيصمم الســلعة ويهندسها، ويدير الصناعة في موقع ثالــث تديره شــركة أخرى في الصين، ممر التكنولوجية المزدهر، قرب ســوزهو Suzhou في مقاطعة جيانجسوJiangsu خارج شنغهاي. وأُنشئ مصنع جديد هنــاك لصناعــة بالغة المرونة تســتطيع أن تتغير مع كل منتــج تكنولوجي صُمِّم حديثاً، وترغب شــركات مثل نتجير أن تنتجه للســوق. وتمتلئ الصين بمنشآت صناعية من الجيل القديم، موجودة لتؤجر لآخرين يحتاجون أرضاً يقفون عليها، ومعدات متطورة، وقوة عملٍ جاهزة. فجُهِّز مصنع نتجير الممتاز بأحدث المعدات التي تعتمد على أشخاص آليين يجمعون ألواح الدارات circuit board خطط تخطيطاً يســمح للعمال الذين يتكيفون مع التجميــع اليدوي بالاندماج اندماجاً خفيّــاً ومرناً مع خطوط الإنتاج. وتســتطيع نتجير المســاعدة في إدارة التحكم بالنوعية والشراء من مكتب في هونج كونج.

وتتضمن إســتراتيجية الشــركة اليوم توزيعاً للمواهــب والمهمات هي ذروة الإتقان بما يلبي حاجات الســوق العالمية. تكتشف العمليات الأمريكية عن الذي

http://www.ibtesama.com/vb

سيشتريه المستهلكون الأكثر جوعاً في العالم. غير أنها تبقي عدد موظفي شركتها في الحدود الدنيا. حيث يعمل في نتجير مئتان وعشرة أشخاص فقط في جميع أرجاء العالم، وهذا يعني أن لديها 1.5 مليون دولار من المبيعات مقابل كل موظف، وهي نسبة عالية في صناعة الإلكترونيات. وقد اختير فرعهم في تايوان للقوة التكنولوجية التي اكتسبها عندما كانت الجزيرة مركزاً قليل الكلفة. والصين، وهي اليوم المكان الأرخص كلفة للصناعة، هي المكان الذي يجري فيه التجميع النهائي.

ويقول لو في معرض حديثه عن الاقتصاد العالمي وثروة شركته: « تُيَسِّرُ لنا الصين الانتقال إلى المستوى التالي، وقد صار ممكناً إخراج كثير من التكنولوجية الرائدة من الصين بسبب صناعة منخفضة الكلفة». أما نتجير، فلابد لها من الخروج من الصين. وتحتاج الشركة، بمنافسة حادة كهذه، إلى الازدهار الذي تقدمه الصين بمساعيها الجارية لإبقاء عملتها منخفضة. ويقول لو: «إن الصين تساعدنا لأنها بحاجة لإبقاء كثير من الناس على رأس عملهم».

إن الحوافز التي تقدمها سياسات الصين النقدية لشركات ذكية مثل نتجير لا تنسجم انسجاماً جيداً مع تلك المشروعات التجارية الأقوى ارتباطاً بقاعدة صناعتها في الولايات المتحدة.

وقال دان فاينبرغ Dan Feinberg، رئيس لجنة تحريك العلاقات الحكومية IPC، عندما اجتمعت المجموعة كلُّها في كابتول هِل Capitol Hill في نيسان/ أبريل 2004 لحشد التأييد من أجل التغيير: «إن تحكم الصين باليوان كان له تأثير مدمر على صناعيي الولايات المتحدة» وقالت المجموعة: «إن تصرّف الصين مع العملة تشكل خرقاً مباشراً لالتزامها أمام منظمة التجارة العالمية وصندوق النقد الدولي».

غير أن تخفيض الأسعار الذي تُسَهّله الصين، من وجهة نظر المستهلك، يقدم مزايا كثيرة. فمن تجربة نتجير، تنفجر في السوق المنتجات التي تنتقل

http://www.ibtesama.com/vb

إلى خطوط الإنتــاج العالي في مصانع الكلفة المنخفضة في الصين. وانخفضت أسعار المعدات الأساسية للشبكات المنزليّة في السنوات الثلاث الماضية من 500 دولار للوحــدة الواحدة إلى أقل من 100 دولار، أثناء نقل البيانات ســراعاً حول المنزل في الصفقة. إن عبارة أثر الشــبكة network effect يصف كيف تكسب التكنولوجية أعداداً كبيرة من المستخدمين والتطبيقات إذا زادت اتصال المستخدمين بعضهم ببعض. وليس غريباً أن يكون لمعدات شــبكات الكومبيوتر أثر شــبكي كبير عندما ينخفض سعرها. فقد كان في 9.2 مليون منزل أمريكي سنة 2002م أجهزة كومبيوتر لها شــبكات؛ وسيزيد ذلك الرقم في سنة 2007م عن 28 مليون عندما تقوم نتجير وسواها من منتجي معدات منخفضة الثمن بنقل البيانات، والموسيقى، والأفلام حول البيوت، بين أجهزة الكومبيوتر ومراكز التسلية المنزلية الرقمية.

هل سَتَرْتَفِع يوماً قيمة اليُوان؟

هل هذه الدائرة من الاعتماد المتبادل قادرة على البقاء؟ لا لن تســتطيع. ولابد من قَلْبِها في النهاية. فالولايات المتحدة لاتستطيع أن تتحمل مزيداً من الدَّيْن وتراكم عجز تجاري هائل إلى ما شاء الله. ويعلم فرانكِل، الذي يقول: إن الأمريكيين يدفعون الآن من الأرباح للأجانب أكثر مما يأخذون، يعيشــون الآن في العالم كمستأجرين وليس كأصحاب الأرض. وإن الدول المستأجرة تعيش حياة قلقة.

ويقــول فرانكِل: «عندما ينســحب الآســيويون من أســواقنا، قد يكتشــف الأمريكيون فجأة أن سعر الفائدة يرتفع وأن قيمة الموجودات – من أسهم، وبيوت، وأعمال تجارية، وكل شــيء تقريباً – تتراجع. وعندما مرت بلدان أُخرى بأزمات مشــابهة، ذُعِر الناس. وســواء أأدّت أزمة كهذه بالولايــات المتحدة إلى أن تفقد قوتها السياسية أم لا، فإنّه أمر يصعب التكهن به. غير أنّه ممكن بالتأكيد».

وسيؤدي اســتعداد الولايات المتحدة، في أسوأ ســيناريو، إلى تبديد ثروتها الوطنيــة في تمويل الإنفاق الحكومــي غير المُنتج، والاســتهلاك الخاص، وإلى

http://www.ibtesama.com/vb

تغريم الاقتصاد بدفع ثمن مستمر، مرسلاً الولايات المتحدة في دوامة هابطة يصعب الخلاص منها. فالغرق في الدَّيْن يؤدي إلى أزمة تُرهق كبار المَدِينين، مثل الأرجنتين، والبرازيل، وقضى على الولايات المتحدة بمستقبل لا مكان فيه للوسائل المالية التي ترفع الاقتصاد من حالة الركود. ويقول فرانكِل واصفاً العجز الذي تقع فيه أمريكا الغارقة في الدَّيْن: «لن نَتَمَكَّن من الخروج من الكساد بتخفيض سعر الفائدة. ولن يكون ثمَّة سبيل لتقديم أنواع العون المالي، كخفض الضريبة، وتحويل إنفاق المال إلى الاقتصاد. لن تكون مشكلاتنا بعد الآن قصيرة الأمد كما كانت من قَبْل، وإنما ستستَمِرّ أجيالاً عديدة».

وهكذا تُعَرِّض طرقُ الرخاء الاقتصادي التي اختارتها الصين والولايات المتحدة البلدين لخَطَر كبير. فلولا شراء الولايات المتحدة البضائع الصينية لما تمكنت الصين من الحفاظ على نموها؛ ولولا إقراضُ الصين المالَ للولايات المتحدة ما كان للأمريكيين أن ينفقوا. ولولا المحركان الأمريكي والصيني اللذان يغذيان مصاير الدول الأخرى، لتعثرت بقية دول العالم.

غير أن السيناريو الأسوأ ليس حتمياً بالضرورة. فضبط العملة الصينية قد يأتي بالتدريج. وإن انخفاض سعر الدولار قد يعلِّم الأمريكيين الادِّخار ثانية ووَضع موازنات حكومية منضبطة.

http://www.ibtesama.com/vb

الفصل الحادي عشر

القَرْنُ الصِّيْني

هل يستطيع الأمريكيون وبقية العالم أن يروا ما يحدث في الصين؟ يبدو، في الظاهر، أنهم يفعلون. فالصحافة العالمية تغطي اليوم تطور الصين برغبة عارمة لتوثيق نهضتها وإدراك مشدوه لنَزْعتها الاستهلاكية غير الخجولة. وتتحدث تقارير الصحف اليومية عن تيار الأعاجيب الصينية. وتتبع الصحف المالية أموال العالم إلى أبواب الصين، فقد بدأت المجلات التجارية مثل Automotive News و Modern Plastics تأخذ شكل الرسائل الإخبارية الصينية. ويبدو، أحياناً، أن كل ما يمكن أن يحدث، يحدث في الصين. فخلال شهر واحد في خريف 2004، نظمت الصين أول سباق سيارات أُوروبي الشكل Formula 1 على مسار جديد بكلفة 320 مليون دولار. واستضافت مباراة الرابطة الوطنية لكرة السلة NBA مع نجمها العالمي الجديد لكرة السلة ياو منغ Yao Ming، وحضّرت لأول مصارعة ثيران إسبانية في ملعب مدرج حُوِّل إلى حلبة لمصارعة الثيران، وكان ذلك في شنغهاي لجماهير متحمسة. وتأتي كذلك أخبار هوتِرز Hooters، وهي سلسلة المطاعم والمشارب التي ستحمل الحلم الأمريكي الجامح إلى العشاء الصيني في ثمانية مواضع؛ أن يضيف ستار بوكس Star bucks مئات المواقع الجديدة في أرض الشاي؛ وأن معرضاً لمنتجات البالغين جذب أربعة آلاف من العاملين في صناعة الأدوات الجنسية المساعدة، إضافة إلى الجماهير المحتشدة. وثمّة إعلانات يومية عن الطرق الجديدة التي تمكن المستثمرين الصغار والكبار في العالم من الشروع في العمل في الصين باتصال هاتفي بسيط مع سمسار في البورصة. وهناك قصة قرصنة هي أن مذكرات بِل كلِنتون Bill Clinton الصادرة سنة 2004م ومذكرات هيلاري Hillary الصادرة

http://www.ibtesama.com/vb

سـنة 2003م قد سرقت وأعيدت كتابتها* بمزاج صيني ؛ وجاء فيها أن الصين تستهلك نصف لحم الخنزير الذي يستهلكه العالم؛ وأن فِدِكس FedEx ستخدم الآن كثيراً من المدن الصينية مباشرة؛ وهكذا.

غيـر أن لَسْـعَة الخبر تعكس صورةً مُخادِعَةً للصـين بقدر ما تعكس صورةً حقيقيـة لهـا. فإذا أردت أن ترى كيف تتغير الصين حقـاً، وأن تَرد بحكمة على أسلوب الصين في تغيير العالم، فلا بد لك من أن ترى ما وراء القصص المذهلة. قد يبدو هذا بسيطاً، غير أن قوى عاتية تحاربه. فالقصص الجديدة التي تخرج من الصين شـديدة النَّقص. فالأخبار فـي أوقات التغيير الخطير لا بد أن تغفل معظـم التفاصيـل. والأخبارفي الصين تخضع لرقابة صارمـة، وهذه الفجوات لا يمكـن تجنُّبها. والعالم عنده ما يشـغله أيضاً من حروب، وسياسـات محلية، إلى جانب نزاعـات تافهة. فالمجموعة الديموغرافية المؤلفة من سـكان تتراوح أعمارهـم بين الثامنة عشـرة والرابعة والثلاثين من العمـر، والتي ينبغي لها أن تكون أكثر تركيزاً من غيرها على القرن الصيني القادم هي أيضاً مجموعة أكثر خضوعاً لإغراء التسـلية والأخبار الخفيفة التي تركز على تحركات الشخصيات المشـهورة، وجماعة مَهْووسـي تلفزيون الحقائق. وكم سـتكون صدمتك إن أنت اكتشـفت أن شـريكك في الغرفة في عالم الحقيقة يناضل لتحسـين مستقبله بدراسة اللغة الصينية، أو ربما يغري نزيل الغرفة المجاورة بمشاركته في قرصنة صناعية مربحة. (وكم سيكون الأمر مبتذلاً أن تجد نظراءهم الصينيين يدرسون

* لقد تَجَشَّمَ الكاتب ألِكس بيلز Alex Beels عناء ترجمة النسخة الصينية التي نُشِرَت من مذكرات بِل كلِنتون حياتي إلى الإنجليزية ثانية ونَشـرها فـي مجلة هاربر Harper Magazine. وفيها عجائب القول الذي قَوَّله الرئيس كلنتون ولم يَقُلْه في مذكّراته.

وكذلك سُـرِقَت النشرةُ العربية لمذكرات بِل كلنتون، وأضاف القراصنة الذين سرقوها إلى المؤلف قولاً لم يَقُلْه. وكانت شركة الحوار الثقافي قد حصلت على حقوق النشرة العربية من المؤلف، غير أن القراصنة لم يأبهوا بالحقوق فسرقوا الكتاب ونشروا مافيه حسب مزاجهم – الناشر.

http://www.ibtesama.com/vb

اللغة الإنجليزية أو ينكبون على براءات اختراع الأدوية الأمريكية). ولعل ما يزيد في الإزعاج هو سبل تجَنُّب الجمهور في بلدان نامية، أسئلة صعبة عن الاستعداد لمواجهة ما لا بد من مواجهته من تغييرات تحركها الصين فتهز بها الأرض.

أين ذهبت تلك المصانع كلّها؟

ليس ثمَّة سؤال أكبر من السؤال عن مصير العمل، فلو بدا في الآونة الأخيرة أن الأخبار المحلية تقدم بانتظام نَعي مصانع مجاورة مع فرص العمل التي حَقَّقَتها لأبناء الطبقة الوسطى، وتعطي انطباعاً بأن هناك نزوحاً صناعياً، ربما يعكس ذلك الشعور الاتجاهات الاقتصادية على نحوٍ أفضل مما تعكسه أي إحصاءات حكومية معلنة ترصد ضياع فرص العمل.

وبالرغم من انتشار القلق بشأن انتقال فرص العمل إلى بلدان تنخفض أجور عمالها، فلا تزال حكومة الولايات المتحدة لا تحتفظ بأي إحصاء رسمي يرصد فرص العمل المهاجرة، إلا تلك التي تتطوع بتقديمها الشركات التي تقوم بتغيير ما. (لمعظم الشركات مثبطات تُبعدها عن تقديم بيانات عن قراراتها، في ضوء رد فعل لاذع لمثل هذه التحولات). وقد تكون الأرقام هي الأفضل إفادة في تحديد مقدار الاتجاه، أو فضح زيف فيه. فتحسين الإنتاج، في ضوء ما هو معروف، وما نوقش هنا من قبل، هو المسؤول عن عدد كبير من فرص العمل الصناعي التي هجَرَت الولايات المتحدة وأصقاع أُخرى من العالم، ضمن الاتجاه المرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتنافس الذي يشكله انخفاض أجور التصنيع في الصين.

وتقدم الصحافة اليومية أدلّة منتظمة على أن كثيراً من فرص العمل تصّدر إلى خطوط تجميع أخرى في أماكن بعيدة. وأن إضافة هذه التقارير، تقريراً بعد تقرير، وخبراً بعد خبر، تؤكد على أن تحول فرص العمل يجري كثيراً وفي بلدان كثيرة. وقد أحصت لجنة الاقتصاد الصيني - الأمريكي ومراجعة الأمن هذا الأمر في محاولة تكررها بين وقت وآخر لتغطية الفجوة الإحصائيّة. ويعد

http://www.ibtesama.com/vb

إحصاء جرى مؤخراً يغطي الفترة القصيرة ما بين كانون الثاني/يناير وآذار/مارس 2004 يعد بعيداً عن الشمول غير أنه يوحي بشيء ما.

لم تركز الدراسة على الولايات المتحدة فحسب وإنما شملت أُوروبا، وأمريكا اللاتينية، وبلدان آسيوية أخرى. في الأشهر الثلاثة التي غطتها الدراسة. فأعلنت 58 شركة أمريكية، و55 شركة أوروبية، و33 شركة من بلدان آسيوية أخرى عن خطط لنقل فرص العمل إلى الصين. كانت الأرقام أعلى مما كانت عليه قبل ثلاث سنوات. ففي فترة مماثلة من سنة 2001م أعلنت 25 شركة أمريكية فقط عن التحول إلى الصين. وثمَّة تغيير آخر، وهو أن كثيراً من الشركات التي هجرت العمل في الولايات المتحدة وتحوَّلت إلى الصين سنة 2004م نَقَلَت فرص عمل إلى بلدان أخرى منخفضة الأُجور في آنٍ معاً.

ولو أننا أجرينا تقديراً استقرائياً لعدد فرص العمل التي فقدت في السنة كلِّها مقارنة مع الشهور الثلاثة الأولى، تَبَيَّن لنا أن أربعمئة ألف فرصة عمل قد هجرت مواقع العمل الأمريكية إلى بلدان أخرى على مدار السنة، وهو ضعف عدد فرص العمل التي هاجرت قبل ثلاث سنين. غير أن الأرقام التي جمعتها الوكالات الحكومية الأمريكية، وهي شاملة شمولاً غير سوي في جمع المعطيات الاقتصادية، مثل أي حكومة في العالم، تقلل في تقدير فرص العمل التي تهاجر إلى ما وراء البحار. فالمكتب الأمريكي لإحصاء العمل، مثلاً، ألقى الضوء على أقل من خُمس فرص العمل التي هاجرت.

وبالرغم من أن ربع فرص العمل التي هاجرت سنة 2004م ذهبت إلى الصين، فإن دور الصين في الهجرة لايتناسب مع أعدادها. فإن الضغط الذي تمارسه الصين على البلدان الأخرى ذات الأجور المنخفضة لخفض نسبة القوى العاملة يجعل هذه الدول أكثر إغراء للمستثمرين الأمريكيين الذين يبحثون عن مَواطِن أجور القوى العاملة المخفضة. وذلك هو حال وحدات التجميع في المكسيك التي يُجبر العمال فيها على قبول تنازلات في الأجور تحت وطأة التهديد بفقدان

http://www.ibtesama.com/vb

عملهم وذهابها إلى عمال أقل أجراً في الصين. وتعد شــركة دلفي Delphi التي تصنع قطع السيارات من أكبر الشركات التي توظف قوى عاملة في القطاع الخاص في المكســيك، فكانت توظِّف 70.000 عاملاً سنة 2003م، وكانت الشركة توظِّف في تلك الســنة 5.000 عامل في الصين، وقد بَيَّنَت دلفي أن هذا العدد سيرتفع. كما أوضحت الشركة أنها تتوقع أن تفعِّل المكسيك حوافزها، ومن ضمنها تخفيض الضريبية، إن رغبت دلفي في أن تبقى ملتزمة التزاماً تاماً بالمكسيك.

ويَتَجَلـــي دور الصين في التحول في خليط فــرص العمل التي تصدِّر اليوم. فقــد تركزت فرص العمــل الأمريكية التي ذهبت إلى الصين ســنة 2001م في صناعـــات متنوّعة، نحو الإلكترونيات والألعـــاب التي تجذب الدول ذات الأجور المنخفضة إليها دائماً. وكانت التحولات مقســمة بالتســاوي ســنة 2004م بين قطاعات أكبر من صناعات تعكس بوضوح المشهد الصناعي الأمريكي. فوجدت الدراسة أن الشركات الأكثر نشاطاً في نقل فرص عملها إلى الصين سنة 2004م كانت شــركات كبيرة، مساهمة، وذات أرباح عالية، ومســتقرة تماماً. وإن ثلاثة أرباع مواقع العمل التي تُهَجِّرُ فرص العمل إلى الخارج كانت فروعاً من شــركات أمريكية متعددة الجنسيات.

وربما كان أعضاء نقابات العمال هم أكثر تحسُّســاً لبريق الصين. ولا يقف الأمــر عند حدود تعــرض الصناعات الموحدة في النقابــات لخطر إلغاء مواقع أعمالهم من قبل أصحاب العمل الذين يجدون دكاكين رخيصة جداً، وغير نقابية في الصين، فحســب، وإنما قد يكــون لتحول الدكاكين غير الموحــدة نقابياً في صناعة ما يمكن أن تتســبب في تأثير عربة الموسيقا بين الشركات غير الموحدة نقابياً في الصناعة نفسها التي تهجر فرص عملها إلى الخارج أيضاً.

إن التأثيــر على الاقتصاد الأمريكي بعيد النجعة. فســلب قوة العمل المنظم يُضعــف أيضاً الدائرة الانتخابية الأقْدَر على التنظيم لحماية مصالح العمال في حُجرات الحكومة وفي غُرَف اجتماع مجالس الإدارة. ويمكن للشــركات الكبيرة،

http://www.ibtesama.com/vb

في غياب ذلك الصـــوت، أن تَطرُدَ مَنْ عندها من الموظفين. وعندما أدلى ويليام بورجا William Burga رئيس شركة أُهايو ألف سي آي أُو Ohio AFL-CIO بشـــهادته أمام الكونغرس في أيلول/ســبتمبر 2004 عن أثر الصين على الصناعة، فقال إنه وقف أمام اللجنة قبل سنتين، ويمكنه أن يتحدث باسم مئة ألف عضو نقابي، غيـــر أن الانكمـــاش الناتج في الصناعة بَتَر عدد العاملين فـــي الولاية فأنقَصَهُم من 850.000 عضو إلى 750.000.

وإن مـــا يزعـــج أكثر، من السلســـلة المتلاحقة من الأخبار عـــن فرص العمل المُهاجرة، هو ما قد يحمله المستقبل للأمريكيين وسواهم من أبناء الدول الأخرى. فما فرص استطاعة قوى العمل في بلد ما أن تُرَسِّخ نفسَها بينما نجد الشركات، بِنُزوحها إلى الصين وســـواها من بلدان منخفضة الأجور، تبتر قدرة العمال على فرض أنفســـهم على برنامـــج العمل الوطني؟ أو عندما تقـــاد المصانع الأمريكية، والأُوروبية، واليابانية بأشـــباح البرامج التي تُديـــر الآلات بمهارات لاتطالها اليد البشـــرية؟ وإذ تنتج المصانع أكثر، تُجْتَزُّ جداول رواتـــب عُمّاله إلى العظم، فماذا يحل بالطبقة الوسطى التي رفعت اقتصاد العالم المتقدم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية؟ فهل سيقضى على العالم المتقدم بموجة هابطة تدَمِّر جميع قواربه؟

وتقول دِبوراَ وينس ســـميث Deborah Wince-Smith رئيســـة مجلس المنافسة، وهو ائتلاف مُكَوَّن من شـــركات أمريكية، وجماعات عمل، ومؤسسات تعليميـــة: «إن الطريقـــة الوحيدة للحفاظ على أمننا ورفاهنـــا تَكْمن في الابتكار المســـتمر». وترى وينس ســـميث أن قدرة الاقتصاد على الابتكار هي مفتاح رفع قدرة الإنتاج، وهي العامل الأهم في قدرة التنافس والنمو الاقتصادي.

ويقول مايكل كُكْس Michael Cox ويعمل في احتياطي دالاس الفيدرالي Dallas Federal Reserve، «إن مشـــكلة الولايات المتحدة الأساسية هي قلة عدد المقاولين العالميين فيها. ويبَيِّن أن البلد يســـتطيع أن يَتَحَمّل تصدير مزيد من

http://www.ibtesama.com/vb

فـرص العمل في الصناعة والخدمات، شـريطة أن يتَمَتَّـع الأمريكيون بالمهارات والإبداع، ليقدموا إلى العالم منتجات وخدمات جديدة. ويقول: «ليس ثَمَّة ما يمنع من أن يكون رُبعُ الأمريكيين يعمل في بيوتهم بما يعادل عمل خمسة وتسعين شخصاً في مكان آخر من العالم. إننا إن فعلنا ذلك فإننا نوظّف كامل قوانا العاملة».

وثمَّة لقطـة مُهِمَّة. إن الابتكار لايكون ابتكاراً أمثـل عندما يعمل المَهَرَة في مجموعـات صغيرة، أو في عزلة جغرافية، وإنمـا عندما يتمتعون بِبيئة تعطيهم معرفة عميقة بصناعتهـم. فَمُصممو الرقاقات (الجـذاذات) الذين أُبعدوا عن خطـوط التجميع لا يحصلـون على معلومات راجعة مـن المحترفين في المصنع تسـاعدهم على جعل تصميماتهم أكْمَل. وإن شـركات البرامج التي تعمل بعيدة عن ممـرات التكنولوجية العالمية لاتسـتفيد من تقاطعات العمـال الذين يأتون ويذهبون بين الشـركات، أو من آراء متبادلة بين زمـلاء صناعيين أثناء تناولهم وجبة الغذاء.

وإذا كان لأمريـكا أن تُبقي اقتصادها الأكثر إبداعاً في العالم، فلابد لها أن من أن تكون الاقتصاد الأكثر كمالا أيضاً.

ولعـل من أكثر أسـلحة الصـين الاقتصادية قـوة هو قدرتهـا على جذب تجمعات صناعية كاملة، وكسـب الكتلة الحرجة من الشـركات التي تحفّز حمى الإبداع التي تؤدي إلى تجديد سـريع. وربما تمضـي الاتصالات البعيدة العالمية والارتباطات الهوائية العادية بعيداً في اختصار المسافات لجيش كُكّس الأمريكي من مقاولين عالميين، غير أنَّ الأمريكيين الذيـن يرصدون الفرص في الأراضي البعيدة سيضطرون إلى قضاء كثير من الوقت في إعادة تشكيل شبكة العلاقات التي فُقِدَت بينما كانت التجمعات الصناعية الأمريكية تحرم البلاد من سـكانها، إتغادر، أو كليهما معاً.

http://www.ibtesama.com/vb

كلام رخيص

إن التَوَجُّه العالمي يفرض على الأمريكيين اتخاذ بعض الخطوات الأساسية. فقد خلص إحصاء أُجْرِيَ مُؤَخَّراً لعدد طلاب اللغة الصينية في المدارس الثانوية الأمريكية فخلص إلى عدد لا يتجاوز خمسين ألفاً، بينما يكاد عدد الذين يتعلمون الإنجليزية كلغة ثانية في الصين يساوي عدد الذين يتطقون الإنجليزية كلغة أم في الولايات المتحدة، وكندا، وبريطانية العظمى مجتمعين. غير أنَّ تعليم الإنجليزية ما زال أمامه شوط كبير على الصين أن تقطعه. إذ يجد المتحدثون بالإنجليزية من أبنائها أن الإنجليزية المَحْكِيَّة يَسْتَعْصي فَهْمُها على كثير من مدرسي الإنجليزية الصينيين. ولكن الصين قامت بانطلاقة، وتستمد الصين قوتها اليوم من قراءة الإنجليزية، وليس التحدث بها. وقد يتغير ذلك، كما حدث في أوروبا، إذ تشُقّ وسائل تعلم الإنجليزية طريقَها إلى بيوت الناس، حيث التجارة متعددة الجنسيات، التي تنتشر فيها صفوف تعليم الإنجليزية، تقدم الحوافز للعمال لتحسين مهاراتهم.

وقد يكون وجود عدد قليل من غير الصينيين الذين يتعلمون الصينية مقياساً لبطء المدارس في استيعاب التغيير. وليس ثمّة شك في أن الولايات المتحدة لم تكن لتجد صعوبة كبيرة في جذب مدرسين للغة الصينية من الذين يتكلمونها كلغة أُم إن تَوَفَّرَت الإرادة القومية لذلك. وقد يقول قائل: إن من الأفضل تخصيص الطلاب بتعلم مواد أخرى بينما الأطفال في الصين يخصصون وقتاً لتعلم الإنجليزية التي يُنطَقُ بها في أماكن العمل في كل مكان. ويعد اندفاع الصين في تعليم الإنجليزية نعمة لكثيرين في بقية العالم، الذي يرغبون بتأسيس عمل تجاري هناك. فالقدرة على النّطق بالإنجليزية هو صنو البنية التحتية الجيدة. أما في الصين، فيقدم الناطقون بالإنجليزية مفتاح التقدم العلمي والتكنولوجي. وإن لهذا الأمر وجهين. فعند الشركات الأجنبية مختبرات أبحاث وتنمية R&D صينية تستطيع أن تستفيد فائدة أفضل من مواهبها إذا استغنَت عن الحاجة إلى ترجمة.

http://www.ibtesama.com/vb

ولا بد للمرء أن يتساءل عن المديرين العالميين الأفضل، من هم؟ هل هم أولئك الذين يجيدون الإنجليزية كلغة أُم في الصين، ويعتمدون في الترجمة وتوجيه العمال على مديرين يتقنون اللغتين، أم مديرون صينيون يستطيعون التعامل مع عُمّالهم مباشرة بلغتهم الأُولى، ويستطيعون التفاهم مع نظرائهم الدوليين بالإنجليزية؟ وليس ثمَّة شك في أن وجود عشرات أو مئات الملايين من المتحدثين بالإنجليزية في الصين يوسع أنواع العمل التي تستطيع الشركات الصينية القيام بها أيضاً. وستصبح الهند مركزاً للبرامج والخدمات لشركات عالمية بفضل قوة عمالها الذين يجيدون الإنجليزية. وتستعد الصين لخطوة مماثلة حتى صارت الشركات الهندية تخشى منافستها.

هل نستطيع البقاءَ في اللعبة؟

إن القدرة على المُنافسة تَتَطَلَّب قوّة عمل عالية التعليم. ولا يعد الحال في أمريكا، بهذا المقياس، مبشراً، وبخاصة عندما ينظر المرء إلى المدارس الابتدائية والثانوية. فالكَثْرَة العُظمى من الطلاب الأمريكيين لايتعلمون المهارات التي يحتاجون إليها كي يُبدِعوا كما يجب للتَفَتح في مستقبل تحَدِّد الصينُ شكلَه وجَوْهَرَه.

أجرت إيّ سي تي ACT – وهي منظمة مستقلة تشرف على اختبارات تقديرات أكاديمية لملايين طلاب المدارس الأمريكيين كل سنة – تقييماً للمدارس الأمريكية عامةً. فكان من بين مليون ومئتي ألف طالب متخرج من المدارس الثانوية، سنة 2004م، الذين خضعوا لامتحان دخول الجامعات، أن حصل واحد من كل خمسة طلاب على درجات تُبَيِّن استعدادهم لدراسة اللغة الإنجليزية، والرياضيات، والعلوم في المستوى الجامعي. وتوقّعَ التقييم أن يحصل ربع هؤلاء على درجة C (أي 70 من مئة) أو أعلى في أول مقرر جامعي في علم الأحياء. وكان العدد أفضل قليلاً في الرياضيات، لكن لا يدعو إلى التفاؤل، وتوقّع التقييم أن يحقّق الخمسون فقط من خريجي المدارس الثانوية على درجة سي C في أول مقرر لمادة الجبر في الجامعة.

http://www.ibtesama.com/vb

فالحقيقة الجلية هي أن كثيراً من المدارس العامة الأمريكية لاجدوى منها،برغم عقود من الجهود الحثيثة لتحسينها. ولا يَكَلّ الأمريكيون ولا يَملّون من وضع خطط لتطوير حال مدارسهم، ويركزون على المناهج المفتوحة من جهة، وعلى درجات الامتحان من جهة أُخرى، وعلى احترام الذات من جهة ثالثة. إن جميع ما تقدم جدير بأن يعد أفكاراً جيدة، غير أنها لاتكون فعّالة بمفردها. فالسياسات المحلية، والإيديولوجية، والثقافة الدينية، وسياسات المصالح الخاصة ربما تستطيع أن تُصْلِح الحال. وإن حرية الأمريكيين في التبذير في الاستهلاك غير المنتج على حساب التعليم لايترك للمدارس من التمويل إلا القليل. (يعارض أصحاب الأملاك، في بقاع كثيرة من البلاد، جهود رفع ضريبة الأملاك لتحسين المدارس العامة. فمنطقة الخليج في كاليفورنية، وهي أرض أصحاب الملايين من التكنولوجيين والعاملين في شؤون المعرفة، لاتستطيع تحمل نفقات الصيانة الدورية لمدارسها، وقد اضطرت لأن تطلب من المعلمين تَحَمُّل تخفيض رواتبهم). يزيد الطين بِلَّة، أن إغراءات الرواتب المرتفعة لقوة العمل الخاصة للذين يَتَمَتَّعون بمهارات متواضعة في العلوم والرياضيات، أو أولئك الذين يملكون إبداعاً قابلاً للتسويق ويمكن أن يكونوا معلمين، فإنهم يودعون موهبتهم الأساسية خارج غرف الدرس. ويندُر أن يكون أساتذة العلوم والرياضيات من حملة الشهادات الجامعية في العلوم أو الرياضيات.

لا يمكن للمرء إلا أن يحيط به اليأس من نظام التعليم، مالم يَتِمّ تغيير جذري في الإرادة العامة، تغييراً يجعل المدارس أولوية وطنية عليا لشعب راسخ المعرفة بأن كل درس لم يُدرَس، كما ينبغي، يعادل فرصة عمل ضائعة.

فإذا كانت المدارس الابتدائية والثانوية قاصِرَة، أليس التعليم العالي الأمريكي مُتَفَوِّقاً على أي تعليم عالٍ في أي بلد آخر؟ أجَل – مازال كذلك حتى اليوم. غير أن قوى الجامعات الأمريكية المقارنة في تخريج المهرة المتفوقين آخذة في الأُفول. لقد غُطي التحدي الذي يواجه البرامج الهندسية الأمريكية لإنتاج مهندسين.

http://www.ibtesama.com/vb

غيــر أن الخطر الذي لايقــل أهمية هو تراجع قدرة الجامعــات الأمريكية على جذب النخبة من الطلاب الأجانب الألمعيين. وقد يكون جزء من المشــكلة قصير الأمد، فربما لم يُمنح الطلاب الأجانب تأشيرة دخول لأسباب الحَذَر الأمني بعد 11/ 9، وســوف تَخِفُّ وطــأة هذا الحذَر بعد أن طــورت الولايات المتحدة نظام تدقيــق أســرع. غير أن بلاداً أُخرى قد أفلحت فــي الوقت القصير بعد 11/ 9 في جذب أفضل طلاب العالم، وصارت الولايات المتحدة مجرد واحدة من بلدان كثيرة يختار الألمعيون بينها.

ليس الجهلُ نعْمَة

لابدَّ أن يســتعد مواطنو الدول المتقدمة لاقتصــاد المعرفة مع اختفاء فرص العمل الصناعي القديمة، وهو مكان عالمي يفضل الثقافة على العضلات المفتولة. فالطلاب الذيــن يبحثون عن مهنة، والعمال الذين يبحثــون عن أعمال جديدة، يوجَّهُون غالباً إلى متابعة عمل في مكان عمل فكري في مرحلة ما بعد الصناعة. وبالرغــم من ذلك، فإن عمل العامل في مجال المعرفة يُســاء فَهْمُه. كانت برامج كومبيوتر وادي الســيليكون تعد صورة مصغــرة عن العاملين في مجال المعرفة، ومــا زال هناك كثيرون يرون أعمالهم تُنقل بســهولة إلــى مبرمجين منخفضي الأجــر وراء البحار. فالأقل حصانة هم المبرمجون مرتفعو الأجور الذين يقومون بالبرمجة التقليدية على قطع من مشاريع الآخرين.

يجب أن يتمتع العاملون في مجال المعرفة، حسب الرأي السائد اليوم، بأكثر من مهارات مبنية على قواعد كي يؤدوا مهمات معقدة وســرّية تُنقل بسهولة إلى شــخص آخر يتقن القواعد ذاتها. لذلك، وبرغم ســنوات الدراســة المكلفة في المجــال الذي كان يعد بعمل هانــئ مدى الحياة، فإن كثيراً من المبرمجين يجدون أنفســهم الآن بــلا حول ولا قوة أمام المنافســة الخارجيــة. بالمقابل، فإن زملاء لهم يســتحضرون تطبيقات جديدة في البرامج، واستخدامات جديدة لجذاذات الكومبيوتر، وأساليب جديدة لصناعتها، يزداد دخلهم.

http://www.ibtesama.com/vb

وثمّة سوء فهم آخر لاقتصاد المعرفة هو أنه ينطبق انطباقاً رئيساً على اتصالات وصناعات عالية التكنولوجية. فالدول تستطيع منافسة الصين في أجورها المنخفضة والمهارات العالية فقط إذا كان مواطنوها مستعدون لأن يجعلوا من أي عمل عملاً عالي التكنولوجية. وتقول دِبورا وينس سميث Deborah Wince-Smith: «ليس ثمّة صناعات منخفضة التكنولوجية، وإنما هناك شركات منخفضة التكنولوجية».

فالمزارع يعد عاملاً في مجال المعرفة في الاقتصاد الأمريكي الحديث. وإذا زرتَ مزارع ذرة وفول الصويا في بكين، إليتوي، فإنك سرعان ما تلحظ المكونات الثقافية لعمله. قد يبدأ النهار بزيارة الكومبيوتر، حيث يَتَفَقّد ويحلّل أسعار محصول اليوم في غرفة تجارة شيكاغو، ويستعمل نماذج النكوص الأخيرة ليكيف مبيعاته التي ستسلم في المستقبل وخياراته في سوق السّلع، ثم يضغط مفتاحاً ليرسل طلبه إلى حساب سمساره أون لاين [الموصول على الخط]. وربما يتفقد حال الطقس اليوم من الأقمار الصناعيّة. ثمَّ تراه في الحقل، يدير آلة زراعية رائعة، هي آلة جون دير 9650 إس تي إس John Deere 9650STS المركبة ذات التحميل السريع، التي ربما كانت الآلة الزراعية الأكثر إنتاجاً والتي تحمل نظام قيادة آلي، وجي بي إس GPS Global Positioning System (نظام فضائي لتحديد موقع ما على الأرض)، ويتحكم الكومبيوتر بالحصاد المراقب. لقد صممت شركة دير Deere الآلة لتكون على أُوتوماتيكية عالية تجعل المزارع لايشعر بالتعب بعد يوم كامل من العمل في الحقل، فتتركه نشيطاً يستطيع التَسَوّق وشراء بذور مُهَجَّنَة ليزرعها في الموسم القادم، ويختار من بين أنواع كثيرة من المحاصيل المُهَنْدَسَة جينياً genetical في المُختبرات العِلمية الزراعية الحكومية العامة والخاصة. ويستطيع زارِعو الذرة والفاصوليا اليوم تقديم منتجات في سوق الصين بكلفة أقل من كلفة مزارعي الصين أنفسهم، وَهُم العُمال الأقل أجراً على كوكب الأرض.

http://www.ibtesama.com/vb

ولو أن صانعي المعدات الزراعية الأمريكية وجدوا طُرقاً لقطف الثمار أُوتوماتيكيّة، لَجَعَلَ تفاحُ واشنطن وبرتقالُ فلوريدا زارعي الفواكهَ في الصين يجرون لتحصيل أموالهم. (برغم أن ذلك سيُسَبِّب مزيداً من البطالة في أوساط العمال المهاجرين من أمريكا اللاتينية الذين يعملون في قطف التفاح والبرتقال). وكانت المختبرات الأمريكية رائدةً في إدخال المواد الصيدلانية في الغذاء وهندسة محاصيلَ تُقاوِم الأمراضَ وفواكه وخضار بنكهات وهيئة جديدة لا تُقاوم، وإن الصينيين الذين يُحِبّون الطعام سيتوقون إلى استيراده.

وعندما تتحول المصانع الأمريكية من كل نوعٍ إلى مصانع ذوات تكنولوجية عالية، فلا بد من أن يتَمَتَّع العمال الذين يديرونها بِمَهارة كافية لتشغيل الآلات المُعَقَّدَة وصيانتها، والتعامل مع قواعد بيانات المخزون والإنتاج، وأن يكونوا على دراية أساسية لازمة للتكيف مع التكنولوجية الجديدة التي تدخل مصانعهم. وقد أصبحت أعمال الخدمات التي لم تكن تتطلب إلا القليل من العِلْم، تتطلب اليوم مهارات عالية، وبِخاصَّة تلك الأعمال التي تُوَفِّرُ أجراً أفضل من الحد الأدنى.

إن تحويلَ كلِّ عاملٍ إلى عاملٍ متقدم في المعرفة حلمٌ يَستَحيلُ تَحقيقُه. أما تأسيس نظامِ تعليمٍ أمريكي يُنتِج عمالاً أكثر معرفةً فليس بِحُلم، وإنما هو إرادة وَطَنيّة.

غير أن هذه الإرادة الوطنية غير متوفرة اليوم. ولابد من حدوث أزمة لتحقيق هذا الإجماع. فعندما تعرضت أمريكا إلى خطر فيما مَضى من أيام، دَعَمَ الأمريكيون تغييراً واسعاً في التعليم، وبِخاصة عندما أيقظ الاتحادُ السوفيتيُّ الولاياتِ المتحدة بإطلاق قمر سبتنك Spotnik الصناعي سنة 1957م. وإنه ليُثيرُ السُّخرية أن لايُهَدِّد الشيوعيون العسكريون مستوى المعيشة الأمريكية، بل الذي يُهَدِّد هو مُنافس رأسمالي – شيوعي، يكون منافساً اقتصادياً مُرْعِباً أكثر.

http://www.ibtesama.com/vb

فمــا مدى قُربُ الولايات المتحدة من أزمة تَنافُسِــيّة؟ لــم تُقدم الصينُ بعدُ التكنولوجيــةَ ولا المنتجات الإلكترونية التي تُغَيِّر العالم، والتي تعد ســمة مميزة للاقتصاد المتقدم، لكنّها سَــتَفْعَل. فالعبقرية التي انْصَبَّت حتى الآن على إنشــاء مصانع كبيرة لن تلبَث أن تَتَجَلّى في منتجات عظيمة وأسماء تجارية كبيرة تقدم إلى العالم أنواعاً وتحسينات لاتُضاهى. وسوف تُضطر اليابان إلى اقتسام رفوف السّــلع الإلكترونية الراقية ومحلات التصوير، وسَتُنافس الصينُ فرنسا وإيطاليةَ في سوق الإكسسوارات الفاخرة؛ وستواجِه كورية صعوبةً في بقائها متقدمةً على الصين في بناء السُّفُن وتَصْميمها.

وقد تجد الأُمَمُ تَقَدُّمَها على الصين يَتَلاشى فَجأة بِتَحَرُّك شخص واحد. ففي أيار/ مايو ســنة 2004م، انضم ستيف تشِن Steve Chen - وهوأحد أهمِّ روّاد تصميم ســوبر كومبيوتر في الولايات المتحدة- إلى شــركة جلاكتِك كومبيوتنج شِنْزهِن Galactic Computing Shenzhen Co.،Ltd.،، وهي الشركة التي يدعَمُها مُسْتَثْمِرو هونج كونج وكثيرٌ من جامعات الصين. وإن المشروع الذي يهدف إلى إنتاج سوبر كومبيوتر عالمي في الصين، عَرَضَ كومبيوتر - حاسباً - سريعاً، تكفي ســرعته لأن تضعه ضمن أســرع 250 كومبيوتر فــي العالم. وقال ديفيد كِيْس David Keyes، أستاذ الرياضيات التطبيقية في جامعة كُلَمبية لصحيفة نيويورك تايمز New York Times: «أما الزّخم (في ســوبر كومبيوتر)، فإن الصين هي البلد الأســرع ارتقاء في العالم». وأبرزت صحيفة شاينة تُدي (الصين اليوم)China Today في تشــرين الأول/أكتوبر 2004م عنواناً رئيساً يقول إن «الصين ســتقود قطاع العمل في سوبر كومبيوتر»، وأعلنت الصحيفة أن الصين قد تكون موطن السوبر كومبيوتر الأسرع في سنة 2005م، وأن «الدولة ستحتفظ بجميــع حقوق الملكية الفكرية لمُعالج البَيونِــك bionic والتطبيقات المتعلقة به».

وقد درس تشِن، الذي هاجر إلى الولايات المتحدة من تايوان سنة 1975م دراساته العُليا في جامعة إلِنوي Illinois ثم عمل فيما بعد عند كراي ريسيرتش الرائدة في

http://www.ibtesama.com/vb

بحوث السوبر كومبيوتر supercomputer pioneer Cray Research. قال تشين للتايمز: إنه انضم إلى الشركة الصينية لأن رأس ماله الذي يمكن أن يستثمر في السوبر كومبيوتر قد نضب في الولايات المتحدة.

وثمَّة طرق أخرى تُشعِرنا أن الوقت ضيق. قد تظهر الصين بين عشية وضحاها أكبر صانع وأكبر مستهلك في العالم للسينما، وألعاب الكومبيوتر، وبرمجة الكومبيوتر، والموسيقا. وإن جُلَّ ما تحتاج إليه هو قليلٌ من حرية التعبير وانضمام الموهبة الصينية إلى شركات الإعلام العالمية. وقد سمحت الولايات المتّحدة أول مرة في تشرين الثاني/نوفمبر 2004 للشركات الصينية بدخول مشاريع إنتاج تلفزيوني مشتركة مع شركات أجنبية، نحو: فياكُم Viacom، وسونيSony، ونيوز كوربNews Corp.. وفي ضوء تسهيلات اللغة الإنجليزية المتنامية في البلاد، وإن تراث القرون الصينية من الحكايات والأداء التقليدي ستجد طريقها إلى وسائل الإعلام الحديثة، كإبداع رائع وتكريس أخّاذ للممثلين الصينيين، فتنتقل إلى وسائل ترفيه عالمية. وستدخل الصين، شيئاً فشيئاً، بيوت العالم، وأماكن العمل، وستشارك العقول مشاركة متزايدة. ولن يكون هناك شيء مادي، أو ثقافي، أو تعليمي لا تطاله ذراع بلد هي أكثر البلاد ازدحاماً بالسكان في العالم. وإذا أرادت أمريكا أن يبقى إنتاجها فعالاً، ينبغي عليها أن تبقي مهاراتُها، وثقافتُها الرفيعة، وبراعتها التَخَيّلِيّة في مستوى عالمي، وأن يكون كلُّ ذلك في كلّ يوم أفضل من اليوم السابق. يجب أن تُصبح أمريكا ذاتها مكاناً جديداً.

ابْتِسامَة بالإكراه

أنَّى للولايات المتحدة أن تتكيف مع تحدٍ منافس له قوة لم يسبق لأمريكا أن واجهتها؟ فهل يكون نَقْل المَوهِبة، والتكنولوجية، ورأس المال جزءاً من ديناميكية لا مناص منها؟ أم أن للولايات المتحدة، أو لأي بلد آخر، قوة لتشكيل مستقبلٍ ينعم فيه الجميع بالرفاه؟

http://www.ibtesama.com/vb

فالأمريكيون الذين يبحثون عن الجواب وعن عمل يجب عليهم أيضاً أن يجدوا سبيلاً يجعل قيادة أمريكا تَرى أن كلَّ وَمْضَةٍ من نهضة الصين تَسْتحق اهتماماً وطنياً مثل الجَلَبَة التي تَجري على النقاط السياسية الساخنة الأَوْضَح. وفي الوقت الذي تَلْتَفِتُ فيع جميع العيون نحو ما يُسَمَّى صراع الحضارات بين الإسلام والغرب، فسوف يكون للصين الأَثَر الأعمق في العالم في المدى البعيد. وبرغم الهواجس التي تحدث بين وقت وآخر في مدن المعامل، والتعرفات التي تفرض على ما يُسْتَوْرَد في ذُرْوَة الموسم الانتخابي، فإن القادة الأمريكيين يميلون إلى رؤية نهوض الصين تحقيقاً لحلم دُعاة السوق الحرَّة، حيث يقود المستثمرون البلادَ إلى الثروة، والديمقراطية، والاعتماد السلمي المتبادل مع بقية العالم الحر.

إنها نظرية جميلة، وقد تكون صحيحة في النهاية. وليس ثمَّة دليل يمكن أن يُبْنى عليه تَنَبُّؤ مثل هذا. فأيهم في هذا العالم الواسع، شديد الوطنية، أو الديكتاتوري، أو الشيوعي-الرأسمالي يقدم سابِقَة تاريخية للأوطان؟ والجواب هو: ليس ثَمَّة بلد آخر، للأسف. فعندما يتعلّق الأمر بالصين، نَجِدُ التفاؤلَ ذاته ليس دائماً سبباً للتفاؤل.

ويَعمَل الرّسميّون الصينيّون جهدَهم لطمأنة العالم إلى أن الصين لا تُشكل تهديداً لأحد. وربما كان الإنجاز الأهمُّ للحزب الشيوعي الصيني هو أنه اكتشف، بعد سنوات اليأس المُتَعاظِم والشك، كيف يغرِسُ التفاؤلَ في الصين. ففي أرض ما زالت الكَثْرَة العُظمى من سكانها يعيشون يومهم في مأوى كئيب ومال شَحيح، يكون التفاؤل مورداً أساسياً، يتدفق حيث يُتَوَقَّع، عبر الصحافة التي تمسك الحكومة بزمامها، وحيث يجب على محرريها ومراسليها أن يَصفروا أنغاماً سعيدة.

خذ مثلاً جريدة سنج باو ديلي نيوز Sing Pao Daily News الصادرة في هونج كونج، فقد نشرت أن وزارة الدعاية قد أصْدَرَت قبيل المؤتمر الكبير السادس عشر للحزب الذي عقد في أيلول/سبتمبر 2004م، ثلاثين توجيهاً داخلياً لمراكز بيع الصحف الصينية تذكرهم بأن يقودوا العامة قيادة صحيحة

http://www.ibtesama.com/vb

وأن يشجعوا الكتابة الإيجابية التي تذكر «قصصاً سعيدة عن أشخاص طيبين». وتلفت انتباه المنظمات الصحفية وتُنَبِّهها ألا تَنْشُر موضوعات عن مقدمي العرائض الذين يأتون إلى بكين بحثاً عن تعويض عن ضياع بيوتهم. وَيَنْصَبُّ التفاؤل الذي ترعاه الدولة في مكاتب البلاد الريفية والبلدية، حيث النماذج القياسية لمشاريع كبيرة – ما يزال كثيرٌ منها يبحث عن تمويل من مستثمرين في القطاع الخاص – فتجلس هذه النماذج فخورة على مكاتب المسؤولين.

ولا يتكلّم كلُّ قيادات الهاتفين لنظامهم في الصين اللغة الصينية الرئيسة. فيتكلم كثيرون الإنجليزية، أو الألمانية، أو الفنلندية فقط، ويعملون في شركات غربية، يذرعون سوق الصين جيئة وذهاباً، أو يعملون في شركات استشارية كبيرة ترى الصينَ مكاناً تستطيع أن تقود منه عملاءها الكبار عبر طرق تغيير كاملة. وينتحب ويشكو مسؤولو الشركات، في الوطن، من النُّظُم الحكومية المرهقة، وقوانين التوظيف، والمسؤوليات القانونية، وثِقَل التزامات الرعاية الصحية والتقاعد، ويشتكون، وكأن حكوماتهم هي ألد أعدائهم. بينما يتحول الإداريون التنفيذيون والعاملون في شركاتهم، في الصين، إلى صِنْف آخر فيصبحون، لفرط حرصهم على إرضاء الحكومة الصينية، عملاء غير رسميين لوزارة الدعاية، ويربطون وجهات نظر شركتهم بالخطاب الرسمي الصيني.

وإن أحد معايير أثر آلة الأخبار الطيبة في الصين يتجلى في ردود الفعل الآلية للمقيمين الغربيين في البلاد على الأسئلة التي يطرحها الغرباء. فَاسأل، مثلاً، عن سجل البلاد في حقوق الإنسان، الذي يعد سيئاً جداً بكلّ مقياس غربي. أو اذْكُر أهوالاً وقعت – كالقمعَ الصارم في ميدان تيانانمين، والقمع الوحشي لحركات الفلاحين الاحتجاجية، واحتلال التيبت والهيمنة الثقافية عليها، وعلاقات الصين الودودة مع أنظمة أجنبية بالغة في السوء (ومنها بورمة، وكورية الشمالية، والسودان، وإيران) التي ترفضها الدول الكبرى الأخرى، أو الإخضاع العنيف الجاري في معظم الأحوال للمتدينين المتطرفين، ومنهم جماعة

http://www.ibtesama.com/vb

فالــون فالنجنج Falun Gong وبوذيو التيبت، والروم الكاثوليك. وأفْصِح عن قلقك من الرقابة التي تمارســها الصين على الصحافة،وكيف تتابع وتحظر على مواطنيها استخدام الإنترنت والرســائل الهاتفية. صَرِّح بالحقيقة البسيطة بأن الصينيين لا يسمح لهم بأُسْرَة كبيرة. واسأل عن نظام الحزب الواحد في الصين، وذَكِّر المُسْــتَمع بأن الحزب الشــيوعي غير ديمقراطي ومتجدد باســتمرار. إنها مجرد قائمة قصيرة بالمســاوئ الشــائعة التي تُوَجَّه للصين، فالمواضيع لم تتغير كثيــراً مع الزمن. ولابُدَّ أنَّ هناك جانبًــا صينيًا لكل موضوع. ولما كانت الصحف هي الناطقة بلســان الســلطة، فإن الحكومة الصينية تملؤها بأجوبة عن الشك والرّيبة الغربية. وإن كثيراً من أسباب الحكومة يستحق بعض التأمل. وإن النظام الصيني يقدم، فيما يبدو، لســكان البلاد حياة أفضل. وتُبْرَزُ هذه الحقيقة دائماً لتبرير بطء الإصلاحات السياسية في الصين. وتبقى الصين أرضاً لقمع سياسي فولاذي القبضة ولِلُصوصية الحكومية الشاملة وبخاصَّة الحكومات المحلية. ولعل ما يثيــر انتباه الزائر الذي يتحدث مع الأجانب المقيمين في الصين، الشــمولية التــي يُرَدِّدُونها كالببغاوات لأقوال آلة الدعاية الحكومية الصينية. فيقولون: إنهم يشــعرون بالأمان في الصــين، وإن البلد يحتاج إلى الاســتقرار، ولا يحتاج إلى الديمقراطية. ويقولون: إن الفوضى هي ألد أعداء الصين، وإن الإصلاح السريع قد يُحَرِّض الفوضــى. ويقولون: إن حكومة الصينية لاتُهْمِـل الفقراء، ولأمريكا مشكلاتها الكثيرة أيضاً، نحو: الرغبة الوطنية لخوض الحروب.

ويقــول أحد الصحفيين الأجانب الذي يتكلم الألمانية: «إني ليدهشــني كيف يُقْنِعُك ذلك، فأنا صحفي، وأجد نفســي غارقاً في ما يريدون بَثَّه من رســائل. فالمشكلة هي أني بمجرد خروجي من البلاد أستطيع أن أرى الأمور على حقيقتها. لابد أن تُعطي الصينيين حقَّهم، إنهم بارعون حقّاً في لعبة الإشراك في الرأي.

إن هذا الضغط لإلحاق الآخرين بالخط السياســي للحزب يترك أثراً كبيراً في سُــبُل تَعامُل العالم مع نهضة الصين. إذ يُتَوَقَّع من الأمريكيين وســواهم من

http://www.ibtesama.com/vb

المديرين التنفيذيين الأجانب أن يَتَمَلَّقوا التَّصويرَ[أو التلفيق] الصيني الرسمي للحقيقة، فالموضوعات المُهِمّة التي تَتَعَلّق بالاقتصاد، والأمن، والتجارة لا تُناقَش أبداً بالدقة التي تُناقَشُ بها في عواصم العالم الأُخرى. وتتوقع الحكومة الصينية من الأجانب الذين لهم أكبر المصالح في الصين أفضل سلوك. فالشركات ذات المصالح في الصين والتي تطرح موضوعات مفصلية تتعلق بالعوائق التجارية، وقيمة النقد، ومحاولات الحكومة الصينية التلاعب بالتجارة لصالح الشركات الصينية، أو تتساءل عما إذا كانت الحكومة الصينية تدفع رسوماً كاملة عن التكنولوجية، يمكنهم أن يتوقعوا أسوأ معاملة من مسؤولي الصين. معاذ لله أن ترفع الشركات الأمريكية أو الأُوروبية رايةَ احتجاج على تَرَدّي البيئة في الصين، أو حقوق العمال، أو الحريات الدينية. وقد تحدث المدراء التنفيذيون مراراً وتكراراً في مجالسهم الخاصة، وهمساً، عن العوائق الحكومية الكثيرة التي يواجهونها في الصين، وتراهم يطلبون ممن حَضَرَ ألا تروى أخبار تجاربهم تلك فهم ما زالوا في مفاوضات مع الحكومة الصينية ويخشون أن يقضي أيُّ شيء سلبي يقولونَه على آمالهم في الحصول على أي مكسب يأملون الحصول عليه من سوق الصين. وعندما تكون الشكوى أمراً لا بُدَّ منه،فيجب أن تثار عبر المجموعة الغافلة لهيئات التجارة الخارجية أوعلى نَحْوٍ غير رسمي من خلال قنوات دبلوماسية.

مناورة الهجوم المثلث

إذا كان للأمريكيين أن يقدروا أهمية الصين حق قدرها فإن عليهم أيضاً أن يعترفوا بأن حقيقة أمريكا هي التي تجعل الصين قوية. فقادة العالم الذين يزورون كثيراً بكين اليوم يرافقهم بطانة من وزراء الصناعة، والتجارة، وأرباب الأعمال التجارية، يأتون إليها لِيُبْرِموا اتفاقيات تبلغ قِيَمُها بلايين الدورات. ولا يقتصر الأمر على ذلك، بل إنهم يأتون أيضاً ليتحدثوا عن القوة، وليست القوة

http://www.ibtesama.com/vb

لأنفسهم فحسب، وإنما ضد الولايات المتحدة. فأمام شكوى العالم الجادّة من الصين، فإنها تبقى البلد الوحيد الذي يستطيع أن يُشَكِّل الثِّقل الاقتصادي والسياسي الموازي للولايات المتحدة.

وعندما زار الرئيس الفرنسي جاك شيراك Jaques Chirac الصين ثانية في تشرين الأول/أكتوبر سنة 2004م مع أربع وزراء واثنين وخمسين رجل أعمال فرنسي، تضمنت لقاءاتهم ذات المستوى العالي، كما هو متوقع، نقاشَ بيع زبدة الصناعة الفرنسية: القطارات السريعة، وطائرات الإيربَص، ووحدات الطاقة النووية، والمعدات العسكرية الثقيلة. (وحصل الرئيس الفرنسي على طلبات تُقَدَّر قِيَمُها بـ 4 بلايين دولاراً. لكن المحادثات تضمنت أيضاً مجموعة من المؤشرات رأت فرنسا فيها أن علاقتها بالصين تشكل حصناً ضد سيطرة أمريكا على العالم. وقد أوضح شيراك أنه لن يوجه انتقاداً علنياً لسجل الصين في حقوق الإنسان. كما أدلى شيراك بملاحظات مُبَطَّنَة، كانت موضع تقدير كبير ضد تايوان، التي فاتحت الحكومة الشيوعية أثناء زيارة شيراك في موضوع تخفيف الستمئة صاروخ التي توجهها الصين نحو الجزيرة.

وإن طبيعة التجارة اتخذت شكلاً معادياً لأمريكا، فقد ترأس شيراك والرئيس الصيني هو جيانتاوHu Jiantao احتفالاً وقعت فيه هيئة الطاقة الذرية الفرنسية على إفادة وزارة العلوم والتكنولوجية الصينية من خبرتها الواسعة لتطوير برنامج لِنُكس Linux مفتوحة المصادر لاستعمال الكومبيوترات الشخصية، وأجهزة الكومبيوتر المحمولة، فيسمح للفرنسيين مساعدة الصينيين على التغلب على شركة مايكروسوفت الأمريكية وتقديم هدية للشعب الصيني تبشر بالخير عندما يحين وقت تسليم العقود لوحدات الطاقة الذرية.

وقال جان بيير كابِستان Jean-Pierre Cabestan، وهو خبير في شؤون الصين في المركز القومي الفرنسي للبحث العلمي في باريس French National Center for Scientific Research، قال في معرض حديثه عن

http://www.ibtesama.com/vb

رحلة شيراك إلى الصين سنة 2004م لصحيفة إنترناشونال هيرالد تريبيون: «إن فرنسا تحب أن تلعب الورقة الصينية ضد الولايات المتحدة. فعند شيراك رؤية متعددة الأقطاب للعالم، والاقتصاد ركن مهم وحساس فيها».

غير أن فرنسا ليست البلد الأُوروبي الوحيد الذي يلعب الورقة الصينية. ويقول ديفيد شامبو David Shambaugh، مدير برنامج سياسة الصين في جامعة جورج واشنطن، «إن عرض العلاقات الأوروبية - الصينية وعمقها يثير الإعجاب، والأهمية العالمية للعلاقة تضعها في مجال يتَشَكَّل في الشؤون الدولية. ويقول شامبو: إن تجارة أوروبا مع الصين تتسارع بانتظام، وقد نمت 25 بالمئة سنة 2003م وارتفعت ثانية قريباً من 40 بالمئة سنة 2004م. فالاتحاد الأُوروبي والصين كلّ منهما يكون الشريك التجاري الأكبر للآخر، سيتبادلان بضائع قيمتها أكثر من 200 بليون دولار. وقد استثمر الأُوروبيون في سنة 2004م أكثر من 40 بليون دولار، ويُتَوَقَّع أن يزيدوا أكثر من 30 بليون دولار أُخَر. وتؤوي الصين اليوم أكثر من ثمانية عشر ألف شركة أُسِّسَت بأموال الاتحاد الأوروبي وإمكاناته.

وتجري فرنسا وبريطانية العظمى، على الصعيد الجيوبولِتِكي، مناورات عسكرية مشتركة مع القوات المسلحة الصينية (وكذلك تفعل الولايات المتحدة)، ويُعِدُّ الاتحاد الأوروبي مزيداً من العمليات العسكرية المشتركة. وما شيراك إلا واحداً من ستة عشر قائداً أوروبياً بذل جهوداً كبيرة لإنهاء المقاطعة الدولية التي تمنع بيع الأسلحة للصين، متجاهلاً حَذَرَ الولايات المتحدة من شراء الصين سلاحاً متقدماً قد تستخدمه ضدها، إن تحركت الصين بعمل عدواني ضدّ تايوان. ويقول شامبو، تجدر الإشارة إلى أن الحزب الشيوعي الصيني أجرى مئات الاتصالات مع أحزاب سياسية في أُوروبا كلها على افتراض أن عند الأحزاب الاشتراكية في القارة ما تُعَلِّمه للصينيين عن التطور السياسي والإصلاح.

فهل تكون شراكة الصين وأُوروبا أسهل من شراكة الصين والولايات المتحدة؟ والجواب، هو ربما. فليس لأُوروبا أي انجذاب تاريخي أو سياسي نحو تايوان، وهي تلتزم التزاماً واضِحاً وصارماً بسياسة صينٍ واحدة. وليس لدول الاتحاد

http://www.ibtesama.com/vb

الأوروبي مصالح إستراتيجية تُذْكَر في آسيا، بينما نجد الولايات المتحدة على خلاف ذلك، فلها حضور عسكري قوي في آسيا والمحيط الهادي ولديها محذور إقليمي مهم، ومطالب غير قابلة للتفاوض.

ولعلّ الأهم من ذلك أن الصين وكثيراً من بلدان الاتحاد الأُوروبي يفقدون الثقة أكثر فأكثر بالولايات المتحدة. كانت الولايات المتحدة هي التي حثت الصين على التخلي عن حماستها الثورية والانضمام إلى التيار الرئيس من الدول الملتزمة بعالم مستقر، وتزدهر الصين اليوم في ظل الحال الراهن، وتعتمد رغبتها برفع مركزها على عالم أبعد ما يكون عن الاضطراب. فترى فرنسا، وألمانيا، ومُعْظَمُ دول الاتحاد الأُوروبي الصينَ شريكاً أكثر التزاماً باستقرار العالم من الولايات المتحدة، المُستعدة اليوم للدَّفع بعنف ضد النظم الدولية.

ويلاحظ شامبو أن فرنسا والصينَ تتزعمان الجهود لكَبْح جماح الولايات المتحدة من خلال منظمات دولية، كالأمم المتحدة، وتكوين عالَم مُتَعدّد الأقطاب. وتليهُما ألمانيا، وإسبانيا، والدول الإسكندِنافية.

وسواء اعتقدت أن الولايات المتحدة كانت مُحِقَّة في شنِّ حرب على العراق أم لا فإنك تستطيع أن ترى السببَ الذي يجعل كثيراً من الدول الأُوروبية حذرةً في تعاملها مع الولايات المتحدة اليوم. لقد التزمت الولايات المتحدة ببرنامج عمل يركز على الاحتواء بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، انضمت به مع أُوروبا الغربية في جبهة موحدة ضد الشيوعية السوفيتية. وكان منطقياً أن يفترض العالم أن تبقى سياسة الولايات المتحدة الخارجية ثابتةً مع إدارات أمريكية وأكثريات تشريعية مختلفة. وقد تغيّر ذلك عندما بدأت الولايات المتحدة سياساتها التي أدت إلى الحرب الاستباقية على العراق. فالخوف من الموقف الأمريكي يتجَلّى في الطريق الأمريكي إلى الحرية، وأنه قد شُقّ بالدبابات، والصواريخ، وقوافل القوات وليس بالتدرج الذي فكك الشيوعية على مدى أربعين سنة. وبِغَضِّ النظر عن صحّتها أو خطئها، فإن سياسة الولايات المتحدة الخارجية لم تعد ثابتة.

http://www.ibtesama.com/vb

أمــا الصين وحلفاؤها الجُدُد في الاتحاد الأُوروبي، فإنهم يَرَون أن محور أُوروبا – الصين يقدم خطة طوارئ لمواجهة التقلب الأمريكي.

وبينما يدعم الأُوروبيــيون نمو الصين الاقتصادي في عالم متعدد الأقطاب، ويجــدون في شــراكتها ثِقَلاً موازناً لهيمنــة الولايات المتحــدة، فإنهم يغامرون بمقايضة مجموعة من الأخطار المتوقعة التي يشكلها الأمريكيون بأخطار جديدة تشكلها الصين عندما تصير أغنى.

وبرغم أن تطلعات الصين العســكرية الجيوبولِتكيَّــة بعيدة المدى، أبعد من أفق هذا الكتاب، غير أن خطَر الطرح الأُوروبي تلخصها كتابات جون مِرشــايمِر John Mersheimer، المنظر السياســي ذو النفوذ القوي من جامعة شيكاغو، الذي ينادي بمدرســة «واقعية» للعلاقات الدولية، تهدف إلى معرفة الأبعاد التي تصلهــا الدول، كبيرها وصغيرها، في إظهار الحدود القصوى لقوتها، بما يضمن بقاءهــا. أخذ مِرشــايمِر بنظرة تاريخية طويلة لسياســات القوة في كتابه The Tragedy of Great Power Politics الــذي نُشِــرَ ســنة 2001م، والذي يقول فيه إن القوى الكبرى تدأب لممارسة هيمنة عسكرية علىَ مجالات نفوذها، وتبحث باستمرار عن أساليب لاستعراض قوتها أمام منافسيها. وإن قدرة الصين على إظهار تحدٍّ عســكري مُقْنِع للولايات المتحدة ما زال بعيدَ المَنال. (وقد خلص تقريرٌ صدر مؤخراً عن وزارة الدفاع الأمريكية إلى أن قوة الصين العســكرية لن تعادل قوة تايوان الصغيرة قبل سنة 2006م). غير أن البروز الاقتصادي السريع للصين يُحَوِّلُ آلتَه العســكرية إلى قوة قتالية أغنى، وأفضل تجهيزاً، وأكثر تطوراً في تكنولوجيَّته، كما يُعطي البلد نفوذاً أكبر في صياغة علاقاتها الإســتراتيجية مع الــدول الأخرى. وقد ضبط الأثــر المُهَدِّئ لقوة الولايات المتحدة العســكرية الطاغية في شــمال شــرق آســيا النزاعَ المســلَّح لفترة طويلة. ومع بروز الصين وأوروبا، يصبح السلام متوترا تَوَتُّراً خطيراً.

http://www.ibtesama.com/vb

الصين تَقْتَفي أَثَرَ قَدَم أمريكا في آسيا

لابُـدّ أن تكـون علاقة الصين بأوروبـا موضوعاً ضاغطـاً على الأمريكيين والأوروبيين. غير أن المجموعتين ينبغي أن يتَنَبَّها أيضاً إلى دور الصين في آسيا أيضاً. فقد أعلنت حكومة الصين في السنوات الأخيرة، أن اهتمامها ينحصر في «نهضة سـلمية» وليس في هيمنة إقليمية. وقد قدم مسـؤول كبير في السياسة الخارجية في الحزب الشـيوعي إلى الدول الآسيوية الأخرى في تشرين الثاني/ نوفمبر 2003، في اجتماع دولي في منتجع صيني في جزيرة هاينان Hainan، تصـوراً عن المنطقة «فتنهض مجتمعة» في سـلام وازدهـار. فرأت بعض الدول الأخـرى في لغته لهجـة هجومية واضحة، تُذَكِّر بالمطالـب المماثلة الزائفة التي طرحها مرّة الإمبرياليون اليابانيون في آسـيا، ثم طرحها بعد ذلك الجيل الأول من العقائديين الشيوعيين الصينيين.

وتلجأ الحكومة الصينية، العالمة بعَصَبِيَّة جيرانها، إلى تكرار نواياها السلمية في العَلَن. وانضَمَّت الصين، سنة 2003م، إلى الأعضاء العشرة في رابطة بلدان جنوب شرق آسيا ASEAN في إعلان اتفاقية صداقة وتعاون، فوافقت الصين على إجراءات لتفادي التلويح بالضغط العسكري في عدة نزاعات إقليمية قديمة العهد مع بلدان جنوب شـرق آسـيا. وافقت الصين أيضاً علـى إجراء مناورات عسكرية مع بلدان هذه الرابطة.

غير أن الاتفاقات تذكي الشـك والرِّيبة في أهداف الصين النهائية أكثر من أن تكْبَحَها. فالاتفاقات الإقليمية ضمن آسـيا، كالتقارب الدبلوماسي مع أوروبا، تسـاعد الصين على إقحام نفسها في عملية تستطيع في النهاية أن تضعف أثر قـدم الولايات المتحدة الإقليمي. فالصين مُسْـتَعِدَّة لأن تضغط أزراراً حساسـة تَتَعَلّق باليابان. وقد مَنَحَت بكين في أواخر سـنة 2004م شـركات التنقيب إذناً بالتنقيب عن الغاز الطبيعي في منطقة من بحر الصين الشـرقية تتاخم، أو ربما تدخـل في منطقة الاقتصـاد البحري التي تعدها اليابـان منطقة يابانية. وبعد

http://www.ibtesama.com/vb

المطالبة بالمنطقة، سارعت بكين إلى الدعوة إلى التفاوض، فأُقْحِمَت اليابان في نزاع سَيَخْتَبِر تصميمَ البلاد الصغيرة، السياسي والعسكري، ويعطي القيادة الصينية نقطة دعاية أخرى تذكي الشعور المعادي لليابانيين.

وأصبحت الصين الجائعة، في هذه الأثناء، أكبر سوق لبضائع بلدان آسيوية أخرى. فإذا استبعدت الطلب الصيني المتزايد على بضائع جنوب شرق آسيا الغنية بالموارد، وعلى منتجات عالية التكنولوجية تنتجها خطوط الإنتاج في شرق آسيا، ولا يبقى لبقية آسيا أي نمو تصديري يذكر. ويجب أن تضاهي تجارةُ الصين مع جنوب شرق آسيا، سنة 2006م، تجارةَ المنطقة مع الولايات المتحدة التي تبلغ 120 بليون دولار.

وإذا نظرنا إلى علاقة الصين بإندونيسيا، رابع بلد في العالم في كثافة السكان ويبلغ عدد سكانها 200 مليون نسمة، ولها تاريخ عداء طويل مع الصين، فإننا نلمس مدى تغير شكل الصين في المنطقة. فلقد شهدت إندونيسيا ثورات سياسية عنيفة في ستينيات القرن العشرين، ألقيت اللائمة في معظمها على الصين الشيوعية لتدخلها في سياسات إندونيسيا الداخلية وهي البلد الذي يدين معظم سكانه بالإسلام. فكانت إندونيسيا مسرحاً لتظاهرات كبيرة وكثيفة ضد الصينيين، استهدفت 1 بالمئة من سكان البلاد المنحدرين من عِرْق صيني الذين عاشت أُسَرُهُم في إندونيسيامنذ مئات السنين. ولما ظهرت الصينُ مُحَرِّكاً اقتصادياً قويّاً في جنوب شرق آسيا، ونموذجاً للتنمية الاقتصادية، لم تَخْتَفِ الهجمات التي استهدفت الإندونيسيين من أبناء العرق الصيني في السنوات القليلة الماضية.

ولم تَكُن نهضة الصين نعمةً على إندونيسيا مثلما كانت على جيرانها. فَفَقَدَت إندونيسيا كثيراً من أعمال تجارية منخفضة الأجر في صناعة الأحذية، والثياب، وخطوط تجميع المنتجات الإلكترونية التي انتقلت إلى مصانع الصين. ولم تتمكن إندونيسيا، برغم إصلاحات السوق الطموحة، من جذب شيء من الاستثمارات

http://www.ibtesama.com/vb

الأجنبية التي تَتَدَفّق على الصين. وسـمحت إندونيسـيا وشـركاؤها في رابطة بلدان جنوب شرق آسيا للصين الانضمام إلى المحادثات الإقليمية.

وإن أحد أهداف الصين، من بين كل هذه النشـاطات الأساسية هو، أن ترفع النفوذ الأمريكي عن آسـيا؛ غير أن الطريق طويلٌ أمام الصين. فللولايات المتحدة وآلتها العسكرية ارتباطات قوية في المنطقة، تتضمن موظفين بلباس نظامي يعملون في الفلبين، واليابان، وكورية الجنوبية، وحِلف مع الهند وباكستان؛ وتخطط الآن لإعادة ارتباطاتها بالعسكريين الإندونيسيين، وهم من أكبر جيوش العالم. فالمباراة الصينية – الأمريكية في آسيا صِراعٌ بطيءٌ على السلطة، لكنَّه جارٍ.

نزعات عدوانيّة

إن القومية الصينية، كما ذكرنا فيما سَـلَفَ، تنمـو موازيَةً للعَوْلَمَة الصينية. وتبدو أَبواقُ دعاية الدولة موجهةً نحو تحضير الجو لمطالب إقليمية في المستقبل، وهي مصدر دائم للتوتر الدبلوماسي.

وأمـا لهجة الصين فـي موضوع تايوان، فإن اسـتعمال القوة فيها واضح لا لَبْـسَ فيه. وقد دعم قـدرةَ الصين على متابعة هدفها المرجـو بالتوحيد نُمُوُّها الاقتصـادي، ودخولهـا القوي في الاقتصاد العالمي. فَلَم تَلْـقَ الصينُ القوية في اقتصادها صعوبةً كبيرةً في جذب دبلوماسـية العالم إلـى مواقفها. وقد جَذَبَ التقدُّمُ التكنولوجي الصيني شواطئَ تايوان لتصبح في مَرْمَى الآلة العسكرية للبر الرئيس. وتُصَرِّح الصين بحَزْم أنها على استعداد لاستعمال القوة ضد تايوان إنْ دَعَت الحاجةُ إلى ذلك. والحقيقة هي أن الصين قد حددت مجموعة واسعة من الظروف التي تُخَوِّلُها شَنَّ هجوم على تايوان، غير أن هذه الظروف غامضة حتى أنهـا تكفي لتبريـر الغَزْوِ في أي وقت. وإن من بين تلـك الظروف إعلان تايوان رسمياً استقلالها، وتَدَخُّل قوَّة أجنبيّة في شؤون تايوان الداخلية، أو قيام عصيان مَدَني في الجزيرة. وعندما احتشـدت جموع المتظاهرين الغاضبين في شـوارع

http://www.ibtesama.com/vb

تايبي Taipei في ربيع سنة 2004م بعدَ انتخابات وطنية متنازع عليها، عكست صحافة البر الصيني القلق الذي أبدته القيادة الشيوعية التي أعلنت عن تأجيل حَقِّها في غزو تايوان لإعادة النِّظام.

وإن التصريحات التي تميل أكثر إلى القتال تَظْهَر عادة في الصحف الناطقة بالصينية، وصارت البلاد مؤخَّراً تُقَعْقِعُ بالسيوف على صفحات الطبعات الإنجليزية من جريدة تشاينا دِيْلي China Daily؛ فقد جاء في زاوية صوت القراء أن «أمريكا تملك القدرة الصناعية وتملك اليابان التفوُّق التكنولوجي إلى جانب المال لتحسين نظام دفاعها الصاروخي النَوَوي خلال السنين العشر القادمة. وعندما يَتِمُّ لهم ذلك، فسوف يَجِدون ظَنّاً من الأسباب التي تدعوهم للهجوم على الصين. ومهما رَجَوْناهم الحِفاظ على السلام في عالمنا فلن يستجيبوا أبداً». وجاء كلام في زاوية رأي، رداً على أقوال جاءت من تايوان في تشرين الأول/ أكتوبر سنة 2004م. «إن وعد الصين /بالنهضة السلمية/يعني أنها عندما تكون قوية بما يكفي لتأخذ جميع الكرات الزجاجية فإنها لن تتصرف تصرف المُهَيمن وستكون مُنْصِفَة في تعاملها مع بقية أبناء البشر. وحتى في ذلك الوقت، فإن الصين ستستمر في التصرف كعضو مسؤول في المجموعة الدولية، تُعامِلُ الدولَ، غَنيها وفقيرها، وكبيرها وصغيرها، أَسْوَدَها وأَبْيَضَها بالتساوي».

عَـزَفَ الكاتب على نغمة تذكر بالنثر الدعائي المُنَمَّق في مرحلة ماو، ومضى في خطابه إلى القول: «على المرء ألا يخلط بين وعد ينبئ بحسن النية وبالنهضة السلمية، وبين المواقف الجبانة وغير المبدئية التي تفشل في مقاومة عدوان يشنه عدو متفوق تكنولوجياً والسماح للغازي باختيار الزمان والمكان لمواجهة عسكرية استباقية. وهكذا، فإنه تفكير مشَوَّش وكلام ملَعْثَم «ضرب لكي يعطى اسم مغال في القومية لادعاء الصواب هذا».

وترى وزارة الدفاع الأمريكية، في تقييمها لقوة الصين العسكرية الذي أجرته سنة 2004م، في تصعيد الضغط على تايوان دليلاً على ثقة الصين الزائدة في قدرتها على النجاح في الاستيلاء على الجزيرة إنْ هي قامت بتلك الخطوة.

http://www.ibtesama.com/vb

وثَمَّة بعض من أسباب عَمَليَّة تدعو إلى الاعتقاد بأن الصين الأغنى ستصبح أكثر توكيداً لأهدافها. وتبني الصينُ شبكةً عالميةً من شركات التعدين والنِّفط، وسوف ترى الحاجة إلى ضبط الطرق البحرية العالمية التي سيسير فيها ما تحمله السفن من سلع غالية. وسرعان ما تصل خطوط أنابيب النِّفط الجديدة إلى الصين من تايلاند، ومن روسية، وسيتطلب ذلك منها تصميماً على أن تضمن أن هذه الخطوط لن تُقْطَع لأسباب سياسية.

ولن تؤدي زيادة قوة الصين على الساحة الدولية، بالضرورة، إلى توسع أطماعها العسكرية، أو دفعها إلى مواجهةٍ مع الولايات المتحدة. فالدبلوماسية البارعة تستطيع أن تُدْلي بِدَلْوِها لِتَحُول دون اندلاع حريق. وإن اعتماد أحد الاقتصادَيْن الصيني والأمريكي على الآخر سيؤدي حتماً إلى خلق مُرتكزات قوية للتَّعَقُّل. غير أن الرشاد السلمي قد يكون له تَبِعات مهمة. فبينما تُساعِدُ قُوَّة الصين الاقتصادية الجديدة على اكتساب قوة جيوبوليتيكية - علم السياسة الطبيعية -، فإن قوتها السياسية النامِيَة وحُضورُها الاستراتيجي يُعِيقان قدرة بقية العالم على إجبار المنافسة الصينية للرضوخ على أرضٍ اقتصادية مستوية.

وقد يرى الفرنسيون مصالحهم مع الصين أعمق مما هي مع الولايات المتحدة في هذه السنة، وقد تختار الولايات المتحدة أن تستخف بفرنسا لصالح ارتباطاتها الخاصة بالصين. فهل تقضي مصلحةُ فرنسا الاقتصادية حقّاً أن تستعمل الصينيينَ ضد الولايات المتحدة؟ وهل من مصلحة ألمانيا أن تضع ثِقَلها كلَّه في المنافسةِ لكي تَكسب التجارةَ مع الصين وتحول دون أن تفوز بها اليابان؟ فالتنافس العالمي على رضا الحكومة الصينية يعني أنه لن يكون ثمَّة جبهة موحدة لسيادة القانون، والالتزام بمنظمة التجارة العالمية، أو فرض عقوبات ضد حكومة تجبر الشركات على تحويل براءات اختراعها. ولن يكون جهد يمكن تشغيله للضغط على الصين في قواعد البيئة، وحقوق العمال، أو ربما في أطماعها الإقليمية.

http://www.ibtesama.com/vb

وطالما ترتهن الصين بلايين العالم في بَرِّها الرئيس، وتُسَخِّر حكومات العالم وأعماله التجارية لخدمة رسـالتها، فهل يتَوَقَّع التايوانيون، مثلاً، أن يطلق بلدٌ ما مِدْفعاً لصالحهم إذا قررت الحكومة الشيوعية غَزْوَهُم؟ هذا أمرٌ يُشَكُّ فيه. وكم سيعَضُّ الصينيون أطراف منطقة الفلبين، أو إندونيسيا، أو كورية الجنوبية، أو اليابان قبل أن تتحرك السفن الحربية الأمريكية أو الأُوروبية؟ فبينما نَجِدُ تَنافس الدُّوَل الأُخرى على مزايا اقتصادية وسياسية تُكسِبُهم صفقات وأصدقاء صينيين، نرى الصين تُعَزِّز قوتها المخيفة، وتدعمها بدولارات الاستثمارات الأجنبية، وأفضل تكنولوجيا في العالم، وقوى إستراتيجية جديدة. لا تواجه الصينُ صعوبةً تُذكَر في وَضْع قواعد اللعب، ولاتواجه صعوبةً في خَرْقِها.

الطبخ على الغاز

وتُوَظِّف الصينُ ثَرْوَتَها الوطنية بطرق قد تأخذ المنافسين على حين غرّة. فقد نَشَرَت صحيفة تشاينا ديلي قصة في أيلول/سبتمبر 2004 كان عنوانها «البرُّ الرئيس الغنيُّ بالنقد والفقير بالسّلع في فورة التسوق» أعلنت فيها عن بداية «مسيرة تَمَلُّك في ما وراء البحار تُغَذّيها احتياطياتٌ ضخمةٌ بالقطع الأجنبي، وحاجة إلى الحفاظ على الموارد الطبيعية». ويصف مقال الصحيفة الحكومية استعمال احتياطي الصين من الدولارات الأمريكية الذي يبلغ 500 بليون دولار صندوقاً حربياً لاكتساب الشركات الأجنبية، وبخاصّة شركات الموارد والسلع. فقالت الصحيفة: إن الشركات الصينية التي تملكها الدولة أنفقت 5 بلايين دولاراً على الأقل على حقول النِّفط والغاز في السنين العشر الماضية، ووظفت 550 مليون دولار أُنفقت مؤخراً للاستيلاء على مصفاة نِفْط كورية جنوبية دليلاً على استعداد الصين الجديد لشراء شركات كاملة في الخارج.

وتابع المقال وصفه لمقدار المال الذي سيكون عند شركات الحكومة الصينية إذا ما وضعت قوائم مشترياتها، فقال: «عند شركات البر الرئيس سيولةً نقديةً

http://www.ibtesama.com/vb

كافية لتجني 10 بلايين دولار أكثر من منافسيها، وهذا مبلغ يكفي لشراء شركة مثل وودسايد بتروليوم Woodside Petroleum، وهي أكبر شركة للنفط والغاز في أُستراليا، وشركة أنُكال أند ديفون إنِرْجي الأمريكية Unocal and Devon Energy of the United States، «وتبحث شركة بتروتشاينا Pet- roChina، في هذه الأثناء، عن موجودات النِّفط التي تملكها إنْكانا EnCana، وهي أكبر شركة كنديَّة للتقيب عن النِّفْط والغاز في إكوادور، وتقدر أُصولُها بأكثر من 1.5 بليون دولار أمريكي. فالمال لايُشَكِّل عقبةً لشركة بتروتْشايْنا، التي جَنَت 8.5 بليون دولار أرباحاً في السنة الماضية». وتَبِعَ سياسةَ التجريب التي نَتَجَ عنها إصلاحٌ اقتصادي مع مرور الزمن، دُخول الصين مياهاً دولية مشتركة بتَصْميم قبل أن تَخْطُوَ خطوات أكبر. وقد اشترت شركةٌ صينيةٌ وَحْدَتَي طاقة كبيرتينٍ في أستراليا، ويَهْدف الشراءُ إلى معرفة سوق إمداد الطاقة المنافس.

وسيبقى اقتصاد الصين هجيناً من شركات خاصة وشركات كبيرة تملكها الحكومة في صناعات أساسية كتوليد الطاقة، والتنقيب عن الموارد، والنقل، وصناعة الشاحنات والسيارات، وشركات كبيرة تابعة للقطاع الخاص بارتباطات معقدة لا سبيل إلى الخلاص منها مع مسؤولين ووكالات حكومية. وستَسْتَمر الشركات الصينية ذات الارتباطات بالحكومة في اعتمادها على موارد الحكومة اعتماداً لا تضاهيه أكبر شركات القطاع الخاص العالمية.

وقد ساهم سيل الأموال من مصارف الصين، في الماضي، في تمويل الشركات المحلية العملاقة وتلتفت هذه الشركات الآن إلى اقتناء الشركات الأجنبية. حيث قدم اتحاد مالي لشركات تدعمها الحكومة الصينية عرضاً غير عادي قيمته خمسة بلايين دولار لشراء نوراندا Noranda وهي أكبر شركة تعدين في كندا، في أواخر سنة 2004م. وتضم المجموعة المالية عدة شركات تملكها الحكومة تسمح بنيتها بمقايضة شركات تبلغ ضعف الحجم، وتبقى الدولة الشريك المسيطر. وتضم المجموعة باوستيل Baosteel، وهي عملاقة تُقَدّر بعشرة بلايين دولار

http://www.ibtesama.com/vb

وهي رابع شركة عالمية للفولاذ، وجيانكزي كوبر Jiangxi Copper، وهي أكبر شركات الصين في تنقية النحاس. وتستطيع المجموعة المالية الوصول إلى أسواق رأس المـال الأجنبـي العالمي مع بقاء ارتباطاتها بالمصـارف الصينية الحكومية. وتسـتطيع شـركات التعدين العالمية الأخرى، نحو عملاقـة النحاس الأمريكي فلبس دُدْج Phelps Dodge الحصول على المال بالطريقة التقليدية فحَسْـب، بتبرير استثماراتها للمقرضين وأصحاب الأسهم من القطاع الخاص.

وليست الإستراتيجية الصينية ناجيةً من الأخطار. فقد يجد الشعب الصيني نَفْسَـه مُرهقاً بعبء موجودات دَفَعَت شـركاتُه العامة أكثر من قيمتها الحقيقية. وتسـتطيع هنا فَوْرَةُ الشراء من شـركات التعدين التي ترعاها الحكومة، فتعطي الصينيين القوة لتحديد الأسعار في السوق الدولية، وضمان إمداداتها الخاصة. وقـد كان في الاندفاع الذي شـهدته سـنة 2004م على سـوق الأوراق النقدية الكندي، حيث تم تمويل نصف استثمارات شركات التعدين في العالم، مؤشّراً إلى أن الصين تتجه نحو التبذير والصخب في الشـراء. ولم يقف الأمر عند تحليق أسـعار الأسـهم، بل اندفعت شـركات التعدين من جميع أرجاء العالم لتسجيل أسهمها ترقباً لازدهار متوقع سَبَّبَتْه هَجمة الصين.

وقد تجد الصين ذات الاقتصاد الكبير التي ما زالت ذروةً للأجزاء المحرومة أسباباً – بعضها اقتصادي وبعضها سياسي – لتتبع القوى الكبرى الأخرى وتعزِّزَ جيوشـها. فإذا لم يُؤَدِ اندفاع الصـين إلى إنفاق بعـض احتياطيها الهائل على الشركات والموارد الأجنبية إلى تحويل الصين إلى الشركة الاقتصادية التي تنوي الحفاظ عليها، حتى وإن فعلت، فإن الصين قد ترى الحاجة إلى إنفاق مزيد من أموالها في سوق السلاح العالمي.

إن نهـوض الصين يعني أن على العالم أن يعتـاد وجود قوة اقتصادية كبرى مختلفة. قوة تملك عدداً هائلاً من الناس هم أفقر من أولئك الذين يعيشون في بلاد تَفَوَّقَت الصين عليها. فإن ارتفاع المسـتوى الوطني للمعيشـة في بلد كهذا،

http://www.ibtesama.com/vb

مهما صغر، سيؤدي إلى تغيير هائل في حجم الاقتصاد الوطني.

ويُمكن سرد الحكاية بالأرقام كما هي العادة. تستطيع الولايات المتحدة اليوم أن تقول إنها أعلى البلاد دخلاً وأكبر البلاد اقتصاداً في العالم. أما إذا كان لدخل الفرد في الصين (معياراً يقاس بتعادل قوة الشراء) أن يتضاعف بين عشية وضحاها، فإن حجم اقتصاد الصين سيفوق من فَوْرِه حجم الاقتصاد الأمريكي. وستبقى الصين بلداً فقيراً جداً؛ وسيبقى دخل الفرد فيها يعادل دخل الفرد في بُتّسوانا Botswana، ويعادل ربع دخل الفرد في أمريكا. أما إذا ارتفع دخل الصينيين إلى نصف دخل الأمريكيين، وهو مستوى المعيشة الذي يصبو الصينيون إلى الوصول إليه في يومٍ ما، فإن اقتصاد الصين سيزداد ضعفين ونصف على الاقتصاد الأمريكي.

إن مستقبل مستوى الصين وثروتها النسبية يَجِلّ عن الفهم اليوم.

http://www.ibtesama.com/vb

الفصل الثاني عشر

قِصَّة أخيرَة

فَلْنَعُد إلى سوق دونجتاي Dongtai المزدحم في شنغهاي، ونَجِد عائلة لي Li تنتظر أخباراً عما إذا كان امتداد التغيير سيصل إلى دكاكينهم فَتُزال بالجرافات لبناء مجمع أسواق mall آخر، أم سيبقى ويُجَمَّل التزاماً بالمحافظة على بعض سِحْر جمال المدينة القديم. ومهما يكن مصير السوق، فإن عالم باعة التحف القديمة يبرُز ليَفرض نفسه في كل اتجاه لإعادة تشكيل الصين. وتُذَكِّرُنا الدكاكين الصغيرة بأن المد التاريخي الذي يُنْشئ شركات صينية عملاقة ويُجبر أكبرَ شركات العالم على إعادة النظر في استراتيجياتها العالمية يعيد النظر أيضاً في حياة أصحاب الدكاكين الصينيين والأمريكيين البعيدين عن أبرز أوجه نهضة الصين.

يوجد بعدَ بضعة مخازن من دكان أُسْرَة لي المزدحمة مكانٌ أصغر يضم مجموعة أصلية من المُقتنيات، وأشياء أُخرى مقلَّدَة. إنه دكانِ أُسْرَة زهاي Zhai من مقاطعة هِنان Henan. يَؤُم دكان زهاي بين عشرة و اثنى عشر زائراً أجنبياً كل يوم. ويرتاد آرون شِرْشوAaron Shershow وهو أمريكي مقيم في شنغهاي، الدكانَ بانتظام. ولا يبدو على شِرشو ما يميزه عن سواه من الغرباء الذين يجوبون شنغهاي،. ويتلَفَّت حوله كما لو أن ثمَّة جديدة عليه، أو كما لو أنها قد تزول غداً. إن شِرشو رجل معتدل القامة في منتصف عقده الثالث، يرتدي قبعة بِيْسبول فوق شعره الأسود المُجَعَّد، ويسير مسترخياً وقد أدخل يديه في جيبيه كأنه يقتل الوقت في أحد مولات الضواحي الأمريكية.

غير أن تَسَكُّعَه ليس دون هدف. فأصحاب الدكاكين في دونجتاي يُدركون أنّ شِرشو يتَفَحَّص بضاعتهم بعناية، ويُدركون أنه سيكون زبوناً محتملاً في يوم

http://www.ibtesama.com/vb

من الأيام. وشِرشـو هذا صديق كثير من الباعة الذين يألفونه بسرعة. لقد تَعَلّم الأمريكي لغة المَنْدَرين الصينية في مدرستـه الثانوية في مَسَتْشُسـتْسMassachusetts، ثم في الجامعة، وفي سنة أمضاها في تايوان. ويتَكلّم اللغة بلكنة بسيطة وابتسامة دافئة، مُركِّزاً على كل كلمة يقولُها حتى يطمئن على صحَّتِها. ويجمل حديثه إيماءات بين وقت وآخر، نحو، «أَجَل»، «فَهِمْتُ»، و«هذا رائع». وقد تَعَلَّم لغة شنغهاي أيضاً، فيدهش أهلها بذلك ويفتح أمامه سبل التواصل.

ويحب شِرشو الصينيين، ويظهر ذلك واضحاً من علاقته بهم. فالموضوعات الاقتصادية والجيوبولِتيكيّة تبدو هراء بعيداً لا علاقة لها بحياته في شـنغهاي. وتتلخـص اهتماماتـه في حياته الاجتماعيـة وأعماله اليوميـة. فهل يلتقي مع أصدقاء على العشـاء في حانة أثيرة؟، أم يتباهى بمطعم فرنسـي جديد؟ وهل يُقْدم صاحب بيته على بيع البيت الذي يسـتأجره شِرشو في شنغهاي لمن يرغب في شـرائه وتَرميمه؟ وأنّى له أن يكسب مزيداً من المال دون أن يفقد صوابه في السباق الصاخب على الكسب في هذه المدينة؟

وقبل أن يسـتقر شِرشـو في شـنغهاي كان يعمل في هوليود. ثم انتقل إلى الصـين لينضم إلى فرق مشـاريع إنتاج الأفلام الغربيـة التي جاءت إلى الصين للتصوير. ويتَمَتَّع شِرشو بمقدرته على إحضار فرق عمل أمريكية وصينية للعمل معاً حَسـب التواريخ المقررة، وقد أنتج عدة مسلسـلات تلفزيونية كبيرة وأفلام في شـنغهاي. وله فريقه الخاص من النَجّارين، وجميعهم من قرية ريفية واحدة في الصين، يستطيع أن يُطْلِقَهم لبناء دعامة ما. ويُقْسِم أنهم يتمَتَّعون بمهارة أي نجار في هوليود، ولا يكلفون شـيئاً مما يكلفه الحرفيون في كاليفورنية. غير أن العمل في الأفلام ليس فيه شـيء من الثبات. فقد نَضَبَ مَعينُه تماماً بعد اندلاع السـارس SARS سـنة 2003م. وإن الأعمال الجديدة فـي الصين هي مجرد فكرة وبضعة دولارات، فقد جاء شِرشو بخطة بديلة يربط نفسه بها، فبدأ عمله التجاري الصغير بالبيع على الإنترنت.

http://www.ibtesama.com/vb

انضم شِرشو إلى صديق في لوس أنجِلِس، فاختار عدة سِلَع من أسواق شنغهاي وعرضها للبيع على موقعه على الإنترنت. إن السِلع التي اختبرت بعناية كانت سلالاً تقليدية، وملابس عسكرية، ونسخ صينية من كتب تان تان Tin Tin المُصَوّرة (وهي نسخ مُقَرْصَنَة من سبعينيات القرن العشرين وثمانينياته، أعاد الشيوعيون صياغتها كاملة لإظهار تان تان، الصبي البلجيكي البورجوازي والمُخْبر السري، فحولوه إلى أداة للصراع الطبقي). ولعل الغريب في الأمر أن النسخ الصينية من كتاب فن الحرب The Art of War تباع بيعاً جيداً أيضاً.

كَبُرَت تجارة التصدير فصارت مشروعاً صغيراً يعكس الاقتصاد الصيني. فوظف له شِرشو مديراً محلياً، هو صديقٌ لهُ صينيٌّ يُنسِّق أعمال الشراء الكبيرة وأسعار الشحن، حتى وظفَ لذلك عاملاً مهاجراً يأتي كل يوم لِيُعَلّب كميات كبيرة من البضائع ويعِدّها للشحن إلى لوس أنجِلِس، ليستلمها هناك صديقٌ آخر ثمَّ يشحنها إلى الزبائن الذين اشْتَرَوا السلع على موقع الإنترنت. أما العامل المهاجر، فهو صبي مُزارع في العشرين من عمره، تُغبِطُه فرصة تَعَلُّم استعمال الكومبيوتر الشخصي فهو لايتوانى عن تنفيذ أي مهمة يكلف بها.

وقد أقنعه (أي شِرشو) مديرُهُ بأن يعرض للبيع أوعية حفظ حرارة الشاي thermos التي تصنع في بلدتة. فالأوعية الدارجة في الصين هي أباريق جميلة من الأكريلِك المُزَيَّن، لها فتحات في غطائها يمكن أن تُملأ منها بأوراق الشاي ويُعاد ملؤها بالماء الساخن طوال اليوم. وتبقى الأوراق في مكانها، وينساب الشاي من الأعلى. وليس في المخازن الأمريكية مايُشْبِه ذلك. وانتشرت هذه السلعة على موقع الإنترنت انتشارَ النار في الهشيم، وتملأ شركة شِرشو حاويات شحن كاملة بأوعية الشاي وسواها من السّلَع للمُشْتَرين الأمريكيين.

ولاحظ شيرشو مؤخّراً أن جميع أصحاب المتاجر في سوق دونجتاي يتّصلون الآن بموقع eBay (وهو موقِعُه). وإذا مررت بالشارع ترى أصحاب المتاجر يجربون حظهم أيضاً على موقع eBay. ويقول شِرشو «إنهم يُعَلِّبون البضائع

http://www.ibtesama.com/vb

في علب من ســتيروفوم styrofoam ويثبتون عليها عناوين المشترين عبر موقع الـ eBay « في قائمة جرد أعدت خصيصاً لباعة الموقع، والمنافســين المحتملين. فوجد شِرشو 56.000 سلعةً يعرضها باعة في الصين، ووجد أن 31.000 سلعة منها من القطع الأثرية. ويعرض ألوف الباعة في الصين أجهزة كومبيوتر أيضاً، وقطعًا إلكترونية، وآلات موســيقا، وسيارات، وأجهزة دي في دي رخيصة الثمن، وساعات مُقَرصَنَة، وعقارات أيضاً.

ويُشَــكِّل الباعة الجدد مشــكلة لعمل شِرشــو. إذ يجد شِرشــو مستثمرين منافسين يظهرون أنفسهم تحت أعماله، مثل صانعي قطع السيارات والجذاذات فــي العالم الذين يواجهون قرصَنَةً باســتمرار. ويصعب إخفاء النجاح عن عيون الآخريــن على موقع مبيعات الإنترنت. فإذا وجد مشــروعه التجاري منتجاً يبيع بيعاً رائجاً، يدرج باعة الصين السِلع ذاتها على قوائمهم وينقلون اللغة التي أجهد شِرشو نفسه في تنميقها ليجلب الأنظار والاهتمام إلى سلعه. ويُعْلِن باعة الصين كثيراً عن نماذج رديئة دون أن يشيروا إلى رداءتها.

وبرغم ذلك، فإن شِرشو يرى أن فريقه يستطيع أن يبقى مُتَقَدّماً على المُقَلّدين بسهولة، باختيارهم سلعاً أفضل تنســجم أكثر مع الذوق الأمريكي، وبخاصّة ما يَتَمَيّزون به من طلب لمُقتنيات غير عادية. لم يســتطع أي بائع في الصين بَعْدُ أن يدرك انتشار سوق تان تان، فعندما يَسأل أحدُ باعةِ دونجتاي شيرشوَ عن سُبُل التعامل مع موقع البيع فإنه يُرشِــده، ليحافظ على صداقاته في ذلك الشــارع، وليَطّلِعَ على ما ينوي الباعة عمله.

إن طلباً كهذا هو الذي قاده إلى غرفة في دَوّرعلوي، حيث عَرَفَ زهاي منج Zhai Ming ابن أُســرَة زهاي الذي يبلغ الرابعة والعشرين من عمره، فهو يُدير أعمال العائلة الدّولية. اســتقبل زهايُ منج شِرشوَ لابِساً كنزة وربطةَ عُنُق، وقد دهن شــعره بدهنٍ عطري ومَشَّطه إلى الوراء. كان يتحدث بصوتٍ خافتٍ ومزاج مُنْفَعِلٍ كأن الأمريكي طبيب أتى ليعوده وهو على فراش المرض.

http://www.ibtesama.com/vb

وينظر شِرشـو إلى المكان، فهو يبدو لِعَيْني أمريكـي غير خبير مثل كوخ من الطين في المسيسـبي، حُشـدت فيـه أدواتٌ مكتبية أنيقة. غير أن شِرشـو يرى مـا هو أكثر من ذلك؛ إنه يرى في شـقة زهاي بداية غيـر متواضعة، وإنما هي خطـوة كبيرة نحو النجاح قد انطلقت من بداية أكثر تواضعاً في المقاطعات. لقد اضطرت الأُسرة إلى تقديم تضحيات كبيرة لكي تحقق تصميمها على شراء أجهزة كومبيوتر، ويرون مستقبلهم مُرتبطاً بما يستطيع زهاي أن يفعل بتلك الأجهزة.

ويدخُـلُ زهـاي يونج، والدُ زهاي منج بعد دقائق من وصول شِرشـو لإلقاء التحية. جاء الأب إلى شـنغهاي سـنة 1992م بعد أن أمضى عمره في الجيش. وربما كان حالُه أفضل لو أنه لم يقع بين نيران سياسـية بعد احتجاجات سـاحة تيانانمِن Tiananmen. كان الرجل جندياً مكلفاً بحراسـة رئيس وزراء الصين السـابق زهاو زيانج Zhai Ziyang، الـذي كان من مقاطعة هينان أيضاً. كان لرئيس الوزراء السابق سيرة متميزة في السنوات الأولى من حكم ماو ثم ما لبث أن اضطُهِد أثناء الثورة الثقافية. ومضى ليصبح إصلاحياً محبوباً، وشـغل عدة مواقع حكومية دافع منها عن التغيير الاقتصادي والسياسي. أثَّرَت سياساتُه التي وضَعها كثيراً على تحول الصين إلى اقتصاد السوق، وتدين ثروة البلاد الجديدة بالكثيـر لرُؤيته. ونادى القيادة الصينية إلى الدخول في حوار مع الطلاب الذين يحتلـون سـاحة تيانانمين، في قرار مصيري. ففقد مناصبـه، ووُضع في إقامة جبرية في منزله، وبقي تحت الراقبة منذ ذلك الوقت.

أما في الصين، حيث تسـتطيع الارتباطات العسـكرية والسياسية أن تفتح الطريق إلى الثروة والسـلطة، فقد كان أُفُول نجم رئيس الوزراء السـابق ضربة لأُسْرَة زهاي. أومأ شِرشو متفهماً عند سماعه قصةَ الجندي السابق، مشيراً إلى معرفة أعمق بما لم يَقُل. وبرغم أن أفراد أُسْـرَة زهـاي المتواضعين لايتحدثون عن أثر التغيير السياسـي على حياتهم، ويفضلون التركيز على نجاحهم في بناء تجارتهم الصغيرة، تَبْقى رغبة الأُسْـرَة قوية بالنجاح في نظام أعادهم إلى الوراء

http://www.ibtesama.com/vb

ولم يســمح لهم بمكان يَغْتَنون فيه. وثمّة تفاؤل في الصين أيضاً يتحدى الدولة، إنـه تفاؤل يرى الناس فيه نجاحَهُـم نصراً برغم خيبات الأمل التي أصابتهم بها الصينُ الرسـمية. فالقطاع الخـاص في الصين مليءٌ بأشـخاص دفعوا الكثير ليُثْبِتوا أنهم يستطيعون التَغَلّب على سطوة الدولة.

ثم يسـأل شِرشو عن المشـروع. إنّه يُدارُ كلُّه بواسطة جهازي كومبيوتر من صُنْع محلّي موصولين بمعدات شـبكة صينية الصنع إلى الإنترنت بتردُّدٍ واسـع. وإن المكتب لايمكن الوصول إليه إلا بِتَسَلُّق سُلَّم خارجي مُتَداعٍ، إلى جانبه أنابيب يقطر منها الماء، بقُرب غرفة نوم زهاي قصة الجنديٍ السـابقِ وزوجه وطفلهما. وتـرى جدرانه المتداعيـة قد أُلْصِقَت عليها أوراق تقـاويم قديمة كورق جدران، ورأى ثياب الأسرة مُعَلَّقةً في كل مكان على حبال ومسامير غُرِسَت في الجدران. ويجلس شِرشو على ركام من أغطية تعلو سريراً يستعمل مقعداً. وترى زوج زهاي منج مدفونة تحت لحافٍ، فتستيقظ وتُحَدِّق به.

ويسألُ شِرشوُ زهايَ منج: «ما رأيك بالإنترنت؟».

ويأخذ الشـاب نفسـاً عميقاً ويرفـع يديه في الهواء وكأنه يشـير إلى أمرٍ عظيم، ويقول:

«إنه عالـم جديد عليّ، لقد كان عالمي قبلَه يقتصر على دكان الأُسْـرَة ومن يحيط بنا من أصدقاء وأقارب. لم تَتَوَفّر لي فرصة من قبل أكتشف فيها ناس من أصقاع بعيدة أو ألقاهُم. فأنا أتصل اليوم مع آخرين من بلاد مختلفة من العالم». ثمّ صمَتَ قليلاً ليتمكّن من وصف أثر ذلك عليه.

وأردف قائلاً: «كأني أرى هذا العالم الغريب كلَّه ينكمش ضمن هذا المكان». ويقول زهاي منج إنه يقضي سـاعات طوال أمام الكومبيوتر فَسِـحْرُه أشَدُّ من أن يسـتطيع إقفاله. ويقول إن بعض زبائن الإنترنت يريدون أن يصبحوا أصدقاء لنا. وثمّة سـيدة من أُستراليا تكتب سائلة عمّا يشعر به عن الصين وعن حياته.

http://www.ibtesama.com/vb

ويضيف قائلاً، إنه يتردد في أن يستفيض في الحديث، وإنه يشعر بِحَرَج لعدم تمكُّنه من الإنجليزية، فيعتمد على القواميس وعلى موقع يترجم الصينية والإنجليزية، غير أنه يجيبها من قلب يشعر بالخوف من أن يؤذي شعور المرأة إن كان شديد الخجل.

لقد شَقَّ زهاي منج وزوجُه طريقَهُما بصعوبة، وبالاستعانة بقاموس إنكليزي-صيني ليكتشفا كيف يستطيعان تصميم موقع بيع على موقع مبيعاتeBay، وكيف يتقاضيا مستحقاتهما ببطاقات الاعتماد، وهي جديدة في الصين، ولا غنى لهما عنها للمبيعات الدولية على الشبكة.

وَضَعا في الليلة الأولى عشرَ سِلَع للبيع، فباعا أربعة. فأدركا، من تجربتهما، أن الإنترنت سمحت لهما بإبقاء مخزنهما مفتوحاً طوال الليل، وأتاحت لهما حرية الوصول إلى ٦٠ مليونًا من المشترين الذين يزورون الموقع يومياً. وإن جزءاً بسيطاً جداً منهم يشترون مُقتنيات صينية، غير أن تلك الفئة القليلة ربما كانت أكبر جمهرة من المشترين في العالم وأكثرهم اندفاعاً.

إن بناء زهاي منج المتداعي هو معرضهم. إنهم يبيعون خُمس السلَع التي يعرضونها على موقعهم، وإن خُمسي الذين يشترون فقط يُسَدِّدون قيمة ما يشترون. من المشترين الملتزمين بالشراء، اثنين من خمسة فقط هم الذين يدفعون. ويشكُّ الزوجان زهاي بحسن عرضهما، وقد طلبا من شِرشو المساعدة.

ويجلس شِرشو أمام أحد أجهزة كومبيوتر زهاي ويتَفَحّصها بفُضول. لقد وجد عندهم كل البرامج التي يحتاجون إليها لتصميم صفحات مواقع شبكة جميلة لعرض بضاعتهم. ومن ضمنها جميع النسخ الأخيرة من البرامج التي تشغل كل كومبيوتر تقريباً، وفيها برنامج إدارة مزاد الذي يتابع الأعمال وجرد الموجود على موقع المبيعات. ويرشِدُ شِرشو الشابَّ إلى أفضل سبيلٍ لتنظيم مبيعاته والإفادة من البرنامج. ثم يسحب شِرشو مواصفات مصباح زيتيٍّ صينيٍّ

http://www.ibtesama.com/vb

قـديم. إن اللغـة الإنجليزية – لغة المَوْقِع – لاتكاد تُفْهَـمُ، وإن المواصفات مُبالغ فيها، وربما تُثير شَـكًّ من يشـتري. وإن التعريف بأُسرة زهاي يحتاج إلى بعض التعديل. ويمضي شِرشو في التعديلات الضرورية.

ويسأل شِرشو خلال عمله زهايَ منج إن كان عنده شكاوى من الكومبيوتر. ويجيبـه زهاي، لا، ويتابـع مفتخراً، إن جميع ما عنده مـن تكنولوجيه صُنِعَ في الصـين، وإن معظمه قـد صُنِع في الجوار. ويقول، إن أسـعار المعدات تنخفض باستمرار. إن معظم المعدات التي يستعملها زبائن زهاي منج مصنوعة في الصين أيضاً، وإن أسعارها تنخفض أيضاً.

إن انتشـار التكنولوجية الصينية ذات الأسـعار المُحْتَمَلَـة يفتح العالم أمام أفـراد في الصين مثل زهاي منج، ويحوّل طرق البـلاد في إنفاق المال والوقت. ويصـل زهاي منج إلى ما وراء الصين، بمتابعته عملَ الأُسـرة ليلاً عندما يكون المَتْجَر مُغلقاً، وبالاتصال بأصدقائه الجدد في جانب الأرض الآخر، حيث العقول محكمـة، وحيث يعتمد مصير الأُسـرة على حالها الاجتماعي المحلي. يُجَسِّـدُ شِرشو الجانب الآخر.

إن جميـع أنواع الاتِّصالات تؤتي أُكُلها في الصين اليوم. ففي كوخ دونجتاي المتداعي، الذي لايبعُد كثيراً عن ناطحات السـحاب المتوهجة المليئة بالشـركات الغربية والصينية، ترى أسرةُ زهاي حياةً جيدة يجري الإعدادُ لها.

ليست شركات الصين الكبيرة ومخططات حكومتها الكبرى، فقط، هي التي تُغَيِّر العالَم. فالتغيير يأتي أيضاً من مئات ملايين المشـاريع المتواضعة التي تصل إلى أعمـاق الصين لتصنع ما يريده العالم. وربما نتذكـر أن أمريكا غَدَت قَوِيَّة بالمشـاريع التي قام بها مهاجروها الذين جـاؤوا بالقليل، والذين بدأت أحلامُهم الأمريكيـة ببيع سِـلَع يحملونها على عربات، وفي حقائب سـفر. وكذلك بدأت معظم أحلام الصين أيضاً، لقد بدأت بوسائل متواضعة.

إن هذه الأحلام هي اليوم أقوى قوة في العالم.

http://www.ibtesama.com/vb

http://www.ibtesama.com/vb